

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة-الجزائر



من أعلام قسنطينة^s

في إطار قسنطينة عاصمة الثقافة العربية

بمناسبة تخرج الرفعة التاسعة والعشرين
28 رمضان 1437 هـ - 03 جويلية 2016 م

معلومات الاتصال بالجامعة:

عنوان الجامعة:

ص ب 137 شارع قدور بومروس - قسنطينة - الجزائر

الهاتف:

031.92.21.34

031.92.21.99

031.92.26.94

031.92.26.95

الفاكس:

031.92.21.79 — 031.92.21.41

العنوان الإلكتروني:

E-mail: pédagogie@univ-emir.dz

موقع الجامعة في شبكة الانترنت:

www.univ-emir.dz

الرفعة التاسعة والعشرون

من أعلام قسنطينة

في إطار قسنطينة عاصمة الثقافة العربية

المشرف العام:

• مدير الجامعة الدكتور سعيد وراحي

رئيس لجنة القراءة والتحكيم:

• الأستاذ عزيز حدادو

لجنة القراءة والتحكيم:

• أ.و. إسماعيل سامعي

• أ.و. علاوة عمارة

• أ.و. كمال لدرج

• و. أحمد عبرلي

• و. عبر الناصر بن طناش

• و. رياض بن الشيخ الحسين

المشرف التقني:

• السيدة صبرينة علاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا
اللَّهِ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ
مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبَرِيلًا ﴾

سورة الأحزاب: 23

كلمة السيد مدير الجامعة

الدكتور السعيد دراجي

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

يقول تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا قَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: 23).

تشرف جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بتسمية دفعة الطلبة المتخرجين التاسعة والعشرين لهذه السنة الجامعية 2015-2016 بإسم: "من أعلام قسنطينة في إطار قسنطينة عاصمة الثقافة العربية" (أفريل 2015 - أفريل 2016) تخليدا لعلماء ورموز وقامات علمية لمدينة العلم والعلماء.

ومهما كتبنا وعددنا أعلام قسنطينة لن نستطيع أن نوفهم حقهم وندمجهم في كتاب واحد، بل كل واحد منهم يسع كتابا أو كتب لوحده. لأن قسنطينة مدينة ولوده أُنجبت كثيرا من الفطاحل الذين تركوا بصماتهم في تاريخها المجيد، وحفظوا بأقلامهم الحياة الثقافية والفكرية لهذه المدينة.

إن هذا الكتاب الذي دأبت الجامعة على إنجازها كل نهاية سنة جامعية تكريما لدفعة الطلبة المتخرجين في مختلف تخصصات الجامعة، من قبل نخبة من الأساتذة. إنما هو لفتة اعتراف وتقدير وتمجيد لثلة من علماء قسنطينة أفنوا حياتهم في خدمة العلم والمعرفة في مجالات مختلفة في الشريعة والدعوة والإصلاح والتضال، والتاريخ واللغة والأدب والفنون وغيرها من العلوم الأخرى.

إنني جد مسرور أن نحتفي اليوم بتخرج الدفعة التاسعة والعشرين ونحن نعيش أجواء القرآن الكريم، لما لا ونحن في شهر القرآن شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ورحمة للعالمين. فهنئنا للجميع بصيامه وقيامه.

فالشكر موصول لأسرة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية من أساتذة وطلبة وموظفين على ما قدموه من مجهودات طيلة السنة الجامعية. وباسمهم أتقدم بالتهنئة لطلبة الدفعة التاسعة والعشرين المتخرجين، وللأوائل منهم خاصة، راجيا من الله عز وجل أن يسدد خطاهم وأن يكونوا خير سفراء للجامعة في حياتهم العلمية والمهنية، كما أتقدم بالشكر والتقدير لكل الذين أسهموا في إنجاز هذا الكتاب من أساتذة ومشرفين ومنظمين.

والله ولي التوفيق

قسنطينة في 18 رمضان 1437هـ / 23 جوان 2016م

تقديم

الأستاذ محرز حداد

نائب مدير الجامعة للتكوين العالي في الطورين الأول والثاني، والتكوين المتواصل والشهادات وكذا التكوين العالي في التدرج

تجدد جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية العهد والوفاء مع الأسرة الجامعية في حفل نهاية السنة الجامعية 2016/2015 في دفعة الطلبة المتخرجين التاسعة والعشرين الموسومة: من أعلام قسنطينة في إطار قسنطينة عاصمة الثقافة العربية، خاصة وأن قسنطينة عريقة وراسخة في التاريخ وشاخة شموخ جبالها وصخورها، بن وأعلامها ومعالمها وحضارتها، فقسنطينة المدينة والعاصمة والمجال والتاريخ والحضارة ظلت على مدى قرون تنبض بالحياة، وقد كان لموقعها الجيوستراتيجي، والجيوولوجي، ولاسيما صخرها المتميز دور هام وفر لها الأمن والسلام، وفي ذلك قال الكاتب مالك حداد: "السماء لا تكون زرقاء إلا في قسنطينة"، وقال مفدي زكريا فيها أيضا:

ووادي الهوى والهوى بسرتا يزكي مسيد الهوى خلفها
تهد هذه النسمات كأ م تهدد طوع الكرى طفلها

فقسنطينة تمثل نقطة التقاء الثقافات والحضارات الأكثر من 25 قرنا كالحضارة النوميديّة الفينيقية واليونانية والرومانية، والوندالية والبيزنطية والحضارة الإسلامية، مما جعلها تشهد تحولا حضاريا مبكرا في ربوع بلاد المغرب الكبير، فكانت سباقة إلى التمدن، والقيام بثورة زراعية حاولت الجزائر بعد استرجاع السيادة الوطنية في النصف الثاني من القرن العشرين إعادة بعثها. كما أسس هؤلاء دولة كانت قرطبة أو قرطن/سرتا عاصمة لها، مضاهية بذلك عظمى الحضارات القديمة المصرية، وما معمار ضريح ماسينيسا بالخروب الذي صمد في وجه عاديّات الزمن إلا مثال على هذا التطور والتنوع.

وقد حافظت قسنطينة على هذه المكانة بعد الفتح الإسلامي، فقد كانت محط أنظار الموحدين، وقاعدة هامة خلال العصرين الحفصي، والعثماني، كما كانت قلعة حصينة للمقاومة عبر التاريخ، تشهد على ذلك تلك المقاومة التي قادها أحمد باي لصد الغزو الفرنسي لها وللجزائر، وكانت أيضا قلعة للحركة الوطنية ومنبعا للنهضة الجزائرية الحديثة والمعاصرة، دوخت الجيش الفرنسي، وغلاة حكام المستعمر خلال ثورة التحرير.

وقسنطينة تبرز كحاضرة معطاءة في الجوانب الحضارية لاسيما العلمية والفكرية والأدبية والسياسية من خلال أولئك الرجال الأعلام الذين نشأوا فيها واستقروا، أو حلوا أو إرتحلوا، فماسينيسا ويوغرطة من أعظم أعلامها السياسيين والعسكريين، وكانت محطاً لآخرين كابن خلدون الذي تزوج من إحدى عائلاتها، ومن رجالها في العصر الحديث ابن قنقد، ابن الفكون، صالح باي، أحمد باي، ابن مهنا، عبد القادر المجاوي، حمدان لونيسي، عبد الحميد بن باديس، زيغود يوسف، مالك حداد ومالك بن نبي... كل اسهم في مجاله، وقد وصفها محمد العيد آل الخليفة قائلا:

قسنطينة اهتزي سرورا وغبطة	بأنك ثغر للصناديد تُشعر
وأنتك منحى للمكّارم يتتحي	وأنتك دار للعلوم تُديرُ
وإنك مجلّى للطبيعة يُجتلى	ومنظرة منها الى الكون يُنظر
نساتك ربحان وتربك فضة	وصحرك مرجان وماؤك كوشر
على طودك الأسمى قناطر ضخمة	بما يقطع الوادي إليك ويُعبّر


لذا كان من واجب جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية أن تسهم بعبء هي الأخرى يضاف إلى هذه العطاءات الخالدة ومن باب الاعتراف بفضل هؤلاء الأعلام لقسنطينة الذين نقشوا أسماءهم في سجلات بأحرف من ذهب وتركوا بصماتهم ونتاجهم الحضاري عبر العصور، فقد اجتهدت مجموعة من الأساتذة الأفاضل بالكتابة عن مجموعة من أعلام قسنطينة، ومع ذلك لا يمكن الإحاطة

بجميعهم، وإنما يفتح المجال للكتاب والباحثين للتعمق أكثر بالإضافة إلى ما كتب. وهذا أقل ما يقدم لقسنطينة وأعلامها اعترافا لمجهوداتهم في خدمة العلم وواجتمع والوطن والأمة والبشرية، فتضاف لأسماء الدفعات المتخرجة التي كانت تحمل أسماء قامات علمية ورموز وطنية بارزة، ابتداء ب: الشيخ أحمد حماني (2002م)، الشيخ الفضيل الورتلاني (2003م)، الرئيس الراحل هواري بومدين (2004م)، الأستاذ مالك بن نبي (2006م)، الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم (2007م)، الأستاذ يحي بوعزيز (2008م)، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (2009م)، الشيخ أحمد بن يوسف أطفيش قطب الأئمة (2010م)، الشيخ عبد الرحمن الجيلالي (2011م)، الشيخ الشهيد العربي التبسي (2012م)، الرئيس الشاذلي بن جديد المجاهد المناضل (2013م)، الأستاذ عبد الرحمن شيبان المجاهد المرني المصلح الأديب (2014م) - الدكتور أحمد عروة المجاهد الحكيم المفكر الأديب 2015.

في الأخير نشكر كل من أسهم في إنجاز هذا الكتاب من أساتذة وباحثين وموظفي الجامعة وجزاهم الله خيرا. كما نثنى الجميع وخاصة طلبة الدفعة التاسعة والعشرين والمتفوقين منهم، ونرجو منهم أن يكونوا في مستوى أهداف الجامعة ورسالتها وأعلام قسنطينة عبر العصور، ورسالة الذين ضحوا بالنفس والنفيس خدمة لهذا الوطن العزيز وقيمه، وأن يكونوا خير خلف لخير سلف، خاصة ونحن في غمرة الاحتفال بعيد الشباب والاستقلال وعيد الفطر المبارك، ثمرة لتضحيات جسام، وعزيمة في طريق العلم والعمل و الوفاء.

تحيا الجزائر والمجد والخلود لشهدائنا.

وفق الله الجميع وسدد خطاهم وتقبل منهم الصيام والقيام وخدمة البلاد والعباد.



من أعلام قسنطينة
في الشريعة

(فترة حكم الدايات)

أ.د. جمال لدرع

جامعة الأمير محمد القادر

العلوم الإسلامية

توطئة:

دامت فترة حكم الدايات من سنة 1671 إلى سنة 1830م، أي حوالي مائة وتسع وخمسين (159) سنة، وهي آخر فترة من الحكم العثماني في الجزائر¹. شهدت من حين إلى آخر اضطرابات سياسية وصراعات داخلية، وأوضاع اقتصادية، وطيغان نفوذ الجيش الانكشاري، وتحديات خارجية تمثلت في التهديد الأوروبي للدولة العثمانية، وبخاصة فرنسا وإسبانيا على السواحل الجزائرية. ورغم أنحكام الدولة العثمانية لم يكونوا كلهم مشجعين للعلم، ربما لانشغال بعضهم بمواجهة المؤامرات الداخلية وصدّ التهديدات الأوروبية الخارجية، إلا أن هذه الفترة شهدت حركة علمية وثقافية قادها علماء كبار، وبرز منهم كثيرون في مختلف فنون العلم والمعرفة، وبخاصة في علوم الشريعة. ونظام الدايات ظهر في القرن 17م، ليكون نتاج التطورات السياسية التي شهدتها الجزائر خلال العهد العثماني. وسبب ظهور هذا نظام يعود إلى اضطراب الأوضاع الداخلية، خاصة بعد استفحال تدخل الجيش الانكشاري في شؤون الحكم،

¹ - تميّزت الأوضاع السياسية بالجزائر منذ القرن 16م بعدم الاستقرار حيث توالفت عدة أنظمة على الحكم من بايات، باشوات، أغوات، دايات، وهذا راجع إلى طبيعة التواجد التركي في الجزائر، الذي تميّز بحكم عسكري، وإلى الصراع الدائم بين الانكشارية والعناصر الحاكمة التي كثر النزاع بينهما، وهو ما أفرز أربعة أنماط من الحكم السياسي، لكل خصائصه وشيئاته الخاصة، وكان آخرها نظام الدايات. (رشيدة شدرى معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات (1671 - 1830م)، ملكتة نيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، بقسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، سنة 2006م، ص: 20).

فقررت طائفة من رياس البحر التخلص من نظام الأغوات لإحساسها بالخطر اندى يهددها فعوضت هذا الأخير بنظام الدايات الذي دام من 1671 إلى غاية 1830م. وكانت للداي صلاحيات واسعة، فهو المسؤول العسكري والسياسي للبلاد؛ والقاضي الأعلى في أمور الحرب والسلم، والمسؤول على الضرائب وعلى التوظيف. ورغم الصلاحيات المخولة له إلا أنه كان يتصرف تحت تأثير الضباط الإنكشاريين، حيث كانوا يشكلون جزءا من الديوان المتكون من ثلاثين من كبار الجنود والرؤساء الدينين الثلاثة، وهم المفتي والقاضي وكبير المرابطين⁽¹⁾.

الموضع الثقافي والعلمي في الجزائر:

تميزت فترة الحكم العثماني في الجزائر وإلى قبيل استيلاء الفرنسيين عليها بكثرة المدارس وحرية التعليم، وكثرة المتعلمين، ووجود مدرّسين أكفاء؛ وتوفر الوسائل المساعدة على التعليم، كمداخيل الأوقاف والتبرعات المختلفة. وكان التعليم جزءا من حياة المجتمع، والناس حريصون على تعليم أبنائهم، وكان العلماء والمعلمون موضع تقدير من المجتمع، وكان الناس من كل الطبقات الاجتماعية يتعلمون، وفي نفس المدارس، وبنفس البرامج². وقد تميزت الثقافة في هذه الفترة باشتغال أهل العلم بالعلوم الدينية أكثر منها بالعلوم الأدبية وغيرها كالفلك والحساب⁽³⁾، وهي الميزة التي صبغت الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، كما كان طلاب العلم يتلقون العلم من المراكز العلمية التي كانت منتشرة في حواضر الجزائر، وبعضهم فضّل الهجرة طلبا للعلم من المراكز العلمية المعروفة كالأزهر الشريف والزيتونة والقرويين.

¹ - رشيدة شدرى معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات (1671 - 1830م)، مذكرة ليل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، بقسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، سنة 2006م، ص: 20 وما بعدها.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر، ط6، سنة 2009م، ج: 3، ص: 19.

³ - ابن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكدرشية في بلاد الجزائر الحميدة، تحقيق وتقديم د. محمد عبد الكريم، ش. و. ن. ت، الجزائر، ص: 56، 57.

وانصب اهتمام العلماء بالفقه والتفسير والحديث والشروح على متون المتقدمين، فاقصر الكثير منهم على وضع شروح للحواشي وتقارير على المتون التعليمية، أما العلوم الأخرى فكان الاهتمام بها أقل، كالتحقيق واللغة والبلاغة والمنطق والحساب لقسمة الموارد وتحديد أوقات الصلاة، وانشغلوا أيضا بوضع المنظومات الشعرية والصوفية⁽¹⁾. وتعددت الطرق الصوفية، التي امتزج بعضها بالدروشة، فابتعد التصوف في كثير منه عن مفهومه الحقيقي الذي يعني التزكية والتربية، وقد شاع حتى بين الفقهاء والولاة أنفسهم فتحولت بعض الروايات من مركزها الثقافي إلى الحرفة والازنواء⁽²⁾. وقد تأثر الوضع الثقافي بعدم الاستقرار السياسي، وانشغال بعض رجال الحكم بجمع المال والتجارة، واهتمام السلاطين العثمانيين بالجهاد، وتعزيز قوة الجيش لصد غارات العدو، فجعلهم يغفلون عن الجانب الحضاري والثقافي بإعطاء الأولوية للجانب العسكري⁽³⁾.

لكن لا يجب تحميل العثمانيين مسؤولية ظهور التصوف ولا تدهور الثقافة بالجزائر لكن سياستهم أعانت على الانحطاط. فهم لم يكونوا حاملين مشروع ثقافي، ولم يشكّلوا نفس الوقت عائقاً في وجه استمرار الحياة الثقافية في الأوساط الاجتماعية، بل كان بعض الحكام يحترمون العلماء ويوقفون الأوقاف لصالح العلم ومؤسساته؛ فمبادئ العلوم كانت تدرس في الكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا⁽⁴⁾.

¹ - فركوس صالح، الباي محمد الكبير ودوره في بعث الحركة الثقافية بياض الغرب"، عدد، 71، 1982، ص: 18.

² - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ج1، ص178 - والمصدر نفسه، ج3، ص: 186 و187 - ابن ميمون، المصدر السابق، ص84 - المدني أحمد توفيق، كتاب الجزائر، م.و.ك، الجزائر، 1984، ص90 - رشيدة شكري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 34.

³ - رشيدة شكري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 34 وما بعدها - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص188. - ابن ميمون، المصدر السابق، ص56، 57. الفيلالي محمد الطاهر، نشأة المرابطين وطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1 دار الفن القروايفي، الجزائر، 1976، ص29.

⁴ - المدني أحمد توفيق، محمد بن عثمان باشا داي الجزائر (1706، 1719)، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص62 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص185.

لهذا قال بعض الفرنسيين "بأنّ الأمية تكاد تكون منعدمة في الجزائر فكل الناس تقريباً يعرفون القراءة رغم عدم عناية العثمانيين بالثقافة كعنايته بالحرب"⁽¹⁾.

بروز علماء كبار في قسنطينة في فترة الحكم العثماني⁽²⁾:

فبالرغم من فترة الانحطاط التي شهدتها الجزائر، فلم يمنع ذلك من بروز علماء جزائريون في علوم شتى فقد برز علماء أجلاء في علوم الشريعة استطاعوا أن ينالوا شهرة بين أقرانهم في العالم العربي والإسلامي. ومن هؤلاء العلماء من بقي ببلده ينشر العلم بينه، ومنهم من هاجر إلى أقطار أخرى وحضي بمكانة مرموقة مثل الشيخ عبد القادر بن محمد الراشدي⁽³⁾ الذي تولى قضاء مراكش؛ ورواق المغاربة بالأزهر الذي شهد عشرات الطلبة الجزائريين الذين تخرجوا منه وصاروا علماء يشار إليهم بالبنان، مثل الشيخ أبو العباس المغربي (ت1787م) الذي أذن له شيخه "الصعيدي" بتدريس المغاربة في رواقه، وقد أسندت له المشيخة بعد موت شيخه، ثم تولى إدارة مدرسة أوقاف الجهورية. كما تولى العديد منهم أعلى المناصب بالمراكز العلمية بالقاهرة، كالتدريس وحتى الإفتاء، فمثلاً الشيخ محمد بن حسين الجزائري (ت1187هـ/1773م) منح نيابة التدريس من طرف شيخه بمدرسة السمرغتمشية، فكان يدرس فيها صحيح البخاري كل جمعة، ومن علماء الجزائر من تولى القضاء والإشراف على مكاتب القاهرة وبرعوا في العلوم المنقولة والمعقولة⁽⁴⁾.

وقد اشتهرت إيالة الجزائر بعدة حواضر ثقافية كانت مركز إشعاع ديني وثقافي، وبرز فيها عدد مهم من رجال القضاء والفقهاء، فمدينة الجزائر كانت مقصد للطلبة من

¹ - الميلي عماد المبارك، تاريخ الجزائر القديم والحديث، مكتبة النهضة، الجزائر، 1964، ج3، ص 318. - رشيدة شكري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص:35.

² - رشيدة شكري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص:36.

³ - ستأتي ترجمته.

⁴ - الجبرتي عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ضبطه وصححه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ج2، ص44 - حركات إبراهيم، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، ط1، مكتبة الدار البيضاء، المغرب، 1985، ص23.

داخل وخارج الجزائر فحسب الدكتور سعد الله، "فإن دروسها كانت تفرق أحيانا مساجد المشرق"، رغم أنها تفتقر إلى معهد رئيسي يضاهي القرويين والأزهر والزيتونة¹. ومن أهم الخواضر آنذاك قسنطينة، التي اختارها الأتراك لتكون عاصمة بيزنت الشرق وعندما تولى الحكم صالح باي (1771-1792 م) قام بتهيئة المدينة عند ليا وشيد بعض الجسور، وبنى عدة مدارس، منها مدرسة الكتانية التي تضم قبره وقبر أسرت، وأنشأ حيا خاصا لليهود بعدما كانوا متوزعين في أنحاء المدينة. وقال "غافاريل" (Gaffarel) عن قسنطينة: "إن قسنطينة كانت على عهد الأتراك عاصمة دينية، وكان العلماء بها يتمتعون بالسيادة الوطنية والنفوذ التام كما كانت خاصة بعدد كبير من الطلبة يهتدون العلم من خمسة عشر مدرسة للعلوم الدنيوية والأخروية... إن قسنطينة كانت مبعث نور الجزائر، كما كانت تشرف العلماء وتقدرهم حق قدرهم"⁽²⁾.

واشتهرت قسنطينة بأنها مدينة العلم والعلماء، والتدريس الذي كان يقوم به علماءها كان في الغالب يمارس على مستوى مساجدها. ورغم محاولات التمهيد والإصلاح فقد حافظ مشايخها على تقاليد التعليم المسجدي الموروث عن عهد الحكم الإسلامي بمختلف مراحلها، وبقيت حركة العلم مستمرة وقائمة في عهد الحكم العثماني إلى غاية سقوطه³.

مكانة العلماء في فترة حكم الدايات:

لم يكن السلاطين العثمانيون كلهم في مرتبة واحدة من حيث علاقتهم بالعلماء، فبعضهم كان يقرب منه العلماء ويستشيرهم في قضايا كثيرة، وبعضهم كان منشغلا بالحروب والغارات الخارجية، والفتن الداخلية، وبعض العلماء ربما مضايقات من قبل الحكام، كما أن بعضهم تعرض للقتل.

¹ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 273.

² GAFFAREL, Op.cit, p123.. نقلا عن رشيدة شكري، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 38.

³ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 3، ص: 125.

والحياة الفكرية طغت عليها الصبغة الدينية الصوفية، وغالبا ما يكون العلماء أو رجال الدين أعضاء في مجالس القضاء، أو يتصدرون المراكز الدينية والتعليمية والطرق الصوفية فكل متمكن في علم الحديث أو الفقه أو التفسير يعدّ في نظر الناس "علماً" ويلقب بـ (سيدي فلان)، وتزداد مكانته بين الناس إذا جمع بين عدّة علوم⁽¹⁾. ومن العلماء من كان ضمن الطبقة الرسمية لتوليه وظيفة رسمية، كالقضاء والإفتاء والتدريس، ثم يليهم رجال الزوايا والمتصوفة. ويندرج ضمن فئة العلماء الأئمة والخطباء والوعاظ والمؤدبون، ثم فئة أخرى من القائمين بشؤون المساجد وخدام الأضرحة، إضافة إلى الخوجات والمتقنين الأحرار والمرابطين⁽²⁾.

وقد شكل العلماء قوة اجتماعية، وحظوا بالاحترام والتقدير من طرف المجتمع، وكان لهم أتباع من الطلبة، ولهم تأثير مباشر على الأهالي، عن طريق الإرشاد والتوعية والتعليم والإفتاء، فكانت صلتهم قوية بالسكان عن طريق الدروس والإمامة وخطب الجمعة وعقود الزواج، ومنهم من كان يحتلّ بالناس في أماكنهم العامة، فيلتفت حوله الناس، فيكون محلّ تخوف من السلطة⁽³⁾.

تنوع النشاط العلمي لفقهاء قسنطينة:

تنوعت إسهامات فقهاء قسنطينة في ميدان علوم الشريعة في فترة الحكم العثماني، ويمكن تحديد مجالات إسهاماتهم في الآتي:

¹ - سعد الله، المرجع السابق، ص 481 - رشيدة شدرى معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 46 و 47.
² - البوعبدلي المهدي، "عبد الكريم بن الفكون القسنطيني (988-1073)" والتعريف بكتابه منشور الهداية في كاشف حال من ادعى العلم والولاية" الأضالة، عدد، 1973، 13، ص 18 - رشيدة شدرى معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 47 - ابن ميمون، المصدر السابق، ص 48 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 398.
³ - سليمان أحمد، تاريخ مدينة الجزائر، مطبعة دحلج، الجزائر 1993، ص: 71 - حركات إبراهيم، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، ط 1، مكتبة الدار البيضاء، المغرب، 1985، ص 48.

1. نشاط فقهاء قسنطينة في مجال التدريس:

بقيت حركة التدريس مستمرة في العهد العثماني، فبرز عدة علماء تصدوا لتدريس الفقه الإسلامي وعلوم اللغة والأدب وغيرها، وبخاصة المذهب المالكي وفي القليل منه المذهب الحنفي الذي هو المذهب الرسمي للدولة العثمانية، حيث كان لها علماء ومفتون وقضاة حنفيون.

لكن في الغالب الأعم الذين تصدروا بمجالس التدريس في علوم الشريعة هم من علماء المالكية الأحرار الذين حافظوا على استمرار الفقه المالكي على مستوى القاعدة الشعبية، ولم يتأثروا بسياسة الدولة العثمانية في عدم اعتمادها المذهب المالكي، وقد تميزوا بتدريس متون المذهب المالكي كمتن خليل والرسالة لأبي زيد القيرواني، ووضع شروح عليها وعلى حواشيهما. وكانت لهم حلقات ثابتة في المساجد يغشهاها طلبة كثيرون، الذين كانوا يفدون من مختلف أنحاء القطر الجزائري ومن بعض البلدان الإسلامية كما رحل بعضهم وصارت لهم حلقات علم في الأزهر الشريف وفي الحرمين الشريفين وفي مساجد بلاد الشام والمغرب الأقصى⁽¹⁾، وبعضهم كانت تأتيه أسئلة من بعض الأقطار الإسلامية فيجيب عنها. وقد تركز نشاط الفقهاء في تدريس علوم الشريعة والعلوم الأخرى في المؤسسات التعليمية التي كانت منتشرة آنذاك، وهي:

1 - الكتابات:

الكتاب أو المسيد، هو تصغير لكلمة مسجد. وكانت بمثابة مرحلة التعليم الأولى أو الابتدائية، وقد أسست للمحافظة على نظافة المساجد وهيئته، وتجنّبها ضوضاء الأطفال. وكانت هذا المؤسسة التعليمية منتشرة في كامل البلاد الأمر الذي أدهش الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر، إذ كتب الجنرال "دوماس" (Daumas) تقريراً له:

¹ - مثل الفقيه محمد بن أحمد المعروف بابن الكماد القسنطيني، منطقي محدث فقيه متكلم، نشأ وتعلم بقسنطينة، رحل إلى المغرب الأقصى وامتنقر بمدينة فاس، وبما علت شهرته، مات بما سنة 1116هـ/1704م. (عادل نويعض، معجم أعلام

"أنّ التعليم الابتدائي في الجزائر كانت منتشراً أكثر مما يتصوره الإنسان عموماً، فتمت الالتفات بالأهالي في الأقاليم الثلاثة أظهرت أنّ نصف السكان من الذكور يعرفون القراءة والكتابة"⁽¹⁾. وغالباً ما يتجه التعليم على مستوى الكتاب إلى تحفيظ القرآن الكريم، والتعليم القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحساب، ويقضي الأطفال بها ثلاثة أو أربعة أعوام، ولكن يرغبون في مواصلة الدراسة يبقوا سنوات أخرى لحفظ القرآن عن ظهر قلب أو يلتحقون بالمدرسة أو الزوايا أين يتلقون علوم الفقه والتوحيد والنحو على يد العلماء⁽²⁾.

2- المساجد⁽³⁾:

بقي المسجد منذ الصدر الأول للإسلام يمارس وظيفة العبادة والتعليم، واستمر على ذلك رغم ظهور المدارس التي لم تستطع الإنقاص من دوره التعليمي، وإنما تعاونت معه في نشر رسالة التربية والتعليم في العالم الإسلامي. فكانت المساجد أماكن لأداء الصلاة وتحفيظ القرآن والتعليم، ومعالجة مشاكل الناس. ولقد اعتنى المسلمون بالمساجد فلا نجد قرية أو حياً في المدينة من دون مسجد، ومن المساجد ما كان يسمى بـ"الجامع" لأنها كانت تؤدي فيها صلاة الجمعة والعيدين دون غيرها من المساجد⁽⁴⁾. والملاحظ على حواضر الجزائر خلال العهد العثماني كثرة مساجدها التعليمية، ولكل مدينة جامعها الأعظم، الذي يمثل معهداً للتعليم، كالجامع الكبير في قسنطينة وجامع بجاية وجامع تلمسان والجامع الأعظم في مدينة الجزائر الذي كان خلال العهد العثماني، وغالباً ما تكون هذه الجوامع مركزاً للنشاط الديني والقضائي ومقراً للمفتي المالكي، ومنبراً

¹ - رشيدة شدرى معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 51.

² - سي يوسف محمد، نظام التعليم في بلاد الزوارة بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني "الحياة الفكرية في الولايات العربية"، ج 1، 1990، ص: 193 - رشيدة شدرى معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 51 وما بعدها.

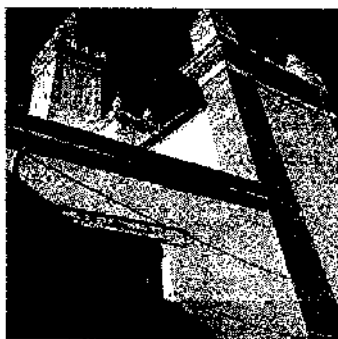
³ - رشيدة شدرى معمر، المرجع نفسه، ص: 51.

⁴ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 245 - بوعزيز يحيى، أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين (19-20م)، ندوة، عدد 1، 1981، ص: 63، ص: 12. - رشيدة شدرى معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 52.

للمناظرات بين العلماء⁽¹⁾. أما بقسنطينة فيوجد بها خمسة جوامع خطبة، في حين أحصى بها فيرو (FERAUD) خمسة وسبعين (75) مسجداً وجامعاً، إضافة إلى سبعة خارج المدينة وهذا الإحصاء كان في عهد صالح باي، أما "قايد" (GAID) فيذكر أنّ بها قرابة مائة مركز ديني بين مسجد وزاوية وجامع ومدرسة⁽²⁾.

ومن أهم مساجد قسنطينة:

أ. الجامع الكبير: وهو يقع بين الساحة المسماة بـ"البطحاء"³ وسوق الجلود، وكانت تحت إشراف أسرة آل الفكون لعدة قرون، وجاء ذكره في بعض مؤلفاتهم، وكان مقراً لشيخ الإسلام في العهد العثماني. وقيل أنه بني على معبد وثني، لكن الحفريات لم تثبت ذلك. وقد بني في القرن السادس الهجري، وقد يكون من منشآت دولة الموحدين أو دولة بني حماد الصنهاجية، وقد هدمت أجزاء منه، كما هدمت منارته من أجل توسيع شارع الحمي الأوروبي، أما منارته الحالية فهي حديثة العهد ومن شيوخ الجامع في العهد الفرنسي الشيخ حمدان الونيسي ومحمد الصالح بن مهنا والشيخ المولود بن الموهوب⁴.



الجامع الكبير

¹ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقاني، ص 246 - رشيدة شادري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 52.

² - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقاني، ج 1، ص 250 - رشيدة شادري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 53.

³ - وهي معروفة بهذا الاسم إلى اليوم.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقاني، ج: 5، ص: 81 و 82. محمد المهدي بن علي شفيق، أم

الحواضر في الماضي والحاضر، ص: 232 وما بعدها.

ب. جامع صالح باي (جامع سيدي الكتاني)

ويسمى أيضا بجامع سيدي الكتاني، أنشأه صالح باي بن مصطفى¹ سنة 1190هـ/1776م، وهو متميز من حيث فنية البناء وفتحاته بشهادة الفرنسيين، وكان من مساجد المذهب الحنفي وكانت تتبعه مدرسة شرعية، وأوقف له وللمدرسة أوقافا عظيمة عقارية من خلائس ماله يصرف دخلها عليهما. ثم أصبحت في زمن الاحتلال الفرنسي سنة 1850م هي المدرسة الشرعية الرسمية. وكان من خطباء المسجد الشيخ أحمد العباسي الذي توفي حوالي 1834م. والجامع يقع بالقرب من "سوق العصر" ساحة بوهالي السعيد حاليا، وقيل أنه وقف تابع للجامع والمدرسة، ثم فصله الفرنسيون عنهما، ومنذ سنة 1947م أصبحت المدرسة الكتانية والجامع التابع لها تدعى المعهد الكتاني الذي كان تحت إشراف عمر بن الحمالوي من الطريقة الرحمانية، وكان ينافس معهد ابن باديس².



جامع ومدرسة
سيدي الكتاني

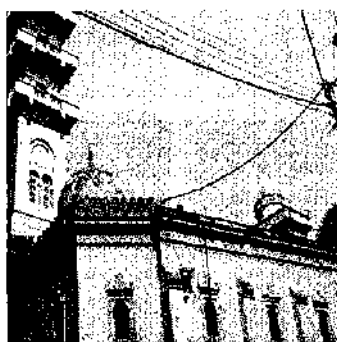
¹ - من أشهر بابات قسنطينة وأعظمها شأنًا، تولى الحكم من سنة 1185-1207هـ/1771-1792م، أي مدة 22 سنة، قام بإصلاحات وأعمال عظيمة اجتماعية وثقافية واقتصادية. (محمد المهدي بن علي شغيب، أم

الحواضر في الماضي والحاضر، ص: 237)

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 5، ص: 82 - محمد المهدي بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، ص: 239، 240.

ج. جامع سوق الغزل (مسجد الباي):

وهو منسوب إلى الباي حسن بوكمية الذي حكم قسنطينة مدة 25 سنة، من عام 1125 إلى 1150م / 1713-1737م، وتم بناؤه سنة 1134م/1721م، وذكر بعض باحثي الفرنسيين أن جد الشيخ مصطفى بن جلول واسمه عباس بن علي جلول هو الذي بنى المسجد بنقوده في حي سوق الغزل، وقيل هو الذي كلفه الباي بوضع تصميمه وبنائه. وموقع الجامع هو ساحة قصر أحمد باي، وقد حوله الفرنسيون إلى كنيسة بعد سنتين من احتلال مدينة قسنطينة في 3 مارس 1839م، وقام باغتصابه وافتتاحه كنيسة القسيس سوشيه بترخيص من الحاكم العام المارشال فاله متعديا على الاتفاق الذي أبرم سنة 1830م باحترام الدين الإسلامي. وجامع سوق الغزل متميز بسعته وجمال بنائه وزخرفته مقارنة بغيره من مساجد قسنطينة¹.



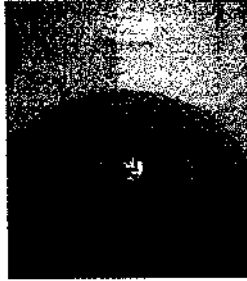
مسجد سوق الغزل
(جامع الباي)

وبعد الاستقلال أعاده الجزائريون مسجدا كما كان أول مرة، وهو من مساجدها العتيقة، ويسميه أهل قسنطينة بمسجد الباي أو جامع الباي.

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج:5، ص:82 و83 - محمد المهدي بن علي شغيب، أم لرياضة في الماضي والحاضر، ص:240 و243.

د. جامع سيدي الأخضر:

بناه الباي حسن المعروف بوحنك، تولى الحكم حوالي سنة 1150 إلى 1168هـ/1754-1737م، وتم بناء المسجد سنة 1157هـ/1743م، وهو من مساجد المذهب الحنفي، وكان مسجدا بديع الصنعة، له خمس بلاطات أي أروقة، أجملها الأوسطى، وكان يضم أضرحة العائلة. وقد ألحقت به مدرسة جميلة بناها أيضا صالح باي، وتسمى مدرسة جامع سيدي الأخضر والجامع يوجد بحي الجزائرين قرب رحبة الصوف، ولا تزال تقام فيه الصلوات إلى اليوم، وكان يقوم بالتدريس فيه نحو ثمانية من المدرسين، وآخر من أحيا فيه سنة التدريس الأستاذ العلامة الإمام عبد الحميد بن باديس بن محمد المصطفى ابن المكى بن باديس.



مدخل لجامع سيدي الأخضر

3- الزوايا⁽¹⁾:

احتلت الصدارة بين مراكز الثقافة والتعليم خاصة بالأرياف، وكانت تقوم بوظيفة تعليمية إضافة إلى وظيفتها الديني، وكانت الزوايا مقرا للعبادة والدراسة معا، كتحفيظ القرآن الكريم ونشر التعليم الإسلامي في المناطق النائية، واهتمت بتدريس علوم الدين والفقه، ومبادئ القراءة والكتابة، وكانت تضم كتباً ومخطوطات نفيسة. إلا أنها كانت تعتمد المنهج التقليدي في التعليم، أدى إلى شيء من الركود والجمود، وشيوع بعض مظاهر الدروشة والانحرافات.

⁽¹⁾ ربيعة شكري، العلماء والسنة العثمانية في الجزائر، ص: 54 وما بعدها.

وبعض الزاوية جمعت في تعليمها بين التربية الروحية والعسكرية، فأهتمت بتدريس الدعوة الصوفية والإعداد للجهاد، وكان انتشارها كبيراً على مستوى الأرياف وضواحي المدن لانعدام المدارس هناك، فلعبت دوراً هاماً في الحياة الثقافية والتعمية. واستطاعت كسب ثقة الناس لتيسيرها التعليم للجميع دون تمييز بين الفقراء والأغنياء ولا بين البسطاء وأبناء الأعيان. إضافة إلى كونها مأوى لعابري السبيل. وهي أمكنة للالتقاء، ولها دور مهم على مستوى العلاقات الاجتماعية من خلال إصلاح ذات البين، والمساهمة في إزالة الفوارق الاجتماعية وتوطيد العلاقات بين فئات المجتمع فكانت تضم غرماً لإيواء الطلبة وأخرى للدراسة، كما وجدت بها مخازن للمؤمن من أجل تحويل الطلبة والفقراء، وتكون الزوايا تحت إشراف المقدم أو الوكيل، وبعض الزوايا كان الإشراف عليها متوارثاً في العائلة. وتعتمد هذه الزوايا في الإنفاق على المتدربين وعلى لعناء المدرسين بها على عائدات أوقاف العقارات والحبوس التابعة لها، والهبات والزكاة والمدايا، وتبرعات الزائرين الذين يقصدونها للتبرك بضرريح مؤسسها.

تخرج من الزوايا في العهد العثماني علماء جزائريون كبار أمثال سعيد قدورة⁽¹⁾، أبي راس الناصري، الأمير عبد القادر، محمد بن علي السنوسي مؤسس الزاوية السنوية ببنيينا، كما خرجت قضاة ومفتين⁽²⁾. وكانت الزوايا منتشرة في كل مدن الجزائر وأريافها⁽³⁾. وقد

¹ - سعيد بن إبراهيم أبو عثمان، مفتي مدينة الجزائر وفقهها وعلمها، توفي سنة 1066هـ/1656م. (عادل بويض، معجم أعلام الجزائر، ص: 259).

² - مزيان عبد الحميد، للمؤسسات الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار، الثقافة، عدد22، 1986، ص18 - بوعزيز، أوضاع المؤسسات الثقافية، ص19 - رشيدة شدرى معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 54 وما بعدها - 54 و55 و56.

³ - وكانت مدينة الجزائر وحدها تضم عدداً كبيراً من الزوايا والأضرحة، حوالي ففي سنة 1830م كانت تضم اثنين عشر زاوية واثنين وثلاثين ضريحاً سنة 1830م، كزاوية سيدي عبد الرحمن العالبي وزاوية الوبي دادة، وزاوية سيدي عبد القادر الجليلي وزاوية الأشراف وزاوية الأندلس. كما اشتهرت أيضاً بنماسان بزواياها التي وصلت إلى أكثر من ثلاثين زاوية. وتعد منطقة القبائل أغنى المناطق بالزوايا، حيث تصل حتى الخمسين زاوية أشهرها زاوية تيزي راشد المعروفة بزوايا عزب⁴ وزاوية قرومة، وزاوية الأزهرى بأية إسماعيل، وزوايا الصحراء التي أدت دوراً مهماً، كزاوية عين ماضي التي وحسن

وجد بمدينة قسنطينة ست عشر زاوية، منها ما كان تابعاً للعائلات الكبرى بالمدينة، مثل زاوية أولاد الفكون وزاوية ابن نعمون وزاوية أولاد جلول⁽¹⁾. وكانت هذه الزوايا تقوم بتعليم القرآن الكريم، ويتولى العلماء فيها إلقاء الدروس.

ومن أهم الزوايا في قسنطينة²:

أ. زاوية بن نعمون: هي المعروفة باسم "الزاوية التجانية" بناحية الشط من المدينة، بنهج بيريغو رقم 76 تقام فيها الصلوات الخمس، بها مدافن آل نعمون الذين هم من سلالة بايات قسنطينة.

ب. زاوية النجارين: هي المدعوة أيضا زاوية "نصالة"، وتقع بنهج فيسو، (حي النجارين) رقم 19 تقام فيها الصلوات الخمس، وبها بيت لتعليم القرآن للأطفال.

ج. زاوية نعمان: كانت بها عدة مقابر فعل المستعمرون بما فعلوه بزاوية بن رضوان. وأقاموا دار الاسعاف الصحي الحالية "ميزون سكور" على انقاض زاوية نعمان ومقبرتها.

د. زاوية التلمساني: كان جيش الاحتلال الفرنسي استولى على زوايا التلمساني وأصبحت تابعة لفرقة الهندسة العسكرية. وبعد مدة تخلت عنها لأملاك الدولة فأجرتها للراهبات بعقود تجددت ثلاث مرات. ثم تخلت عنها، وأصبحت من أملاك الدولة بعد عام 1880م، استولى عليها اليهود، وصيروا هذه الزاوية معبدا لهم وعشا لخدمة الأغراض الصهيونية وبعد الاستقلال طالب المسلمون برد الزاوية المذكورة لأهلها، وجعلها مدرسة قرآنية نظامية. ووافقت الولاية والإدارة المالية على هذا الطلب.

تأثيرها حتى الحدود الجزائرية المغربية وزاوية طولقة. (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 266 وما بعدها - رشيدة شدرى معمر، المرجع نفسه، ص: 56)

¹ - سعد الله، المصدر نفسه، ص 264.

² - كمال غربي، المساجد والزوايا في مدينة قسنطينة الأثرية، ص: 163 وما بعدها - عبد الله بوفولة، قسنطينة ومساحدها وبعض

علمائها قديما وحديثا، <http://www.chilhab.net/modules.php?name=News&file=article&sid=1241>

هـ زاوية آل لفقون: هي الموجودة في بداية نهج كومب بحي الخرازين. وتسمى أيضاً "الزاوية التجانية وبها ضريح العالم الجليل الشيخ عبد الكريم الفقون.

و. زاوية باش تارزي: المؤسس الأصلي لهذه الزاوية هو الأستاذ عبد الرحمن بن أحمد بن حمودة بن مامش المعروف بباش تارزي الجزائري¹ منشأ القسنطيني دارا المتوفى بقسنطينة في حدود عام 1222 هـ الموافق 1807م المدفون بزوايته في الشارع. وهو تلميذ سيدي محمد ابن عبد الرحمن الجرجري الشهير دفين الجزائر.

ز. جامع الشيخ عمر الوزان: كان موقعه حيث المسرح البلدي الآن مما يلي رحبة الجمال، وبإزائه عين ماء تابعة له ومدرسة أيضاً. وفي السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي، قررت السلطة الفرنسية استعمال بقعة المسجد لأغراض استعمارية. فطالبت من ورثة الشيخ عمر الوزان ان يتنازلوا لها عن مسجد جدهم وتعطيهم مسجداً آخر عوضاً عنه، فوافقوا مكرهين ونقلت رفات الشيخ عمر الوزان من مسجده - المنزوع الى جامع سيدي عبد الرحمن القروي الموجود برحبة الجمال أيضاً على مقربة من جامع الشيخ الوزان. وما زال قبر عمر الوزان معروفاً إلى اليوم بمسجد سيدي عبد الرحمن القروي عن يمين المحراب، وقبر سيدي عبد الرحمن القروي عن يسار المحراب.

4- المدارس (2):

وكانت المدارس التي تبنى لتدريس العلوم تقوم بتعليم الدين وعلوم اللغة ومبادئ القراءة والكتابة والحساب وقد عرفت للمدارس انتشاراً واسعاً خلال العهد العثماني، الأمر الذي أذهل كل من زار الجزائر خلال العهد العثماني من كثرة مدارسها وقلة الأمية بين سكانها⁽³⁾.

¹ - هو عبد الرحمن بن أحمد بن حمودة بن مامش باش تارزي، نشأ بمدينة الجزائر ثم انتقل إلى قسنطينة، ونشر فيها الطريقة الرحمانية، وهو أديب، ناظم، صوفي. من مؤلفاته: "عملة المرید" في بيان الطريقة، و"غنية المرید" شرح به نظم مسائل التوحيد وهي 45 مسألة، وله قصائد وموشحات. (الحفناوي، تعريف الخلف، ج: 2، ص: 198 - نويحس، معجم أعلام الجزائر، ص: 31 و 30)

² - رشيدة شكري، المرجع نفسه، ص: 58 وما بعدها.

³ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 1، ص: 274. - رشيدة شكري، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 58.

لعبت هذه المدارس في المدن نفس الدور الذي لعبته الزوايا في الريف وهي التي كانت تزود الدولة بما تحتاج إليه من الموظفين، وكان تعيين المدرسين بها من طرف الولاة وباقتراح من مدير الأوقاف، وأغلبهم يجتمعون بين التدريس والإفتاء والقضاء⁽¹⁾. وقد وجدت المدارس في مختلف حواضر الجزائر، فمدينة الجزائر وحدها كانت تحتوي على 229 مدرسة، وفي الغرب اشتهرت مدارس تلمسان فقد بلغ عددها حوالي خمسين مدرسة صغيرة، بالإضافة إلى مدرستين للتعليم العالي وهما مدرسة الجامع الكبير ومدرسة أولاد الإمام، وفي معسكر أسست مدرسة المحمدية لتصبح من أكبر مدارس الغرب، ومدرسة مازونة ذات الشهرة المغاربية والتي شيدت نهاية القرن 16م من طرف الشيخ محمد بن الشريف الأندلسي، وقد درس بها عدة علماء بارزون أمثال أبو راس الناصري، وقد اشتهرت بوجه خاص بتدريس علم الفقه والحديث وعلم الكلام⁽²⁾. أما مدارس قسنطينة فلم تكن تقل أهمية عن مدارس مدينة الجزائر وتلمسان، فقد عرفت هي الأخرى إشعاعاً ثقافياً خاصة في عهد صالح باي الذي أسس المدرسة الكشانية عام 1190هـ/1776م لتعليم مختلف العلوم التي لا يزال قبره فيها إلى الآن، وقد جعل لها نظاماً خاصاً، كما أنه أسس عدة مدارس في مدينة عنابة وجيجل، وكان يلحق بكل مدرسة مسجد وكتاب ومكتبة، وقد قُدِّر عدد مدارس قسنطينة عند دخول الفرنسيين وسقوط الحكم العثماني بحوالي تسعين (90) مدرسة يدرس بها 1350 تلميذ⁽³⁾. وبالرغم من كثرة المدارس في الجزائر إلا أنها كانت تفتقر لمؤسسة للتعليم العالي، رغم أنّ "فونتيز دي برادي" (VENTUR DE.P.) يشير إلى وجود

¹ - رشيدة شكري، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 58.

² - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 276 و285، رشيدة شكري، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 58 و59.

³ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص276 - أبو القاسم سعد الله، المصدر نفسه، ج: 3، ص: 373 وما بعدها - رشيدة شكري، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 58 و59 - نو الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، مطبعة البعث، قسنطينة 1965، ص213.

ثلاث "جامعات" بها، إلا أنّها في الواقع لم تكن بها جامعة بالمعنى الصحيح لأنّه لم يكن يوجد بها مدرسة للتعليم العالي تضاهي الأزهر والقرويين والزيتونة⁽¹⁾.
ومن الفقهاء الذين اشتغلوا بالتدريس:

1. أبو القاسم بن محمد بن عيسى التلمساني القسنطيني (ت 1234/د 1819م)، من الفقهاء العلماء. تعلم على مشايخ كثيرين، في مختلف المدن العلمية، كمدينة الجزائر ومازونة ومليانة ووهران وزواوة. ثم اشتغل بتدريس علوم الفقه وغيرها، وتولى الكتابة للحاج أحمد باي مات في قسنطينة².

2. محمد العربي بن عيسى القسنطيني (ت 1254 هـ/1838م): أبو عبد الله: فاضل، من الفقهاء العلماء ولد بقسنطينة، وأخذ عن علمائها وشيوخها إلى أن صار من علمائها الذين يرجع إليهم في الفقه والقضاء. تصدر لتدريس الفقه والأصول وغيرها من العلوم بمسجد سيدي الجليس³ الذي حوله الاستعمار الفرنسي إلى مدرسة وبقي مدرسة حتى بعد الاستقلال. كما تولى النظر على الأوقاف وشؤون القضاء إلى أن توفي بها⁴.

3. مصطفى بن الشاوش القسنطيني (ت 1252 هـ/1836م): أبو الوفاء: أديب، نحوي، فقيه، من أهل قسنطينة، تعلم بها وبتونس. وبعد عودته من تونس تصدر للتدريس والإقراء والخطابة، بالجامع الأخضر⁵، وعرضت عليه الفتوى بعد وفاة مصطفى باش تارزي، فأبى؛ مات بقسنطينة⁶.

¹ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص273 - رشيدة شدرى، العلماء والسطة العثمانية في الجزائر، ص:59.

² - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط2، سنة 1400م/1980م، ص:75.

³ - يقع في ساحة سيدي جليس للسماة بهذا الاسم إلى اليوم وفي عام 1268 هـ (1851م) حولته السلطة الفرنسية إلى مدرسة لتعليم الفرنسية والعربية وبعض الأعمال المهنية. وأطلقوا يومئذ على هذه المدرسة اسم "جول فوري" وما زالت موجودة إلى اليوم. وهي اليوم مدرسة تكميلية أطلق عليها "تكميلية ولد علي".

⁴ - تعريف الخلف 2: 430 - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص:265.

⁵ - سبقت الإشارة إليه.

⁶ - تعريف الخلف 2: 568 - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط2، سنة

1400م/1980م، ص:265.

نشاط فقهاء قسنطينة في مجال الإفتاء والخطابة والقضاء:

1- الإفتاء:

كانت أعلى وظيفة يتولاها العالم، فهي تحتاج إلى العلم والتعمق في المسائل الدينية إضافة إلى قوة الشخصية والنزاهة والصلاح والشجاعة⁽¹⁾. لأنّ المفتي هو المترجم للشريعة، وهذا من خلال إصداره الفتاوى في الأمور الدينية. وبما أنّه في أعلى الجهاز الديني، فقد أسند له العثمانيون بالجزائر الرئاسة الدينية والقضائية تقليداً لما كان معمول به في اسطنبول. وقد كان يختار من الطبقة المثقفة الدينية، وبالرغم من مرتبته العالية إلا أنّه لم يكن له أي نفوذ أو تأثير في الأمور السياسية.

وكان بالجزائر مفتيان، مفتي حنفي ومفتي مالكي، والمفتي الحنفي لم يصبح وظيفة رسمية بالجزائر إلا بعد مجيء العثمانيين حيث أطلقوا عليه لقب "شيخ الإسلام"، ويتم تعيينه من اسطنبول رفقة القاضي الحنفي، وهذا لعدم وجود علماء أحناف بالجزائر في البداية. أما المفتي المالكي فكان يعينه الديوان بالجزائر رفقة موظفي المساجد وهو من يتولى مهمة عزلهم كذلك. وكان هناك تنافس بين علماء المذهبين⁽²⁾.

ويرجع اهتمام العثمانيين بالعلماء الأحناف لانتمائهم إلى المذهب الحنفي، وكان المفتي الحنفي يتولى القضايا الخاصة بالعثمانيين والكراغلة حسب المذهب الحنفي، أما المالكية فكان لهم مفتي خاص يستمد الأحكام من المذهب المالكي، فكان هذا الأخير مقرّه الجامع الكبير. وبالإضافة إلى الإفتاء كان المفتي يتولى التدريس والإمامة والخطابة. كما كانت توكل له رفقة القاضي تحديد دخول رمضان وأيام العيدين⁽³⁾.

¹ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 391.

² - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 404.

³ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 259 و392 و393.

2- القضاء:

ووظيفة القضاء وظيفة رسمية، ونظرا لخطورة منصب القاضي، فقد كان الكثير من الفقهاء يعتبر عنها خوفاً من عدم التمكن من ممارستها⁽¹⁾، وهذا الأمر كان منذ التواجد العثماني، فابن الفكون كان متحفظاً من هذه الوظيفة لأنها وظيفة تخدم الحكام وأوليائهم وقد رفضها من قبل عمر الوزان (توفي 1537م)⁽²⁾، ونظرا لامتيازات هذا المنصب فقد كان مدعاة للتنافس بين العلماء لأنّ فيه الجاه والنقوذ. وبما أنّ العثمانيين أحناف، فقد اتخذوا لهم قاضياً حنفياً إضافة إلى القاضي المالكي⁽³⁾. لم يكن يسمح للقاضي بالتدخل في السياسة واقتصر دوره على الفصل في القضايا الاجتماعية بالرجوع إلى أحكام الشريعة، والداي هو الذي يعينه ويعزله. وبهذا أصبح في الجزائر قاضيان في كل مدينة رئيسية واحد للمذهب الحنفي والأخر للمذهب المالكي، وهما يشرفان على مجموعة من القضاة في مختلف الأقاليم. أما الانكشارية فكان لهم قاضي خاص بهم، والشيء نفسه بالنسبة للإباضيين الذين كان لهم قضاةهم. أما بالرّيف والمناطق البعيدة عن مركز السلطة كان القضاء فيها يوكل إلى الأعيان⁽⁴⁾. ودور القاضي في فض الخصومات والنظر في القضايا المتعلقة بالأهالي في مختلف الميادين، سواء كانت مدينة أو اقتصادية تخص المعاملات التجارية، كما أنّ له دوراً في توجيه الوظائف الدينية والإشراف على الأوقاف وتعيين القائمين عليها، حيث يساعده في مهامه العديد من العدول⁽⁵⁾.

¹ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقاني، ج1، ص 394.

² - أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406هـ، 1986م، ص 132 - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، تحقيق سعد الله، ص 20 وما بعدها.

³ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقاني، ج1، ص 394 - حوجة محمد بن، صفحات في تاريخ تونس تقدم وتحقيق حمادي الساحلي، الجيلالي ابن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص 185.

⁴ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقاني، ج1، ص 349 - رشيدة شلري معمر، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 73.

⁵ - رشيدة شلري معمر، الامداد والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 72.

3- الخطابة:

تأتي في المرتبة الثالثة بعد القضاء، وهي تستلزم بعض الشروط كالفصاحة وجودة الصوت وسعة الإطلاع، والتمكن الأدبي، وكانت محل تنافس بين العلماء شأنها شأن الفتوى والقضاء. كان الخطيب يؤدي صلاة الجمعة والعيدين وأحياناً يعمل كإمام للصلوات الخمس وبعض الخطباء يشغل منصب إمام في مسجد وخطيب في آخر، وكان للأهالي دور في اختيار خطيب، حيث يرشحونه للحاكم إذا استحسنوا فصاحته وعلمه وخلقه، ورغم أن الخطابة عادة ما كان يتولاها العلماء، وبعضهم الخطباء كان ذا جرأة وفصاحة أثارت مخاوف الحكام⁽¹⁾.

4- الإمامة:

ويقوم الإمام بأداء الصلوات ويعوضه علماء مشهورون أثناء غيابه. كما يقوم رفقة المفتي بمسؤوليات المكان الذي يشرف عليه. ففي المساجد الكبرى أين يعمل بالجامع أكثر من موظف واحد، فيقتصر دوره على أداء الصلاة بالناس، أما بالمساجد الصغيرة فهو يقوم بجميع المهام الدينية، وغالباً ما كان يقوم أيضاً بالتدريس.⁽²⁾ وممن تولى الوظائف الدينية من فقهاء قسنطينة:

1. أحمد بن محمد المبارك، أبو العباس القسنطيني (ت 1265 هـ/1849م): نشأ بمدينة قسنطينة، وبها تعلم؛ حتى صار من فقهاء المالكية، ولي الإفتاء للمالكية والخطابة بالجامع الكبير³، وترأس الطريقة الشاذلية، له نظم، وله بعض الكتب⁴.
2. عمّار الشريف القسنطيني (ت 1241 هـ/1825م): أبو منصور، له اشتغال بالأدب والأصول والبيان، له مشاركة في عدة علوم. ولي القضاء بمدينة قسنطينة مرتين، كما تقلد نظارة الأوقاف، والخطابة بجامع رحبة الصوف¹ مات بقسنطينة².

¹ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 369 - رشيدة شكري معمر، العناء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 74.

² - رشيدة شكري، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، ص: 74.

³ سبق الإشارة إليه.

⁴ - تعريف الخلف 72، ومعجم المؤلفين 2/ 146 - عادل نويهيض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهيض الثقافية، بيروت،

لبنان، ص 2، سنة 1400 هـ/1980م، ص: 260.

3 محمد الحفصي أبو عبد الله القُسْنُطِينِي (ت نحو 1226 هـ/1811م): توسع في علوم الحديث، حافظ له، مدرك لدقائقه وعلمه ورجاله، له اهتمام كبير بعلوم المنقول والمعقول، من كبار فقهاء المالكية في وقته. أخذ عن صالح الكواشي وغيره بتونس. ولي قضاء مدينة قسنطينة، وبقي بها إلى أن وافته المنية. وله كتب³.

4. محمد العربي بن عيسى أبو عبد الله القُسْنُطِينِي (ت 1254 هـ/1838م): إضافة إلى توليه التدريس بمسجد سيدي الجليس⁴، فقد ولي منصب النظر على الأوقاف والقضاء بمدينة قسنطينة إلى أن توفي⁵.

5 عبد القادر بن محمد الراشدي، فقيه مالكي. أصله من الرواشد (توفي نحو 1194هـ/1780م)، وهي من مداشر فرجيوة التابعة لولاية ميلة⁶ حاليا.

ونظرا لمكانته الفقهية فقد تولى القضاء والفتيا بقسنطينة مرارا، وكان يعيل إلى الاجتهاد جعله ربما يخرج عن المذهب أو يخالف مشهوره، فسيب له متاعب وأخرج من القضاء. وقد ترك عدة كتب⁷.

¹ - يرجع بناؤه إلى القرن الخامس الهجري، وكانت له أوقاف تابعة له، وقد عطله الفرنسيون عن وظيفته منذ احتلالهم للمدينة، وجعلوه مخزنا للشعير، وفي سنة 1848م جعلوه ملجأ لإيواء ضحايا الضماعة حين كان الأهالي يموتون في الطرقات جوعا، وفي سنة 1852م أسقطوا منازره، ليحتفي المسجد بعدها ويقام مكانه المستشفى للقدم، وفي الحرب العالمية الثانية حول إلى مدرسة ابتدائية لتعليم الفرنسية، وأعطى له اسم "علي حوجة" أحد أموات الجند الفرنسي في الحرب. وما زالت هذه المدرسة إلى اليوم (أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 5، ص: 80).

² - تعريف الخلف 2/ 287 - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 263.

³ - تعريف الخلف 3/ 365 - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 264.

⁴ - حوكله فرنسا إلى مدرسة عربية فرنسية تابعة لإدارتها، ومن مدرسيها الشيخ محمود كحول المعروف ابن نالي، وهو لفتي المتقال سنة 1936م، وبقي مدرسة بعد الاستقلال إلى اليوم (أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 5، ص: 88).

⁵ - تعريف الخلف 2: 430.

⁶ - هي الولاية رقم 43 من مجموع ولايات الدوة الجزائر التي يبلغ عددها 48 ولاية، وهي ولاية تقع في الشرق الجزائري، ولها حدود مع ولاية قسنطينة وجيجل.

⁷ - شجرة النور، ص: 33 - تعريف الخلف، 2: 221 - معجم المؤلفين 5: 288 - الزركلي، الإعلام، 4/ 164 - عدان نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 145 و146.

6 مصطفى بن الشاوش القسطنطيني: (ت 1252هـ/1836م)¹: إضافة إلى تصدره للتدريس والإقراء فقد تولى الخطابة، بالجامع الأخضر²، لكن عرضت عليه الفتوى بعد وفاة مصطفى باش تارزي، فأبى.

7 العجمي، مصطفى: توفي في حدود 1240 هـ/1823م، باحث، من فقهاء المالكية، نشأ بقسنطينة وولي الإمامة بجامع سوق الغزل³ إلى أن مات. له بعض المؤلفات في الفقه المالكي⁴.

8 عمار بن شريط أبو منصور القسطنطيني: (ت 1250هـ/1835م): أديب، عالم بالحديث والفقه والبلاغة، من أهل قسنطينة، ولي فتيا السادة المالكية بمائ ثم ناظر الأوقاف⁵.

5 إسهامات فقهاء قسنطينة في مجال التأليف:

1. أحمد بن محمد المبارك، أبو العباس القسطنطيني (ت 1265هـ/1849م)⁶: من فقهاء المالكية بقسنطينة.

آثاره:

- "حاشية" على شرح الأخصري لجوهره المكنون.
- "كتاب في شمائل الرسول ومعجزاته".
- عارض عدة قصائد في مدح النبي (صلى الله عليه وسلم)⁷.

¹ - سبقت ترجمته.

² - سبقت الإشارة إليه.

³ - هذا الجامع من أهم مساجد مدينة قسنطينة. وقد سبقت الإشارة إليه، تولى التدريس فيه جماعة كبيرة من العلماء الأعلام، آخرهم الشيخ محمد الشادلي بن عيسى البوزيدي الذي أوفدته السلطة الفرنسية لمؤاتسة الأمير عبد القادر أمام إقامته بفرنسا.

⁴ - تعريف الخلف 569، ومعجم المؤلفين 12:264 - عادل تويهض، معجم أعلام الجزائر، ص:229..

⁵ - تعريف الخلف 2: 286 - عادل تويهض، معجم أعلام الجزائر، ص:187.

⁶ - سبقت ترجمته.

⁷ - تعريف الخلف 72، ومعجم المؤلفين 2: 146.

2 محمد الحفصي القُسْنَطِينِي، أبو عبد الله (ت نحو 1226 هـ/1811م): من كبار فقهاء المالكية في وقته.

آثاره:

"حاشية" على "السلم المرووق" للأحضري، في المنطق، و"تقاليد"¹.

3 عبد القادر بن محمد الراشدي: (1194هـ/1780م): من فقهاء قسنطينة.

آثاره:

- رسالة في "تحريم الدخان".

- و"فتاوى" وغير ذلك.

- "كتاب في عائلات قسنطينة وقبائلها وعربها وبربرها"

- رسالة في "وزن الأعمال".

- "حاشية على شرح السيد للمواقف العضدية"، وغير ذلك².

4 الونيسي، محمد بن علي، أبو عبد الله: (1233 - 1260هـ/1818-1844م): من

فقهاء قسنطينة، له مشاركة في علوم المنطق والكلام واللغة نشأ بقسنطينة وبها توفي.

آثاره:

- حاشية على صغرى الإمام السنوسي.

- أرجوزة في التوحيد وله عليها شرحان.

- حاشية على مختصر السعد.

- له نظم في التصريف.

- كتاب في أحكام الخنثى.

- شرح على البسمة³.

¹ - سبقت ترجمته.

² - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 145 و146.

³ - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 347.

رغم الانحطاط الذي انتاب العهد العثماني في الجزائر خاصة في فترة حكم الدايات، فقد شهدت قسنطينة كغيرها من المدن الجزائرية¹، حركة علمية وفقهية واسعة وبخاصة في المذهب المالكي، فقد ظهر علماء وأسر وحواضر علمية اشتهرت بالعلم والتأليف والدرس. وعند انتهاء الحكم العثماني في الجزائر سنة 1830م بالغزو الفرنسي العظام عليها، تفاجأ المحتلون بعد احتلالهم لقسنطينة سنة 1837م بوجود حركة علمية وثقافية، كما وجدوا علماء ومؤسسات تعليمية ومساجد كثيرة وأوقاف، وأكدت تقاريرهم بأنه تكاد تنعدم الأمية بين الأهالي لكن بعد سنوات قليلة من الاحتلال صار الوضع الثقافي بقسنطينة وبغيرها من مدن الجزائر كارثيا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

بفضله وبرحمته

والصلاة والسلام

على سيدنا محمد وآله

والشكر لله رب العالمين

والسلامة على من

آتاه الله الدين

والعقل والدين

والعقل والدين

والعقل والدين

¹ - كتلمسان وبجاية ومازونة ووهران والجزائر وعنابة وبسكرة.

العلامة محمد القادر الراشدي القسنطيني

من خلال رسالته تحفة الإخوان في تحريم الدخان

أ.سعاد رباع

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

مقدمة:

عرفت قسنطينة منذ مطلع القرن العشرين بأنها مدينة العلم والعلماء، حيث أنجبت ثلة من الأعلام الذين ضربوا بسهم وافر في شتى العلوم ومختلف الفنون، وخاصة الدينية منها كأصول الفقه والفقه وعلم الكلام، والتفسير والحديث والشعر والطب وغيرها من العلوم، إلا أنه كما يؤكد كثير من العلماء والباحثين قديما وحديثا، فإن قسنطينة كغيرها من أنحاء القطر الجزائري، كثيرا ما تجاهلت رجالها وأهل الفضل فيها في عطاءهم العلمي والحضاري، حتى طواهم النسيان وتراكم على أعمالهم الجليمة غبار الزمن، وأسكن أوهن البيوت حيث نسجت العنكبوت خيوطها، إلا ما نراه بين الفينة والأخرى من جهود بعض أبناء هذا الوطن البررة، لنفض ذلك الغبار وإخراج آثار هؤلاء ودرهم السنية إلى النور، وفي ذلك يقول الشيخ الحسين الورتيلاني في رحلته: "وهذه المدينة- قسنطينة- غير خالية من العلماء ولا من الفضلاء والصلحاء، غير أنها سريعة بأهل الصلاح فما ظهر فيها أحد بالقبول والفضل، إلا أسرع بملاكة فينقبض ساعتئذ، وهذا معلوم عند أهلها إما لإساءة ظن أهلها فلا يتفتعون بمن ظهر فيهم، أو لأنها كثيرة الملدوذات فقل فيها أهل الفضل من أصحاب الخيرات"¹. فكثير من علماء الجزائر ومنه قسنطينة، يجهل وجودهم فضلا عن علومهم وآثارهم، إذ جله ردمه التراب، وبما

⁽¹⁾-الورتيلاني الحسين بن محمد، الرحلة الورتيلانية، أو نزعة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق: محمد أبي الشنب، الجزائر، مطبعة بير فونتا الشرقية، 1908، ص 687. عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان في تحريم الدخان، تحقيق: عبد الله حمادي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997، ص 32-33.

يروى في ذلك ما نقله صاحب تعريف الخلف عن الشيخ أبي إسحاق التنسي التلمساني (ت805هـ) أنه لما توجه إلى المشرق اجتمع بقاضي القضاة الشيخ ابن دقيق العيد، فكان من قول القاضي له: "كيف حال الشيخ العالم عبد الله بن خميس(708هـ)؟ وجعل يحليه بأحسن الأوصاف ويطنب في ذكر فضله، فبقي الشيخ التنسي متعجبا وقال: من يكون هذا الذي حليتموه بهذه الحلي؟ فقال القاضي: هو القائل كذا وكذا، وعدد له مقالاته وأشعاره، فقال التنسي: إن هذا الرجل ليس عندنا بهذه الحالة التي وصفتم، إنما هو عندنا شاعر فقط. فقال القاضي ابن دقيق العيد: إنكم لم تصفوه وإنه لحقيق بما وصفناه"⁽¹⁾. ولذا حري بنا أن نغيط اللثام عن هؤلاء الأفتاد، ونعترف بفضلهم بين أهل زمانهم، ونكشف عما تركوه لنا من ميراث علمي نعتر به فقد رحلوا وكان بلسان حالهم يقول:

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ومن هؤلاء المغمورين، مترجما مفتي قسنطينة وقاضي الجماعة بما في القرن 12هـ/18م، العلامة الشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني، الذي تجاوزت شهرته حدود الجزائر وكان مضرب الأمثال من علماء عصره.

نسبه ومولده:

هو الشيخ العلامة عبد القادر بن محمد بن أحمد بن المبارك الراشدي القسنطيني والراشدي نسبة إلى الرواشد مدشر من مداشر فرجوية، وهي دائرة من دوائر ولاية ميلة حاليا، ولا يعرف إن كان ميلاده بما أو بمدينة قسنطينة، وكل ما لدينا أنه ولد في حدود 1111هـ أو 1112هـ أي في القرن 12هـ/18م⁽²⁾، ويرجح عبد الله حمادي كونه ليس قسنطينيا أصلا وإنما دخل قسنطينة واستقر بها فاكتسب هذه الكنية من باب التشريف للشخص

(1) - الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ط2، تونس، مؤسسة الرسالة، المكتبة العتيقة، 1985، ج2، ص384-385.

(2) - محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص228.

وللمدينة المنسوب إليها معا كما جرت عليه العادة في تلك الأحقاب⁽¹⁾.

نشأته العلمية:

يندو من خلال تعريف الراشدي وكتبته بالقسنطيني أنه كان قسنطيني الدار، ولم تذكر النصوص التاريخية إن كان مولده بقسنطينة ونشأته كذلك، أو في منطقة نشأته وهي فرجوية، وكذلك - كما سيأتي - تاريخ ومكان وفاته، مع أن من ترجحوا له كانوا من معاصريه، وأفاضوا في ترجمته، ولكن فيما يتعلق بجوانب كثيرة من حياته، فإن كتب التراجم والتاريخ كانت ضئيلة علينا بكل ذلك، ويظل جانباً كبيراً من حياته غامضاً، سواء عن مولده أو نشأته وغيرها من المعلومات وإن وجد بعضها في بعض الكتب إلا أنه غير كاف لتسليط الضوء على الأمور التفصيلية لنشأته العلمية ولا لحياته التعليمية أو الشخصية، فعن عائلته مثلاً، فإن المراجع لم تتكلم عنها، سوى ما ذكر بعضها أنها كانت عائلة عريقة في العلم والمعرفة، حيث جاء في كتاب معجم أعلام الجزائر لعادل نويهيض، ثمانية أعلام بلقب الراشدي، وكذلك ما ذكره الراشدي نفسه في رسالته (تحفة الإخوان في تحريم الدخان) أسما لأخيه الأكبر منه، ويدعى علي، حيث يقول: "...فذكر لي أخي السيد علي وهو أكبر مني وأنه رأى في المنام شخصاً..."⁽²⁾.

وينقل سليمان الصيد في نفع الأزهار عن مترجمه تلميذه مرتضى الزبيدي غي كتابه "المعجم المختص" وهو معجم لترجمة شيوخه ومنهم الراشدي، "أنه أخذ بعض المعلومات في الترجمة لشيوخه الراشدي عن ابنه عبد الكريم بن عبد القادر، حيث وفد عليه بمصر سنة 1197م، بعد وفاة والده، وأنه ولد بقسنطينة وقرأ على والده وبه تخرج، ثم ورد إلى تونس والجزائر ومكث بمهما مدة وأخذ عن علمائها ثم عاد إلى بلده فدرّس ونفع الطلبة"⁽³⁾.

(1) - عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان في تحريم الدخان، تحقيق عبد الله حمادي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997، ص 19.

(2) - عبد القادر الراشدي، المصدر نفسه، ص 19.

(3) - سليمان الصيد، نفع الأزمدة عما في مدينة قسنطينة من الأخبار، الجزائر، للطبعة الجزائرية للمجلات والبراد، دط، دت، ص 35.

شيوخه وتلاميذه:

لقد مكنتنا المصادر رغم شحها من معرفة بعض شيوخه منهم: أبو العباس أحمد المكودي نزيل تونس (ت. 1170 هـ)، وأبو العباس أحمد البوني (ت. 1139 هـ) ومحمد ابن علي الجعفري، وابن لفكون وغيرهم. وكذا بعض من أخذ عنه من تلامذته كالشيخ العلامة مرتضى الزبيدي صاحب كتاب تاج العروس الذي أجازته إجازة عامة، والقاضي محمد بن المسبح القسنطيني (ت. 1242 هـ)، ومحمد بن علي الطلحي اللغوي (ت. 1232 هـ)⁽¹⁾.

مؤلفاته وتراثه العلمي:

كان الشيخ عبد القادر الراشدي نابغة عصره، وأحد رجالات الثقافة في القرن 12 هـ الذين أثروا وتأثروا وكان لهم باع طويل في مجالات مختلفة، فقد كان الراشدي رجلا موسوعيا جمع بين علوم كثيرة وفنون متنوعة، كالفقه والأصول وعلم الكلام، والتفسير والحديث والشعر وحتى علم الطب والأنساب وغيرها من العلوم التي ربما زادت على السبعة⁽²⁾، فلا غرو بعد ذلك أن يوصف بأنه قرآني وقته وعضد زمانه، حيث جاء في معرض ترجمته ما نصه: "العلامة المحقق المجتهد الأصولي الكلامي، قرآني وقته وعضد زمانه"⁽³⁾. كما قال عنه معاصره الشيخ العلامة الحسين الورتلاني في رحلته بأنه: "قاضي الجماعة النحوي المتكلم الأصولي، المنطقي البياني المحدث المفسر صاحب الأبحاث والفوائد المنيفة"⁽⁴⁾. وكذا ما أورده الراشدي نفسه من إجازات شيوخه وشهاداتهم له، ومن ذلك وصف شيخه أحمد زروق له بالفقيه شيخ المشايخ، مشيدا بمفاخره وتفوقه في تأليف رسالته "تحفة الإخوان في تحريم الدخان" التي زودها بأرقى الإستدلالات الفقهية،

⁽¹⁾ -محمد الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، 228. محمد بن يمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، ط1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1972، ص 78.

⁽²⁾ -الورتلاني، الرحلة، ص692.

⁽³⁾ -محمد الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص228.

⁽⁴⁾ -الورتلاني، الرحلة، ص692.

وأحسن الحجج والدلائل نسج الفقيه ذي الفضائل
 خضم العلوم، زاجر لا يدرك ألا اللبيب، مدرك
 شيخ المشايخ وأكسير العلوم وطودها، يجلي المموم والعموم
 إذا تحدث بأي فن يقال فنه بغير ظن⁽¹⁾

ولم يكن هذا الثناء من علماء المالكية فقط، وإنما نجد أيضا من فقهاء الحنفية في الجزائر آنذاك، وهو محمد بن كوجك علي (ت 1264هـ) الذي نعته بأنه "أستاذ أهل المغرب"⁽²⁾ وقد كشفت لنا المصادر القليلة في ترجمته رغم شحها، عن عدة مؤلفات تركها الراشدي في تلك العلوم والمعارف، تدل على نبوغه في علوم شتى، ومشاركته في فنون مختلفة، وأن ثقافته وتحصيله كان متنوعا في ذلك:

- ففي التفسير له رسالة في تفسير قوله: [وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْمِذَاءُ طَائِرَةٌ فِي عُنُقِهِ]⁽³⁾، فسرها في مجالس في حضرة باي قسنطينة.

- وفي العقيدة وعلم الكلام له كتاب: "متسعة الميدان في إثبات وجه الوزن وآلة الميزان"، تعرض فيه لوزن الأعمال وهو مبحث من مباحث علم الكلام، كما ذكره له بروكلمان في باب الطب والعلوم الطبيعية وهو ما أورده أبو القاسم سعد الله⁽⁴⁾. كما يعد أحد المؤلفات التي كانت سببا في محنته. وله كتاب "مقادير التحصيل لإعداد السبيل"، وهو منظوم مع شرحه وضعه ردا على مخالفيه في قضية التأويل والمتشابه، وكذا رسالة في التوحيد موسومة بـ "تجديد الإيمان في أواخر الزمان"⁽⁵⁾.

(1) - عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان في تحريم الدخان، ص 187.

(2) - عبد القادر الراشدي، المصير نفسه، ص 189.

(3) - سورة الإسراء، الآية: 13.

(4) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 428. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 145-146.

(5) - محمد الحنفناوي، تعريف الخلف، ج 2، ص 228. عادل نويهض، المرجع نفسه، ص 145.

- كما له في أصول الفقه كتاب حافل في مباحث الاجتهاد، ظهر فيه تبحره في علمي الأصول والجدل؛ وهو أحد المؤلفات التي سببت له متاعب، وكذا كتاب في التعليق على شرح سعد الدين التفتزاني على مقاصده في أفعال العباد⁽¹⁾.

- وفي الأنساب له كتاب "في عائلات قسنطينة وقبائلها وعربها وبربرها"⁽²⁾، ربما هو الكتاب الموسوم بـ "عقد الألآلي المستضيئة لنفي ظلام التليبس"⁽³⁾ وربما كان هو أيضا أحد أعماله التي سببت له المحنة التي تعرض لها، إن لم يكن هو السبب المباشر⁽⁴⁾. - كما سنرى عند الكلام عن هذه المحنة - وفي الشعر له قصيدة في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وكذا قصيدة في مدح شيخه الإمام أبو العباس المكودي نزيل تونس متلمسا منه الإجازة، كما له قصيدة طويلة تصف قدوم الفرنسيين إلى الجزائر وتشيد باستماتة صالح باي.

- وفي الفقه له فتاوى ومسائل ابتكارية، كمسألة في حكم من جرى حلفه حرام، وكذا رسالته الوحيدة من بين أعماله التي خرجت إلى النور، وهي "تحفة الإخوان في تحريم الدخان"⁽⁵⁾.

المناصب التي تقلدها:

تقلد عبد القادر الراشدي عدة مناصب أداها بامتياز منها:

1- القضاء: حيث تولى قضاء الجماعة بقسنطينة في المذهب المالكي مرارا، فقد وجدت وثيقة في حكم التحسيس على الذكور دون الإناث، حيث ورد ذكر توقيعها عليها وكذا وضع طابعه - أي ختمه - كالتالي: "السيد عبد القادر الراشدي قاضي السادة

(1) - عادل نويهيض، معجم أعلام الجزائر، ط2، بيروت، مؤسسة نويهيض الثقافية، 1980، ص145-146.

(2) - عادل نويهيض، المرجع نفسه، ص146.

(3) - محمد الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص228-229. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص415.

(4) - وهو ما يراه د. عبد الله حمادي في مقدمته، لتحقيق تحفة الإخوان في تحريم الدخان للراشدي، ص34-35.

(5) - محمد الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص228-229. عادل نويهيض، معجم أعلام الجزائر، ص145-146.

المالكية"⁽¹⁾ بينما يرحح عبد الله حمادي كونه مالكياً قضاءً وفتياً وهو مذهب⁽²⁾.

2- الفتوى: كما جلس الراشدي للإفتاء بقسنطينة أيضاً عدة مرات؛ وذلك في المذهب الحنفي لأن الفتوى كانت به حيث كان هو مذهب السلطة العثمانية آنذاك؛ بينما كان مذهب الشعب هو المذهب المالكي، فكانت السلطة العثمانية لا تولي منصب الإفتاء إلا لمن ترضى عنه في علمه وخلقه ورأته أهلاً لذلك. حيث إنه: في سنة 1190م جمع صالح باي لجنة من العلماء مؤلفة من المشايخ: العلامة عبد القادر الراشدي مفتي الحنفية، والشيخ شعبان بن جلول قاضي الحنفية، والشيخ العباسي قاضي المالكية، واستعان بهم في تنظيم الأوقاف وبرنامج الدراسة، وطريقة تشييط الحركة العلمية، وتوسيع نطاق دائرة المعارف المتعددة ليستفيد الطلبة من ذلك"⁽³⁾. فتولته منصب الإفتاء دليل على مكانته العلمية وشهرته بين الناس وسمعته الطيبة التي تجاوزت حدود الوطن، ومنصب الفتوى هو أعلى منصب كان يتولاه العالم، ذلك أنها تحتاج إلى درجة عالية من العلم والتعمق في مسائل الفقه، ومعرفة قوية للقرآن وعلومه وعلوم الحديث والقياس ونحو ذلك مما يحتاجه المفتي، كما تتطلب قوة الشخصية والنزاهة والصلاح والشجاعة في الرأي والثبات على قول الحق، وكانت شهرة العالم بين الناس في هذه الأمور من بين عوامل ترشيحه لهذا المنصب⁽⁴⁾، والراشدي كان من العلماء الذين استحقوا هذا المنصب عن حدارة لتوفر شروط ومقومات الفتوى فيه.

3- التدريس: تولى الراشدي مهنة التدريس بقسنطينة، وذلك في مدرسة الجامع الأخضر سيدي الكتاني التي أنشأها صالح باي، حيث درّس فيها التفسير وغيره من

(1) - سليمان الصيد، نفع الأزهار، ص 54.

(2) - عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان في تحريم الدخان، مقدمة المحقق، ص 34 وما بعدها.

(3) - محمد بن ميمون، الحفة الرضية في الدولة البكداشية، ص 48-50. سنيان الصيد، نفع الأزهار، ص 35.

(4) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 391.

العلوم الشرعية التي كان ضليعا فيها، فكانت دروسه مضرب الأمثال في العمق والإحاطة والرقى، وذلك نتيجة لجهوده الشخصية ومؤهلاته الفطرية، وليس لانتمائه لنظام شامل تخضع له المؤسسة التي كان يتبع لها⁽¹⁾. وقد جاء عن تلميذه بالإجازة مرتضى الزبيدي، ترجمة له نقلها عن ابنه الشيخ عبد الكريم بن عبد القادر القسطيني "ونصها: "ولد بقسنطينة وقرأ على والده وبه تخرّج، ثم ورد إلى تونس والجزائر ومكث بمدة وأخذ عن علمائها، وعاد إلى بلده فدرّس ونفع الطلبة"⁽²⁾.

لمحات من شخصية عبد القادر الراشدي ومواقفه:

1- عبد القادر الراشدي مجاهدا: لم يكن الراشدي رجل علم فقط، بل كان رجلا كفاح ونضال أيضا، حيث شارك في طرد الأسبان عن الجزائر، مع العلماء الذين كانوا في طليعة من تجندوا لهذه الغاية لا فرق بينهم وبين الجند الأتراك إذا تعلق الأمر بالدين والوطن، فقد انضمّ إلى الجيش الجزائري الذي خرج من مدينة قسنطينة بقيادة "صالح باي" لمدافع عن مدينة الجزائر التي تعرضت للغزو الإسباني وذلك سنة 1189/1775م، وبناحية الحراش وقعت المعركة التي انتهت بانتصار الجيش العثماني، فكان الراشدي أحد رجال هذه المعركة وواحد من علماء الجزائر الذين أنتجوا أدبا سياسيا كثيرا نتيجة هذه الأوضاع، فقد نظم في ذلك قصيدة في مدح القائد صالح باي، مشينا بحنكته العسكرية وببطولات الجيش العثماني بالجزائر⁽³⁾.

2- عبد القادر الراشدي مصلحا: لقد عاش الراشدي في جو ثقافي اجتماعي مشحوننا بالمتناقضات والصراعات المذهبية بين المالكية والحنفية، على اعتبار كون المذهب المالكي هو المذهب الأصلي لأهل البلد، بينما كان المذهب

⁽¹⁾ أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج1، ص274.

⁽²⁾ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص325. سليمان الصيد، نفع الأزهار، ص35.

⁽³⁾ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص417. عادل تويهي، معجم أعلام الجزائر، ص146.

خفني هو مذهب السنطة وهم الأتراك آنذاك، حيث حاولت بكل الطرق جعل حظوى والأوثوية لهذا المذهب، كما عاش صراعات دينية كلامية فلسفية بين المعتزلة والأشعرية وكذا الطرقية الموغلة في الإلحاد إلى زندقة وفجور، إلى صوفية سطحية تحولت إلى دروشة، حيث تمثلت في التوسل للأضرحة والقبور والتسلي بيسط الأكف عند المزارات في الحل والترحال، والركون إلى الخرافات الخيالية. ومع ذلك كله، فقد كانت قسنطينة محافظة على شيء من التراث العلمي والديني الأصيل، حيث كان العلماء فيها يتمتعون بالسيادة المطلقة والنفوذ التام⁽¹⁾، ومن هؤلاء مترجمنا عبد القادر الراشدي الذي تصدى لمحاربة البدع والخرافات، شأنه في ذلك شأن العلماء المحققين المخلصين من أسلافه ومعاصريه، فقد واجه تيار الصوفية المتدروشة والطرقيه المتطرفة، التي كان لها الحظوى لدى الحكام الأتراك الذين اهتموا بها اهتماما كبيرا لم يولوه للعلم وأهله، فكانت له فتاوى إصلاحية تصدى بها للبدع والأهواء والخرافات التي كانت منتشرة في مجتمعه، وكذا لكل مظاهر الجهل والدروشة وتعرض فيها للزوايا المقامة في قسنطينة لهذا الغرض، ولكن ما يحز في النفس أن كل تلك الفتاوى القيمة لم يصل إلينا منها شيء، وأصبحت في عداد المفقود ولم يبق منها إلا عناوين لبعض مؤلفاته التي يبرز منها توجهه المقصود للتصدي ومحاربة تلك البدع، ومن ذلك قصيدته في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم⁽²⁾. وكذا ما نلمسه من فتاوى اجتهادية إصلاحية جارحة في رسالته "تحفة الإخوان" التي تعرض فيها لتحريم هذه الآفة المستحدثة بين الناس وهي تعاطي الدخان أو الحشيشة وغيرها من المنشطات والمغيبات والمسكرات... بحجج وبراهين تدل على نبوغه وتضلعه في ميادين عديدة والتي تظهر بين جنباتها روحه الإصلاحية⁽³⁾.

(1) - محمد بن ميمون، التحفة المرصية في الدولة البكداشية، ص 48. عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان، مقدمة الخفني، ص 41-42.

(2) - محمد بن ميمون، المصدر نفسه، ص 45. محمد الخفناوي، تعريف الخلف، ج 2، ص 229.

(3) - عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان، ص 41.

كما تبرز آراؤه الإصلاحية التجديدية، في دعوته لنهذ الانغلاق على العلوم الدينية فقط، دون الاطلاع على العلوم الكونية الأخرى، من طب وعلم الكيمياء والحساب والفلسفة وغيرها، وما مؤلفاته السابقة إلا شاهد على ذلك، خاصة أن الثقافة السائدة في المجتمع الجزائري آنذاك في عهد الأتراك، تمثلت في التركيز على العلم المنقول أو الديني، حيث انصب على الفهم الدقيق للنصوص الشرعية وحفظها، والتعمق في فن الأصول ومعرفة الفقه وأصول العقائد دون غيرها من العلوم الطبيعية، أو بمعنى آخر كانت الحركة العلمية آنذاك قائمة على الحفظ الجاف للنصوص والأراجيز الفقهية والأذكار الصوفية، في حين كان فن المنطق والفلسفة مختلف فيه فلم يهتم بالعلوم الكونية الأخرى⁽¹⁾ في هذا الجو الذي اعتراه الانحطاط الفكري والخمول والجمود على الموروث، جاءت دعوة الراشدي إلى التكامل المعرفي⁽²⁾، والتقارب بين العلوم والمعارف وعدم الاستئثار بالعلوم الدينية فقط، وإنما الرجوع إلى العلوم الكونية الأخرى أيضا، باحترام أهل الاختصاص فيها والرجوع إليهم في أي نازلة قبل البت في الحكم الشرعي، ومن ذلك ما جاء في رسالته "تحفة الإخوان" من رجوعه إلى أقوال الأطباء والاستدلال بما كسند يقوي حجته في الدعوة لتحريم الدخان، وأنه ما جعل للتداوي ردا على من قال بذلك حيث يقول: "وقد

(1) - محمد بن ميمون، التحفة الرضية في الدولة البكداشية، ص 46.

(2) - على عكس ما ذكره محقق التحفة الرضية في الدولة البكداشية ابن عيد الكريم، أن الراشدي كان من جل علماء العصر الذين لا يحكمون العقل بل ينجون نحو التسليم التام إلى من سبقهم من رجال التقليد، ويرون في الأخذ بالمنقول أصوب منهج لمن اتبع سنة الله ورسوله، مستشهدا بالأبيات التي ذكرها الراشدي:

خيرا عني المرید بأنــــي كافر بالذي قضته العقول
ما قضته العقول ليس في الد ين بل الدين ما حوته القول.

وتكن المتصع هانه القصيدة يحد أنه ذكر الأبيات في الرد على المذولة في صفات الله بالعقل، ودعا إلى التفويض إلى النصوص بما ذكرته من صفات.

كان يذكر لي بعض مهرة الأطباء وحذاقهم، أنه لا دواء فيها...⁽¹⁾ . ومن ذلك استناده في تحريم الدخان على ما قرره الأطباء بالتجربة والمشاهدة لتلك الأعراض والأضرار الناجمة عن تعاطيه، فيقول: "سيما إضراره بالعقل والبدن لأن من طبعه التحفيف للرطوبات، وبعد تمامه يحترق الكبد والدماغ والقلب، فيتبعها سائر البدن فيكون سبباً لتهلاك عادة... لأنه يسري في العروق والأعصاب حتى أنه يسود مخ العظام كم شاهدوه (أي الأطباء)، وشاهدوا القلب مثقب مثل الإسفنجة والكبد كأنه مشوي على النار، ويقع منه سد المجاري كسا شهده في القصة، فيتعطل وصول الغذاء ويقع الهلاك"⁽²⁾ . وفي ذلك دليل على إلمامه بالعلوم الطبيعية كالطب ورجوعه إلى أهل الاختصاص في ذلك. وكذلك استدلاله بآراء أكبر الفلاسفة والأطباء من يونانيين أمثال جالينوس وبطليموس، أو عرب كابن سينا وابن النفيس والفرايبي وابن رشد وغيرهم، مما عجت به رسالته في تحريم الدخان⁽³⁾، الأمر الذي يبرز المستوى العلمي والثقافي الرفيع لدى الراشدي.

3- عبد القادر الراشدي متكلماً:

لقد نبغ الراشدي في عدة علوم وتضلع في عدد من الفنون، منها علم الكلام والجدل الذي تمكن فيه وأتقنه، ويظهر تأثره بهذا العلم في طريقتة الجدلية التي ساقها في رسالته تحفة الإخوان⁽⁴⁾، عند عرض الحجج المحرمة للدخان حيث أسهب في ذكر أقوال الفلاسفة: ومن استدلالاته العقلية الجدلية التي عبرت عن حنقه لهذا الفن، ما أهله للخوض في مثل هذه الموضوعات الكلامية، كاعتماده في تحريم الدخان بقضية الحسن والقبح العقليين وأحكما شرعيين كذلك مع اختلاف العلماء في هذه المسألة، وأن المستحسن في جميع الطباخ عقلا يستلزم كونه حلالاً، والمستحب في جميعها كالدخان حرام⁽⁴⁾.

(1) - عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان، ص 135.

(2) - عبد القادر الراشدي، المصدر نفسه، ص 105-106.

(3) - عبد القادر الراشدي، المصدر نفسه، ص 87، 105.

(4) - عبد القادر الراشدي، المصدر نفسه، ص 126.

4- عبد القادر الراشدي فقيها مجتهدا:

لقد كان الراشدي من علماء الجزائر الذين كانوا "مضرب الأمثال في العمق والإحاطة والرقى"⁽¹⁾، وكان من الفقهاء المبرزين والمجتهدين المحققين حيث كانت له "فتاوى اجتهادية وله تعليقات ومسائل ابتكارية جليلة"⁽²⁾. وقد سبق ثناء العلماء له وتحليلته بالعلامة المحقق المجتهد الأصولي، قرافي وقته وعضد زمانه⁽³⁾، وقد وصفه معاصره الورتيلاني في رحلته بأنه جمع بين علوم كثيرة من الفقه والأصول... وأكثر من سبعة علوم، وأنه بلغ درجة الاجتهاد⁽⁴⁾، ومن ثم فتشبيبه بالقرافي والعضد لم يأت من فراغ، وإنما هو تشبيه يدعمه الدليل، فقد كان الرجل موسوعيا تنوعت مشاريعه العلمية بين علوم وفنون مختلفة، وعناوين آثاره العلمية تؤكد ذلك.

وأما ما يبرز مكانته الفقهية والاجتهادية أكثر، هو جلوسه للإفتاء حيث لا يسند هذا المنصب إلا لمن توفرت فيه شروط الاجتهاد، وقد أسعفتنا رسالته في تحريم الدخان بأدلة حية قوية، تؤكد بلوغه هذه المكانة، وتضلعه في الفقه، وعلم الأصول، وكثير من العلوم الأخرى، حيث أسهب في عرض الأدلة والحجج على تحريم الدخان ومشتقاته، كالمسكرات، والمخدرات والمشهيات والمسكنات والمفككات، وغيرها مما يغييب العقل أو ينشط الجسم والإحساس، بأسلوب برز فيه عقله الاجتهادي وروحه الابتكارية، في عصر دب فيه الخمول والجمود على كتب المتقدمين، حيث لا يعدو الإنتاج العلمي على حواشي وشروح لها، واحترار لما قيل دون إبداع أو إتيان بمجديد. مع الإشارة أن الراشدي لم يكن بدعا في تحريم الدخان ولا أول من دعا إلى ذلك وأعطى الأدلة المدعمة لهذا الرأي الفقهي ولا أول من صنف فيه، وإنما سبقه بعض

(1) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 1 ص 274

(2) - محمد الحفناوي تعريف الخلف، ج 2 ص 229

(3) - محمد الحفناوي المرجع نفسه، ج 2 ص 228

(4) - الورتيلاني، الرحلة، ص 692.

العلماء والشيوخ إلى ذلك مع اختلافهم حول حكمه بين محرم ومبيح ووسط بين ذلك، باعتباره نازلة ظهرت للناس في أخرىات القرن 10 هـ وبداية القرن 11 هـ، ويشير عبد الله حمادي أن أول من تطرق لموضوع الحشيشة أو الدخان وتحليل حكم تعاطيه هو الشيخ علي الأجهوري المالكي (ت 1066 هـ)⁽¹⁾، وهو من يستشهد به العلامة الراشدي على ذلك في رسالته "تحفة الإخوان في تحريم الدخان"⁽²⁾.

وقد اتبع الراشدي في دعوته إلى تحريم الدخان، منهج القرآن الكريم في التدرج للوصول إلى الحكم، حيث أقر في البداية ما نص عليه غيره من العلماء، فيما يتعلق بمفعول الحشيشة أو الدخان الذي ظهر بالهند أولاً ثم تسرب إلى المشرق الإسلامي ومن ثم إلى المغرب بأنه الإفتار وإبطال الشهوة، وأن المقصود من وراء تعاطيه كان في بداية أمره وقبل تفشيه - وذلك من طرف الزهاد والعباد - هو التعفف ومنع النفس من الميل إلى ما يوقع في الحرام، وذلك كما يقول: "لما اعترف به وشهد به كثير من له تجربة بما (أي الحشيشة والدخان) وللخمر وصرحوا بافتارها وإضعافها عن الجماع"⁽³⁾.

- استدلاله بالقياس على تحريم الدخان: بمقارنته بغيره من المنغيات والمسكرات والمنشطات، والقياس عليها بجامع حصول الأعراض التي تصيب متعاطيها، والأضرار التي تلحق مدمنها في صحته الجسدية والعقلية والحسية، حيث يقول مستندا لأقوال الفقهاء كالقرافي وغيره في هذا القياس، ما نصه: "ما عمت به البلوى من شرب دخان "طاب" محرم الاستعمال لاعتراف كثير ممن له ميز وتجربة بأنها تحدث تفتيرا وخذرا فتشارك أولية الخمر في نشوته وتشبه الأفيون والحشيشة في جنسها... ويشهد لذلك أيضا الإدمان عليها والولوع بها فلولا اشتغالها على ذلك لما ولع متعاطوها"⁽⁴⁾.

(1) - عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان، ص 59

(2) - عبد القادر الراشدي المصدر نفسه ص 161-162.

(3) - عبد القادر الراشدي، تحفة إخوان في تحريم الدخان، ص 135.

(4) - عبد القادر الراشدي، المصدر نفسه، ص 134.

— استدلاله بالمنقول على تحريم الدخان: حيث يرجع في ذلك إلى النصوص الشرعية من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فيأتي بآيات كريمة، ويعطي تحريجا لها للدلالة على تحريم الدخان والدعوة لتجنبه، ومن ذلك مثلا، قوله تعالى: [وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُضْمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ (8) فِي غَمَدٍ مُّثَدَّدَةٍ (9)]⁽¹⁾ وذلك تفضيحا لشأنها فقال: "وقد أخذ هذا الخبث بهذا الاستعمال، نوعا من هذا المعنى (أي الموجود في الآية) فلتجنب المباعدة عنه مخافة التشبه بأهلها وهو منهي عنه لأن من تشبه يقوم أوشك أن يكون منهم"².

كما يستدل بأحاديثه — صلى الله عليه وسلم — في الرد على المخالفين له الجيزين لتعاطي الدخان، وذلك ببيان أنه بدعة مستحدثة فيأتي بقوله — صلى الله عليه وسلم —: "شر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة"⁽³⁾، ويقوله أيضا: "من أحدث في أمرنا أو ديننا ما ليس منه فهو رد"⁽⁴⁾ (12) كما استدلل بفعل السلف على تحريم الدخان، حيث بين أنهم — رضي الله عنهم — لم يعرفوه ولم يتعاطوه، وما لم يعرفوه ولم ترد الضرورة إليه فلم يتعاطوه منكر، فينهى عنه لقوله تعالى: "وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا"⁵ وقد نحى عن محدثات الأمور، فيجب تركها⁽⁶⁾. وغيرها من النصوص، دليل على بلوغ الراشدي كما وصفه معاصره البورتيلاني، مرتبة الاجتهاد والتحقيق والتحديث⁽⁷⁾.

⁽¹⁾— سورة الممتحنة، الآية 9

⁽²⁾— عبد القادر الراشدي تحفة الإخوان في تحريم الدخان، ص 111.

⁽³⁾— ابن ماجه، السنن، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط، دار الرسالة العالمية، 2009 ح(42) ج 1 ص 28، البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، الرياض، مكتبة الرشد، 2002، ج (7110) ج 10 ص 21.

⁽⁴⁾— أحمد، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط1، مؤسسة الرسالة، 2001، ح(26032)، ج3، ص157.

⁽⁵⁾— سورة الحشر الآية 59.

⁽⁶⁾— عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان في تحريم الدخان، ص 106-107.

⁽⁷⁾— البورتيلاني، الرسالة ص 692

- استدلاله بمقاصد الشريعة: مما يدل على تضلعه في الاجتهاد، استدلاله بمقاصد

الشريعة حيث كان يرى تحريم الدخان إلا إذا دعت إليه الضرورة والمصلحة وهي التداوي - بشكل ما - لما فيه من حفظ النفس، فحينئذ يقول بجوازه استثناء، مع ما فيه من أضرار قد تتنافى وتتعارض مع مصلحة حفظ المال أيضاً، فيقول: "وأما لو دعت الضرورة إليه كالمداواة به لإخراج العلقه التي تشرب، فيجوز مع ما فيه من الأضرار، تقدماً للضرورة الحالية إذا كانت أهم من الضرورة المالية"⁽¹⁾. كما يستدل على تحريم الدخان من خلال ما يترتب عليه من مضار مخرجة بمقصد حفظ النفس والمال...، ومن ذلك شرحه للأعراض الناجمة عن تناول المنشطات من دخان وغيره، المفسد للجسد فيقتضي تحريمه، فيقول: "سيما مع إضراره بالعقل والبدن، لأن من طبعه التحفيف للرطوبات، وبعد تمامه يحترق الكبد والدماغ والقلب، فيتبعها سائر البدن فيكون سبباً للهلاك عادة"⁽²⁾. ومما يؤكد أيضاً على تحريم الدخان لمعارضته مقصد حفظ النفس، كونه يغير البدن عن المجرى الطبيعي له، وهو استقامة الخلق حيث يسعى سلوك الإنسان وخلقته، بالإضافة إلى إفساد بدنه، سيما عند فقده بعد اعتياده، وما يغير ليس من الدين في شيء، ويستدل بالآية: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا"⁽³⁾،⁽⁴⁾ كما رد على القائلين بجوازه بدعوى ثبوت مصلحة فيه رغم أعراضه المضرة، وقياسهم له على الأغذية التي تشترك معه في وجود أعراضه ومضارده، بأنه قياس غير صحيح، لأن وجود تلك الأعراض والمضار في بعض الأغذية عن الأمور الجائزة، لأن الأغذية تتوقف مصلحة الإنسان عليها وهي الاقتيات، بينما الدخان لا مصلحة لنا فيه ولا منفعة.⁽⁵⁾

¹ - عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان في تحريم الدخان، ص 107.

² - عبد القادر الراشدي تحفة الإخوان في تحريم الدخان، ص 105 - 106.

³ - سورة الروم، الآية 30

⁴ - عبد القادر الراشدي تحفة الإخوان، ص 108 - 109.

⁵ - عبد القادر الراشدي، للنص نفسه، ص 108-109.

- استدلاله بمفهوم المخالفة: دليل على علمه بأصول الفقه وطول باعه فيه، حيث يستدل به على تحريم الدخان، وذلك من قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُجِلَّ لَهُمْ قُلْ أَجَلُهُمْ لَكُمْ عِنْدَ النَّبِيِّاتِ﴾⁽¹⁾، حيث قال: "وفحواه تحريم الخبائث"⁽²⁾، ويريد به ما تضمنته المعنى المسكوت عنه وهو خلاف المنطوق، وهو ما يسمى دليل الخطاب عند المالكية ومفهوم المخالفة عند الحنفية خاصة.

- استدلاله من الواقع والمعقول: فردا على من أجاز الدخان بقياسه على التفكيكات وغيرها من الكماليات بلحا الراشدي إلى الواقع مفندا لذلك القياس معطيا - كما يقول - أبسط دليل على حرمة الدخان من الواقع والعادة وهو أنه "يصدق بعد شربه منه ولا يجده يصدق من بعد تفككه بفأكته، فلعل هذا منه (أي من المخالف) مكابرة، وإلا بل أُمييت عنده مساجد الله تعالى، لأنها لا تحاب من أكل الفواكه"⁽³⁾.

- كما يستدل من المعقول على حرمة الدخان، وذلك بأنه "مظنة لإضاعة المال، وإضاعته بلا منفعة حرام فمظنتها كذلك"⁽⁴⁾. وهي لفتة منه إلى عدم التعامل مع اليهود وأهل الكفر وإعانتهم بشرائه؛ لأن فيه ضرر لإضاعة المال وهو ضرر بالإسلام وأهله ونفع لأهل الكفر بأموال المسلمين مما يقويهم ويضعف الأمة الإسلامية وهو الحاصل اليوم فيقول: "حيث احتصوا بالجيد من سكة الإسلام، بل واستبدوا بكثير من أموال المسلمين وفي ذلك ضرر عام يقضي إلى توهين الإسلام"⁽⁵⁾.

(1) - سورة: 4

(2) - عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان، ص 117.

(3) - عبد القادر الراشدي، المصدر نفسه، ص 121.

(4) - عبد القادر الراشدي، المصدر نفسه، ص 129.

(5) - عبد القادر الراشدي، المصدر نفسه، ص 129.

آراؤه الفقهية في القهوة والشاي:

والقهوة والشاي في كونهما بدعة مستحدثة لم تكن في عصر النبي - صلى الله عليه وسلم - ولكن يرجع ظهورها في العالم الإسلامي، إلى القرن 10/16م وذلك في الشام، بمدينة حلب⁽¹⁾، وقد انقسم الفقهاء في حكم شرب القهوة والشاي إلى ثلاثة أقسام⁽²⁾: قسم بتحريمها وهم من فقهاء السلطة التي رأت في شرب القهوة ومما يتبعها من اجتماع في المقاهي، خطر على أمنها، فاستعانت بحؤولاء الفقهاء لمنع الناس من ذلك، وقسم ثان يقف موقفا وسطا ويستدل في ذلك بهذه الأبيات:

أقول لأصحابي عن القهوة انتهوا ولا تجلسوا في مجلس هي فيه

وليس بمكروه ولا بمحرم ولكن غدت مشروب كل سفه

وقسم ثالث يرى إباحتها بل تحبيدها، كمترجنا حيث يقول بجوازها وهو مع التيار الغالب، ويستدل بإباحة العلماء بشرها وذلك بقرب قبر النبي - صلى الله عليه وسلم، دون نكير من أحد منهم، فقد استند هذا التيار إلى قول الشاعر فيها:

قهوة البن حلال وشفأ أيد الله بها أهل الصفا

إن يكن في شربها من ريبة ما سقوها عند قبر المصطفى

وقد أبدى الراشدي ملاحظة مهمة في شرب القهوة وهي أنها غير محرمة لعدم قياسها على الدخان، وذلك بيانه أن أعراضها غير أعراض الدخان، فيقول عنها أنها تحصل: " نشاطا وروحنة وطيب خاطر بل ربما كان معونة على زيادة العمل"⁽³⁾. وقد كان بعض العلماء في عصره يقول بتحريمها قياسا على الحشيشة والدخان لمفعولها المنشط فأبطل الراشدي ذلك.

(1) -عبد القادر الراشدي، للمصدر نفسه، ص 80.

(2) -عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان، ص 81.

(3) -عبد القادر الراشدي، المصدر نفسه، ص 133.

غير أنه كان متأثراً بتيار الصوفية الذي كان سائداً في تلك العصور، في جانب من جوانب تفكيره، حيث نجد أنه يأخذ بالرؤى والأحلام كسند لتأكيد الحكم الذي يراه، ومن ذلك ما جاء في رسالته في تحريم الدخان، نقله عن بعضهم أنه لما اشتكى من ألم ما، "أشير عليه بشرب الدخان فلما عزم عليه رأى في نومه من قال له إنه يوقف على الشهادة فترك. ورأى بعض شربته (أي في المنام) شخصين ذهباً إلى النار فلما قرب تشهد فرأى نفسه معهما وسمع أحدهما يقول لصاحبه: منعتك الشهادة فاستيقظ وقد وجد حرّاً ورائحة مثل الجيفة فانزجر"⁽¹⁾. وغيرها من الأخبار التي يؤكد الراشدي أنها دالة على تحريم الدخان، وكما هو شأنه في رؤى مثلهما، وقد أنكر على من كذب بمثل هذه المنامات وبمحتجها لأنها -حسب رأيه- من طرف الأولياء والعدول النقلة⁽²⁾. وبعد فهذا غيض من فيض مما طفحت به رسالة الراشدي في تحريم الدخان من معلومات أصولية وفقهية وواقعية وكلامية وعلمية طبية، تدل على مستواه الثقافي الذي بلغه في عصره، حيث أسهب في ذكر الحجج النقلية والعقلية والواقعية في الانتصار لرأيه، برزت فيها روحه الإبداعية والاجتهادية وطول باعه في كل تلك المجالات، فقد كان بالفعل فارس العقول والمنقول وعالماً موسوعياً متكامل المعارف، وقد اتضح ذلك كله في كتابه "تحفة الإخوان في تحريم الدخان" وهو واحد من مجموعة مؤلفاته، التي لا تزال حقلًا بكرًا وروضاً أنفًا، وأظنها لو ظهرت هي أيضاً للنور لوجدنا فيها للراشدي كنوزاً ونفائس أخرى.

5- مذهب الراشدي وعقيدته:

لقد كانت المصادر جدّ ضئيلة فيما يتعلق بحياة الراشدي -كما أسلفت- ومن ذلك عقيدته ومذهبه الفقهي، حيث اختلف في ذلك على اعتبار أنه تولى منصب الإفتاء في المذهب الحنفي، كما اتهم أنه مخالف لعقيدة الأشعرية معاد لها، لأنه دعا

⁽¹⁾ -عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان، ص 162-163

⁽²⁾ -عبد القادر الراشدي، المصدر نفسه، ص 164.

لإثبات الصفات كما هي دون تأويل، ومنهم من نسب لذلك إلى النسفية، والحقينة، أن كل ذلك ليس على إطلاقه ويحتاج إلى دليل. ومن هنا نقول إن الراشدي مالكي المذهب أشعري العقيدة -رغم ما قيل عنه- والأدلة على ذلك كثيرة منها:

- نستنتج من خلال أقواله وآرائه كونه مالكيًا، وذلك مثلاً عند تفريقه بين الإسلام والإيمان، في معرض الاستدلال على تحريم الدخان، بأن تناوله ليس من الإسلام ولا من الإيمان، باعتبار الإسلام هو الأفعال، والإيمان هو التصديق بما جاء به الإسلام، فقال: "ولو سلم على مذهب الأصحاب أنه التصديق..."⁽¹⁾ والمقصود بمذهب الأصحاب هم المالكية، إذ هم من يقول بذلك⁽²⁾.

- كما يستشهد على إفساد الدخان للصوم بأقوال المالكية وتصحيحه لها، مؤكداً انتماءه لهذا المذهب، حيث جاء في رسالته في تحريم الدخان قوله: "وصح أن شمّ الدخان مفسد عندنا (يقصد المالكية لأنهم من يقول بذلك) بالوصول إلى الخلق، وعند الخفية لأبد من وصوله إلى الجوف، ومن ثم قالوا لو استحيط ليلاً ووصل إلى الرأس ثم خرج نهاراً لا يفسد صومه"⁽³⁾.

- كما يدل على مالكيته توليه لمنصب القضاء المالكي، لأنه منصب خطير لا يتقلده إلا من كان عارفاً بفروع وأصول أحكام المذهب الذي يحكم به.

- وما يشهد أيضاً على مالكيته، تتلمذه على عدد من شيوخ المالكية، منهم العلامة أحمد زروق، والشيخ ابن لفكون والشيخ الكمودي نزيل تونس وغيرهم، كما يدل عليه استشهاده بأقوال علماء المالكية من المتأخرين، وتحليته لهم بلفظ "شيوخنا" وذكره لبعضهم بقوله "سيدي فلان" دليل على أخذه عنهم، ومن ذلك قوله: "قال سيدي عبد الرحمان الفاسي" وقوله: "وقد أفتى فيها الشيخ العارف سيدي زروق

⁽¹⁾ -عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان، ص108 وما بعدها.

⁽²⁾ -إبراهيم مذكور، الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، مصر، مكتبة الدراسات الفلسفية، 1983، ص53.

⁽³⁾ -عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان، ص137.

بالحُرمة⁽¹⁾، وكذا قوله: "وبني عليه بعد ذكر هذا الخلاف شيخ مشايخنا أبو العباس بن القاسم البوني"⁽²⁾، وقد كان شيخه وهو مالكي. وكذا نقله عن القرافي، وابن رشد، وخبيل، وابن سلمون، والخرشي، وابن غازي، والأجهوري المالكي، ويقول في موضع من رسالته عن حكم الدخان أو الحشيشة: "وكذلك تكلمت أول ما ظهرت مع بعض أشياخنا المحققين فقطع بدمها"⁽³⁾، ويشير بذلك إلى شيخه ابن لفكون. وكذا نقله عن بعض مشايخه المالكية التونسيين: "وقد نقل شيخ مشايخنا سيدي أبو العباس أحمد يفيد: عن ولي الله العارف بره سيدي أحمد بن موسى بن بكر الجزولي السوسي"⁽⁴⁾.

وأما عن عقيدته فقد كان -رحمه الله- أشعريا مفوضا، رغم ما اتهم به من التحسيم، أو ما أُلصق

به من أنه كان سلفيا معاديا للأشعرية، ودليله من عدة أوجه:

الأول: أنه -رحمه الله- كان مالكي المذهب أشعري العقيدة مفوضا، مثبتا للصفات الإلهية كما جاءت، مفوضا معناها إلى الله تعالى، وهي نفسها عقيدة أسلافه المالكية⁽⁵⁾، وما المقولة المشهورة عن الإمام مالك "الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة" إلا خير دليل على ما نقول.

الثاني: الجهل بمسألة التأويل والتفويض عند الأشعرية، ففي كليهما إثبات للصفات، إلا أن التأويل الذي قال به الأشاعرة كمرحلة سبقت مرحلة التفويض، شمل تأويل الصفات الخيرية كاليد والوجه... دون الصفات الأخرى، وأما التفويض فهو مرحلة انتقلت فيها الأشعرية إلى إثبات الصفات جميعها، مع تفويض معناها إلى مراد الله منها على مذهب

(1) -عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان، ص 134-135.

(2) -عبد القادر الراشدي، المصدر نفسه، ص 180.

(3) -المصدر نفسه، ص 135.

(4) -المصدر نفسه، ص 163.

(5) -أورتيلاقي، الرحلة، ص 697. الحفناوي، تعريف الخلف، ج 2، ص 229-230.

السلف، فهم صفاتية كالسلفية دون تجسيم أو تشبيه، دفعهم إلى ذلك غلو المعتزلة بآرائهم الجاحمة الموغلة في التأويل⁽¹⁾، ولعله ما قصده الراشدي في قصيدته التي أثارت جدلاً كبيراً:
 فالأشاعرة يثنون الصفات كما وردت ويفرقون بين الصفة والموصوف، فالله تعالى قادر بقدرة عالم بعلم... وصفاته أزلية، ثم يقولون له يد ولكنها ليست كالتيد وله وجه ولكن ليس كالوجه، فيطلون التعطيل ولكن مع نفي التشبيه والتجسيم، وهو قول الإمام مالك -رحمه الله- السابق في الاستواء⁽³⁾.

الثالث: كون الراشدي أشعري مفوض متأثر بنزعة أسلافه -رحمه الله- يظهر ذلك في كتاباته التي هي على خلاف ما حاول بعضهم نسبته إليه فقولوه ما لم يقل، فهو لم يضلل الأشعرية ولم يعاديتها، ولم يكفرها بل على العكس من ذلك، فقد أكد في قصيدته التي امتحن بها انتصاره لمذهب التفويض وهو -كما أسلفت- مذهب الأشاعرة حيث نفى عن صفات الله التحيز والجهة والمكان وغيرها من الصفات التي لا تليق به تعالى، كما بين فيها أنه لا ينبغي القطع بالتأويل في النصفات الخيرية كعبد والوجه وغيرها، لأن التأويل لا يكون إلا عن طريق الظن، والظن لا يعمل به في العقائد، كما نفى التجسيم وانتقد بذلك المؤولة من المعتزلة، وهذا الانتقاد هو من صميم المنهج الأشعري، فكيف يكون الراشدي بعد ذلك سلفياً معادياً للأشعرية؟ وهذه آياته تنطق بذلك حيث يقول:

كافر بالذي قضته العقول	خبراً عني المؤول أنني
ين بل الدين ما حوته النقول	ما قضته العقول ليس من الد
قال يهدي وشبه يا جهول ⁽⁴⁾	أضلال أو انتفاء لحق

(1)- إبراهيم مذكور، الفلسفة الإسلامية، ص 46-53، وص 301.

(2)- عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان، ص 170.

(3)- إبراهيم مذكور، الفلسفة الإسلامية، ص 46-53. البوريلاني، الرحنة ص 697.

(4)- عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان، ص 36-37.

وهو الأمر الذي أكده معاصره الورتيلاني فبرأه مما اتهم به، فيقول في رحلته ما نصه: "...بل سمعت من بعضهم أنه صرح بالتحسيم غير ما مرة، فقلت حين اجتماعي بهم: مجرد هذا الإطلاق لا يلزم عليه شيء إذ عليه أكثر الأمة، ومنهم من أولها بالقدره ومنهم من توقف، فلما أراني الرسالة الموضوعه بهذا الكلام، رأيتها منقحة سالمة من سوء الاعتقاد خصوصا التحسيم، وغايتها أنه يظل أدلة للمؤول ويصحح القول باليد حقيقة غير أنها لا يعلمها إلا الله، لكن هذا كله بعد نفي التحسيم وما يشعر بالإمكان والحدوث"⁽¹⁾.

الرابع: أن منهج الأشاعرة التعويل على الكتاب والسنة وعلى المأثور من أقوال السلف، حتى شاع عندهم مقولة "الاتباع خير من الابتداع"، يؤكد ذلك أبو الحسن الأشعري بقوله: "قولنا الذي نقول به وعقيدتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب الله وسنة نبيه-صلى الله عليه وسلم-وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتمسون"⁽²⁾. وهو نفسه منهج الراشدي الذي تتبعناه من خلال رسالته في تحريم الدخان، ولما مر معنا من أقواله وآرائه الاجتهادية.

6- محنته ووفاته:

لم تسعفنا المصادر القليلة في ترجمة الراشدي، بمعلومات شافية كافية فيما يتعلق بالجوانب التفصيلية من حياة الراشدي، ومن ذلك بعض المخططات في حياته التي تستدعي منا التوقف والانتباه لها، كالمحنة التي تعرض لها والتي كادت تؤدي بحياته لولا لطف الله به، ولكن كلفته خسارة منصبه في القضاء والفتيا، وهي محنة لم يتعرض لها عالم قط في عصره⁽³⁾. وبناء على شح المصادر التاريخية في ذلك، فإنه لا يمكن الجزم بالسبب الحقيقي لتلك المحنة، ومن هنا اختلفت الأقوال حول ذلك، بين من يجعل سببها قصيدته

(1)- الورتيلاني، الرحلة، ص 697. محمد الحفناوي، تعريف الخلف، ج 2، ص 230.

(2)- عبد القادر الراشدي، تحفة الإعراب، ص 170. ابراهيم مذكور، الفلسفة الإسلامية، ص 46-53، وص 301.

(3)- عبد القادر الراشدي، المصدر نفسه، ص 31.

في علم الكلام التي ألفها ردا على المخالفين له وهم المؤولة، ضمن كتابه "مفاد التحصيل لإعداد السبيل" وهي التي ذكرت آياتا منها سابقا، وقد اتهم نتيجة ذلك من قبل أعدائه بالتجسيم والكفر، وبين من يرى أن السبب هو قصيدته "متسعة الميدان"⁽¹⁾.

كما يرى بعضهم أن السبب المباشر في محنته هو كتابه الذي تعرض فيه لكثير من العائلات القسطنطينية وقبائلها، وبين العربي منها والبربري، وكشف الشريف منها والمزيف⁽²⁾، وهو ما يراه عبد الله حمادي لما أدت إليه من نبش القبور والمساس باتماء تلك الأسر، والتشكيك في عراقتها وفي أصولها، فأوغر بذلك صدور كثير من أهالي قسطنطينية وأثار حقدهم عليه، إضافة للأسباب غير المباشرة الأخرى والتي ساهمت في محنته، ورميه بالتجسيم والزندقة وأكل الرشوة⁽³⁾. ومنهم من يرجع سبب ذلك إلى كتابه الذي ادعى فيه الاجتهاد، وما احتواه هذا المؤلف الخطير من مباحث أصولية وكلامية، ظهر فيه تبحره في علمي الأصول والجدل ردا على المخالفين له وهو كتاب - كما يقول نويهض - سبب له متاعب وأخرج من القضاء⁽⁴⁾. وكذا لا ننسى تصديه لتيار الدروشة الصوفية والطرقية المتزمتة التي كانت لها الحظوى لدى السلطة العثمانية، فقد يكون سببا آخر يضاف إلى سلسلة الأسباب الأخرى في إثارة الأحقاد عليه.

ولعلنا نلمس من كلام معاصره الورتيلاني عند ذكره لهذه الحادثة ووصفه لها، ما يشير إلى أن كل تلك الأسباب مجتمعة، مع ما اتصف به من الجرأة وطول اللسان بالعلم، أدت إلى تعريضه لتلك المحنة الخطيرة، وسببت له الكثير من المشاكل مع معارضيه والحاقدين عليه بل حتى من بعض تلامذته، ولذلك كانت نتيجتها اتهامه بالتجسيم وتكفيره ورميه بالزندقة والرشوة، حتى كاد أن يقتل لولا أن الله لطف، فقد

⁽¹⁾ - محمد الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص229.

⁽²⁾ - محمد الحفناوي، المرجع نفسه، ج2، ص228-229.

⁽³⁾ - عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان، ص37.

⁽⁴⁾ - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص145.

حاء في رحلته ما نصه: "وقد وقعت بينه وبين طلبة قسنطينة محاصمة عظيمة ومنازعة كبيرة في مسألة، حتى رموه بالتجسيم بل بعضهم كفره... وذلك من تلامذته ومحبيه. وهذه المسألة قوله تعالى: "لما خلقت بيدي"⁽¹⁾، فقال هو في اليد: إنها حقيقة ومع ذلك إنها ليست جارحة ولا جسما، بل يستحيل ذلك لأنه يؤدي إلى الحدوث والإمكان، وقدح في التأويل لها بقدرة أو بصفة زائدة... فقد اتفق أهل السنة قاطبة على نفي الجارحة وما يؤدي إلى الإمكان والحدوث والتجسيم، فمن قائل إنه له يدا حقيقة؛ والعلم بها موكل إلى الله تعالى، فلا يستلزم هذا التجسيم... وإنما هو تحامل عليه سببه الحسد والبغض والتنافس، وإنما رموه بذلك لما علموا منه من كونه طويل النسان عليهم بالعلم، بل وقد نسوا إليه كثرة الرشوة وغير ذلك مما لا يناسبه... وقد بالغوا في تضليله إلى أن أرادوا الفتك به عند السلطان، فسلم والحمد لله ونجا من شرهم، غير أنهم أخرجوه من الموضوع المعد له من القضاء"⁽²⁾.

وبعد عزل الراشدي من القضاء، يخرج من قسنطينة متجها إلى بعض ضواحيها، حيث يقيم بها في مكان يدعى "عين ابن الحاج بابا"، وهو ما يفهم من كلام الورتلاني في رحلته - وهو ما يراه عبد الله حمادي - ونصه: "...وغادرتنا المدينة إلى أن وصلنا إلى عين ابن الحاج بابا، فصلينا العصر بالعلامة المحقق والفهامة المدقق سيدي عبد القادر الراشدي"⁽³⁾ إلى أن توفي رحمه الله في حوالي 1194م/1780م⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ -سورة محمد، الآية: 75.

⁽²⁾ -الورتلاني، الرحلة، ص 697. محمد الحفناوي، ج 2، ص 229-230.

⁽³⁾ -الورتلاني، الرحلة، ص 697. عبد القادر الراشدي، تحفة الإخوان، ص 41.

⁽⁴⁾ -محمد بن ميمون، التحفة الرضية في الدولة البكداشية، ص 78. عادل نوبهض، معجم اعلام الجزائري، ص 145.

الخاتمة:

ويعد فهذا نموذج من هؤلاء الجهابذة الذين أُنجبتهم الجزائر عبر التاريخ، وقسنطينة على الخصوص، ممن عجت بهم كتب التراجم والتاريخ، كانت لهم مشاركاتهم في شتى الميادين، دليل على أن القطر الجزائري قد اجتهد أبناؤه قديما وحديثا في طلب العلم، بجميع أسبابه وأتوه من أوسع أبوابه، وإن كانت هذه المصادر ضنت علينا بالمعلومات المستفيضة عن حياتهم، إلا بعض الشذرات التي يلمح منها الباحث بصيصا من النور يمكنه أن يكشف له زاوية من زوايا حياتهم المليئة بالعطاء العلمي، ويجعله يميظ اللثام عنهم وينفض الغبار الذي غطى أسماءهم الذهبية في سجل التاريخ، وذلك أمانة في عنق أبناء أمتهم من بعدهم، من ذوي الهمم العالية، ومسؤوليتهم اتجاه ذلك الميراث العظيم الذي خلفوه للأجيال.

الشيخ عبد القادر الراشدي حياته ومؤلفاته

د. سعيدة بوهناحس

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

شهد العالم الإسلامي على امتداد تاريخه . حركات إصلاحية تدعو إلى تجديد الدين وإحيائه في واقع الناس، استجابةً لأمر الله الذي قضى بخلود هذه الأمة ما جعلها وارثةً لخاتمة الرسالات وتولى حفظ وحيه المنزل عليها فقال: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (الحجر/9)، ولقد كان للجزائر نصيبها الوافر من جهود هؤلاء الأعلام المصلحين، فنوّروا الأفكار، وشجّحوا الهمم، وشاركوا في الكفاح، وتصدّوا لمحاولات طمس الهوية الإسلامية. ويتوجه هذا البحث إلى تناول شخصية أحد هؤلاء العلماء الذين عملوا على إصلاح الواقع الإسلامي عن طريق العودة بالإسلام إلى عهد الصحابة في عقائده وأصوله وفروعه، وهو معنى مشترك بين جميع المصلحين الذين واجهوا في عملهم الإصلاحي واقعاً فاسداً من الناحية العقائدية والأخلاقية والسياسية، فتعاسموا همّ معالجة أوضاع الأمة ضمن منهج اتفقت فيه الغايات واختلقت فيه الوسائل، وهو ما يحاول أن يحصره هذا البحث المتواضع؛ حيث يتمحور موضوعه حول شخصية "عبد القادر الراشدي القسنطيني" من خلال توضيح معالم حياته الشخصية والعلمية؛ إذ إن الباحث في حاجة ماسة إلى خلاصة موجزة وفكرة ناضجة من عالم محقق ومفكر مدقق استوعب الفنون وفهمها، يستطيع أن يطمئن إليه وإلى قوله، ومن ثمّ التأسّي والاقتداء به، وهذا ما وهبه الله للإمام عبد القادر الراشدي الذي قد يجمله الكثير من طلبة العلم، رغم أهمية شخصيته العلمية، وجدارة مؤلفاته بالدراسة والاهتمام، نظراً إلى غزارة علمه ومكانه في تاريخ الجزائر التي شهدت غزواً

استعماريًا غاشماً ما تزال آثاره حتى الآن يتفاعل بها المجتمع الجزائري المعاصر... ولأجل ذلك سيحاول البحث الإجابة في إشكالية الرئيسية. على التساؤلات التالية :

- من هو الشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني؟ ما هي مميزات حياته الشخصية؟ ما معالم حياته العلمية؟ ما علاقته بالاجتهاد والفتوى؟ لعل الإجابة عن هذه الأسئلة تنتظم فيما يأتي بيانه:

اشتهرت قسنطينة في الفترة المعاصرة بأنها مدينة العلم والعلماء، وحاضرة المفكرين والأدباء، وقد تألقت عبر الحقب الزمنية الغابرة بثلة من الكتاب والمؤلفين برعوا في العلوم النقلية والعقلية، وبرزوا في شتى الفنون، في الأدب والشعر والفلسفة والتاريخ والفقه وأصوله... حتى عرفت بأنها مدينة العلم في الجزائر. ومن هؤلاء الذين سجل التاريخ فضلهم على مدينة قسنطينة وساكنيها العلامة عبد القادر الراشدي القسنطيني الذي تولى عدة مناصب قضائية ودينية بمدينة قسنطينة، وعرف في وقته بمواقفه العلمية الشجاعة التي أثارت عليه حفاظ الجامدين والمقلدين⁽¹⁾.

فالشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني من أعمق المصلحين إيماناً، وأصلبهم جهاداً، وأمضاهم قلماً، وأشرفهم أسلوباً، وقد انبثق في سماء قسنطينة انبثاق البدر في حالك الظلام، فقام بدور عظيم في بعث الهمم، وإنقاذ الإيمان، داعياً إلى الأخوة والمحبة، فاستنارت بفكره العقول، وصفت بدعوته القلوب، واطمأنت بروحانيته النفوس، سيتم الوقوف عليه فيما يلي:

⁽¹⁾ انظر: منهج الإمام عبد القادر الراشدي في فقه النوازل - حكم الدخان نموذجاً، أربع لمور، سلسلة منشورات كلية الشريعة والاقتصاد (01)، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ضمن أوراق الملتقى الوطني حول: 'النوازل الفقهية عند علماء الجزائر من نهاية القرن السادس عشر (10 هـ) إلى بداية القرن العشرين (14 هـ)'، للتعقد بتاريخ: 5-6 رجب 1434 هـ/15.16 ماي 2013 م، ص119، بتصرف يسير.

أولاً. معالم حياته الشخصية:

إن الباحث وهو يتصفح تراجم العلماء والمفكرين يجد نفسه بحاجة إلى تفاصيل دقيقة تبين مراحل حياة الشخصية المدروسة، وتحدد ملامحها وعوامل تكوينها، الشيء الذي يمكنه من تحليل دقيق لمنهج هذه الشخصية العلمية، وتعليل أصوب وأقرب إلى الواقع، ولذلك سيتم التركيز على حياة عبد القادر الراشدي القسنطيني الشخصية (الحافلة بالأحداث)، مروراً بالحديث عن أخلاقه عن طريق إبراز جمعه بين العلم النافع والعمل الصالح؛ وتوليه انقضاء الفتوى، ومشاركته في العمل المسلح مجاهداً في سبيل الله؛ ضمن الآتي:

1. اسمه ونسبه، مولده ووفاته⁽¹⁾:

هو الإمام عبد القادر بن محمد بن أحمد بن مبارك بن عبد الله الراشدي القسنطيني، و"الراشدي" نسبة إلى الرواشد مدشر من مداشر "فرجية" التابعة . حالياً . لولاية مينة، فعلمه وُلد بها، أو نسبةً إلى جدّه الكبير "راشد" الذي أرجع الشيخ عبد القادر الراشدي نسبته⁽²⁾ وأصل عائلته إليه حيث قال: "نسبةً إلى راشد جدّ عالٍ جدّاً"، وهو راشد بن

(1) ينظر: تعريف الخلف برجال السلف، أبو القاسم الحفناوي، مطبعة بير فونتانة الشرقية، الجزائر، د.ص، 1324م/1906م، ص219 فما بعدها، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والشيخات والمسلسلات، عبد الحفي بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982م، 1/239، عبد القادر الراشدي وقصيدته "خَيْرًا عَنِّي الْمَوْؤَل...". سمير سميراد، مجلة الإصلاح، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، الجزائر، السنة الخامسة، العدد 25، جمادى الأولى - جمادى الآخرة 1432هـ/مارس - أبريل 2011م، ص46 فما بعدها، ترجمة الشيخ عبد القادر الراشدي على شبكة الانترنت، موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة، <https://ar.wikipedia.org/wiki>، تاريخ الدخول: 2016/05/02م.

(2) أفاض الشيخ عبد القادر الراشدي في ذكر نسبه في آخر كتابه " متسعة الميدان في إثبات وزن الوجه وأنه الميزان "، وعنه نقل المؤرخ سليمان الصيد ترجمته (للراشدي) التي ضمنها في كتابه الموسوم: " نفع الأرهار عما في مدينة قسنطينة من الأحيار".

انظر: عبد القادر الراشدي وقصيدته "خَيْرًا عَنِّي الْمَوْؤَل...". سمير سميراد، ص45، 46 (وقد استقى صاحب هذا لفظان أغلب مادته لغوية من كتاب " نفع الأرهار عما في مدينة قسنطينة من الأحيار" للمؤرخ سليمان الصيد رحمه الله).

فرقان الذي اشتهروا به، وقال: "هو الإمام حافظ المغرب أبو الفضل راشد الوليدي أمًا ومَدْفَنًا؛ شيخ أبي الحسن شارح "المدونة" و"الجزولي شارح "الرسالة" . وأما "القسنطيني" فنسبة إلى حاضرة قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري، وكانت قرية "الرواشد" تابعة إليها إدارياً، ولذلك فقد اختلف في نسبة الشيخ عبد القادر الراشدي إلى مدينة قسنطينة بين من يؤكد أنها مسقط رأسه ومن يعتبرها آخر حاضرة سَكَنَهَا. وقد ولد عام 1112م، وقرأ على والده وبه تخرَّج، ثم رحل إلى تونس والجزائر ومكث بمهما مدة، ثم عاد إلى بلده فدرس ونفع الطلبة، واستمر في تدريسه مجاهداً بالكلمة الطيبة حتى وافاه أجله سنة 1194م/1780م (على أشهر الأقوال وأظهرها عند المؤرخين)، رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

2. أخلاقه:

إن ما تميز به الشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني من علم وأخلاق طيبة وشمائل محمودة لا يختلف كثيراً عما تحلى به علماء سلفنا الصالح من جمع بين العلم النافع والعمل الصالح، وذلك ما سنبينه في الآتي:

أ. عنايته بالعلم: للشيخ الراشدي القسنطيني رحمه الله في هذا العلم النصيب الأوفر تعلماً وعملاً وتعليماً له ودعوةً إليه، ويدل عليه تلاميذه الذين خلفوه في مهمة التعليم والإصلاح، ناهيك عن مؤلفاته العلمية التي تغني عن كل بيان.

ب. توليه القضاء والفتوى: اضطلع الشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني بمهمة قضاء قسنطينة والإفتاء بها مراراً، وقد تفقه على مذهب السادة المالكية، غير أنه كان

مرجعاً في المذهب الحنفي، وبارعاً في تحرير أصوله، ويظهر ذلك من خلال بعض المقارنات الفقهية التي أجراها بين المذهبين، أو عند استثنائه بعض الآراء الأصولية عند الحنفية⁽¹⁾.

يقول سليمان الصيد: " في سنة 1190م جمع صالح باي لجنة من العلماء مؤلفة من المشايخ: العلامة عبد القادر الراشدي مفتي الحنفية، والشيخ شعبان بن جلول قاضي الحنفية، والشيخ العباسي قاضي المالكية، واستعان بهم في تنظيم الأوقاف وبرنامج الدراسة، وطريقة تنشيط الحركة العلمية، وتوسيع نطاق دائرة المعارف المتعددة ليستفيد الطلبة من ذلك"⁽²⁾. وتولى الشيخ الراشدي قضاء المالكية أيضاً، ففي وثيقة في حكم التحسيس على الذكور دون الإناث صرح رحمه الله بذلك حينما ورد ذكر الموقع عليها والواضع طابعه (ختمه): "السيد عبد القادر الراشدي قاضي السادة المالكية"⁽³⁾. وعلى انعموم فالمذهب المعتمد عند الشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني هو المذهب المالكي، على الرغم من أنه قد يميل إلى غيره في بعض الأحيان. وفي الحملة فقد كان الإمام عبد القادر الراشدي القسنطيني رحمه الله قدوة خيرة حسنة في جميع مجالات الحياة، فكان العالم العامل، وقد جمع الله للشيخ ذلك على وجه يعدّ من أكمل الوجوه وأتمّها، ولا نزكي على الله أحداً.

(1) ذهب الدكتور أبو القاسم سعد الله إلى أن الشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني كان مفتي الحنفية، وخالفه في ذلك الدكتور عبد الله حمادي (محقق كتاب تحفة الإخوان) الذي أثبت بأنه كان مالكي المذهب اعتماداً على ما شهدت عليه نقوله عن فقهاء المالكية وعن مصنفاتهم.

ينظر: تاريخ الجزائر الثنائي، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م، 65/2، نزهة الأظفار في فضل علم التاريخ والأخبار (المشهورة بالرحلة الورثيانية)، سيدي الحسين بن محمد الورثياني، مع تعليقات ابن مهنا القسنطيني، خدومه: محفوظ بوكراع، مصطفى ضيف، المعرفة الدولية، الجزائر، دط، 2011م، 373/3، تعريف الخلف، اخفناوي، ص220، تحفة الإخوان، الراشدي، ص34، 187، منهج الإمام عبد القادر الراشدي في فقه النوازل. حكم الدخان نموذجاً، أ. ربيع لعور، ص122، بتصرف.

(2) انظر: عبد القادر الراشدي وقصيدته "خَيْرًا عَنِّي الْمُؤُول..."، سمر سمراد، ص46، نقلاً عن: نفع الأزهار، سليمان الصيد، 35.

(3) عبد القادر الراشدي وقصيدته "خَيْرًا عَنِّي الْمُؤُول..."، سمر سمراد، ص46، نقلاً عن: نفع الأزهار، سليمان الصيد، 54.

ج . جهاده في سبيل الله: لم يكن الشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني قاضياً ومفتياً فحسب بل كان رجل كفاح وجهاد؛ فقد انضم إلى الجيش العثماني الذي خرج من مدينة قسنطينة بقيادة "صالح باي" للدفاع عن مدينة الجزائر التي تعرضت للاعتداء الإسباني، وبناحية الحراش منها وقعت معركة سنة 1189هـ/ من 01 إلى 11 جويلية سنة 1775م، انتهت بانتصار الجيش الجزائري، فكان للشيخ الراشدي . أحد رجال هذه المعركة . قصيدة يشيد فيها بطولات هذا الجيش وحنكة القائد صالح باي⁽¹⁾ .

ثانياً . حياته العلمية:

تنتظم دراسة حياة الشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني العلمية في ذكر طلبه للعلم وشيوخه فيه؛ ضمن التفصيل الآتي بيانه:

1 . طلبه للعلم وشيوخه فيه⁽²⁾:

كانت دراسة الشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني الأولى على أبيه حتى تخرّج على يديه، وتلمذ كذلك على الشيخ أحمد بن قاسم البوني، كما أخذ عن علماء الجزائر وتونس من أمثال: أبي العباس أحمد المكودي (ت 1169 هـ) مفتي تونس، وقد نظم الشيخ عبد القادر الراشدي قصيدةً في مدحه، والتمس فيها الإجازة من شيخه⁽³⁾ .

- كما أخذ العلم عن عبد الكريم بن الفقون، وأبي العباس أحمد بن زروق .

علما بأن الشيخ كان يديم النظر ويواصل التحصيل عن طريق المطالعة الفردية،

(1) عبد القادر الراشدي وقصيدته "خَيْرًا عَنِّي الْمُؤَوَّلُ..."، سمير سمراد، ص46، نقلًا عن: نفع الأزهار، سليمان الصيد، 35، 36، وذكر بأنه أثبت القصيدة كاملة في 55. 57.

(2) ينظر: فهرس الفهارس، الكتاني، 585/2، تحفة الإخوان في تحريم الدخان، عبد القادر الراشدي القسنطيني، تحقيق: د. عبد الله حمادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ص22، ترجمة الشيخ عبد القادر الراشدي على شبكة الانترنت، موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة، <https://ar.wikipedia.org/wiki> .

(3) فهرس الفهارس، الكتاني، 585/2، عبد القادر الراشدي وقصيدته "خَيْرًا عَنِّي الْمُؤَوَّلُ..."، سمير سمراد، ص46، نقلًا عن: نفع الأزهار، سليمان الصيد، 57.

فلم يكن يكفني بما يتلقاه عن شيوخه، حتى أصبح في كل فنّ كأنه متخصص فيه، بل وله فيه اجتهادات ومباحث مبتكرة.

2. آثاره:

سيقتصر الحديث عن آثار الشيخ الراشدي القسنطيني على ذكر أسماء بعض تلاميذه، وحصر مؤلفاته؛ فيما يلي :

أ - تلاميذه⁽¹⁾: تولى الشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني مهنة التدريس بمسجد سيدي الكتاني ومدرسته التي أنشأها صالح باي بإزاء الجامع الأخضر⁽²⁾، مما لا يدع مجالاً للشك في كثرة تلاميذه، فقد تخرج على يديه طلبة كثيرون من جميع أقطار العالم الإسلامي وغيره، لذلك فإنه من المتعذر الإحاطة بذكر أسماء كل من تلقى العلم على يديه، ومن هؤلاء:

- القاضي أبو عبد الله محمد بن المسيح القسنطيني.

- عبد الملك الراشدي.

- الهادي بن محمد الشريف.

- ممن تتلمذوا عليه محمد مرتضى الزبيدي صاحب "تاج العروس" الذي أجازته الشيخ عبد القادر الراشدي مراسلة⁽³⁾؛ قال الزبيدي: "... شيخنا الإمام المحدث

(1) منهج الإمام عبد القادر الراشدي في فقه النوازل. حكم الدخان نموذجاً، أ. ربيع لعور، ص 121، بتصرف.

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقاني، أبو القاسم سعد الله، 12/2، 14، تعريف الخلف، الخفناوي، ص 220، عبد القادر

الراشدي وقصيدته "خَيْرًا عَنِّي الْمَوْؤَل..."، سمير سمراء، ص 46، نقلاً عن: نوح الأزهار، سليمان الصيد، 35.

(3) تجدر الإشارة إلى أن المرتضى الزبيدي ترجم لشيخه عبد القادر الراشدي في معجم شيوخه للمسمى "المعجم المختص"، حيث أخذ الترجمة من ولد المترجم له الشيخ عبد الكريم بن عبد القادر؛ إذ وفد عليه بمصر سنة 1197م، أي بعد وفاة والده الشيخ عبد القادر.

ينظر: فهرس الفهارس، عبد الحلي الكتاني، 239/1، 503، 559/2، 1099، تحفة الإخوان في تحريم

الدخان، عبد القادر الراشدي القسنطيني، ص 24، عبد القادر الراشدي وقصيدته "خَيْرًا عَنِّي الْمَوْؤَل..."، سمير

سمراء، ص 46.

الصوفي النظار⁽¹⁾. وأكتفي بهذا القدر من العلماء الأجلاء من تلاميذه رحمه الله، لأبدأ في بيان مؤلفاته.

ب. مؤلفاته⁽²⁾: لا شك أن من ألف فقد استهدف، وأن كل مؤلف يدل على شخصية مؤلفه، ووجهة نظره وغزارة علمه، إذ أنه يعرض أفكاره على قرائه، والإمام عبد القادر الراشدي القسنطيني كانت له إسهاماته العلمية التي أسفرت عن عدة مؤلفات لم يصلنا منها. للأسف الشديد. إلا كتاب واحد لم يسفر عن وجهه في المكتبات إلا في نهاية القرن الماضي، وهو موسوم بعنوان: "تحفة الإخوان في تحريم الدخان"⁽³⁾، فهو المؤلف الوحيد المطبوع من بين مؤلفات الشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني، ويعد هذا الكتاب مآثرة علمية لهذا الفقيه، ذلك أنه تناول فيه أحد نوازل عصره التي كانت وإلى عهد قريب محل جدال ومثار مناقشة بين الفقهاء بين مبيح ومكروه ومحرم، وقد اهتدى الراشدي إلى القول الصحيح في المسألة، حيث قال بتحريم الدخان، وقد أسعفه في ذلك تضلعه من علوم الشريعة وفهمه لمقاصدها، وطول نفسه في البحث، مع مشاركة محترمة في بعض العلوم الكونية الموجودة في وقته وبيئته⁽⁴⁾، حيث شحنتها أولاً ببيان شافٍ في حال الدخان، ثم حلب من الأدلة المقتضية لحرمته ما لا مزيد بعده⁽⁵⁾. وله أيضاً⁽⁶⁾:

متسعة الميدان في إثبات وجه الوزن وآلة الميزان، تعرض فيها لمباحث علم

(1) فهرس الفهارس، الكتاني، 239/1.

(2) ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، 65/2، نزهة الأنظار، الوريثاني، 373/3، تعريف الخلف، الحفناوي، ص 220، تحفة الإخوان، عبد القادر الراشدي، ص 34، عبد القادر الراشدي وقصيدته "ختبراً عني المؤؤل..."، ميمر ميمراد، ص 47، نقلاً عن نفع الأزهار، سليمان الصبيد، .

(3) منهج الإمام عبد القادر الراشدي في فقه النوازل - حكم الدخان نموذجاً، أ. ربيع لعور، ص 119، بتصرف.

(4) نفسه، ص 119، 120، بتصرف.

(5) تعريف الخلف، الحفناوي، ص 220.

(6) نفسه .

الكلام⁽¹⁾، وناقش فيها بوجه خصوصي العلماء القائلين بالتأويل في مبحث المتشابه، وهو الكتاب الذي سبب له محنة مع خصومه، وقد فرغ من تبييضه وقت زوال يوم الخامس عشر من محرم عام 1187هـ، وتوجد منه نسخة مخطوطة ضمن مجموع رسائل الراشدي يقع في 160 ورقة.

- حاشية على شرح السيد للمواقف العضدية⁽²⁾، وقد ذكر الحفناوي بأنها حاشية محشوة بالتحقيق والإتقان⁽³⁾.

- رسالة في التعليق على سعد الدين التفتازاني في شرح مقاصده في أفعال العباد.
- كتاب حافل في مباحث الاجتهاد يدل على تبخره في علمي الكلام والأصول.
- قصيدة فائضة في غاية من البلاغة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.
- تأليف صغير الحجم في عائلات قسنطينة وقبائلها وبيان الشريف منهم والعربي والبربري - رسالة في التوحيد.
- وله تعليقات حجة وفتاوى ومسائل ابتكارية جليلة، وتفسير عدة آيات وقعت بمجلس صالح باي⁽⁴⁾.
- مفاد التحصيل لإعداد السبيل، وهو منظوم مع شرحه، وضعه المؤلف رداً على مخالفيه في قضية التأويل.

لقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن الشيخ عبد القادر الراشدي القسنطيني كان عالماً محققاً وباحثاً منصفاً، طوف في العلوم النقلية والعقلية مفسراً محدثاً، فقيهاً

(1) ذكره الحفناوي نقلاً عن الشيخ محمود كحول القسنطيني.

انظر: تعريف الخلف، ص 220، بتصرف.

(2) عبد القادر الراشدي وقصيدته "غَيِّراً غَنِيًّا لِلْمُؤَوَّلِ..."، سمير سمراء، ص 47، نقلاً عن نفع الأزهار، سليمان الصيد، 53.

(3) تعريف الخلف، الحفناوي، ص 220.

(4) تعريف الخلف، الحفناوي، ص 220.

وأصولياً ومجتهداً، ولذلك فقد أثنى عليه كل من عرفه من شيوخه أو تلاميذه⁽¹⁾؛ ففي تقريره لرسالة "تحفة الإخوان" قال عنه شيخه أحمد زروق:

شيخ المشايخ وإكسير العلوم وطودها يجلي المهموم والغموم
إذا تحدث بأي فن يقال فنه بغير ظن⁽²⁾

وقال عنه الشيخ الحسين الورثياني: "قاضي الجماعة النحوي المتكلم الأصولي المنطقي البياني المحدث المفسر صاحب الأبحاث الشريفة والفوائد المنيفة .."⁽³⁾

وأثنى عليه العالم الحنفي محمد بن كوجك علي بقوله:

فعد من حجة داحضة ردها أستاذ أهل المغرب⁽⁴⁾.

وذكره الشيخ الحفناوي بوصفه: "العلامة المحقق، المجتهد الأصولي الكلامي، قرآني وقته، وعضد زمانه"⁽⁵⁾،⁽⁶⁾.

وخلاصة القول: إنه من خلال ما تم استقراؤه من أخبار نستنتج اتساع الأفق عند الإمام عبد القادر الراشدي القسنطيني، وحسن أخلاقه وورعه، مع تزيّنه بخلق التواضع الذي رفعه إلى درجة العلماء البارزين الذين نالوا إعجاب الناس وتقديرهم. إن هذه الصورة المشرفة له ولأمثاله من العلماء المجتهدين هي مثال يجب أن يقتدى به من أجل تحبيب الناس في العلم، وتحفيزهم على الاهتمام بشؤون دينهم ودنياهم.

(1) انظر: منهج الإمام عبد القادر الراشدي في فقه النوازل . حكم الدخان نموذجاً ، أ. ربيع لعور، ص122، 123، يتصرف.

(2) تحفة الإخوان، الراشدي، ص187.

(3) نزهة الأنظار، الورثياني 3/363.

(4) تحفة الإخوان، الراشدي، ص189.

(5) شَيْبَةُ بَعْضِ الدِّينِ الإِيْمِي صَاحِبِ الْمَوَاقِفِ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ.

(6) تعريف الخلف، ص219.

محمد الحريه الفكون القسطنطيني

- حياته وأثاره -

أ.د بلقاسه شتوان

1- مقدمة: نترجم لعلم من أعلام الجزائر ذاع صيته مغربا ومشرقا فانبعث أشعة علومه المختلفة على مستويات عديدة في بلده الجزائر خصوصا والمغرب والبلاد الإسلامية عموما، من خلال لقاءاته ومراسلاته مع العلماء والشيخ والرؤساء أثناء رئاسته لركب الحجاج الجزائريين لفترة طويلة من الزمن.

وكذلك من خلال التدريس لطلبته والإجازات العلمية التي منحها لمن يرى فيه أنه حاز على قدر كبير من العلم. كما أن نجمه سطع من خلال التعرف على تألفه العديدة التي انتشرت بين القراء الذين تأثروا بها وأعجبوا بها أيما إعجاب لكونها تفصح عن علمه الغزير وأفكاره الهادفة وأدبه الجم وأخلاقه الفاضلة وباعه الطويل في البحث العلمي، وقدرته على التأليف، حيث استطاع توظيف قلمه للدفاع عن الشريعة الإسلامية بكل إخلاص وتفان، معلنا حربه على أهل البدع والدعوات الباطلة على الدجالين والمشعوذين والمتعلمين وعلماء السلطان وأصحاب الأفكار المنحرفة كالروافض¹ وأصحاب المذاهب التي شنت الفكر وساهمت في اختلاف الأمة الإسلامية وتمزيقها، كالمعتزلة² والخوارج³ وكذلك أصحاب دعوات التصوف غير السني ومشايخ الدجالين

¹ - مصطلح الرافضة يطلق على فرقة من الشيعة رفضت ريد بن علي، وهي تدعي التشيع لآل البيت، مع البراءة من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وسائر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلا القليل منهم، وتكفيرهم، وسبهم. ينظر: ابن تيمية، منهج السنة النبوية، ج1، ص 35.

² - المعتزلة: فرقة إسلامية كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري "80-131 هـ" في البصرة وازدهرت في العصر العباسي. اعتمدت على العقل في تأسيس عقائدها وقدموه على النقل، ينظر، الموسوعة الحرة

³ - الخوارج: سموا بذلك لخروجهم عن كل إمام، واعتقادهم أن ذلك فريضة عليهم، لا يسعهم المقام في طاعته حتى يخرجوا ويتخذوا لأنفسهم دار هجرة وحتى يكونوا متبايدين لمن خالفهم من المسلمين حربا لهم، والمسلمون عندهم كفار. مشركون إلا من رافقهم وبايعهم، واستحار بهم حتى يسمع كلام الله. ويقولون بالبراءة من عثمان

والمُتَحَرِّفِينَ عَنِ الْحَقِّ، مَحَاوِلًا فِي كِتَابَاتِهِ الْإِسْتِرْشَادَ وَالْإِقْنَاعَ وَالِدِفَاعَ عَنِ الشَّرْعِ بِالْحُجَّةِ السَّامِعَةِ وَالْأَسْلُوبِ الدَّعْوِيِّ الْمَقْتَعِ مُنْتَصِرًا لِلشَّرِيعَةِ الْغَرَاءِ وَأَهْلَ الْاِقْتِدَاءِ وَالْوَرَعِ.

2 - مولده ونسبه وعائلته:

ولد عبد الكريم الفكون بن محمد بن عبد الكريم الفكون التميمي بقسنطينة سنة 988 هـ / 158 م، وهي السنة التي توفي فيها جده عبد الكريم بن قاسم الفكون أبو محمد، وكان جده هذا ممن اشتهر من هذه العائلة وذاع صيته في الأفاق، "عبد الكريم الفكون الجدد" المتوفى سنة 988 هـ. حيث كان أول من تولى وظيفة الإمامة والخطابة من عائلة الفكون بالجامع الكبير بقسنطينة خلال العهد العثماني بعد سنة 975 هـ.

وقد ترجم له حفيده عبد الكريم الفكون في "منشور الهداية" فقال عنه: كان منشغلا بما يعنيه ديننا وديننا معتكفا على الإقراء والتدريس، وكان إماما بالجامع الأعظم وخطيبه، ومن يرجع إلى قوله في النوازل والأحكام وكانت الولاية أغلب عليه، مواظبا على الأذكار وقيام الليل إلى أن مات.¹ وسمي عبد الكريم الحفيد

وعسي وتكفيرهما، وتكفير كل إمام بعد أبي بكر وعمر والبراءة منهم، وإجماعهم على إمام يختارونه من أوفياء الناس من كان قائما بالكتاب والسنة، ويقولون أيضا بالخروج على كل إمام جائر، وتكفير مرتكب الكبيرة، ومن فرغهم - الصفرية نسبة إلى ابن صفار رئيس لهم، وقيل سموا بذلك لكثرة عبادتهم - صغرت وجوههم. والبيهسية نسبة إلى أبي بيهس، والأزرقة نسبة إلى نافع بن الأزرق الحنفي وكان رئيس الخوارج. والنجدات، ويقال لهم النجدة، وذلك نسبة إلى نجد بن عامر الحنفي الذي كان من رؤسائهم. انظر في هذا الموضوع - عبد الكريم الشهرستاني - الملل والنحل ج1 - وانظر الفرق بين الفرق للبيهقادي، وانظر: مقالات الإسلاميين للأشعر - وانظر عبد الله سلوم السمراني - الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية ص 282 وما بعدها دار واسط للنشر، انظر ص 82

¹ - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار لغزب الإسلامي، 47-48.

بدمه¹ فهو إذا ابن مدينة قسنطينة التي سكنها أجداده في القرن الخامس الهجري ودفنوا بها، ولهم فيها زاويتهم التي تحمل اسمهم لاستقبال الضيف من الفقراء والغرياء ولهم كذلك مدرسة باسمهم لتعليم العلم لطالبيه من طلبة الجزائر وغيرهم، وحتى من اندول الإسلامية المجاورة.

وقد تولى منهم والده الذي جمع وظائف أبيه من إمامة وخطابة بالجامع الكبير بقسنطينة، إلى أن توفي أثناء رجوعه من الحج في مكان بين الحجاز ومصر سنة 1045 هـ، وكان فقيها صوفيا، يرجع إليه في المسائل والإفتاء، وكان ذا سمع وتعفف وأوراد، يقوم الليل، وله سيرة حسنة وسلوك طيب، ويتصف بالتواضع والحلم والوقار، فأحبته القلوب ومالت إليه النفوس.

3. أسرة الفكُون:

اختلف الباحثون في أصل نسب أسرة الفكُون التي لا توجد أسرة أعرق وأشهر البيوت العلمية في مدينة قسنطينة من بيت آل الفكُون، والتي توارث أفرادها منذ عهد بعيد المجد والرئاسة، والعلم والصلاح. فمنهم من يرجع أصلها إلى قبيلة تميم العربية.² غير أن العلامة عبد القادر الراشدي³ ينكر هذه النسبة ويذكر في آخر صفحة من كتابه "عقد اللآلئ المستضيئة لنفي ظلام التلبس" أن نسب الأسرة ينتهي إلى "فكونة" قرية بأوراس. يقول الراشدي: "... وأولاد نعمون من توابع الخفاصة من هنتاتة وأولاد المسيح من بني مرداس بن عوف السلمي وأولاد الخيتمى من ختيمة قرية بأوراس وأولاد الفقون من فكونة قرية بأوراس الأشم أيضا.

¹ - عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية، تحقيق، سليمان القرشي، ج 2 ص 514-529 - الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، موفم للنشر - الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، موفم للنشر، ص 191. أخطأ الحفناوي في ترجمته فأطلق عليه اسم محمد بن عبد الكرم.

² - ينظر العلامة عبد القادر الراشدي القرن الثاني عشر هجري من كتابه عقد اللآلئ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي الذي ينكر نسبة العائلة إلى قبيلة تميم العربية.

³ - العلامة عبد القادر الراشدي سنة 1194 هـ / 1780 م (الذي كان يشغل منصب مفتي الحنفية والقضاء بقسنطينة في القرن الثاني عشر هجري / أواخر القرن الثامن عشر الميلادي

وقد أصبحت هذه العائلة في العهود الاخيرة تعرف بعائلة سيدي الشيخ، ولا يزال إلى يومنا هذا أبناء الشيخ الفكون الذين تغير لقبهم كما تلاحظ إلى " الفكون " بثلاث نقاط فوق القاف، كما ينطق إخواننا المصريين - حرف الجيم - في مدينة قسنطينة يتمتعون بنفوذ وجاه كبيرين. وقد استطاعت عائلة الفكون خلال العهد العثماني أن تحصل على امتيازات كثيرة وأن تحتل مكانة اجتماعية مرموقة بسب سمعتها الدينية والعلمية، وثروتها الطائلة، وقد نوه به وأسرته " نظماً ونثراً " معاصروه كالعلامة الأديب أحمد المقرئ التلمساني نزيل فاس ثم القاهرة والمتوفى سنة 1041 هـ. يقول: " فهو العالم الذي ورث المجد لا عن كلاله، وتحقق الكل أن بيته شهير الجلالة، بيت بني الفكون، هضاب العلم والوقار والسكون، لا زال الخلف منهم يجيئون متأثر السلف.

ودام عبد الكريم فسردا في العلم والزهد والولاية
فهو الذي حاز فضل سبق وصار في الزمان آية

ومهما قيل في أصل هذه العائلة ونسبها فمن المؤكد أنها من الأسر العريقة بقسنطينة، إذ تعود في أصولها إلى القرن السادس الهجري، ومن أجداده المتقدمين الفقيه الأديب أبي علي الحسن بن علي "عمر" الفكون القسنطيني، صاحب الرحلة المنظومة التي قام بها من بلدته قسنطينة إلى مراكش أواخر القرن السادس الهجري وله قصيدة مشهورة مطلعها:

ألا قل للسرى ابن السرى إلى البدر الجواد الأريسي
أما وبحقك المبدئي جلالا وما قد حزت من حسب علي
وما بيني وبينك من ذمام وما أتيت من خلق رضي
لقد مرت العيون سهام غنج وليس سوى فؤادي من رمي¹

¹ - حسن بن علي بن عمر القسنطيني المعروف بابن الفكون يكنى أبا علي، قال العبدري في "رحلته": سألت عنه أبا علي حسن بن بلقاسم بن باديس القسنطيني فذكر لي أنه أدركه وهو طفل صغير، ولم يحفظ له مولدا ولا وفاة، ودخل مدينة فاس في رحلته ثم أراكش.

وفي الجهود الأخيرة أصبحت هذه العائلة تعرف بعائلة سيدي الشيخ، ولا يزال إلى يومنا هذا أبناء الشيخ الفقون في مدينة قسنطينة يتمتعون بنفوذ وجاه كبيرين. وعبر العائلة التي اشتهرت بكترة الأموال والأموال الواسعة التي كانت تنفقه في وجوه الخير والإحسان، كما أصبحت تتمتع بنفوذ روحي كبير خاصة بعد تكليفها برئاسة ركب الحج الجزائري إلى الحجاز مع ما يكسبه هذا المنصب من احترام ومكانة في الجزائر والحجاز والبلدان الإسلامية التي يمر بها.

4. طابء العلم وشيوخه: يقول الدكتور أبو القاسم سعدا لله رحمه الله: " من خلال الوثائق المتوفرة نعرف أن عبد الكريم الفكون قد تتقّف ثقافة محلية عسامة... ولا نعرف أن الفكون قد رحل إلى الشرق طلبا للعلم في صغره. أما في كبره فقد كان يتوجه إلى المشرق كأمر لركب الحج لا كطالب علم " وقال رحمه الله: " تتقّف ثقافة محلية - عسامة - فهو يذكر شيوخه الأوائل بما فيهم والده، ويذكر ما قرأ عليهم، ويتحدث عن تروده على الكتاب وحفظ القرآن الكريم ".¹

يقول الدكتور أبو القاسم سعدا لله: " وبعد أن نال حضا من المعرفة على شيوخ عصره: عكف على القراءة وحده في مكتبة العائلة، يساعده على ذلك ذهن وقاد وضموح عريض طالما أشار إليهما في معرض الحديث عن معاصره وشيوخه بشيء من الإعجاب بنفسه وتفوقه حتى على بعض شيوخه في حل المسائل العويصة، واتجاه بعض علماء عصره، حتى الخصوم منهم إليه في السؤال والإذعان لرأيه.²

¹ - د / أبو القاسم سعدا لله، منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية، تعليق، الدكتور أبو القاسم سعدا لله، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987م، ص 10 بتصرف قليل.

² - د / أبو القاسم سعدا لله، منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية، تعليق، الدكتور أبو القاسم سعدا لله، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987م، ص 11.

والذي نخلص إليه أن عبد الكريم الفكون نشأ في كنف والده الذي كان أول شيوخه فحفظ على يديه القرآن الكريم وتلقى المبادئ الأولية للعلوم في زاوية العائلة، ثم عكف على تحصيل مختلف العلوم الشرعية واللغوية بمجده الخاص.

5. شيوخه:

1- نشأ الفكون في كنف والده الذي كان أول شيوخه فحفظ على يديه القرآن الكريم وتلقى المبادئ الأولية للعلوم في زاوية العائلة، ثم عكف على تحصيل مختلف العلوم الشرعية واللغوية على يد كبار شيوخ عصره.

2- الشيخ البركة أبو الربيع سليمان بن أحمد القشي نسبة، أصله من بلدة نقاوس. انتقل إلى قسنطينة مراهقاً بعد موت والده سنة ثلاث وستين... ورحل إلى مصر يقصد الحجاز فعاقه عائق تخلف في الجامع الأزهر فقرأ على شيخ عصره العلامة البحر الفهامة أبي النجاة سالم السنهوري المختصر والرسالة والألفية وألفية العراقي، وأقام بها مدة ثم رجع إلى قسنطينة... وقد انتفع به خلق كثير لقرب عبارته ووسع صدره، فلا تجدد المبتدئ يقرأ إلا إليه لبساطة كلامه وحسن نيته وكثرة توفيره، وحلو الفكاهة والمحادثة، منبسطة يداعب الصغار والكبار، ملازماً للذكر كثير التلاوة، قرأت عليه أوائل الرسالة وحضرت باقيها، وقرأت شرح الصغرى والقطر "قطر الندى بل الصدى لابن هشام النحوي" والجرومية بشرحها جبريل "لعله زين الدين جبريل وقد نشر هذا الشرح المستشرق الفرنسي دولفان سنة 1886م بمطبعة ارنست لوروفي وهران - الجزائر"، وبعض أوائل الألفية"¹.

3- الشيخ عبد العزيز النفاقي الذي قرأ عليه الحساب وبعض الفرائض.

¹ - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تعليق، الدكتور أبو القاسم سعد الله، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987م، ص60.

4- الشيخ محمد التواتي المغربي: الذي ترجم له في " منشور الهداية" فقال عنه :
 ومن لقيناه وقرأنا عليه الشيخ الأستاذ النحوي، آخر المتكلمين لسان حجة
 المسلمين، أبو عبد الله محمد بن مزيان التواتي لقبا، أصله من المغرب من قبيلة الرواشد
 وانتقل إلى جبل زواوة... وكانت شهرته بقسنطينة وبها انتشر علمه وأقبلت إليه
 الطلبة وانتفعوا به وكثر بحثه وعلت عارضته... قرأت عليه المرادي¹، وعقائد
 السنوسي² بشرائحها، وابن الحاجب بمطالعة التوضيح عليه، والتذكرة للقرطبي،
 وحضرته للتفسير نحو العشرة أحزاب، وكتاب مسلم بن الحجاج بقراءة الآبي³ وكان
 رحمه الله يسرّ بمباحثي معه، ولي معه كلام في إعراب السيوطي.⁴

الشيخ أبو عبد الله محمد الفاسي المغربي الذي قرأ عليه الاضطراب وبعضا من
 الفرائض أبو عبد الله محمد الفاسي قدم من فاس نزيل مدرسة الجدل المذكورة فتفاوضت
 معه فيما ذكر من المبادئ، فرأيت منه قصورا سوى ضوابط معه حتى إنه فتحت عليه
 السنوسي شارح الحوفي⁵ في إدعائه إقراءه فلم أجد له معرفة في معاني الألفاظ ولا
 بالصناعة الكسورية، فأطبقت الكتاب لما تحققت من عجزه، وطالعت وحدي ففتح
 الله في عمل الفريضة بالطريقة الكسورية.⁶

¹ - يقصد شرح ألفية ابن مالك للمرادي، الحسن بن قاسم المتوفى 749.

² - الكبرى والوسطى والصغرى.

³ - يقصد الشرح المسمى ب: " إكمال الإكمال في شرح صحيح مسلم " بشرح الآبي، أبو عبد الله محمد بن
 حفص بن عمر الوشتاني المتوفى سنة 828 هـ.

⁴ - د/ أبو القاسم سعد الله، منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية، تعليق، الدكتور أبو القاسم سعد
 الله، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987م، ص 57... 59.

⁵ - يعني به، كتاب الحوفي " زمام الرائض في علم الفرائض " وهو أبو بكر أحمد بن حوفي الأندلسي المتوفى سنة
 785 ينظر الدكتور سعد الله منشور الهداية، مصدر سابق، ص 61.

⁶ - د/ أبو القاسم سعد الله، منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية، تعليق، الدكتور أبو القاسم سعد
 الله، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987م، ص 61.

5- الشيخ أبو عبد الله محمد بن راشد الزواوي رحمه الله تعالى، قدم من زاوية فنزل علينا بالزاوية المشهورة بأولاد الفكون، ووجدني في حداثة السن لم أجمع القرآن أو قريب عهد بمجمعه، وكنت أحضر حلقات درسه، وكان هو السبب في تعلق قلبي بعلم النحو¹.

6- الوظائف والمهام التي تولاهما:

تولى التدريس بالجامع الكبير بقسنطينة في حياة والده الذي كان ينييه عنه أثناء غيابه رغم صغر سنه نسبيا، وقد ظهرت عليه مخايل النبوغ والذكاء في سن مبكرة فكان بارعا في " فنون العربية لغة ونحو وتصريفا وبلاغة مع المشاركة التامة في الفقه والأصلين الحديث والتصوف وغير ذلك "، كما دُرِّسَ في زاوية العائلة وفي مصلى بيته، وفي المدرسة التابعة لعائلة الفكون فكان يستقبل الطلبة من قسنطينة ومن غيرها من نواحي القطر خصوصا من منطقة زاوية ومن منطقة الجزائر وما حولها ومن منطقة الزيبان وعناية. كان يُدْرَسُ التفسير وصحيح البخاري والفقه من ابن حاجب والرسالة والنحو.

وبعد وفاة أبيه عام 1045 هـ خلفه في إمامة المصلين والخطبة أيام الجمع والأعياد، والسهر على أوقاف الجامع الكبير، كما تقلد إمارة ركب الحج وحصل على لقب شيخ الإسلام بعد أن بلغ نفوذه العلمي والروحي ذروته. وقد بقيت إمارة الحج في أيدي عائلة الفكون لقرون عديدة وكان آخر من تولاهما محمد بن عبد الكريم بن بدر الدين الذي أدركه الاحتلال الفرنسي وهو يناهز الثمانين من عمره والذي توفي عام 1256 هـ.

يقول المؤرخ البهائية الجزائري المهدي البوعبدلي عن إمارة الحج:.... كانت خطوة إمارة ركب الحج لا تسند إلا لأمثل عالم، تراعي فيه عدة مقاييس، أهمها التبحر في العلم والاستقامة، إذ هو الممثل لبلادها ولنخبة علمائها، حيث يجتمع بجبل علماء الأقطار

¹ - د / أبو القاسم سعد الله، منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية، تعليق، الدكتور أبو القاسم سعد الله، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987م، ص 105 . 106

الإسلامية، ويتبادل معهم الإجازات والتأليف، ويشارك في المناظرات العلمية التي كانت تعقد لحل المشاكل العويصة. فكانت مهمة أمير الركب في رحلاته الإفادة والاستفادة¹ وكل من بلغ مبلغ الفكون من الجاه والعلم والوظيفة يقصده الناس بالمراسلات والعلاقات مثل مراسلاته مع سعيد قدورة² مفتي الجزائر في وقته، ومع بلغيث القشاش³ وتاج العارفين العثماني، وإبراهيم الغرياني والمقري صاحب "نفع الطيب" والعالم المصري الشيخ عبد الرحمن الأجهوري والسوسي المغربي من المغرب الشقيق وغيرهم.

7- تلاميذه:

تخرج على يدي الفكون مجموعة كبيرة من الطلاب النجباء الذين ذاع صيتهم، ومن أشهرهم: أبو مهدي عيسى الثعالبي وقد ترجم له وسجل ما قرأه على يديه من كتب وما أجاز به في ثبته المسمى بـ "كنز الرواة"، وأبوسالم العياشي المغربي، ويحيى الشاوي، وبركات بن باديس وأحمد بن سيدي عمار، ومحمد وارث الطاروني، ومحمد البهلوي، وأحمد بن تلجون وعلي بن عثمان بن الشريف وغيرهم.

8- ثناء العلماء ومعاصريه عليه:

كان الفكون من أعلام عصره في الحديث والفقه والنحو بارعا فيه، أديبا شاعرا، جمع بين علم الظاهر والباطن، وقد تحدث عنه علماء عصره وتلاميذته ونهوا بمكانته المتميزة في العلم، فقال عنه المقري: "عالم قسنطينة وصالحها وكبيرها ومفتيها سلالة العلماء الأكابر ووارث المجد كابر عن كابر، المؤلف سيدي الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله عالم المغرب الأوسط غير مدافع، وله سلف علماء ذوو شهرة،

¹ مقال للمحقق المهدي بوعبدلي رحمه الله بعنوان: "عبد الكريم الفكون والتعريف بتأليفه": منشور الهداية" مجلة الأصالة العدد: 51، ص 15.

² سعيد قدورة أو سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري محدث، مفتي لقب بشيخ الإسلام، الموسوعة الحرة

³ ترجم له في منشور الهداية مصدر سابق ص 199.

ولهم في الأدب الباع المديد". وحلاه تلميذه أبو مهدي عيسى النعالي في "كنز الرواة" بقوله: "علامة الزمان ورئيس علوم اللسان وفخر المنابر إذا خطب، وإنسان سخاير إذا شعر أو كتب". أما أبو سالم العياشي فقد قال عنه: "العلامة الفهامة الناسك الجامع بين علمي الظاهر والباطن سيدي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني"¹.

9- وفاته:

يقال إنه لما تقدمت به السن انقبض عن الناس وترك الاشتغال بالعلوم، وسمع يقول: "قرأها لله وتركها لله"، توفي بالطاعون عشية الخميس 27 ذي الحجة 1073هـ الموافق لـ 3 أوت 1663 عن عمر يناهز خمسا وثمانين سنة. شهيدا بالطاعون، وكانت لنا به رضي الله عنه وصلة واتساع بالخدمة والولاء والاعتقاد الصالح لما حججت معه في سنة أربع وستين، وقد قال لي رضي الله عنه، لما طلبت منه الاتصال بمحضرتة والانخراط في سلك أهل خدمته: "إني أقول لك كما قال الإمام الشاذلي رضي الله عنه: "لك ما لنا من الخدمة وعليك ما علينا من الرحمة"².

10- آثاره ومؤلفاته:

1- منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية" مؤلف ذو قيمة متعددة، ووثيقة علمية نادرة، فهو كتاب تراجم حيث تعرض إلى ترجمة أكثر من سبعين شخصا، كما أنه تقييد هام يصور طبيعة البيئة القسنطينية زمن الانحيار والتجزؤ وهيمنة عقلية الهرطقة والخرافة. كما أرخ لأحداث مدينته وما جاورها، وما يجلب الانتباه في هذا الكتاب هي تراجمه التي لم يقصد بها التعريف بمناقب المترجم لهم، وإنما أراد به نقد أحوال أدعياء العلم والتصوف - من الطائفتين

¹ - ذ. عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية، حققها وقدم لها، الدكتور سعيد الفاضلي والدكتور سليمان القرشي، ج 2، ص 514.

² - عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية، حققها وقدم لها، الدكتور سعيد الفاضلي والدكتور سليمان القرشي، ج 2، ص 514.

- في وقته وصاحبه ينطلق كما يصرح بنفسه من خلفية إصلاحية تنويرية، وقد صدر مطبوعاً سنة 1981م، عن دار الغرب الإسلامي، تقديمياً ومنتناً أصلياً وفهارس¹.

2- سربال الردة في من جعل السبعين لرواة الإقراء² الكتاب مخطوط بباريس، وهو تأليف في القراءات، غني بالآراء والنقول، عالج فيه أنواع القراءات ورواها وغير ذلك مما يتصل بهذا الموضوع. وقال عنه المهدي البوعبدلي "... وقد نص على أن هذا التأليف لا يتجاوز كراسة وأنه قد وضعه بعد واقعة وقعت له مع أحد علماء قسنطينة عندئذ وهو أحمد بن حسن الغربي ويبدو من العنوان ومن ظرف التأليف أن هذه الكراسة عبارة عن مناقشة لما ادعاه الغربي ولكن معرفتنا لبعض آثار الفكون الأخرى تجعلنا نعتقد أن هذا العمل غني بالآراء والنقول وأن صاحبه قد عالج فيه أنواع القراءات ورواها وغير ذلك مما يتصل بهذا الموضوع ومما يتصل بأوجه القراءات طريقة النطق بالتكبير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عند الختم."

3- فتح الهادي في شرح جمل المجراي ومخارج الحروف من الشاطبية " وهو مؤلف في القراءات أيضاً.

4- الدرر في شرح "المختصر" والمقصود به "مختصر" عبد الرحمن الأخضرى، وعن أهمية مضامينه وفوائده التي لم توجد في المطولات، ونكته الحسان التي قل أن توجد في غيره.

5- شرح البسط والتعريف في علم التصريف: ألفه سنة 1048 هـ وهو شرح للأرجوزة المشهورة لصاحبها النحوي الكبير عبد الرحمان المكودي القاسي المتوفى 807 هـ وقد التزم فيه عقب كل شاهد ذكر حديث مناسب للشاهد معنى وإعراباً. قال عنه تلميذه وصاحبه ومعاصره أبوسالم العياشي، وقد وزن بين الشرح، وشرح العلامة المغربي محمد المرابط الدلائي هذا الشرح الذي يسمى بـ " فتح اللطيف لبسط والتعريف في علم التصريف ".

¹ - الدكتور أبو القاسم سعد الله - حفظه الله -

² - أبو القاسم سعد الله، في موسوعته " تاريخ الجزائر " ج 2 ص 25.

6- محدد السنان في نحور إخوان الدخان: ويسمى أيضا " بمحدد اللسان": وهو تقييد مفيد يرد فيه على دعاء حليلة شرب عشبة التبغ، وعلى رأسهم العالم المصري الشهير الأجهوري، وقد أورد فيه معالجة فقهية جامعة لهذه الظاهرة الغريبة، مبينا بالحجج والنبراهين حرمتها ومضارها، وهي من العادات السيئة التي بدأت تنتشر في عصره.

7- كتاب في حوادث فقراء الوقت

8- فتح المالك في شرح ألفية ابن مالك": وهو شرح على لامية ابن مالك في التصريف.

9- شفاء الأمراض لمن التجأ إلى الله بلا اعتراض "وهو نظم في مدح الرسول

صلى الله عليه وسلم، وأصحابه والتابعين والأولياء رضي الله عنهم .

10- ديوان شعر: يقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله: "أما تعاطيه الشعر، فالظاهر

أنه كان يمارسه سليقة وكان يعارض به ما يرد عليه منه في رسائل المراسلين أمثال

المقري وتاج العارفين والسوسي المغربي المتوفى 1023 هـ، ومنه ما كان ينظمه للتنفيس

عن كرب الدنيا مثل "سلاح الذليل في دفع الباغي المستطيل"، ومنه ما نظمه في

المديح النبوي تحت ضغط المرض الذي عانى منه طلباً من الله لتعجيل الشفاء¹.

11- الخاتمة:

الشيخ عبد الكريم الفكون كان محبا للمطالعة وثنيف نفسه، فكان كثيرا ما

يعتكف على القراءة وحده من مكتبة العائلة الزاخرة بأمهات الكتب والمخطوطات

التي جمعها شيوخ العائلة خلال عقود من الزمن، ساعيا لتوسيع دائرة معارفه يساعده

على ذلك ذهن وقاد وذكاء حاد، وطموح عريض، وأنفة واعتزاز بالنفس يقول عن

نفسه: "كنت ذا نفس أبية، ومع صغر سني لا أرضى أن أكون خلي المعرفة بما عرفه

غيري."

¹ - ينظر، الأستاذ أبو القاسم سعد الله، مقدمة " منشور الهداية " ص 11 - 12.

وقد تعرضت مكتبة آل الفكون العامرة إلى النهب والسلب بعد دخول
الإستعمار الفرنسي إلى قسنطينة والاستيلاء على كنوزها الثمينة من كتب مطبوعة،
ونسخ المخطوطات التي أوردتها المستشرق الفرنسي قبل سرقتها في قائمة جامعة، والله
من وراء القصد وهو يهدي السبيل والحمد لله رب العالمين.

الإخاء الفقهية لعلماء قسنطينة

للمعيار المغربي للونشريسي

د. وسيلة شريط

و.أ. صفوان شبيبة

جامعة الأمير محمد القادر

للعلوم الإسلامية

مقدمة:

تعتبر حاضرة قسنطينة من أبرز وأهم الحواضر العلمية التي عرفها المغرب الأوسط (الجزائر)، حيث اشتهرت بعلمائها الذين تجاوزت شهرتهم وتأثيرهم حدود المدينة، وكذا طلبائها ومراكزها العلمية، بالإضافة إلى تلك المؤلفات الفقهية الرائدة التي أنتجها علماءها، والتي استطاعت أن تُعزز بها مكانة المدينة بين الحواضر العلمية في المغرب الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط خاصة.

وليس أدل على ما نقول تلك الثُقولات التي نصادفها ونحن نتصفح الموسوعة الفقهية الموسومة بالمعيار المغرب للإمام الونشريسي، الذي يعتبر علامة القرن التاسع الهجري في الجزائر والمغرب، ذلك أنه أضاف إلى الفقه الإسلامي الكثير من الجهود الفكرية والعلمية التي عبرت عنها غزارة مؤلفاته، ومن أشهرها كتاب المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، وهو في الفتاوى والنوازل أين جمع فيه الإمام الونشريسي فتاوى متقدمي الفقهاء ومتأخريهم، كما يعد المعيار المغرب من أهم المصادر التي ينبغي الوقوف عندها من مختلف الباحثين سواء تعلق الأمر بالتاريخ الإسلامي عامة أو بتاريخ بلاد المغرب خاصة، أو تعلق الأمر أيضا بالفقه الإسلامي عامة وبفقه النوازل خاصة، بل لقد ساهم أيضا بالتطرق للقضايا الاجتماعية والاقتصادية أيضا، كذلك تعتبر موسوعة المعيار المغرب من أهم مصنفات

المذهب المالكي، حيث اعتمد فيه صاحبه على عدد كبير جدا من أمهات المصادر في الفقه المالكي. لهذا يقف القارئ على مجموعة من النوازل الفقهية الهامة التي نقلها الونشريسي عن علماء قسنطينة، إذ تميزت المادة الفقهية المأخوذة عن هؤلاء بالكثير من المميزات والملامح التي من شأنها أن تؤهلها لتكون محل دراسة، وتتبع لما ينبغي عن هذه الدراسة والتتبع من نتائج هامة نجعلنا نقف عند طبيعة الأحكام التي تصدى لها علماء قسنطينة بالإفتاء، والقيمة العلمية لتلك الفتاوى.

وعليه تأتي هذه الورقة لتحقيق هدفين مهمين هما:

- بيان مدى مساهمة علماء قسنطينة في إثراء الموسوعة الفقهية "المعيار المغرب".
- الوقوف على طبيعة هذه الأحكام سواء من الناحية الموضوعية أو من الناحية العلمية التأصيلية.

ومنه فإن الإشكالية التي نصبوا إلى الإجابة عنها من خلال هذه الورقة البحثية تتمثل في الآتي:

كيف ساهم علماء قسنطينة في إثراء الموسوعة الفقهية الموسومة بالمعيار المغرب لصاحبها الإمام الونشريسي؟ وما القيمة العلمية لهذه الفتاوى المنقولة عن هؤلاء؟ وقد تم تناول إسهامات علماء قسنطينة من خلال المعيار المغرب للإمام الونشريسي وإجابة عن التساؤلات السابقة من خلال النقاط الآتية:

أولاً: قسنطينة من خلال "المعيار المغرب"

ثانياً: اقتباسات الونشريسي عن القاضي أبي القاسم القسنطيني

ثالثاً: اقتباسات الونشريسي عن القاضي أبي عبد الله سيدي محمد الزلديوي القسنطيني

رابعاً: اقتباسات الونشريسي عن الفقيه أبي العباس ابن قنفذ الخطيب القسنطيني

أولاً: قسنطينة من خلال "المعيار المغرب"

أورد الإمام الونشريسي¹ ذكر مدينة قسنطينة في كتابه المعيار العرب² في أكثر من موضع، وإننا سنقتصر على موضعين اثنين لعلنا نستشف منهما ما يتبنا عن حال المدينة خلال تلك الفترة من الزمن :

1- ورد ذكر المدينة في نازلة نقلها الونشريسي سئل فيها الإمام أبو زكريا البرقي عمن التزمت له زوجته أن لا تطالبه بتفقه مادام غائبا عنها، ولم يخرجها من بلدها وهي في سفاقس... وقد رفعت الآن أمرها للقاضي واشتركت الضرر لعدم النفقة وطول الغيبة وعدم معرفة أين هو حتى يُعذر، أو يكون ببلد بعيد كبحاية وقسنطينة بحيث يتعذر إعداره³.

ففي النازلة ما يدل على أن مدينة قسنطينة كانت حينها من المدن المعروفة ليس فقط لدى أهل المغرب الأوسط (الجزائر)، بل حتى عند أهالي المغرب الأدنى (تونس)،

¹ - الإمام الونشريسي: أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي وكنيته أبو العباس (834هـ - 914هـ) ونشريسي الأصل التلمساني نزيل فاس، تتلمذ على ثلة من الشيوخ منهم أبو الفضل قاسم بن سعيد العفالي (ت 854هـ) كما كان له تلامذة كثر منهم أبو عبد الله محمد بن محمد الخرديس الثغلي (ت 897هـ) من أشهر مؤلفاته المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب. انظر: محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر، مطبعة بيزر فونطاني، 1906م، 1/58-59- عادل نويهيض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، بيروت- لبنان، مؤسسة نويهيض الثقافية، 1400هـ/ 1980م، ص 343.

² - من مؤلفات الإمام الونشريسي غير المعيار المغرب: - الأجوبة. - أسئلة في التاريخ والسير. - الأسئلة والأجوبة. - أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العواقب والزيواهر. - إضاءة الخلك والمرجع بالدرك على من أفتى من فقهاء فاس بتضمين الراعي المشترك. - إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك. - درر القائد وغرر الطرر والفوائد. - الواعي لمسائل الأحكام والتداعي. - الوفيات. - الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية. - شرح الخرزجية في العروض. - شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد. - عدة البروق في جمع معاني المذهب من المجموع والفروق. - المبدي لخطأ الحميدي. - مختصر أحكام البرزلي...

³ - أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 (1403 هـ. 1983 م)، ج 3، ص 287.

والأكثر من ذلك أنها كانت تُشد إليها الرحال، وإلا لما ذُكرت على المنوال الذي ذكرنا، ولعل ذلك راجع إلى ما اشتهرت به من علماءها وحكامها وتجارتها .

2- ورد ذكر المدينة كذلك في نازلة أخرى يذكر فيها الفقيه نفسه أبو زكريا البرقي أنه نزل بظاهر قسنطينة فخرج إليه الطلبة فسأله أحدهم عن قوله تعالى ((بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَاتِهِ)) هل كان معنى قوله تعالى ((فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ)) وإن لم تبلغ فيكون الجزاء هو الشرط، أو تكون الشرطية غير مفيدة، وكنت مستوحزا فلم يتيسر لي الجواب حتى قدمت تونس...¹

ويظهر من النازلة أن مدينة قسنطينة كانت عامرة بطلبتها ومدارسها وعلمائها، وأكثر من ذلك نوعية طلبتها التي تظهر من نوعية الأسئلة التي كانوا يطرحونها، والتي عجز الفقيه أبو زكريا البرقي عن الإجابة عنها، حتى استجد بعلماء آخرين.

ثانيا: اقتباسات الإمام الونشريسي عن القاضي أبي القاسم القسنطيني: سنعرض جانبا من اقتباسات الإمام الونشريسي للقاضي أبي القاسم القسنطيني من خلال التعريف به، وكذا بيان مضمون هذه الاقتباسات من خلال نازلتين كآلآتي:

1- التعريف بالقاضي أبي القاسم القسنطيني: هو الشيخ أبو القاسم بن محمد بن أحمد الوشتاني القسنطيني (847هـ / 1443م) كان قاضيا بارعا ووفيقها مالكا بمتازا، نشأ بتونس وأخذ فيها علوم عصره عن جماعة من شيوخ الزيتونة، منهم أبي مهدي عيسى الغريبي، حتى أصبح من نبغاء الزيتونة في الفقه وأصول الدين، كما تولى خطة قضاء الجماعة بتونس وإمامة جامع الزيتونة والخطابة به والإفتاء، واشتغل بالتدريس في مدرسة الشمامسين مات مقتولا بحراب جامع الزيتونة وقت صلاة الصبح.²

¹ - المصدر نفسه، ج 12، 343 .

² - يظهر من خلال التتبع أن الشخصية المقصودة لدى الإمام الونشريسي هي الشخصية المترجم لها أعلاه، وذلك لاعتبارين هما أولا أنهما عاشا في فترة متقاربة، زيادة على وصف الإمام

2- مضمون اقتباسات الإمام الونشريسي عن قاضي الجماعة سيدي أبو القاسم القسنطيني:

نقل الإمام الونشريسي في كتابه المعيار المعرب نازلتين اثنتين تنسبان لقاضي الجماعة، كما يصفه الونشريسي¹ بتونس أبو القاسم القسنطيني، تتعلق الأولى بمجال البيوع، في حين تتعلق الأخرى بقضايا الأحباس، ويمكن بيانهما على النحو الآتي:

النازلة الأولى: سئل أبو القاسم القسنطيني عن قول ابن الحاجب: ((وبعد بدو الصلاح يصح ما لم يستثنى أو ما لم يستتر))، فأجاب بقوله: ((الحمد لله إذا باع البائع الكتان أو القطن بعد بدو الصلاح واستثنى البز أو البرسيم فإن كان ذلك قبل أن يظهر البز والبرسيم فهو كاستثناء الجنين قال القاضي ابن رشد: لا أعلم خلافا في منعه))².

النازلة الأخرى: نقل الونشريسي عن أبو القاسم القسنطيني نازلة أخرى تتعلق سئل عنها أحد فقهاء تونس، وكان القاضي أبو القاسم من الذين تصدوا للفتوى في هذه النازلة، ونص النازلة أن رجلا حبس عند موته جنة على مساجد بلده، فهل يدخل في الحبس كل مسجد في البلد؟ أو يدخل ما اشتهر من مساجد البلد فقط دون ما لم يشتهر ولم يعرفه إلا بعض الناس؟ فأجاب القاضي أبي القاسم القسنطيني³: ((الحمد لله، قول المحبس مساجد بلد كذا جمع مضاف، يعم جميع المساجد الموجودة حين الحبس، أما ما يوجد بعد ذلك بذلك البلد، فهل يدخل أم لا؟ يجري على الخلاف الكائن فيمن أوصى لبني فلان وبعضهم موجود هل ذلك بمنزلة المعين

الونشريسي لأبي القاسم القسنطيني بقاضي الجماعة بتونس، وهذا ما يمكن اعتباره شهادة حية له ولفضله وشرفه العلمي.

¹ - أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المعرب، المصدر السابق، ج 5، ص 11.

² - المصدر نفسه، ج 5، ص 10، 11.

³ - ورد في الطبعة المعتمدة من كتاب المعيار المعرب تسميته بـ " القسنطيني "، لكن في النازلة الثانية سُئِلَ إليها وردت تسميته بـ " القسنطيني " ولعل ذلك من الأخطاء النصية التي يمكن تحكّمنا في تصحيحها.

فلا يدخل إلا الموجود... أو ذلك بمنزلة غير المعين فيدخل غير الموجود... يختلف في ذلك على قولين نقلهما ابن رشد والمدونة والله للموقف بفضله¹.

والذي يظهر من نص فتوى القاضي أبو القاسم القسنطيني في النازلتين :

- اعتماده على قواعد اللغة العربية في الوصول إلى الحكم على النازلة، من ذلك قوله: (... جمع مضاف فيعم جميع المساجد...).

- اعتماده على القياس كذلك في الوصول إلى الحكم على النازلة إذا لم يكن فيها نص يُرجع إليه، ويظهر ذلك من خلال قياس مسألة اشتمال الحبس وانسحابه على المساجد الموجودة حين الحبس والتي ستوجد بعد ذلك على مسألة إيضاء الموصي لبني فلان وبعضهم موجود والبعض الآخر غير موجود يوم الإيضاء فهل يقتصر هذا الأخير على ما كان موجودا فقط أم ينسحب كذلك على من كان غير موجود؟

- عدم التضييق على المستفي، خلال إرشاده إلى الخلاف الموجود داخل المذهب حول المسألة حتى يكون في فُسحة من أمره، والأكثر من ذلك يوكله إلى نفسه في تحري الصدق مع الله تعالى.

ثالثا: اقتباسات الإمام الونشريسي عن القاضي أبي عبد الله سيدي محمد الزلديوي القسنطيني:
ليان اقتباسات الإمام الونشريسي عن القاضي أبي عبد الله سيدي محمد الزلديوي القسنطيني سنذكر ترجمة للقاضي الزلديوي ثم نعرض مضمون ذلك الاقتباس من خلال نازلتين كما يأتي:

1- التعريف بالقاضي أبي عبد الله سيدي محمد الزلديوي القسنطيني: من أصحاب ابن عرفة، قال الشيخ زروق في كناشته: هو شيخ تونس في وقته وقاضي الأنكحة بما وقال السنخاوي: كان عالما ولي قضاء الأنكحة وانتفع به الفضلاء كأحمد

¹ - المصدر نفسه، ج 7، 239، 242.

بن يونس، وقال: إنه أخذ عنه العربية والأصليين والبيان والمنطق والطب والحديث وغيرها من الفنون العقلية والنقلية¹.

2- مضمون اقتباسات الونشريسي عن قاضي قسطنطين سيدي أبو عبد الله سيدي محمد الزلديوي: أورد الإمام الونشريسي عن فقيه وقاضي قسطنطين كما وصفه الونشريسي²، أبو عبد الله سيدي محمد الزلديوي نازلتين اثنتين، تتعلق الأولى بمسائل الجنائيات والديات، وتعلق الثانية بنظام الرُّق.

النازلة الأولى: سئل قاضي قسطنطين أبو عبد الله سيدي محمد الزلديوي عن قبيلتين وقعت بينهما فتنة وانفصلتا عن قتيل من أحد الصفيين، فلما طولت الفتنة الغاتنة لصف القتيل صار كل واحد منهم يقول أنا لم أحضر الفتنة ولا عاينتها، وإذا سئل الشهود يقولون نشهد أن الفتنة وقعت بين القبيلتين وانفصلت عن قتيل من بني فلان... فأجاب فقيه وقاضي قسطنطين بقوله: ((لا يؤخذ إلا من حضر النائرة من القبيلتين، لا من غاب ولو كان متميا لهما، فإن ثبتت النائرة بينهم بيينة أو بإقرارهم لكنهم تناكروا جراح بعضهم بعضا أو قتلاهم، فإن كانتا باغيتين فدم كل واحدة منهما قتل منازعتهما، فتضمن جراح صاحبتهما وقتلاهما، وإن تعلق كل منهم برجل يدعي أنه جرحه فإنه يخلف على ذلك ويستفيد منه، وإن لم يعرف من به، حلف كل واحد منهم على أن جرحه كان من الفتنة المنازعة له وأنه لا يعرف من جرحه معينا، فإذا حلفوا على هذا الوجه ضمنت كل طائفة جراح صاحبتهما، قاله ابن القاسم واستبعده ابن رشد... وإن كانت القبيلة زاحفة والأخرى دافعة فدم الأولى هدر والثانية معتبر تؤخذ به الزاحفة...))³.

¹ انظر ترجمته في: شمس الدين محمد السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط1، بيروت-لبنان: 9: 179، 180، 1412هـ/ 1992م- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، بيروت-لبنان، دار إحياء التراث العربي، 11: 255.

² أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المغرب، المصدر السابق، ج6، ص 126.

³ - المصدر السابق نفسه، ج2، ص 182، 183.

النازلة الأخرى: وسئل كذلك أبو عبد الله سيدي محمد الزلديوي عمن اشترى عبدا ثم باعه لآخر وقبض منه بعض الثمن، ثم بعد ذلك أبقى العبد، فلما جاء البائع يضرب من المشتري بقية الثمن، احتج عليه هذا الأخير بأن العبد مسروق وبأنك كنت تعلم ذلك وقد أعلمك الناس بذلك لكنتك لم تلتفت للأمر وبعته لي؛ ولم تعلمني بذلك، والآن أنا أطلب منك أن ترد إلي ما دفعت إليك، فقال له البائع: أنا ما سمعت بهذا من أحد ولا قيل لي، وهب أنه قيل لي، فإن استرجع العبد من الذي سرق منه فأين هو؟ وهل قائل هذا صادق أو كاذب؟

فأجاب قاضي قسنطينة بقوله: (أما مسألة العبد الأبق، فما أشيع عنه عند شرائه الأول غير له من شرائه، إلا إذا صدر عن موثق به فلا يكتسبه، وعلى القولين فما صدر من القول عيب في المبيع يجب على البائع بيانه للمبتاع عند البيع، فإن لم يبينه واطلع عليه المشتري فله رده، فإن فات رجع بقيمة العيب ولا يرجع بقيمته حتى يثبت لمستحقه، وإن لم يثبت هذا القول فلا يمنع البائع من بقية الثمن والله سبحانه أعلم)¹، ولعل من أبرز ما يمكن أن نقف عليه من خلال هاتين النازلتين:

- إذا افترضنا وقوع النازلتين بقسنطينة باعتبار أن ذلك هو الغالب فغالبا ما يسأل الفقيه المحلي (المتواجد بالمدينة) عن النازلة قبل أن يُسأل عنها غيره، فإذا في ذلك الكثير من الدلالات الاجتماعية، من ذلك سيطرة النظام القبلي، سيطرة نظام الرق، وحوود السرقة في المجتمع... الخ.

- كلا النازلتين لم يكتف فيهما السائل بفتوى القاضي القسنطيني أبو عبد الله الزلديوي، وإنما شاركه في الفتوى فقيه الجزائر أبو الحسن علي بن محمد الحلبي، مما يدل على الهالة التي أثارها النازلتين الأمر الذي استدعى أكثر من إجابتين قطعا هذه الهالة والبسلة التي أحدثتها النازلتين.

¹ أبو العباس أحمد بن يحيى الوائلي: المعيار للعرب، المصدر السابق، ج6، ص 126، 127.

- مثل القاضي أبو عبد الله سيدي محمد الزلديوي إلى تفصيل المسألة وتحريمها من خلال إيراد مختلف احتمالاتها ((فإن كانتا باغيتين... وإن تعلق كل منهما برجل... وإن لم يعرف من به حلف... فإذا حنقوا... وإن كانت زاحفة... فإن لم تثبت النائرة...))، وذلك سدًا لباب الاحتياج لاستفتاء القاضي من جديد .

- مثل القاضي أبو عبد الله سيدي محمد الزلديوي إلى الترجيح حين اختلاف السادة المالكية في المسألة كقوله مثلاً: ((والأرجح عند الشيوخ...))، ولعل الأمر راجع لكونه قاضياً، فالقاضي يجب عليه بيان الترجيح بين الآراء حتى يُصدر حكمه، ثم أن طبيعة النازلة تقتضي في بعض الأحيان الفصل فيها بترجيح قول على آخر قطعاً للنزاع .

رابعا: اقتباسات الإمام الونشريسي عن الفقيه أبي العباس ابن قنفذ الخطيب القسنطيني:

إن من أبرز ما اقتبسَه الإمام الونشريسي عن الفقيه ابن قنفذ الخطيب القسنطيني هاتين النازلتين على النحو الآتي:

1- التعريف بالفقيه أبي العباس ابن قنفذ الخطيب القسنطيني: هو أحمد بن حسين بن علي بن ميمون بن قنفذ الخطيب أبو العباس القسنطيني، الإمام العلامة الرحالة، القاضي القاضل، والمحدث المبارك، له علم بالتراجم والحديث والفلك والفرائض حيث اشتهر بابن قنفذ وبابن الخطيب، من أهل قسنطينة بالجزائر ولي قضاءها، ورحل إلى المغرب الأقصى فأقام 18 عام، من بين كتبه شرح الطالب في أسنى المطالب (في التراجم)، وتيسير المطالب في تعديل الكواكب، شرح منظومة ابن أبي الرجال (في الفلك)، وبغية الفارض من الحساب والفرائض وكذا سراج الثقات في علم الأوقات¹ .

¹ - بحير الدين الزركلي الأعلام، ط2، بيروت، دار الملايين، 1986م، 1/117.

2- مضمون اقتباسات الونشريسي عن أبو العباس ابن قنفذ الخطيب القسنطيني:

نقل الإمام الونشريسي في كتابه المعيار المعرب نازلتين اثنتين تنسبان للفقير أبو العباس ابن قنفذ الخطيب القسنطيني الذي وصفه الونشريسي بقوله: (شيخنا)¹، تتعلق الأولى بمجال البيوع، في حين تتعلق الثانية بالقرض، ويمكن بيانها على النحو الآتي:

النازلة الأولى: سئل الفقيه أبو العباس ابن قنفذ القسنطيني عن مسألة باع فيها القاضي نصيباً نعيماً لشرىك غائب بسبب تشكي شرىكه لضرر لحقه .

فأجاب الفقيه بقوله: ((تصفحت سطر سؤالك ضاعف الله في الخير أعمالي وأعدتلك، ومداره أن بعض القضاة سددهم الله تعالى حكم على غائب بعيد الغيبة بيع حظاً من ملك يقبل القسم لقيام الشرىك الشاكي بالضرر الذي لحقه بعد استيفاء الموجبات... وفعله في ذلك سدده الله جارٍ على سنة مستقيمة وأقضية محكمة قومة))²، وبعد أن بين الفقيه أبو العباس ابن قنفذ صواب حكم القاضي، ذكر أقوال علماء المذهب في المسألة، ثم راح يجرر المسألة ويبين تفاصيلها بقوله: ((والمطلوب حاضر وغائب، والأول واضح، والثاني على أربعة أقسام: غائب في البلد وعنهما كاليومين والثلاثة، والقسم الغائب عنها كالعشرة ونحوها، والرابع أكثر من ذلك أو مفقود... والرابع هو المقصود... وفي الجلاب ما نصه: ويحكم على الغائب في الحرق كلها والوكالات والمقاسمات وسائر المعاملات والمداينات، وقد كره الحكم في العقار والرباع إلا أن تطول غيبته، وقال أشهب يحكم عليه في الرباع وغيره...))³.

النازلة الأخرى: سئل الفقيه أبو العباس ابن قنفذ عن تخريج اللخمي من قول ابن الخاحب: السكة والصيغة في القضاء كالجودة اتفاقاً، فقيل له ابن قنفذ يا سيدي قد أشكل علي مع أبي سألت عنه عالم بجاية ومفتيها فقال لي لم يُفتح علي

¹ - أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المعرب، المصدر السابق، ج 5، ص 54.

² - المصدر نفسه، ج 5، ص 49.

³ - أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المعرب، المصدر السابق، ج 5، ص 50.

فيه الآن، ولعل الله يفتح علينا فيه بعد هذا وأبعث لكم بجوابه، فلعلمكم يا سيدي
تشفون الغليل، والسلام عليكم ورحمة الله .

فأجاب بما نصه: ((أما تخريج اللحمي وإحاقه القضاء بالمراطة معتمدا على ما ذكره
ابن الحاجب إذا باع أو أسلف قائمة... وأجازة في الكتاب إذا كانت له دنائير قائمة
بوزن أن يأخذ مجموعة بوزنها، وأجاز ذلك أيضا فيمن له قمع أن يأخذ عنه دقيقا بكيه
وإن كان ترك الربع لمكان الطحن، وكل يختلف فيه إذا كان قضاء، وأجيز في المراطة، ولا
فرق بين المسألين... وعليك بكلام الإمام آخر الأئمة المحققين الحفاظ المتقين الشيخ
ابن عرفة... فقد شفى فيها الغليل وأزال اللبس وأراح الغليل...))¹.

ولعل من أبرز ما يمكن أن نقف عليه من خلال هاتين النازلتين:

- اللطف في الإجابة وحسن البيان، وهذا ما لم نلمسه عند غيره من علماء
قسنطينة المنقول عنهم، ويظهر ذلك من قوله مثلا: ((تصفحت سطر سؤالك
ضاعف الله في الخير أعماله وأعمالك... بعض القضاة سددهم الله تعالى... وفعله
في ذلك سدده الله جارٍ على سنة مستقيمة))، وقوله في النازلة الثانية: ((والسلام
الكرام أيها العلامة المفيد... لازلتم آخذين بزمام العلم رافعين رأيتيه...)).

- إرشاد المستفتي طالب الإجابة إلى أحسن المؤلفين في مبتغاه كقوله: ((وعليك
بكلام... الشيخ ابن عرفة)).

- استقلال الفقيه أبو العباس ابن قنفذ في ترجيحاته واختياراته، ويظهر ذلك من
خلال قوله: (وما قاله اللحمي هذا اختيار منه...).

- كثرة النقول التي كان يوردها ففي صفحة واحدة يورد مجموعة كبيرة فقهاء
المذهب المالكي (اللحمي، ابن رشد، ابن القاسم، الجلاب، ابن الماجشون،

¹ - مصدر نفسه، ج 5، ص 54 .

الأندلسيون، أشهب، المازري، ابن لبابة، سحنون، المتيطي، ابن القطان، القاضي عياض، أصبغ، أبو الأصبغ)، ولعل كثرة التُّقولات إنما تشير إلى سعة اطلاعه .

- إن السؤال الموجه لابن قنفذ القسنطيني لم يكن سؤالاً مجرداً، إنما الذي طُلب منه بصورة غير مباشرة تصحيح حكم صادر عن قاضٍ إن كان خطأً، أو تأكيده إن كان صحيحاً، ذلك أنّ النازلة كان قد صدر بشأنه حكمٌ قضائي، وعليه فإنه يستنبط من هذه النازلة شيئين اثنين: الأول أن الحكم القضائي الصادر عن القاضي الذي هو في الأصل فقيه لم ينل الرضا من قبل المتعاصمين، فاحتاجوا في ذلك إلى القول الفصل، والثاني أنّ ابن قنفذ كان يحظى بمكانة علمية رفيعة تسموا عن مكانة القاضي نفسه .

خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية الموسومة ب: الإضاءات الفقهية لعلماء قسنطينة من خلال الموسوعة الفقهية (المعيار المعرب) للإمام الونشريسي يمكن القول إننا خلصنا إلى النتائج الآتية :

1. إن الذي يتصفح كتاب المعيار المعرب للإمام الونشريسي، سيقف على حضور قوي وملموس لمدينة قسنطينة إن على مستوى عدد النوازل المنقولة، أو على مستوى نوعية النوازل ومضمونها وقيمتها العلمية .
2. دلت النوازل التي نقلناها في هذه الورقة البحثية على أن مدينة قسنطينة كانت عامرة ليس فقط بالفقهاء، بل حتى بطلاب العلم الذين تميزوا بمستوى راقٍ، وذلك ما لمسناه من نوعية المناقشات والأسئلة التي كانوا يتقدمون بها بين يدي العلماء، لكن على الرغم مما أكدناه فإننا نقول من باب المقارنة أنه لم ينل علماء قسنطينة ولا المدينة في حدّ ذاتها ذلك الحجم من التُّقولات، أوحى من الاهتمام الذي نالته غيرها من الحواضر العلمية في الجزائر كجاية وتلمسان

ومدينة الجزائر، ولعل ذلك راجع لتفوق هذه الأخيرة على حاضرة قسنطينة من حيث الشهرة وكثرة العلماء.

3 ورد ذكر مدينة قسنطينة مجردة عن علمائها في كتاب "المعيار المعرب" في موضعين اثنين، مما يدل على اشتهارها وذويوع صيتها .

4 إن من يقف على الأوصاف التي كان يطلقها الإمام الونشريسي من حين إلى آخر على علماء قسنطينة كقوله: قاضي الجماعة، الفقيه، شيخنا، سيصل حتما إلى المكانة العلمية المرموقة التي كان يتبوؤها هؤلاء العلماء .

5. إن الذي يستقرئ إجابات الفقيه أبو العباس ابن قنذ القسنطيني المنقولة من قبل الإمام الونشريسي، سيقف على علو كعب الرجل، وذلك من خلال القدرة على استحضار أقوال المالكية، ونسبة كل قول لصاحبه بشكل يثير الانتباه.

6. إن كل ما نقله الإمام الونشريسي عن علماء قسنطينة، عبارة عن نوازل متعلقة بأبواب الفقه الإسلامي دون غيرها من أبواب الشريعة الإسلامية الأخرى.

محمود بن دالي عمر

المعروفه بالمفتي كحول (1870-1936م)

د. محمد السعيد قاصري

جامعة المسيلة

مقدمة:

يعد المفتي كحول من بين أهم أعلام مدينة قسنطينة، الذين لعبوا دورا كبيرا في الحياة الثقافية والفكرية للجزائر، وتكمن أهمية هذه الشخصية في كونها عايشة مرحلة الاحتلال وتقلباته خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وعاشت ظروف وأهوال وأحوال، هذا إلى جانب مساهماته في النهضة الجزائرية الحديثة من خلال الجرائد والصحف، والفتوى والإمامة والتدريس والتأليف.

وإذا كان محمود بن دالي لم ينتسب إلى أي تيار سياسي أو إصلاححي، فلقد كانت له مواقف متباينة ومتشعبة من السياسة الاستعمارية الدينية في الجزائر، وفي نفس الوقت كانت له مواقف من الحركة الإصلاحية الجزائرية، وبين هذا وذاك دبرت له السلطات الاستعمارية مؤامرة لاغتياله وإسكات صوته، وحاولت إصاق التهمة بالشيخ الطيب العقبي، لتشويه شخصيته، والانتقام منه لمواقفه المناهضة لسياسة الإدماج والتجنيس والزواج بالأجنبيات، واستهداف من ورائه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لدورها الإصلاححي والتربوي الذي أفسد مخططات العدو الفرنسي الرامية إلى تدجين وفرنسة المجتمع الجزائري، وإلى وقفها إلى جانب القضايا العربية والإسلامية العادلة في ذلك الوقت كالقضية الفلسطينية.

هذا ما يمكن محاولة الوقوف عليه ضمن هذا المقال الذي نسعى من خلاله للتعريف بهذه الشخصية ونفض غبار الغفلة والنسيان عنها، وفي نفس الوقت المشاركة

في إنجاز كتاب دفعة التخرج جويلية 2016 لطلبة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، تحت شعار "أعلام قسنطينة في إطار قسنطينة عاصمة الثقافة العربية".
مولده ونشأته:

ولد محمود بن دالي عمر المعروف بالمفتي كحول بمدينة قسنطينة في حدود سنتي 1870-1872 في عائلة متوسطة الحال، لها إلمام واسع بالثقافة العربية الإسلامية¹، حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة بأحد المدارس القرآنية بالمدينة، وعندما بلغ سن التمدرس التحق بمحلقات التعليم المسجدي التي كانت تقوم بها مختلف المساجد في المدينة، حيث تلقى دروسا في الفقه الإسلامي، واللغة العربية، وتفسير القرآن الكريم، كما لم يمنعه هذا التعليم من الالتحاق بالمدرسة التي أسستها السلطات الفرنسية لتكوين إطارات العدالة الإسلامية والديانة الإسلامية التي كانت تستقطب بين الحين والآخر، هذه الشريحة من أبناء المجتمع، حيث درس مبادئ اللغة الفرنسية وتمرن فيها بشكل كبير، وكان من بين الذين تتلمذ عليهم واستمع إلى دروسهم الشيخ عبد القادر الجاوي، وحمدان الونيسي². لم يؤثر المستوى العمري على محمود كحول، في متابعة دروسه، والحرص على التفوق فيها، ولذلك وصفه أبو القاسم سعد الله بكونه كان من المتعلمين الحاذقين، ومن خلال تقرير المفتش موتيلانسكي سنة 1905 كان محمود كحول ضمن تلاميذ حمدان الونيسي البالغ عددهم 17 تلميذا، عندما قام بزيارته، وحضر له درسا في النحو، ويفيدنا أبو القاسم سعد الله في هذه الأثناء أن محمود كحول كان يبلغ من العمر 33 سنة³.

¹ - أبو عمران، الشيخ وآخرون: معجم مشاهير المغاربة، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1995، ص 453.

² - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 384.

³ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، ص 135، يراجع أيضا الجزء الرابع من تاريخ الجزائر الثقافي، ص 384، ويفيدنا سن محمود كحول خلال هذه السنة -1905- أنه من مواليد سنة 1872.

نظرا لنباهة وتفوق محمود كحول جلب بات محل استقطاب من طرف الإدارة الفرنسية التي كانت تسعى جاهدة لاستدراج العناصر الجزائرية المثقفة وتوظيفها في المناصب والوظائف الإدارية لاحتوائها والاستفادة منها، وعليه نجد أن محمود بن دالي كان ضمن الفئة الجزائرية المثقفة التي قبلت بالوظيفة الرسمية الفرنسية.

توليه التدريس بقسنطينة:

يذكر أبو القاسم سعد الله في موسوعته الثقافية أن محمود كحول عمل مدرسا في مدرسة سيدي مسيد الابتدائية بقسنطينة¹، ثم تولى التدريس بمسجد سيدي الجليس الذي سبق وأن حولته السلطات الاستعمارية إلى مدرسة عربية-فرنسية تابعة للإدارة الفرنسية²، ومن بين الدروس التي كلف بتدريسها في هذه المدرسة الحكومية فترة من الزمن: اللغة العربية والشريعة الإسلامية³. ومن بين تلاميذه نجد أحمد بن يحي الأكلحل مؤلف كتاب روح السعادة ونشر الشهادة في الحسنى والزيادة⁴؛ حسب ما ذكره لنا أبو القاسم سعد الله.

انتقاله إلى مدينة الجزائر:

لم يستقر محمود كحول بمدينة قسنطينة، مسقط رأسه، وهذا يندرج ضمن حركة التنقل التي كان يقوم بها أقرانه ما بين مدينة قسنطينة ومدينة الجزائر، التي استقطبت مجموعة كبيرة من المثقفين والمتعلمين الجزائريين، كشيخه عبد القادر المجاوي، وإذا كنا لا نقف على تاريخ انتقاله إلى الجزائر بالضبط، فمن غير المستبعد أن يكون في حدود سنة 1906⁵، ومن بين المناصب أو المهام التي قام بها أثناء وجوده بمدينة الجزائر وإلى غاية اغتياله سنة 1936:

¹ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، المرجع السابق، ص384.

² - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، المرجع السابق، ص87.

³ - بوا الصمصاف، عبد الكريم: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945، دار البعث، قسنطينة، 1401هـ/ 1981م، ص283.

⁴ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، المرجع السابق، ص169.

⁵ - استندنا في تحديد هذا التاريخ إلى معلمين رئيسيين: المعلم الأول هو تقرير المفتس موتيلانسكي سنة 1905 حيث كان محمود بن دالي ضمن صلبة حمدان الوئيسي في قسنطينة، والمعلم الثاني هو توليه رئاسة تحرير جريدة كوكب إفريقيا سنة 1907، مباشرة بعد انتقاله من قسنطينة.

1- نشاطه الإعلامي والصحفي:

أ- اشتغل عضوا محررا في هيئة تحرير جريدة المبشر الرسمية بالعاصمة، والتي كانت تصدرها السلطات الاستعمارية بالجزائر¹، ويشيد أبو القاسم سعد بجهود مجموعة كبيرة من المترجمين في جريدة المبشر من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، ولذلك ظلت المبشر ولفترة طويلة النافذة الوحيدة للترجمة من الفرنسية إلى العربية، ومعظم ذلك على يد فئة قليلة من المتعلمين الجزائريين مزدوجي اللغة ومنهم بالإضافة إلى البدوي والحفناوي وعلي بن عمر وعلي بن سماية، محمود كحول².

ب- إصداره لجريدة كوكب إفريقية في سنة 1907³، بينما يذكر أبو القاسم سعد الله في موقف آخر بأن المفتي كحول عهد اليه فقط في سنة 1907 بإدارة تحرير جريدة كوكب إفريقية التي أسستها إدارة جوناو وأشرفت عليها مطبعة فونتانا، وقد أظهر حنكة وخبرة خلال عمله الصحفي⁴، واستمر في هذه المهمة إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى⁵. إلى جانب المفتي كحول وجدنا محرر آخر يظهر بجانبه ويتعلق الأمر هنا بأحد الفرنسيين وهو "لويس بودي"، أما مدير الجريدة فهو "بيير فونتانة" ورغم تموينها من طرف إدارة الشؤون الأهلية فإن إشراف كحول عليها ضمن لها تحريرا

¹ - أبو عمران الشيخ، وآخرون: المرجع السابق، ص 453.

² - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، المرجع السابق، ص 229.

³ - تباينت الآراء بين الذين تطرقوا إلى هذه الجريدة، هل هي من إنشاء المفتي كحول، أم من إنشاء السلطات الفرنسية؟ من غير المستبعد أن موقع المفتي كحول هنا كانت له فكرة إنشاء الجريدة أو تأسيسها، بينما عملية التموين والإشراف فلقد كانت بإشراف الحكومة العامة الفرنسية، حتى يسهل مراقبتها ولا تخرج عن الخط الفرنسي المرسوم لها، وعلى الرغم من ذلك فهذا يعد في نظرنا مكسب ومنير ثقافي حققه المفتي كحول لصالح الصحف العربية في الجزائر.

⁴ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، المرجع السابق، ص 384.

⁵ - أبو عمران الشيخ، المرجع السابق، ص 454.

جيدا ومستوى رفيعا بالقياس إلى ما عرفته الصحافة العربية الأخرى من الخطاط في الأسلوب والفن الصحفي¹.

وحسب ما جاء في غلاف الجريدة فإنها جريدة أسبوعية سياسية أدبية علمية فلاحية تجارية، صناعية، تصدر كل يوم جمعة، في أربع صفحات من الحجم الكبير²؛ وهي جريدة إخبارية ناطقة باللغة العربية، واستمرت في صدورها إلى غاية نشوب الحرب العالمية الأولى سنة 1914. ويذهب البعض إلى أنها أول جريدة أسست من هذا النوع، ويصدرها مسلم جزائري³، بينما يذهب محمد ناصر إلى القول: «فقد سبقت بجريدة الحق التي صدرت بمدينة عنابة في سنة 1893، والمصباح سنة 1904»⁴. ولقد تنوعت اهتمامات هذه الجريدة بين محورين أساسيين هما:

المحور الأول:

بحكم علاقة مدير الجريدة بالإدارة الاستعمارية خصصت الجريدة حيزا كبيرا للحديث عن الولاية الفرنسيين، وتقصي أخبارهم وتبعية نشاطاتهم، كما كانت تقوم بالدعاية للسياسة الاستعمارية الفرنسية حتى في المستعمرات البعيدة، وتركز على العلاقات السياسية بين فرنسا وتركيا كسبا لقلوب المسلمين الجزائريين⁵. ولهذا كانت تتلقى الجريدة مساندة كبيرة من طرف الولاية العامة الفرنسية⁶.

¹ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، المرجع السابق، ص246.

² - محمد، ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847-1954، الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي،

1427هـ/2007م، صص65-66.

³ - المرجع نفسه، ص453. أديب مروة ص223، كريسيان سوربو ص73 (تقلا عن قداش)

⁴ - المرجع نفسه، ص65.

⁵ - المرجع نفسه، ص65.

⁶ - أبو عسران، الشيخ وأخرون: المرجع السابق، ص453.

المحور الثاني:

إلى جانب تغطيتها لمختلف نشاطات الولاية العامة بالجزائر، والسياسة الاستعمارية الفرنسية على المستوى الداخلي والخارجي، أولت اهتماما كبيرا أيضا بنشر المقالات الاجتماعية والدينية والتربوية لبعض الأدباء الجزائريين، لاسيما الموظفين الرسميين منهم، وفي هذا الصدد يذكر محمد ناصر: «وكانت تقوم بنشر أخبار ترقياهم وتحنى أولئك الذين تمتحهم فرنسا الأوسمة والنياشين وتجري روح التنافس بين الشعراء بما تدعوهم إليه من تشطير أو معارضة أو مناقشة مشكل اجتماعي معين، مثل وضعية المرأة في المجتمع الجزائري مثلا»¹.

ومما جاء في تلميح هذه الجريدة على لسان بعض الجرائد والشخصيات المعاصرة لها على الرغم من تغطيتها لنشاطات السلطات الفرنسية: نجد أحمد توفيق المدني الذي يقول بشأنها: إنها جريدة راقية ومحركة بأقلام بليغة، ويقول عنها شارل روبري آجرون: إنها غيرت اسمها إلى الكوكب الجزائري، وكانت معتدلة ومهتمة بأمور الحضارة الإنسانية². كما نوهت جريدة العالم الإسلامي بكوكب افريقية فور صدورها، وقالت إن مؤسسيها أعلنوا بدون خلفيات ولا تحف إنهم سيعملون على إعلام الجزائريين (الأهالي) وتحسين أوضاعهم المادية والمعنوية والعمل على تقريب العرقين المتساكنين في شمال افريقية من أجل الحضارة الإنسانية، وقالت عنها: إنها جريدة تخدم المصلحة العامة للجزائريين وليست جريدة حزب أو شخص، ويعقب أبو القاسم سعد الله بشأن تنويه مجلة العالم الإسلامي بهذه الجريدة: ولكن مجلة العالم الإسلامي لم تقل إن الكوكب جريدة تخدم الإدارة الفرنسية وأهدافها لأنها هي صاحبة التمويل والتوجيه لها³.

¹ - محمد، ناصر: المرجع السابق، ص 65.

² - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، المرجع السابق، ص 246.

³ - المرجع نفسه، ص 246. (يراجع حولها تعريف الخلف ج 2، ص 546، كتاب الجزائر للمدني ص 345).

لكننا وجدناه في موقع آخر يقول شيء مخالف تماما لهذا التعقيب: «ولكنها كانت تنشر كذلك مقالات مختلفة في الأدب العربي وفي الحضارة الإسلامية: كان يكتبها جملة من الأساتذة الجزائريين الذين كانت لهم شهرة في ذلك الوقت»¹. أما عمر بن قنور فقد اتهم هذه الجريدة بكونها كانت بعيدة عن الروح الوطنية: «أما كوكب إفريقيا فإنها لم تكن إلا جريدة شبيهة بالرسومية عارية من كل صبغة وطنية»²، ولكن على الرغم من ذلك فلقد لقيت الجريدة بعض الرواج والإقبال في نظره نظرا لتنوعها وتجديدها في العرض والإخراج، حيث حظيت ببعض الرواج والإقبال من طرف القراء ولاسيما عند الخاصة المتعلمة³. كما كانت قبلة لأقلام بعض الأدباء والمصلحين والمتقنين، كالشيخ الحفناوي الذي كان يعرف جيدا هذه الجريدة، التي تشرف عليها حكومة "جونار" وأسندت إدارتها إلى زميله الشيخ محمود كحول⁴.

2- نشاطه العلمي والثقافي: ساهم في تنشيط الحياة العلمية والثقافية بشكل

كبير، وهذا ما نلمسه من خلال الشواهد التاريخية التالية:

أ- المساهمة في كتابة الشعر ونشره: نشر العديد من القصائد الشعرية التي نظمها عبر جريدته كوكب إفريقيا، وهي قصائد لا تزال تحتاج من وجهة نظرنا إلى التعريف بها ودراستها، للوقوف على ملمح آخر من ملامح الحياة الثقافية في الجزائر مع مطلع القرن العشرين، وبهذا الخصوص فالمؤرخ أبو القاسم سعد الله عندما يتحدث عن دور الشعر في النهضة الثقافية الجزائرية يشيد بمساهمة المفتي كحول في هذا الشأن: «كما ساهم الشعر والأدب الشعبي والرسم والموسيقى والمسرح أيضا في النهضة الثقافية، ومن بين شعراء هذه الفترة نجد ابن الموهوب، وكحول،

¹ - أبو عمران الشيخ، وآخرون: المرجع السابق، ص 453.

² - محمد ناصر: المرجع السابق، ص 67.

³ - المرجع نفسه، ص 67.

⁴ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، المرجع السابق، ص 91.

والمجاوي...»¹. ولم يكتف محمود كحول بنشر إنتاجه الشعري فحسب بل كان ينشر لغيره من الشعراء المعاصرين له، كشره لمحمد المولود الزريبي في جريدته كوكب إفريقية، فصيدته الموسومة بـ "نظرات أو عبرات في النفس والعقل والعلم والجهل"، وفيها يخاطب الزريبي قومه النائمين، ويدعوهم فيها إلى العلم، ومما جاء في مطلعها²:

يا بدر مالك بالأفحاء تفتخر ألم تكن بطلوع الشمس تستر

هذا إلى جانب اهتمامه بأدب التعازي، حيث نشر على كوكب إفريقية، والتقويم الجزائري، مجموعة من التعازي عن بعض الأعيان في كلمات مركزة وجافة، وتكاد تكون إدارية، ومما ذكره أبو القاسم سعد الله في هذا الشأن: «وقد احتوت كوكب إفريقية والتقويم الجزائري على تعازي ذات مستوى أدبي إلى حد كبير، لأن الشيخ محمود كحول، مدير النشريتين، كان من أدباء الوقت»³.

ويضاف إلى هذا كله مساهمته في كتابة عدة مقالات على أعمدة جريدة صحيفة المغرب، التي كانت تصدر في الفترة ما بين (1903-1913)، وكانت معاصرة لجريدة كوكب إفريقية، وما يؤكد مساهمة كحول في إثراء هذه الجريدة الإصلاحية الإسلامية، ما ذكره المؤرخ أبو القاسم سعد الله: «ومن بين الذين كتبوا فيها الشيوخ عبد القادر المجاوي، والمولود بن الموهوب، ومحمد بن أبي شنب، ومحمود كحول... الخ»⁴. هذا وقد نشر بعض أشعاره في مجلة الحاضرة التونسية التي كانت

¹ - أبو القاسم، سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني، 1900-1930، الطبعة الثالثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص151.

² - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، المرجع السابق، ص258.

³ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص164.

⁴ - أبو القاسم، سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص141.

تحم بأخبار الأدباء والكتاب الجزائريين الذين وجدوا فيها مجالا لنشر أدبهم وشعرهم، ومن هؤلاء محمود كحول الذي نشر فيها بعض القطع الشعرية¹.

ب-المساهمة في حركة التأليف: لم يكن المفتي كحول بمنأى عن حركة التأليف التي تعد ملمحا من ملامح النهضة الجزائرية الحديثة، ومن بين ما ألفه في هذا الشأن كتابه الموسوم ب: التقويم الجزائري²، وهو كتاب يتضمن معلومات مختلفة عن الجزائر في شتى الميادين العلمية والاقتصادية والفلاحية والأدبية والفلسفية، كما تضمن ترجمة لبعض الشخصيات والأعلام الجزائرية في شكل حوليات، صدر العدد الأول من الكتاب في سنة 1911، وصدر العدد الثاني منه في سنة 1912، والعدد الثالث في سنة 1913³، ثم توقف عن الصدور نهائيا، وهذا لعلاقته بإدارة "جونار" الذي انتهت صلاحيتها في هذه السنة⁴.

وعلى الرغم من وقوف الإدارة الفرنسية وراء هذا التقويم، ومساهمة المستعرب "لويس بودي" إلى جانب محمود بن دالي في تحريره، من خلال الإلتقان العلمي والفني ونظام الطبع ووفرة الصور.. الخ، ورغم أنها هي التي كانت تموّله وتمده بالمعلومات -أي الإدارة الفرنسية- فإن هذا لا ينقص من قيمته في شيء، ومما ذكره أبو القاسم سعد الله بشأن تقويم محمود كحول: «وكان مفيدا للغاية ومتنوعا...ولكن تجرية الشيخ كحول في التعليم وفي الميشر وفي كوكب افريقية، واطلاعه الواسع على الأدب العربي

¹ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص608.

² - على غرار التقويم الذي ألفه محمد الصالح العنتري، في باب النشرات الحولية، الموسوم بحمدية الأخوان في موافقة التاريخين وتوقيعات الزمان وفوائد متفرقة لها شان، وتقويم المنصور الذي أصدره أحمد توفيق المدني في تونس، وواصل إصداره بعد رجوعه إلى الجزائر في سنة 1925، يراجع: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص-ص494-496.

³ - أبو عمران، الشيخ وآخرون: المرجع السابق، ص453.

⁴ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، المرجع السابق، ص296.

والتاريخ والدين والفلسفة جعلته يعطي للتقويم الجزائري - كما كان يسمى - مكانة مرموقة بين التقاويم»¹.

ومما جاء في ديباجة العدد الأول من هذا التقويم: « ويعلم الله أننا تحملنا عبء هذا المشروع وعناؤه في باكورة أعوامه، ونفوسنا تحدثنا بأنه سلقى من عموم القراء والمشغوفين بالتهافت على رياض الأدب وحدائقه إقبالا عظيما يشد عضده... ويؤازره على التدرج في مدارج الحياة... ويكون ذلك برهانا ساطعا في ديب الحياة في عروق إخواننا ونموها... وفي ذلك حجة بالغة على تقديرهم هذا العمل الذي يكون به للجزائرية ذكر عاطر بين إخوته من الأقطار العربية»². وقبل الانتقال إلى العنصر الموالي أود الإشارة إلى أن محمود كحول كان ينشر إنتاج غيره من الشعراء في تقويمه، ويُعرف به، كشره لقصيدة الصيد (روضة السلوان) للفحيجي، في كتابه التقويم الجزائري سنة 1911³.

ج-المساهمة في عملية التقريظ: ساهم محمود كحول في تقريظ العديد من

القصائد والمؤلفات، ومن بين هذه النماذج عل سبيل المثال:

أ- في سنة 1911 قام بتقريظ كتاب القواعد الكلامية نثرا⁴، لأستاذه عبد القادر المجاوي، وهو كتاب في علم الكلام، ومما جاء في تقريظه الذي أضفى عليه عبارات أدبية وأفية: « تابعت النظر في أبوابه السنية وفصوله البهية، ووجدته سلك في هذا الفن الطريقة المثلى التي تقرب شوارده للأذهان، وتزيل ما على غوامضه من الحجب

¹ - تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص295.

² - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص295.

³ - أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص59. [يراجع المجلة الإفريقية سنة 1959 حيث

أوردت النص والترجمة]

⁴ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، المرجع السابق، ص154.

والأستار، وتدني فوائده لكل عاكف عليه»¹، ثم ذكر أن الكتاب ظهر في وقت اشتدت فيه الحاجة إليه، فهو سهل العبارة وأسلوبه مما يفهمه الصغار والكبار، «مع بساطة في البيان وجزالة التبيان»². ومما ذكره أبو القاسم سعد الله تعليقا على هذا التقريظ: «وهكذا يكون هذا التقريظ قد صيغ في شكل الإعلان عن الكتاب»³.

ب- مساهمته في إثراء جريدة الحاضرة التونسية بقصيدة تقريظية، وفيها إجابة عن لغز طرحه الشاعر التونسي عمر بن بوبكر، ومما جاء في شعر هذا الأخير مشيرا إلى جريدة الحاضرة⁴:

رأسها بدر الدجى إكليل	ما قولكم في غادة فتانة في
الندى من وبلها مطول	إنسية عريبة عجمية غصن
وغدت ترد الطرف وهو كليل	تاهت على عشاقها بلواحظ

فكانت إجابة الشيخ كحول على ذلك في قصيدة تتكون من 17 بيتا، مطلعها:

من باع قصير فهمه متبول	خذ يا أبا التقوى جواب اللغز
نيراسها بدر الدجى إكليل	ما الغادة الغاتنة إلا الحاضرة
غصن الندى من وبلها مطول	جمعت نقولا من جرائد جمعة

ج- تقريظه لكتاب روح السعادة وسر الشهادة في الحسنى وزيادة، لمؤلفه أحمد بن يحيى الأكلحل، وهذا أثناء توليه- أي محمود كحول- الإمامة بالجامع الأعظم بالجزائر العاصمة⁵.

¹- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 8، المرجع السابق، ص 99.

²- المرجع نفسه، ص 99.

³- المرجع نفسه، ص 99.

⁴- المرجع نفسه، ص 285.

⁵- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، المرجع السابق، ص 169-170.

2- نشاطه الديني والتربوي: يبرز لنا هذا النشاط من خلال توليه حُطَتي

الفتوى والإمامة بالجزائر العاصمة، وهذا ما نلمسه من خلال الملامح التالية:

أ- خطة الإمامة والخطابة: تولى هذه الخطة منذ سنة 1919، حيث تم تعيينه

من طرف مجلس الديانة الإسلامية التابع للسلطات الفرنسية بشكل رسمي إماماً لمسجد سيدي أحمد بالجزائر، ثم إماماً لمسجد سيدي رمضان بحي القصبة بمدينة الجزائر¹. ولقد استمر في هذه الخطة لأكثر من عقد ونصف من الزمن، وفي معرض تعليقه عن خطة الخطابة التي تولاها بالجامع الكبير يذكر سعد الله أنه لم يقف على مدى تأثير محمود بودالي في فن الخطابة ما دام لا يستطيع الخروج عما رسم له²، وإلى جانب توليه الإمامة تولى التدريس في مدرسة الجزائر الشرعية-الفرنسية³.

ب- خطة الفتوى: تولى هذه الخطة في سنة 1935، حيث تم تعيينه بمثابة مفتياً

لمدينة الجزائر على المذهب الحنفي، واستمر في هذه الخطة إلى غاية اغتياله في السنة الموالية 1936، فخلفه الشيخ أبو القاسم الحفناوي في خطة الفتوى على المذهب المالكي⁴، ويقول أبو القاسم سعد الله بشأن هذا الوظيف: «هو وظيف رمزي وإلى حد ما سياسي، تضمن به السلطة الفرنسية التحكم في الأوضاع الدينية والتهدة العامة، أما نفوذ المفتي بين فئات الشعب فيكاد يكون معدوماً»⁵.

ومن خلال هاتين الخطتين تبلورت شخصية المفتي كحول وظهرت بشكل قوي بمدينة الجزائر، خاصة إذا كنا نعلم أن شغل هاذين المنصبين لدى السلطات الفرنسية ليس بالعملية السهلة في ذلك الوقت، وهذا ما دفع بالبعض إلى نعته بأحد المؤيدين

¹ - أبو عمران الشيخ وآخرون: المرجع السابق، ص454.

² - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، المرجع السابق، ص111.

³ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، المرجع السابق، ص384.

⁴ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، المرجع السابق، ص385.

⁵ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، المرجع السابق، ص430.

للسياسة الدينية الفرنسية في الجزائر، وإحدى الشخصيات التي تعتمد عليها السلطات الفرنسية¹. لكن من خلال تتبع مسار المفتي كحول لم نقف له على معارضة صريحة ووجيهاة ضد أي طرف من الأطراف السياسية الجزائرية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، وفي نفس الوقت لم نقف له على أي انتماء حزبي سياسي، عدا كونه موظف في الإدارة الفرنسية في السلك الديني، وهذا لا نراه يخدش شخصية الرجل إطلاقاً، ولكن على الرغم من ذلك استخدمته السلطات الفرنسية بمثابة كبش فداء لضرب استقرار وحدة الصف الجزائري الذي كاد يلتئم في المؤتمر الإسلامي المنعقد سنة 1936 بمدينة الجزائر، حيث دست له من يقوم بقتله وتلفيق التهمة للشيخ الطيب العقبي، وهذا ما سنقف عليه في العنصر الأخير من الموضوع.

اغتياله:

اغتيال المفتي كحول في وضوح النهار، على يد احد المحرمين المدعو عكاشة، أثناء الاجتماع الكبير الذي حضره العلماء وزعماء الحركة الوطنية، في الملعب البلدي بالجزائر العاصمة في 02 أوت 1936²، وعندما ألقى القبض على المجرم صرح بمن كان يقف وراء هذه العملية، وهو الشيخ الطيب العقبي، لكنه تراجع في الأخير عن أقواله بحكم أنها كانت تحت طائلة التعذيب، وبعد مرور عدة سنوات من السجن والتعزيم والاهانات، تم تبرئة الشيخ العقبي من هذه التهمة يوم 26 فيفري 1938، رفقة زميله الأستاذ الفاضل السيد عباس التركي³، ولقد هنأت جريدة الأمة بهذه المناسبة السعيدة القضاء الفرنسي على عدالته، وكما هنأت العقبي والتركي ببراءة ساحتهم وخروجهم مرفوعي الرأس موفوري الكرامة.

¹ - أبو عمران الشيخ وآخرون: المرجع السابق، ص454.

² - المرجع نفسه، ص454.

³ - جريدة الأمة: (براءة الأستاذ العقبي ورفيقه الفاضل السيد عباس التركي من تهمة التآمر على قتل الشيخ محمد كحول)، يوم الثلاثاء 7 محرم 1357هـ/ 08 مارس 1938م، السنة الرابعة، العدد 157، ص1.

على الرغم من مرور عشرات السنين على هذه الحادثة فهي لا تزال تلقي بظلالها على الباحثين والقراء، كلما تطرقوا إلى المؤتمر الإسلامي أو إلى الشيخ الطيب العقبي رحمه الله، حيث وقفنا على اختلافات كثيرة وتلفيقات كبيرة يحاول كل طرف استغلالها لصالحه، فأعداء جمعية العلماء يطعنون الجمعية من خلال هذه القشة أو الثلثة رغم تبرة السلطات الفرنسية للشيخ العقبي في الأخير، وأنصار الجمعية أو المعتاطفين معها، أو حتى المعتدلين يحاولون إمساك العصا من الوسط، ويحاولون تقديم تبريرات قوية لتبرة ساحة العقبي، واعتبار ما حدث بمثابة مؤامرة فرنسية حيكت خيوطها بليل ليس ضد الشيخ العقبي وليس ضد الحركة الإصلاحية في الجزائر، وإنما ضد وحدة الشعب الجزائري.

من هذه الزاوية سنحاول التطرق لهذه الحادثة، التي تحاول من ورائها السلطات الاستعمارية تبرير عملية قتل المفتي كحول بسبب وقوفه ضد العلماء، وهذا من خلال نص البرقية التي تقول بأنه وجهها إلى السلطات الفرنسية، والموقعة من طرف المفتين بن دالي وبن زاكور والإمامين أمين قدور وبابا عمر تنفي عن أعضاء الوفد حق تمثيل الجزائر والحديث باسم المسلمين¹.

ومما جاء فيها: « علمنا أن وفدا من بضعة منتخبين لا يمثلون الرأي الإسلامي للبلد والعلماء الجزائريين المزعومين لا شهادة لهم ولا مستوى قد توجه إلى باريس، بهدف تقديم مطالب سياسية ودينية لأهالي الجزائر...إننا نشجب وفدا ليس مؤهلا تماما ولا يتمتعون بأي تفويض للكلام، ونحتج بقوة على تدخله في الأمور الخاصة بديننا...فالعلماء المسلمون تنبذهم الأغلبية العظمى من المسلمين ولا يمثلون إلا

¹ - محفوظ، قداس: تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول 1919-1939، ترجمة أحمد بن البار، شركة دار الأمة، الجزائر، 2011، ص581.

حفنة من المشوشين الذين يحاولون زرع البلبلة في البلد»¹. هذا ما في جعبة الفرنسيين من ذريعة تكفي في نظرهم لاستباحة دم المفتي كحول؟.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل هذه البرقية كافية لإزهاق روح رجل مسلم؟ هل المفتي كحول تجرأ على العلماء والفقهاء كما تجرأ عليهم من قبله من دعاة الإدماج والمتحسين الذين تخلوا عن أحوالهم الشخصية وتكروا لهويتهم؟ هل الجمعية أفتت بسفك دمائهم؟ هل المفتي كحول أنكر جهارا نهارا إبطال حدود الشرع الإسلامي؟ هل المفتي كحول أباح شرب الخمر والزنا والتجنس وسب الدين والقرآن؟؟؟ كلا وألف لا، فهناك العشرات من الذين مارسوا هذه الموبقات وأعلنوا حتى عن خروجهم عن الإسلام ولكن لم نسمع في يوم الأيام بأي فتوى أصدرها العلماء تبيح سفك دمائهم؟ وعليه فالخطة كانت مرسومة والنية كانت مبيتة²، والصيد كان ثميناً لتحقيق عدة أهداف:

-تشويه صورة الشيخ الطيب العقبي الرجل الفاعل والقوي في الجمعية، خصوصا كونه كان يتولى لجنة الفتوى في تلك الأثناء؟ وهو الذي أفتى بخروج المتحسين عن الملة وعدم دفنهم في مقابر المسلمين، ومحرمة الزواج بالأجنبيات، وهي ضربة قاضية لسياسة الإدماج والتجنس في الجزائر التي علقت عليها السلطات الفرنسية آمالا كبيرة³.

-تشويه صورة العلماء الذين يبيعون -في نظرها- القتل وسفك الدماء، وخاصة في عقول العامة والمتمسلمين من أبناء الشعب الجزائري، حيث تلقف الإعلام المعادي للجزائريين هذه الحادثة وراح ينفخ في نار الفتنة، وما ذكره الشيخ محمد خير الدين بهذا الخصوص: « وانطلقت الجرائد اليومية الفرنسية بعد ذلك تكتب الفصول

¹ المصدر نفسه، ص592.

² أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، المرجع السابق، ص269.

³ الطيب، العقبي: "كلمتي الصريحة في التجنس والمهجنسين"، البصائر، ع77، السنة الثانية، 21 جمادى الأولى

1356هـ/ 30 جويلية 1937م، ص1

الطويلة المهولة بعناوين ضخمة وصور مثيرة تصف الاغتتيال بأنه مؤامرة واسعة النطاق، يديرها الوهابيون وتصف العلماء بالإجرام والقتل»¹.

-تشتيت وتمزيق علاقة الشيخ الطيب العقبي بجمعية العلماء، وزرع البلبلة والفوضى وحتى الشك في أوساطهم، وهو ما نجحت فيه الإدارة الفرنسية حيث انسحب الشيخ العقبي من الجمعية بعد تبرئة ساحته، عندما اختلف مع ابن باديس في كتابة بيان تأييد لفرنسا والحلفاء في الحرب العالمية الثانية.

-إشغال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بصراعات وهمية وخلافات طائفية وعزلها عن محيطها العربي الإسلامي، خصوصا وأنها كانت مهتمة بشكل كبير بما يجري في المغرب والمشرق العربي الإسلامي من قضايا مصيرية تتعلق بمستقبل الشعوب العربية كالقضية الفلسطينية وصراعها مع الحركة الصهيونية².

خاتمة: من خلال ما سبق ذكره يمكن الخروج بجملة من المعطيات:

-قوة شخصية المفتي محمود بن دالي، فعلى الرغم من ازدواجية ثقافته العربية والفرنسية، فإنه لم يتأثر برياح التغيير التي كانت تهب من حوله، حيث لم يتأثر بجماعة النخبة ولم يكن منهم، ولم يتأثر بدعاة الإدماج ولم يكن منهم أيضا، كما لم يتأثر بأي فصيل سياسي، لكنه كان يعمل في صمت كبير وفي هيبة ووقار، لم يفصح عنها أمام خصومه وأصدقائه سوى عن طريق قلمه الذي ساهم من خلاله في إثراء الحياة الثقافية والفكرية والدينية والفلسفية في الجزائر من خلال، مؤلفه التقويم الجزائري الذي يعد مصدرا ثريا من مصادر تلك الفترة، لا يمكننا الاستغناء عنه، في مختلف الدراسات الإنسانية والاجتماعية وحتى العلمية للجزائر في تلك الفترة.

¹ - مذكرات الشيخ محمد خير الدين، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (دون تاريخ)، ص 393.

² - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، المرجع السابق، ص 405.

-تمكن محمود بن دالي من الجمع بين عدة مواهب ومهام، ووظائف عدة: فمن حفظ القرآن الكريم إلى الدراسة في المدارس العربية والفرنسية، إلى التدريس فيها، ثم الاهتمام بالصحافة والتأليف، وتولي خطتي الإمامة والخطابة والفتوى على المذهب الحنفي، إلى الاهتمام بالشعر والشعراء، والتقريظ، وتسخير قلمه للكتابة حتى في الصحف العربية كجريدة الحاضرة التونسية.

-حسب تصنيف رشيد بن أبي شنب للموظفين الجزائريين في الإدارة الفرنسية فإن محمود كحول أدرجه في تصنيف لا بأس به، إذ صنّفهم إلى ثلاثة أصناف: صنف المحافظين، وصنف العصريين، وصنف المتفرنسين، حيث عدّ محمود كحول من الصنف الثاني¹.

-على الرغم من الخط الذي سلكه في حياته، بعيدا عن صحب السياسة، وعلى الرغم من عدم الوقوف على مواقف صريحة ومعادية، فإن محمود كحول ظل شخصية مغمورة، ليس في وقته فحسب وإنما حتى بعد مماته، فهو لم يحظ بالمكانة اللائقة التي حظي بها بعض أقرانه على الرغم من مواقفهم العرجاء، والنادية بالإدماج والتفرنس، والانسلاخ من هويتها العربية والإسلامية، مثل تطرف رابح زياتي، الشريف بن حيلس، فرحات عباس... الخ، فهل ذنب المفتي كحول كان في كونه ألحق ضررا بالشيخ العقبي والجمعية؟ وهل تحوّل كبش الفداء والضحية إلى متهم ومنبوذ حتى بعد مماته؟ هل في كونه كان موظفا بسيطا في الإدارة الفرنسية؟ ويحمل وسام جوقة الشرف الفرنسي؟. لماذا بعدما تم نقل جثمانه إلى مدينة قسنطينة ليوارى الثرى لم يتطوع أحد حتى للصلاة عليه؟ فتقدم صديق قدم للصلاة عليه، وهو الشيخ أحمد الحبيباتي، ولكن هذا الشيخ قد عرض حياته للتهديد إذا هو فعل ذلك².


¹ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، المرجع السابق، ص590.

² - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، المرجع السابق، ص385.

- يعتبر محمود بن دالي شخصية جزائرية، فكرية، سياسية، إدارية، إعلامية، مزدوج الثقافة العربية الإسلامية-الفرنسية، له اهتمامات متعددة ومواقف قد نقول عنها معتدلة حول مختلف الأوضاع والظروف التي كانت تمر بها الجزائر خلال القرن العشرين، تتم عن مستوى فكري جزائري متميز جدا، كان يرى من خلاله استغلال الوظيفة كوسيلة لا غاية لخدمة وطنه وشعبه بالطريقة التي يراها مناسبة لذلك، ولا شك أن اغتيال المفتي كحول قد غيَّب علينا كثير من الحقائق التي لو بقي على قيد الحياة لكان له من خلالها بعد سياسي ودور حضاري آخر.

- لم يكن المفتي كحول الوحيد الذي استهدفته المؤامرة الفرنسية واغتالته أيادي الشر، فالشيخ أحمد الحبيباتي تعرض لمحاولة اغتيال فاشلة بمدينة قسنطينة، في نفس الأسبوع الذي اغتيل فيها كحول، ولقد حاولت السلطات الفرنسية إصاق التهمة بالشيخ ابن باديس نفسه، أو بعض أتباعه، لولا أن الحبيباتي لم يوجه التهمة لأحد وأصر بأنه لا عدو له، وفي تلمسان دبرت مكيده لاغتيال الشيخ البشير الإبراهيمي لولا إعلامه من طرف أحد المقربين إليه بالعاصمة بعدم توجهه إلى تلمسان في ذلك الوقت ويوجل زيارته لها في وقت لاحق¹.

¹ - مذكرات الشيخ خير الدين: المصدر السابق، ص 340.



من أعلام قسنطينة
في اللغة والأدب

إسماء علماء قسنطينة في التأليف

البلاغي العربي

د. مواد مزعاش

المدرسة العليا للأساتذة -

قسنطينة

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى إبراز مساهمة علماء مدينة قسنطينة عبر العصور في التأليف في علوم البلاغة ومشاركتهم بذلك في الدرس البلاغي العربي، من خلال إبراز مؤلفاتهم البلاغية التي استطعنا الوصول إليها ومعرفتها، ثم بيان أهم المنظائر والمخارر التي تجلّى فيها الدرس البلاغي في قسنطينة، وما نتج عنه من اتجاهات في دراسة البلاغة وعلاقة ذلك بتعليمية البلاغة العربية.

تمهيد

أخذت قسنطينة شهرة كبيرة لازمتها عبر العصور التاريخية، أي منذ نشأتها إلى يوم الناس هذا، حيث سجلت حضورها في كثير من الأحداث والوقائع المختلفة ولم تغب عن أعين المراقبين للحركة التاريخية والفكرية والثقافية... فهي مدينة عامرة كثيرة الصناعات والحرف، وفيرة الغلال، عديدة الأسواق، نشيطة التجارة، متنوعة النشاطات، تأتيها القوافل من كل مكان تزود بالخيرات، مما أكسبها مكانة مرموقة ومقاما ساميا.

فهي المدينة الحاضرة في كتب المؤرخين الذين سجلوا أحداثها، والحاضرة في مذكرات وكتابات الرحالة الذين مروا بها -عربا وعجما- فسجلوا ووصفوا وكتبوا وقارنوا وكلهم انبهار وإعجاب بهذه المدينة الساحرة، وهي المدينة التي عشقها الشعراء فاتخاذوها حبيبة لهم فتغنوا وتغزلوا بها ووصفوا مفاتها ومحاسنها، وجمالها وبهاءها، وقوتها ومنعتها وموقعها، وشغف الناس بها حبا، ووصفوا أنهارها وجبالها وسفوحها، وديارها ودروبها وجسورها، فتملكهم الرهبة والرغبة فزادوا بها افتنانا.

وهي المدينة التي بلغت شهرتها الآفاق فسار بذكرها الركبان واشتهرت على كل لسان فهي مجمع العلماء ومهوى أفئدة طلبة العلم يأتونها من كل فج عميق، فهي تجتمع العلماء ومنبت العلم، ومزار طالبيه، وفد إليها الكثير من العلماء من المشرق والمغرب، وانتقل منها كثير من العلماء واستقروا في مدن ودول أخرى في مشرقا ومغربا فكان لهم أثرهم الم محمود وذكرهم الممدود تشهد بذلك آثارهم التي تدل عليهم.

الدرس البلاغي العربي:

يعتبر علم البلاغة من أهم العلوم التي كانت محل اهتمام ودراسة وبحت من العلماء العرب على مختلف توجهاتهم الفكرية ومذاهبهم الأدبية والفلسفية... مما جعله يحقق تطورا ظاهرا وتقدما باثنا وبروزا ملفتا في الدراسات اللغوية العربية نتيجة لعوامل ومؤثرات كثيرة بيئية واجتماعية وثقافية وحضارية، ويقصد من هذا العلم الوقوف على القوانين التي تتحكم في عملية التبليغ الفعال، وقد كان هذا العلم بالغ الأهمية خاصة في القرون الإسلامية الأولى بفعل ارتباطه بثلاثة نصوص مهمة:

- 1- النص القرآني: وهو النص المقدس الذي كان محور النظر البلاغي فيه هو مسألة إعجاز القرآن الكريم التي تعد من المسلمات المعرفية عند العلماء المسلمين، وقد كان الغرض هو كشف أوجه هذا الإعجاز من جهة اللسان والخطاب.
- 2- الحديث النبوي الشريف: والذي مثل درجة عالية لا ترتقي إلى القرآن لكنها تتفوق على سائر عموم الكلام من شعر ونثر، بما امتاز به من فصاحة وبيان ومن خصائص ومميزات تفرد بها كلام النبي صلى الله عليه وسلم دون غيره من كلام الناس.
- 3- النص الأدبي: أي سائر النصوص الأخرى من كلام العرب المتمثلة خاصة في الشعر ثم النثر، وذلك في نطاق الحركة النقدية التي عرفها الأدب العربي، إذ استعانت هذه الحركة بالمعارف اللغوية المختلفة، ومن ضمنها بل من أهمها البلاغة.

وكانت البلاغة العربية في عصورها الزاهية تنطلق من منطلق البيان، الذي يقتضي أن لمتكلمين قوانين يحتكمون ويرجعون إليها عندما تقتضي الحاجة التي تخص الخطاب باعتباره منطلقا مفردا للتواصل.

غير أن منهج السكاكي وطريقة رؤيته وطرحه للبلاغة فرضت نفسها بعد ذلك على أكثر المشتغلين بالدراسات البلاغية وأخذت المؤلفات البلاغية تنحو هذا المنحى ابتداء من كتابه مفتاح العلوم، فهو الكتاب الذي تحول إلى بؤرة للنشاط البلاغي، مخلفا وراءه تحفا أسدل عليها الزمان ستاره إلى عهد غير بعيد، كدلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للحرجاني.

محاوَر الدراسات البلاغية عند علماء قسنطينة:

سجلت لنا كتب التراجم والتاريخ وتاريخ اللغة والأدب وغيرها من المصادر... ذلك الاهتمام الكبير الذي تجلّى عند علماء وأعلام مدينة قسنطينة في مجال الدراسات الأدبية واللغوية، وأن الأوساط العلمية بما كانت مهتمة بكل العلوم اللغوية المتداولة في الثقافة العربية، يحتل علم البلاغة العربية فيها موقعا مهما ومجالا فسيحا ضمن هذا الاهتمام، وكان الالتفاف في ذلك حول أهم من تناول كتاب «مفتاح العلوم» لأبي يعقوب السكاكي بالدراسة والتلخيص وهو جلال الدين القزويني من خلال كتابه: «تلخيص المفتاح» الذي تكاد حل الدراسات البلاغية لعلماء قسنطينة تتمحور حوله ولا تكاد تخرج عنه إلا قليلا، وقد بدت معالم الاهتمام بالدرس البلاغي العربي عندهم من خلال المحاور التالية:

أولا: الاهتمام بكتاب (تلخيص المفتاح للخطيب القزويني):

أهم كتاب دار عليه الاشتغال وكان محط اهتمام الدارسين والباحثين والمدرسين في العالم العربي هو كتاب « تلخيص المفتاح » لجلال الدين القزويني إقراء وشرحا واختصارا ونظما ووضعوا للحواشي عليه والاهتمام بشواهدده، ولم يشذ الدرس البلاغي

العربي في حاضرة قسنطينة عن هذه القاعدة فكان هذا الكتاب محط اهتمامهم فهو دائرة الرحي التي دارت حولها أكثر الدراسات البلاغية في قسنطينة تدرسا وتأليفا. فقد كشفت مؤلفات علماء حاضرة قسنطينة عن إعجاب وربما في بعض الأحيان الافتتان بهذا الكتاب وما دار حوله من أعمال، والتي تمثل أكثرها في شرح وتلخيص ونظم « تلخيص المفتاح » للخطيب القزويني، مع استثناءات قليلة حولت الإعجاب والاهتمام إلى جوانب أخرى من الدراسات البلاغية كما فعل ابن الموفق القسنطيني الذي كتب رسالته في « المجاز المرسل » أو ابن الحاج النميري الذي اهتم بالتورية والاستخدام والتضمنين. أو عبد القادر المجاوي الذي تناول البلاغة ضمن حديثه عن العلوم مجتمعة سواء في كتابه: «الإفادة لمن طلب الاستفادة»، أو كتابه الثاني: « إرشاد المتعلمين »، فالبلاغة عنده جاءت ضمن التوجهات العامة في الاهتمام بالعلوم وكيفية تدريسها وتقديمها للمتعلمين ضمن أهم العلوم المطلوبة. والعجيب أن « تلخيص المفتاح » للخطيب القزويني قد فرض نفسه وبسط هيمنته على أكثر الدراسات عند علماء حاضرة قسنطينة من خلال الشروح والمختصرات والحواشي والتقييدات في النشر، ثم على المنظومات والأراجيز وشروحهما.

1- شرح كتاب (تلخيص المفتاح للخطيب القزويني):

تجلت أهم الدراسات البلاغية عند علماء قسنطينة في شرحهم لكتاب: « تلخيص المفتاح » للخطيب القزويني، وهذا ما يمكن أن نلاحظه عند هؤلاء العلمين: إبراهيم بن فائد بن موسى بن عمر بن سعيد بن علال بن سعيد النبروني الزواوي النجار القسنطيني (796هـ-857هـ/1394م-1453م)¹. الذي شرح كتاب تلخيص المفتاح للقزويني في مجلد، سماه: « شرح تلخيص المفتاح »¹.

¹ - انظر ترجمته: - شمس الدين السخاوي - أضواء اللامع لأهل القرن التاسع - دار الحياة - بيروت لبنان - الجزء الأول - ص 116 - أحمد بابا التنبكتي - نيل الابتهاج بتطريز الدياج - تحقيق وإشراف وتقديم عبد الحميد بن عبد الله المرامة - وضع هوامشه وفهارسه طلبة كلية الدعوة الإسلامية - كلية الدعوة الإسلامية -

أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن حسن بن ميمون بن قنفذ بن الخطيب
القسنطيني المشهور بابن قنفذ القسنطيني². (740هـ-810هـ/1340م-1407م)³. له في

طرابلس - ليبيا - الطبعة الأولى 1989م - ص 52 - شمس الدين الداودي - طبقات للمفسرين - دار الكتب العلمية
- بيروت لبنان - 1403هـ/1983م - الجزء الأول - ص 18 - عادل نويهض - معجم أعلام الجزائر - مؤسسة
نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر - بيروت لبنان - الطبعة الثانية 1980م - ص 160 - أبو العباس أحمد بن
محمد المكتاسي الشهير بابن القاضي - درة الحجال في أسماء الرجال - تحقيق محمد الأحمددي أبو النور - دار التراث
القاهرة - المكتبة العتيقة تونس - 1390هـ/1970م - الجزء الأول - ص 193.

¹ - أبو العباس أحمد بن محمد المكتاسي الشهير بابن القاضي - درة الحجال في أسماء الرجال - الجزء الأول -
ص 193.

² - رحل إلى تلمسان والمغرب وتونس ونخل من حواضرها وعلماؤها ثم قفل راجعا إلى قسنطينة ليستقر بها خطيبا
ومدرسا وقاضيا. ترك العديد من المؤلفات في علوم وفنون كثيرة منها المطبوع ومنها المخطوط ومنها المفقود.

³ - انظر ترجمته: عبد الرحمن الجيلالي - تاريخ الجزائر العام - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر 1994م -

الجزء الأول - ص 153 - عبد الحفي الكتاني - فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات
والسلسلات - تحقيق إحسان عباس - دار الغرب الإسلامي - بيروت لبنان - الطبعة الثانية 1982م - الجزء
الأول - ص 76 - علي بن إبراهيم المراكشي - الإعلام بمن حل بمراكش وأعمام من الأعلام - مراجعة عبد
الوهاب بن منصور - المطبعة الملكية - الرباط للمملكة المغربية - الطبعة الثانية 1993م - الجزء الثاني - ص
17 - عمر رضا كحالة - معجم المؤلفين - مؤسسة الرسالة - بيروت لبنان - الطبعة الأولى
1414هـ/1993م - الجزء الأول - ص 205 - أبو القاسم الحقاوي - تعريف الخلف برجال السلف -
مطبعة بير فونتان الشرقية - الجزائر 1324هـ/1906م - الجزء الثاني - ص 127 - ابن فرحون - الديداج
المذهب في أعيان المذهب - تحقيق وتعليق محمد الأحمددي أبو النور - دار التراث - القاهرة - ص 91/90 -

محمد بن أحمد الكاتوبي - جواهر الكمال في تراجم الرجال المطبعة العربية - الدار البيضاء - المملكة المغربية -
الطبعة الأولى 1356هـ - أحمد بابا التمبكتي - نيل الانتهاج بنظير الديداج - ص 75/72 - ابن قنفذ
القسنطيني - الوفيات - تحقيق وتعليق عادل نويهض - دار الأفاق الجديدة - بيروت لبنان - الطبعة الرابعة
1403هـ - ص 6 إلى ص 17 - خير الدين الزركلي - الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت لبنان -
الطبعة الخامسة 1980م - الجزء الأول - ص 114 - محمد بن محمد مخوف - شجرة النور الزكية في طبقات
المالكية - المطبعة السلفية - القاهرة 1349هـ - ص 250 - عادل نويهض - معجم أعلام الجزائر - ص
269 - محمد قويسم - الفقيه أحمد بن قنفذ بن الخطيب القسنطيني (710هـ - 810هـ/1340م -

407م) - دورية كان التاريخية - العدد الخامس عشر - مارس 2012م - ص 94/91 .

البلاغة العربية كتاب: «التلخيص في شرح التلخيص»¹ وقد ورد العنوان بغير هذه الصيغة، فقد روي أيضا: «التمحيص في شرح التلخيص»². وهو شرح لتلخيص المفتاح للقزويني في البلاغة.

2- نظم كتاب (تلخيص المفتاح للخطيب القزويني):

ومن مظاهر اهتمام علماء قسنطينة بكتاب تلخيص المفتاح للقزويني إعادة صياغته من خلال الترجيز والنظم وهذا ما وجدناه عند: أحمد بن عبد الرحمن الشهاب أبو العباس بن أبي القاسم الحميري المعروف بابن خلوف أو بابن الخلوف القسنطيني³. (829هـ-899هـ/1420م-1494م)⁴ من خلال منظومته الشعرية في البلاغة: « التلخيص في المعاني والبيان »⁵.

¹ - ابن فنقد القسنطيني - الوفيات - ص 16. - وهو مذكور ضمن قائمة مخطوطات المكتبة الوطنية المغربية والمكتبة الوطنية التونسية.

² - انظر: ابن فنقد القسنطيني - الوفيات - تحقيق وتعليق عادل نويهض - ص 16.

³ - القسنطيني المولود، التونسي الدار؛ المغربي المالكي، ويعرف: بالخلوف، أو ابن الخلوف؛ فهو قسنطيني جزائري مولود؛ حجازي فلسطيني مقدسي النشأة والثقافة، تونسي الدار والقرار، والشهرة الأدبية والوفاء. تعلّم على والده، ثم عساه عصره وأصبح من أنفة العربية؛ حتى تمكّن من ناصية الصناعتين: النثر والشعر، له العديد من المؤلفات خاصة في اللغة العربية، كما أن له ديوان شعر.

⁴ - انظر ترجمته: شمس الدين السخاوي - الضوء الالامع لأهل القرن التاسع - ص 122/123. عبد الله حمادي - دراسات في الأدب المغربي القديم - دار البعث - قسنطينة الجزائر - الطبعة الأولى 1986م - ص 146 - عمر رضا كحالة - معجم المؤلفين - الجزء الثاني - ص 118 - حاجي خليفة - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - تحقيق محمد شرف الدين يالناقيا - دار إحياء التراث العربي - دون طبعة - دون تاريخ - ص 569 - لعربي دحو - ابن خلوف وديوانه جني المحتسب في مدح خير الفرقين المعروف بديوان الإسلام - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر. - عبد الرحمن بن محمد الجليلي - تاريخ الجزائر العام - الجزء الثاني - ص 96/95.

⁵ - شمس الدين السخاوي - الضوء الالامع لأهل القرن التاسع - ص 122 - عمر رضا كحالة - معجم المؤلفين - الجزء الثاني - ص 118 - عبد الرحمن الجليلي - تاريخ الجزائر العام - الجزء الأول - ص 94 - عادل نويهض - معجم اعلام الجزائر - ص 134 - بشير ضيف - فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث - مرجعة عثمان بدري - مطبعة نالة - الجزائر - الطبعة الثانية - دون تاريخ - ص 369.

وهي منظومة لخص فيها علوم البلاغة من خلال كتاب « تلخيص المفتاح »
للخطيب القزويني، أي نظم كتاب التلخيص للقزويني.

3- اختصار كتاب (تلخيص المفتاح للخطيب القزويني):

تعد التلخيصات أو الاختصارات للمتون ظاهرة بارزة في الدرس اللغوي العربي سواء المتون النثرية أو الشعرية ولم يشذ علماء حاضرة قسنطينة عن هذه القاعدة فأتجهوا نحو تلخيص بعض الشروح حتى يسهل التعامل معها واستيعاب أهم المسائل والقضايا البلاغية الواردة فيها، وتمثلت اختصارات علماء قسنطينة في عمل واحد قام به:

إبراهيم بن فائد بن موسى بن عمر بن سعيد بن علال بن سعيد النبروني الزواوي النجار القسنطيني¹ (796م-857هـ/1394م-1453م)². الذي له في البلاغة كتاب: « تلخيص التلخيص »³. وهو تلخيص لشرحه الأول الذي أشرنا إليه سابقا ضمن الشروح.

4- شرح نظم كتاب (تلخيص المفتاح للخطيب القزويني):

وقد وجدنا أيضا أن كثيرا من المنظومات التي شرحها علماء قسنطينة هي تلك التي نظمت تلخيص المفتاح للقزويني، فقد تناولوا بالشرح منظومة عبد الرحمن

1- فقيه مالكي جزائري ولد ببحرحة ثم انتقل إلى بجاية وتونس ثم استقر بقسنطينة، لغوي أديب متمكن له العديد من المؤلفات.

2- انظر ترجمته: - شمس الدين السخاوي - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - الجزء الأول - ص 116 - أحمد بابا التتمبكتي - نيل الانتهاج بتطريز الديباج - ص 52 - شمس الدين الداودي - طبقات المنسرين - الجزء الأول - ص 18 - عادل نويهض - معجم أعلام الجزائر - ص 160. - أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي - درة المحال في أسماء الرجال - ص 193.

3- عادل نويهض - معجم المنسرين - مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر - بيروت لبنان - الطبعة الثانية 1980م - الجزء الأول - ص 18 - عادل نويهض - معجم أعلام الجزائر - ص 160.

الأخضري البسكري « الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون »¹ وهو نظم لتلخيص المفتاح للقزويني مع زيادات له تفرد بها، وقد شرحها كل من:

أحمد بن المبارك العطار القسنطيني² (ت 1287م/1870م)³. حيث قام بشرح منظومة عبد الرحمن الأخضري (الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون)، وقد جاء عنوان شرحه: « نزهة العيون حاشية على شرح الأخضري لجوهره المكنون »⁴.
محمد الصالح بن محمد بن مهنا القسنطيني⁵ (1257م - 1328م/1840م - 1910م)⁶. الذي قام هو الآخر بشرح نظم عبد الرحمن الأخضري في البلاغة:

¹ - أروزة في (291) بيتا، طبعت هذه المنظومة وحقت العديد من المرات منها تحقيق محمد بن عبد العزيز نصيف - مركز البصائر للبحث العلمي - المملكة العربية السعودية. كما قام بشرحها الكثير من العلماء مشرقا ومغربا وترجمت إلى العديد من اللغات منها الأندونيسية. ولقيت القبول والانتشار في أكثر البلاد العربية والإسلامية، كما جعلت ضمن المقررات الدراسية لمادة البلاغة في المعاهد والجامعات العربية.

² - أخذ علومه بمدينة ميلة مسقط رأسه وأكمل تعليمه بقسنطينة عمل بالتدريس، وكان مفتيا للمالكية وكان خطيبا بالجامع الكبير بقسنطينة، تقلد رئاسة الطرقة الشاذلية في عصره. له مؤلفات في شمائل الرسول ومعجزاته، وله حاشية على شرح الأخضري لجوهره المكنون، وله معارضات لقصائد عديدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.

³ - انظر: محمد الحفناوي - تعريف الخلف برجال السلف - ص 78/ص 205/206 - محمد بسكر - أعلام الفكر الجزائري من خلال آثارهم للمخطوطة والمطبوعة - الجزء الأول - ص 104/105.

⁴ - الكتاب يعتبر في حقيقته شرح مع تكملة للجوهر المكنون في البلاغة للشيخ عبد الرحمن الأخضري. وقد حققه الأستاذ رابع بونار.

⁵ - من مواليد منطقة كركرة قرب مدينة القل حيث حفظ القرآن الكريم ومبادئ العلوم ثم انتقل إلى مدينة قسنطينة ثم جامع الزيتونة بتونس ثم إلى الأزهر الشريف بمصر وقد تتلمذ على كثير من العلماء والأعلام، رجع إلى الجزائر وبدأ مهمة التعليم والإصلاح حيث استقر بداية بزاوية بلفاسم بوجحر للتدريس ثم انتقل إلى مدينة قسنطينة للتدريس والإمامة بالجامع الكبير ثم تطوع للتدريس والتعلم بالزاوية الحنصالية بقسنطينة. وقد تخرج على يديه الكثير من الطلبة والتلاميذ. كان صاحب رؤية إصلاحية خاصة فيما يتعلق بالصوف وما يتصل به مما جلب له الكثير من المتابع والمُحَن، ومما زاده حمة تأليب السلطات الاستعمارية الناس عليه والتطبيق عليه في مجال عمله وتنفيذ مشروعه الإصلاحية. ترك العديد من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون.

⁶ - انظر ترجمته: أبو القاسم سعد الله - تاريخ الجزائر الثقافي - دار الغرب الإسلامي - بيروت لبنان - الطبعة الأولى 1998م - الجزء الثامن - ص 177 - عادل نويهض - معجم أعلام الجزائر - ص 323 - سليمان

«الجواهر المكنون في صدف الثلاثة فنون» وقد ورد الشرح بعنوان: «السر المصون على الجواهر المكنون»¹.

أبو محمد عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون التميمي القسنطيني²، (988هـ-1073هـ/1580م-1662م)³. فقد ترك لنا هو الآخر مؤلفا في البلاغة، شرح فيه أيضا منظومة عبد الرحمن الأخصري، «الجواهر المكنون في صدف الثلاثة فنون»، وقد جاء الشرح بعنوان: «شرح الجواهر المكنون».

الصيد - صالح بن مهنا القسنطيني حياته وآثاره - دار البعث - قسنطينة الجزائر - 1983م - محمد بسكر -
أعلام الفكر الجزائري من خلال آثارهم المخطوطة والمطبوعة - دار كردادة للنشر والتوزيع - بوسعادة - الجزائر
- الطبعة الثانية 2015م - الجزء الثاني - ص 306/305.

¹ - محمد بسكر - أعلام الفكر الجزائري من خلال آثارهم المخطوطة والمطبوعة - الجزء الثاني - ص 307.
² - من أسرة معروفة بالعلم والجاه في مدينة قسنطينة، ولهم بها زاوية معروفة، أخذ العلم وحفظ القرآن منذ الصغر على يد كثير من مشايخ عصره ومن خلال أيضا اجتهاداته فقد كان عصاميا صاحب إرادة واجتهاد ساعده في ذلك المكتبة الغنية التي تملكها أسرته، عرف بالعلم والصلاح والورع، تقلد العديد من الوظائف منها التدريس والإمامة والخطابة ورعاية الأوقاف ثم نال لقب شيخ الإسلام وأمير ركب الحج، خلف الكثير من المؤلفات أكثرها في اللغة النحو والصرف.

³ - إسماعيل بن محمد البغدادي - هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين - وكالة المعارف الجلييلة - استنبول تركيا - دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان 1951م - الجزء السادس - ص 289 - ناصر الدين سعيدوني - وراثة جزائرية - دار الغرب الإسلامي - بيروت لبنان - الطبعة الأولى - 2000م - أبو القاسم سعد الله - تاريخ الجزائر الثقافي - الجزء الثاني - ص 349 - شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت لبنان - الطبعة الأولى 1968م - الجزء الثالث - ص 229 - عمر رضا كحالة - معجم المؤلفين - الجزء الثاني - ص 210 - أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني - عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة بيجاية - تعليق وتحقيق عادل نويهض - دار الأفاق الجديدة - بيروت لبنان - الطبعة الثانية 1979م - الجزء الأول - ص 160 - أبو القاسم سعد الله - شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية - دار الغرب الإسلامي - بيروت لبنان - الطبعة الأولى - 1986م - محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان - إرشاد الحائر إلى آثار أدياب الجزائر - الجزء الثاني - طبع وإشهار داود بريكسي - تنسيق الجزائر - 2001م - ص 434.

1- نظم البديعيات:

البديعيات هي تلك القصائد التي مزجت بين مديح النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلم البديع على الخصوص، حيث يتضمن كل بيت من أبياتها نوعا من أنواع البديع يكون ذلك البيت شاهدا عليه¹. وذكر علي أبو زيد بأنها (قصائد طويلة في مدح النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - على البحر البسيط وروي الميم المكسورة، يتضمن كل بيت من أبياتها نوعا من أنواع البديع يكون هذا البيت شاهدا عليه، وربما وُزِّي باسم النوع البديعي في البيت نفسه في بعض القصائد)².

وعلى ذلك تكون البديعيات منظومات قصد أصحابها نظم ألوان البديع في شقيه اللفظي والمعنوي تيسيرا لحفظها والتمثل بها وتلقينها للمتعلمين، فنظمها يؤدي وظيفة مهمة في الحفظ والاستيعاب في قالب تحبيبي عاطفي جذاب «فكانت المنظومات بمحتوى ديني: مدح الرسول»³. وقد نقلت لنا هذه المنظومات أكثر مصطلحات علم البديع وتطبيقاته والشواهد عليه، كما نمت هذه القصائد رغبة من أصحابها في التأليف البلاغي البديعي وما ذكرته من أنواع البديع والتفاوت بين الناظمين في تناول عدد أنواعه⁴، ثم ما أضافته الشروح عليها من بيان وتوضيح وكشف لهذه الأنواع، والتطبيقات التي أحرقت عليها، والشواهد التي تعضدها، في منهج تعليمي رائق سهل وبسيط، يترك

¹ انظر: علي أبو زيد - البديعيات في الأدب العربي نشأتها تطورها أثرها - عالم الكتب - الطبعة الأولى 1403هـ/1983م - ص 46. - وانظر أيضا: زكي مبارك - للدائع النبوية في الأدب العربي - مطبعة الباني

الخليفي - جمهورية مصر العربية - دون طبعة - دون تاريخ - ص 169.

² علي أبو زيد - البديعيات في الأدب العربي نشأتها تطورها أثرها - ص 46.

³ محمد العمري - البلاغة العربية أصولها وامتداداتها - أفريقيا الشرق - الدار البيضاء المملكة المغربية - الطبعة الثانية 2010م - ص 64.

⁴ علي أبو زيد - البديعيات في الأدب العربي نشأتها تطورها أثرها - ص 32.

أثره على القارئ والمتلقي على حد سواء، وإبرازه ما تحتويه هذه النصوص من جوانب بيانية وجمالية وفنية. (فقد توسعت شروح البديعيات وامتد مجالها حتى صارت تخوض في القضايا الأدبية العامة، وتنتصر لمذهب على مذهب..)¹.

وقد كان للبديعيات أثر واضح وبارز في الدرس البلاغي تمثل في عديد الجوانب والعناصر أحملها الأستاذ علي أبو زيد²، في النقاط التالية:

- تعميم البلاغة ونشرها بين جمهور الناس. من خلال الرغبة في التأليف البلاغي على غير المؤلفون لدى الناس من كتب سابقة في البلاغة لغرض إقبال الناس عليها وتلقفها بقبول حسن، وهذا الذي حدث فاحتضنها الناس وتلقوها بكل رغبة كما احتضنوها بكل المهج والعواطف، حتى صارت في زمن مطلبا عاما وغنما شعبيا.

- ترسيخ أسس البديع، وتأكيد انفصاله عن قسميه: البيان والمعاني. فإذا كان السكاكي هو أول من فصل علوم البلاغة وقسمها إلى قسمين بيان ومعاني، ثم جعل القزويني للبديع قسما ثالثا للبلاغة، فإنه يمكن القول: إن البديعيات جاءت تأكيدا لهذا الانفصال وإشاعته بين الناس.

- العودة بالبديع إلى أحضان المدرسة الأدبية. من خلال الابتعاد به عن التقسيمات والتفريعات والقيود العقلية والمنطقية والجفاف الذي يعترى ذلك، والولوج به إلى عالم الأدب بشواهده المتنوعة والإيغال في جمالياتها ومواطن الفن والحسن فيها في أقصر عبارة وأوضح أسلوب.

- استنباط أنواع بديعية جديدة. من خلال السباق الذي فُتح بين أصحاب البديعيات، والتنافس الذي نشأ بينهم في إيراد الجديد المبتكر الذي لم يُسبقوا إليه.

¹ - محمد العمري - البلاغة العربية أصولها وامتداداتها - ص 65.

² - علي أبو زيد - البديعيات في الأدب العربي نشأتها تطورها أثرها - ص 264/252 - وانظر أيضا: محمد ناجي بن عمر - ظاهرة البديعيات في الأدب العربي - مجلة المناهل - كتابة النولة المكلفة بالثقافة بالملكة المغربية - العدد 56 - السنة الثانية والعشرون - جمادى الأولى 1418هـ - سبتمبر 1997م - ص 215 / 232.

وقد مثّل هذا الاتجاه خير تمثيل من الأعلام الجزائريين من حاضرة قسنطينة: أحمد بن عبد الرحمن المشهاب أبو العباس بن أبي القاسم الحميري المعروف بابن خلوف أو بابن الخلوف القسنطيني¹.

(829م-899م/1420م-1494م)². من خلال منظومته البديعية الشهيرة في البلاغة العربية: « مواهب البديع في علم البديع »³.

وتعتبر بديعية ابن خلوف القسنطيني من عيون الشعر تتألف من مائتين وستة وعشرين (226) بيتا. بدأها بقسم غزلي على غير عادة البديعيات، ثم المديح النبوي، ثم الدعاء، وكان مطلعها:

أمرن هوى من ثوى بالبان والعلم هلت براعة مؤن الدمع كالعلم

وقد زواج فيها بين الألوان البلاغية بمصطلحاتها المختلفة مع الشعر، حيث فاقت الألوان البديعية التي ذكرها المائتي (200) نوع.

¹ - القسنطيني المولود، التونسي الدار، المغربي المالكي، ويعرف: بالخلوف، أو ابن الخلوف؛ فهو قسنطيني جزائري المولود، حجازي فلسطيني مقدسي النشأة والثقافة، تونسي الدار والقرار، والشهرة الأدبية والوفاء. تعلّم على والده، ثم علماء عصره وأصبح من أثمة العربية؛ حتى تمكّن من ناصبة الصناعتين: النثر والشعر، له العديد من المؤلفات خاصة في اللغة العربية، كما أن له ديوان شعر.

² - انظر ترجمته: شمس الدين السخاوي - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - ص 123/122 عبد الله حمادي - دراسات في الأدب المغربي القديم - ص 146 - عمر رضا كحالة - معجم المؤلفين - الجزء الثاني - ص 118 - حاجي خليفة - كشف الظنون - ص 569 - العربي دحو - ابن خلوف وديوانه جني الخنتين في مدح خير الفرقين المعروف بديوان الإسلام - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر. - عبد الرحمن بن محمد الجليلي - تاريخ الجزائر العام - الجزء الثاني - ص 96 / 95.

³ - انظر البديعية في: ابن خلوف القسنطيني - مواهب البديع في علم البديع - تحقيق حورية رواق - رسالة ماجستير - قسم اللغة والأدب العربي - كلية الآداب واللغات - جامعة قسنطينة الجزائر - إشراف الدكتور لخضر عيكوس - سنة 2003م - العربي دحو - ابن خلوف وديوانه جني الخنتين في مدح خير الفرقين المعروف بديوان الإسلام - 827هـ / 1454م - 899هـ / 1526م.

وقد تستطرد القصيدة إلى معارف أخرى غير البلاغة، فجاءت البيديعية موافقة بين الجانب المعرفي العلمي والشعري.

2- شرح البيديعيات:

وهو الاتجاه الذي ذهب إلى شرح البيديعيات سواء من أصحابها الذين ألفوها أو على يد غيرهم من الشراح الذين تلقفوها بالاهتمام والعناية والشرح، «ولأكثر هذه البيديعيات شروح فيها الوسيط والوجيز والميسوط وأكثر هؤلاء الشراح من المتفوقين في العلوم العربية، وفي شروحهم من الفوائد النحوية والصرفية، والبلاغية، واللغوية والأدبية، والتاريخية. فنون أكثرها من المستملح المستطاب»¹.

وقد جاءت شروح هذه البيديعيات في طابع إبداعي جمعت ما هو بلاغي وما هو نقدي لهذا يمكن تصنيف هذه الشروح «ضمن أتباع المدرسة الأدبية البلاغية في تاريخ التأليف البلاغي عند العرب لأن عملهم هذا يتطابق والشروط لذلك»². ويكاد ينحصر هذا الاتجاه في الشروح التي قامت على شرح كل صاحب بديعية وهو ما تجلّى فيما فعله: أحمد بن عبد الرحمن الشهاب أبو العباس بن أبي القاسم الحميري المعروف بابن مخلوف أو بابن الخلوف القسطنطيني³. (829هـ-899هـ/1420م-

¹- زكي مبارك - المدائح النبوية - ص 207.

²- علي أبو زيد - البيديعيات في الأدب العربي نشأتها تطورها أثرها - ص 212. وانظر أيضا: محمد ناجي بن عمر - ظاهرة البيديعيات في الأدب العربي - مجلة للناهل - العدد 56 - السنة الثانية والعشرون - جمادى الأولى 1418هـ - شتنبر 1997م - ص 26.

³- القسطنطيني المولد، التونسي الدار، للفرحي المالكي، ويعرف: بالخلوف، أو ابن الخلوف؛ فهو قسطنطيني جزائري المولد، حجازي فلسطيني مقدسي النشأة والثقافة، تونسي الدار والقرار، والشهرة الأدبية والوفاة. تعلّم على والده، ثم علماء عصره وأصبح من أئمة العربية؛ حتى تمكّن من ناصبة الصناعتين: النثر والشعر، له العديد من المؤلفات خاصة في اللغة العربية، كما أن له ديوان شعر.

1494م¹. من خلال شرح منظومته البديعية الشهيرة في البلاغة العربية « مواهب البديع في علم البديع » في شرح مستقل: « شرح مواهب البديع في علم البديع »، وهو شرح حسن كما قال عنه العلماء.

ثالثا: دراسات بلاغية أخرى:

كما وجدنا من علماء قسنطينة من اتجه إلى دراسة البلاغة العربية في إطار عام ضمن مجموعة العلوم الواجب معرفتها وتعلمها والطرق والكيفيات التي يتم بها ذلك، وهو ما فعله: عبد القادر بن عبد الله بن محمد الحسني الجليلي المجاوي القلمساني ثم القسنطيني² (1264هـ - 1332هـ/1848م - 1914م)³ من خلال كتابين:

الأول: كتاب «الإفادة لمن طلب الاستفادة»⁴. وهو كتاب قال عنه المجاوي نفسه: يشتمل على رسوم ومسائل فقهية ونبد في علم المعاني والبيان والبديع وغير ذلك.

¹ انظر ترجمته: شمس الدين السخاوي - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - ص 123/122. عبد الله حمادي - دراسات في الأدب المغربي القديم - ص 146. - عمر رضا كحالة - معجم المؤلفين - الجزء الثاني - ص 118. - حاجي خليفة - كشف الظنون - ص 569. - العربي دحو - ابن خلوف وديوانه جني الخنتين في مدح خير الفرقين المعروف بديوان الإسلام. - عبد الرحمن بن محمد الجليلي - تاريخ الجزائر نعام - الجزء الثاني - ص 96/95.

² ولد بتمسان في أسرة مشهورة، التحق بجامع القرويين ثم عاد إلى الجزائر وحلّ يقسنطينة مدرّسا كثير النشاط في النوادي والجمعيات المعاصرة. توفي الشيخ المجاوي يقسنطينة ودُفن بها. وخلف الكثير من الكتب أكثرها في اللغة والأدب والموضوعات التعليمية وغيرها.

³ انظر: أبو القاسم الحفناوي - تعريف الخلف برجال السلف - الجزء الثاني - ص 449 - محمد الصالح الصديق - أعلام المغرب العربي - المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر 2007م - الجزء الأول - ص 32/31/30 - محمد علي دبو - نخضة الجزائر وثورتها المباركة - المطبعة التعاونية بمصر - المطبعة العربية بغرداية الجزائر - 1971م - الجزء الثاني - ص 85 - عمر بن قينة - المجاوي حياته وآثاره - مجلة الثقافة - العدد 48 - ديسمبر 1978م - ص 114 - بشير ضيف - فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث - ص 372.

⁴ عمر بن قينة - صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر 1993م - ص 74.

الثاني: كتاب «إرشاد المتعلمين»¹. وهذا الكتاب في الأدب واللغة والنحو والبلاغة، يدعو فيه عبد القادر المجاوي إلى ضرورة التعلم والأخذ بأسباب المعرفة والعلم ومعرفة العلوم والفنون الواجبة والضرورية.

رابعاً: مسائل بلاغية متفرقة:

وقد وجدنا من علماء قسنطينة من لم يتقيد في كتابته في موضوع البلاغة بكتاب (تلخيص المفتاح) للقرويي أو غيره، بل تناول مسألة أو مسألتين بلاغيتين بالدراسة والتفصيل مثل ما فعله: الشيخ صالح بن عبد القادر بن قويدر بن الحاج محمد بن شعبان بن الشيخ الموفق القسنطيني² (1277هـ-1359هـ/1860م-1941م)³. في رسالته عن موضوع الجاز: «رسالة في الجاز المرسل»⁴. وهي رسالة في الجاز المرسل وعلاقته في بسط واف وشرح مفصل وشواهد متنوعة. ومثل ما فعله أيضاً: ابن الحاج النميري القسنطيني⁵ (712هـ-780هـ/1313م-1378م).¹ في الرسائل البلاغيتين التاليين:

¹ - عبد القادر المجاوي التلمساني - إرشاد المتعلمين - الشركة الجزائرية اللبنانية ودار ابن حزم - الطبعة الأولى - الجزائر لبنان - 1429هـ/2008م

² - من تلاميذ الشيخ عبد القادر المجاوي وغيره، وأتم دراسته بالمدرسة التعاليمية بالجزائر العاصمة. مارس التدعيم لمدة زمنية طويلة ثم تولى العديد من المناصب في كثير من المحاكم بشرق الجزائر آخرها قاضي، دفين زاوية وادي أقبو ببجاية. ترك العديد من المؤلفات في الفرائض والحساب والفقه والبلاغة وغيرها،

³ - أنظر ترجمته: محمد المهدي بن علي شغيب - أم الحواضر في الماضي والحاضر (تاريخ مدينة قسنطينة) مطبعة البعث - قسنطينة - الجزائر - 1980م - ص 330/326 - محمد بسكر - أعلام الفكر الجزائري من خلال آثارهم المخطوطة والمطبوعة - الجزء الثاني - ص 289 - أحمد مريوش - دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر - ديوان المطبوعات الجامعية - الطبعة الأولى - الجزائر - الجزء الأول - ص 102.

⁴ - ذكرها المهدي بن علي شغيب - أم الحواضر في الماضي والحاضر (تاريخ مدينة قسنطينة) - ص 330/326 - بشرى ضيف - فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث - ص 371.

⁵ - أصله من الأندلس من غرناطة، فقيه أصولي محدث، رحالة قاضي راوية وشاعر، مشارك في كثير من الفنون والعلوم، انتقل واستقر زمتاً في كل من تلمسان وقسنطينة وبجاية وأخذ عن علمائهما. وقد شرق وغرب في الأفاق والمدن، له الرحلة المشهورة فيض العباب وإفاضة قدامح الآداب في الحركة السعدية إلى قسنطينة والزباب.

- الأول: رسالة في «التورية»².

- الثاني: رسالة في «القوانين في التورية والاستخدام والتضمنين»³.

حيث اهتم الحاج التميمي القسنطيني بثلاثة موضوعات بلاغية ضمن الموضوعات العامة في البلاغة وهي: موضوع: «التورية»، وموضوع: «الاستخدام»، وموضوع: «التضمنين».

البلاغة العربية عند علماء قسنطينة بين الاتباع والابتداع:

لم يكتب البلاغيون في مدينة قسنطينة بتلقي إنتاج المشاركة واستيعابه فقط بل عملوا على إعادة إنتاجه مرة أخرى وفق ما يقتضيه التوجه الفكري والثقافي والعلمي للمجتمع الجزائري عموماً وفي حاضرة قسنطينة على الخصوص، وهذا ما نراه واضحاً في كل الدراسات البلاغية التي مرت معنا لعلماء قسنطينة، «فمذهب أهل الأندلس والمغرب يتجه في أكثر أمره إلى مذهب المشاركة... ولكن علماءه مع ذلك لم يأخذوا بآراء المشاركة فحسب بل أخذوها وعالجوها فظهرت فيها شخصيتهم وطابعهم الخاص»⁴. فلم يقتصر علماء قسنطينة على التلقي فقط بل تعدى إلى إعادة الصياغة من جديد

¹ - انظر ترجمته: - المقرئ التلمساني - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطبة وذكر وزيرها لسان الدين بن الطيب - الجزء السابع - ص 108 وما بعدها. - أبو بكر بن عاصم القيسي - تحفة الحكام في نكت العتود والأحكام - تحقيق محمد عبد السلام محمد - دار الأفاق العربية القاهرة - الطبعة الأولى - 1432هـ / 2011م. - محمد بن محمد مخلوف - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية - ص 247 - لسان الدين بن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - الطبعة الأولى 1424هـ - الجزء الأول - ص 342 - أحمد بابا التتمكتي - نيل الابتهاج بتطريز الديباج - ص 36 - عبد المحي الكنايني - فهرس الفهارس - ص 129.

² - بشير ضيف - فهرست معلمة التراث الجزائري بين القنم والحديث - ص 370.

³ - بشير ضيف - فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث - ص 370.

⁴ - ابن الزملاكاني - النبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن - تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحدبني - مطبعة العاني - بغداد 1384هـ / 1932م - المقدمة ص 7.

وجعل المادة العلمية التي تلقوها صالحة للتدريس وفق خصوصية الحاجيات التعليمية لكل زمان ومكان حسب ما تراءى لمؤلفيه خاصة منها كتاب «تلخيص المفتاح» للقزويني.

وكان الطابع الغالب والصورة الجلية على علماء قسنطينة في مؤلفاتهم البلاغية هي الشروح والاختصارات والنظم، لعلاقة ذلك بالجانب التعليمي وحاجيات العصر وما يليق بطلاب العلم في حلقات المدرس، فيقصدون إلى التيسير والتسهيل وتجنب الصعب والغامض والابتعاد عن الحشو والاستدراك على الناقص مع الإضافات والاستدراكات اللازمة والممكنة. فتنوعت بذلك صور وطرق الدراسات عندهم، وتعددت بين تأليف وشرح واختصار ونظم وحاشية...

اتجاهات دراسة البلاغة:

إن الناظر المتفحص لهذه المؤلفات البلاغية من خلال النظر في الظروف والملابسات الفكرية والتاريخية التي ظهرت فيها والأعلام الذين تناولوها بالكتابة والتأليف، ومن خلال التوصيف الوجيز الذي قمنا به يمكنه القول: إن الدراسات البلاغية عند علماء قسنطينة سارت في اتجاهين كبيرين هما:

الاتجاه الأول: وهو الاتجاه الذي يمكن تسميته باتجاه الأدباء، وهو الاتجاه الذي لم يكن صادرا من علماء فقهاء، بقدر ما هو صادر من علماء هم أكثر قربا إلى الأدب واللغة والنقد والشعر منه إلى موضوع آخر، فكان تأليفهم أكثر ارتباطا بهذا الجانب، وقد مثله أحسن تمثيل الحاج النميري القسنطيني.

الاتجاه الثاني: وهو الاتجاه الغالب والذي يمكن أن نطلق عليه اتجاه الفقهاء، فالذين تناولوا المدرس البلاغي في قسنطينة أكثرهم من الفقهاء الذين لهم ثقافة موسوعية، وكان دافع التأليف عندهم في المجال البلاغي كما ذكر المقرئ التلمساني في

سياق حديثه عن عموم التأليف:¹ هو أن يكون سابقا إلى موضوع لم يؤلف فيه، أو ألف ما هو ناقص فيستدرك النقص ويكمل ما يراه مفقودا، أو يعتمد إلى تصحيح ما كان من أخطاء وقع فيها سابقوه، أو يشرح ما استشكل ويبين ما غمض، أو يعتمد إلى اختصار المطولات وتهديبها وجعلها في متناول المتلقين خاصة منهم المتعلمين، أو يعمل على جمع شتات ما تفرق من المسائل أو المسألة الواحدة. وهذا الاتجاه مثله أحسن تمثيل عبد الكريم الفكون القسنطيني وغيره.

الدرس البلاغي في قسنطينة وتعليمية البلاغة:

إن النظرة الفاحصة لمجموع المنتج البلاغي لمختلف المؤلفات البلاغية لعلماء قسنطينة على تنوعها وتنوع الاتجاهات التي صنفت فيها، كان غرضها الأول تعليمي لأنها كانت موجهة بداية إلى طائفة المتعلمين في مختلف المحاضن التعليمية في مدينة قسنطينة، ولأن مؤلفيها كانت مهمتهم الأولى التي نصبوا أنفسهم لها هي ممارسة التعليم ونشر المعارف، فلا غرو أن يكون بعد ذلك الغرض من هذه المؤلفات البلاغية، - والتي كانت تهدف إلى بيان ما يتصل بها من قضايا ومسائل وما يحدها من قواعد ومصطلحات وما يجليها من تطبيقات وإجراءات على النصوص وما يؤكدتها من أمثلة وشواهد- تبسيط المادة التعليمية للمتعلم وإزالة عوائق استيعابها والعناية بضبط القواعد وتأصيل المفاهيم مع حسن العرض والقدرة على الإبلاغ والإفهام والإحاطة بكل ما يتعلق بالنص من لغة ونحو وبلاغة ونقد. وتعتبر هذه المؤلفات البلاغية استجابة للحاجيات التعليمية لعصور أصحابها والمتلقين عنهم. وقد سعى أصحابها إلى معالجة إشكالات التعليم والتغلب على معوقات التحصيل، فكانت

¹ - المقرري التلمساني - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض - ضبط وتحقيق وتعليق مصطفى السقا وإبراهيم الأنياري وعبد الحفيظ شليبي - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - 1361هـ/1942م - ص 34/35 (البندي).

هذه المؤلفات قد أُعدّت بادئ الأمر لغرض التعلم فكانت معتمدة في برامج التعليم حتى عصور متأخرة.

وقد أشار العمري إلى بعض ذلك وهو يتحدث عن بعض ذلك في حواضر المغرب في عصر الإفرائي من خلال قوله: «إن قصارى ما كان يطمح إليه طالب العلم في هذا العصر - القرنين السابع والثامن عشر - هو استيعاب وتحصيل ما هو متيسر بين يديه من علوم اللغة والبلاغة سواء عن طريق حفظ المنظومات، أو معاودة قراءة الشروح»¹. وهذا لا يجري على هذين القرنين فقط اللذين أشار إليهما العمري بل يجري على كثير من العصور خاصة منها المتأخرة. وأكثر البلاغيين في قسنطينة ساروا في هذا الاتجاه الذي ربط الدرس البلاغي بالجانب التعليمي.

خلاصة:

أثبت هذا العرض الوجيز أن مدينة قسنطينة كحاضرة علمية أثبتت مساهمتها في الدرس اللغوي العربي عموماً والدرس البلاغي على وجه الخصوص من خلال مساهمة علمائها في إثراء المنظومة البلاغية بمؤلفات بلاغية عديدة تنوعت بتنوع الأهداف والأغراض التي كان يرومها أصحابها وهم يقومون بعملية التدريس والتأليف في هذا الموضوع. وأن تلك المؤلفات أكثر ما ارتبطت بالجانب التعليمي لهذه المادة العلمية لهذا كان ارتباطها واضحاً بتلخيص المفتاح للقزويني مع خروج عن ذلك في نادر الأحيان.

¹ - الإفرائي وقضايا الثقافة والأدب في المغرب القرنين 17 و18 - محمد العمري - الدار العالمية للكتاب - الطبعة الثانية - الدار البيضاء - 1412 هـ / 1992 م - ص 76/75.

محمد الصالح خبشاش وقصيدة "المدينة المنيعة"

أ.د. رابع طبعون

المدرسة العليا للأساتذة، قسنطينة

ملخص:

محمد الصالح خبشاش طاقة تغيير وتمرد في التجربة الشعرية الحديثة والمعاصرة، حاول الخروج من النمطية ومن شرك التماثل القاتل، وراهن على مغايرة مجاليه في مقارباتهم المفاهيمية وأنساقهم المهيمنة بشكل دينامي ومتطور. وأسس لتجربة شعرية كان فيها الأصيل المختلف، الحاد المنتور، الطامح الجامح الذي لن تقوى المحن على ثنيه أو الحد من هديره.

فما هو الأثر الذي خلقه هذا الشاعر؟ وما هو حجم ما مثله ضمن جيل الكتابة الشعرية أثناء الاحتلال؟ وكيف نقيم مزاجه الجمالي، وقدرته على التشخيص والانتقاد؟ وما موقع قصيدته (قسنطينة المدينة المنيعة) في ذاكرة الخلود؟

إن هذه الوقفة هي بمثابة تحية لروح ومكانة أحد سدنة المدونة الشعرية الجزائرية وعمالها البهية والذي كان من الرواد الأوائل في أدب الحركة الوطنية يقدم نماذجه ويعلل ظواهره، وكان له حضوره الصاحب في الحياة الثقافية بمدينة قسنطينة في الثلاثينيات من القرن العشرين مما يؤكد أصالته وعبقريته وعمقه وثراءه ضمن جدلية الطموح والانكسار، والحصار والحرية.

1- شخصيته الأدبية:

يعد الشاعر محمد الصالح خبشاش علامة من العلامات المضيئة في ثقافتنا الشعرية الحديثة، يندرج اسمه بداهة ضمن ممارسة تأصلت في خضم التحاذبات الفكرية والثقافية، وبفضل فرادتها كتجربة ذات أبعاد رؤيوية وفنية أصيلة ومتوهجة فقد اشتهر بروحه الطيبة وبمواهبه الشعرية والثرية وممارسته للترجمة الاحترافية، واحتل مكانة

مرموقة ضمن جيله بل يعتبر أكبرهم جرأة وانفتاحا على الثقافة الغربية وأكثرهم استقلالية وحرية في فكره وسلوكه وحياته الخاصة.

وكان للفعل الثقافي في قسنطينة أثره الحاسم في بلورة معالم شخصيته. والمعروف أن هذه المدينة لم تكن مهدا للحركة الإصلاحية فقط بل كانت حاضنة لمسار نضالي وتوق فكري وإبداعي ساهم فيه مجموعة من القامات المعرفية وعلى رأسهم رائد النهضة الجزائرية الحديثة الإمام عبد الحميد بن باديس.

وكان تأثر الشاعر بهذه الأنوار الإشرافية تأثرا واضحا وعميقا، من خلال قراءاته ومناقشاته ومسامراته في هذه المحاضن الثقافية الراقية، إضافة إلى يقظة إحساسه التي جعلته واعيا بذاته وقدراته، معتزا بما حد الشموخ، ومن ثم كان طموحه الراسخ منذ شبابه الأول إلى الإضافة والفرادة والتجاوز والخلق.

2- حياته ودراسته: هو محمد الصالح بن البشير خبشاش¹ ولد عام 1904 في (وادي

يعقوب) بولاية قسنطينة، وهو وحيد أبويه من أسرة محافظة تنتمي إلى الجزائر العميقة.

تسلح الشاعر بمعرفة عميقة وثقافة واسعة وحفظ القرآن الكريم في ظرف قياسي، وكان قد أتقن القراءة والكتابة في سن التاسعة، ثم انتقل إلى مدينة قسنطينة إذ تتلمذ على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس لمدة معتبرة بلغت ثمانية أعوام في ذلك الزمن الخصب الذي شهد حركية جيل التميز حيث شمله الإمام بعنايته ورعايته فحرص على تعليمه وتثقيبه مع ثلة من الطلبة وإعدادهم بحير إعداد، "ولتلامذة ابن باديس على اختلاف نزعاتهم في هذه البلاد، طابع خاص يمتازون به بين معاصريهم من

¹ - ذكر سليمان الصيد في كتابه "نفع الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار"، أنه في سجل الحالة المدنية بن خبشاش محمد فقط، أما هو فيكتبه دوما محمد الصالح خبشاش. لتتوسع أنظر، سليمان الصيد: نفع الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار، المطبعة الجزائرية، رغبة، الجزائر، ط1، سنة 1994، ص 221.

مواطنيهم، صدق في التصوير، وبلاغة في التعبير، وحرية في التفكير¹، وما كان خبشاش مقتصرًا على برنامجهِ الدراسي بل أضاف إليه إضلاعه المبكر على منجزات الآداب العالمية وكل ما من شأنه أن يثري ثقافته المتعددة الروافد، حيث يعبر عن هذه المرحلة بقوله: "كان الأستاذ ابن باديس يعطي كل واحد منا كتابًا حسب ما يتوسم في القارئ لا ثقًا به يقرؤه، وكان كثيرًا ما يمتحننا فيها ويميزنا عليها"².

وبعد أن وقف خبشاش على تنوعات موسوعية في مصادر ثقافته، حتى تجلّت عنده علامات التفوق فتعاطى الكتابة الشعرية، وكان فيها كالسيل الذي لا ينقطع، وظلت الثقافة وهمومها من مشاغله وبدأ بحضور المداخلات والندوات الأدبية، ولم يكف بهذا بل توسعت منظوراته في الكتب فانكب عليها وتمثلها تسعفه في ذلك بديهية حاضرة وذاكرة واعية وذكاء متوهج.

ورغم هذا النبوغ المبكر والشاعرية المتألقة فقد توالى عليه الإحباطات والفواجع والأزمات "ولم تساعده الظروف فعاش حياة ضنكه وزاده المرض الذي طال أمده معه همًا على هم ولم يتزوج في حياته وقد ساءت أحواله كثيرًا، رغم عمله في جريدة النجاح طيلة 12 سنة في قسم التعريب بها ومع ذلك كانت أموره تعبًا جدًا ماديا ومعنويًا، كان المرحوم محمد الصالح خبشاش رغم الداء وحالته التي كونها لنفسه يعيش حياة الكفاف، وكان مدة حياته يقوم بنشاطات أدبية ومع الأسف أن إنتاجه الأدبي الممتاز في مجموعه لم يجمع إلى اليوم"³.

ترجم له الأديب محمد الهادي السنوسي الزاهري في كتابه شعراء الجزائر في العصر الحاضر وقال عنه: "ولولا مغالبة الشجون وحوادث الأيام التي لا تفتأ عن ضرباتها

¹ - حمزة بوكوشة: لمحات من الأدب الجزائري، محمد الصالح خبشاش، جريدة البصائر، الجزائر، عدد 300، السنة السابعة من السلسلة الثانية، 7 ديسمبر 1954، ص 6.

² - محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 2، ط 1، مطبعة النهضة، تونس 1937، ص 85.

³ - سليمان الصيد: نفع الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار، ص 220.

الأديب، كان في المكان الأسمى بين أترابه، ولكن هي الأيام لا تصفو لأديب، وصاحبنا كاتب يجيد الكتابة وله ميزة خاصة في انتقاء المواضيع وسبكها في قالب جدير بها، وهو من شباب الجزائر الناهض، وفي مقدمة الذين ساعدوا على ما في الوطن من حركة يرجو كل منا دوامها¹. وترجم له عادل نويهض في معجم أعلام الجزائر: " بأنه شاعر وكاتب وصحفي، وهو يعد من شعراء الحركة الإصلاحية"². وذكره حمزة بوكوشة في جريدة البصائر، قائلا: " إنه أديب معاصر، مات ولم يتخلع برد الشباب، عرفته عن كتب فكان في بعض نواحي حياته الخاصة يمثل حياة الأديب في العصر العباسي، تخرج من مدرسة ابن باديس... وصاحبنا محمد الصالح خبشاش من الذين يجافون التقليد ويهيمنون بالجديد... وإن له قيمة عند من يقدرون المعاني المبتكرة حق قدرها"³.

كما ترجم له أيضا الدكتور عبد الملك مرتاض في معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، وقال عنه: "إصلاحي النزعة في مقالاته وأشعاره... فمن خلال النصوص الشعرية القليلة التي وقعت لنا، يبدو أنه شاعر كبير"⁴. وجاء ذكره في موسوعة (إرشاد الخائرين إلى آثار الأدباء الجزائريين)⁵، بأنه " من الأدباء الجزائريين الذين تهمهم المعاني الجديدة المبتكرة"⁶.

¹ محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، مطبعة النهضة، تونس 1937، ص 85

² عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان 1980، ص 131.

³ حمزة بوكوشة: نحات من الأدب الجزائري، محمد الصالح خبشاش، جريدة البصائر، الجزائر، عدد 300، السنة السابعة من السلسلة الثانية، 7 ديسمبر 1954، ص6.

⁴ عبد الملك مرتاض: معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، دار هومة، الجزائر 2006، ص380.

⁵ محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان: إرشاد الخائرين إلى آثار الأدباء الجزائريين: دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر 2011، ص 257.

⁶ المرجع نفسه، ص، ن.

كما ذكر الدكتور عبد ركيبي في كتابه (الشعر الديني الجزائري الحديث) بأنه "من شعراء الإصلاح المجددين، إنتاجه غزير وشعره جيد ونفسه طويل"¹.

3- أشعاره وكتاباتة الثرية: تتقاطع في كتابات محمد الصالح خباش عدة حقوب معرفية منها الترجمة والتعريب والخطابة والمقالة ونشاط الجمعيات الأدبية والمساهمة في الحقل الإعلامي، "فهو شاعر إذا قرض الشعر، وكاتب إذا تعاطى الكتابة"²، إضافة إلى قصائده القيمة التي لا تزال حيصة الصحف والمجلات، والمتعمن في هذه الآثار يتلمس بوضوح فتنة خياله المرنح وأسلوبه الرشيق، وقريحته المتقدمة وفكره الثاقب، وحسب المعلومات المتوفرة فإن للنجز الأدبي للشاعر ينحصر فيما يأتي:

* قصائد ومقطوعات شعرية: وهي موزعة بين عدة جرائد مثل: (النجاح) و(المنتقد) و(الشهاب). وقد عبر الشاعر في نصوصه الإبداعية والتي هي تجسيد عن رؤاه الثائرة المتجددة على امتداد حياته المتهبة أننا ومعاناة، وقد صدق في تصوير ما يقوم به في زمن التغيير الاستعماري والإحباط، ففي قصيدته (صارم العزيمة)³ يصف نفسه قائلا:

يقولون دُع عنك ما تفعل	وقصّر من اللوم يا رجل
فما أنا يا قومنا تشارك	يراعا من الخير لا ينهل
فمن خدمة الدين لا أنثني	وعن خدمة الشعب لا أنزل
يرمون عزا بلا وطن	وفي الوطن العز لو تعقل

ويبلغ عدد أبيات منته الشعري 1794 بيتا تكفي أن تكون ديوانا شعريا مستقلا توزعت على أكثر من مئة وستة وثمانين قصيدة ومقطوعة شعرية، وهذا ما توصلت إلى

¹ عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص578.

² سليمان الصيد: نفع الأزهار عما في مدينة تستطينة من الأخبار، ص220.

³ جريدة النجاح: عدد: 2006، 18/06/1937.

جميعه رغم شح المصادر ومحدودية المعلومات التاريخية المتصلة بمراحل حياته وتضارب المعطيات الزهيدة المتوفرة التي تحدثت عنه. تبرز في قصائد الشاعر محاور أساسية مثل:

— محور الدين ويتقاطع فيه مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مع المناسبات الدينية المختلفة.

— محور صور من حركية المجتمع الجزائري ويضم قصائد تفاعل فيها الشاعر مع معطيات السياسة والأحداث الكبرى الوطنية والاجتماعية.

— محور في السلوكيات والأخلاق واستنهاض النفوس إلى الإصلاح وعطف القلوب على القيم العربية المنشودة.

— محور القصائد الوصفية التي جسدت فيها بحجة الطبيعة وطقوس الحياة القروية التي تنتظم فيها العصور ومشاهد المناظر الأسرة الحلابة.

— محور قصائد الجحاملات التي اتصلت بمناسبات ثقافية في استقبال أهل العلم والأدب والفن والمسرح.

— محور الشعر الذاتي الوجداني الذي عبر فيه عن تمثل الشاعر لما أوحته عاطفته رغم أننا لا نعرف شيئا عن حميمياته، وعن خيياته وفشله في هذا المجال وفي مجالات أخرى.

— محور قصائد الرثاء المتعلقة بأهل العلم والأدب والأعيان والشخصيات.

* كتابات نثرية موزعة على صفحات جرائد (النجاح) و(الشهاب) و(المنتقد) و(الحق) و(صدى الصحراء)، (الفاروق) الثانية، و(المبصر).

* ترجمات وتعريب لمقالات ملتهبة اعتبرها معابر للرد على ادعاءات بعض المفكرين والمستشرقين، أمثال: (المسيو لوي برتران)¹، وغيرهم مبينا موقفه من القضايا الكبرى للعالم والوجود.

¹ لوي برتران Louis Bertrand (1866-1941): ألقى خطابا بالجزائر أمام محفل كبير من الأوروبيين واليهود والمسلمين، وأظهر تعصبه وحفده على المسلمين ودينهم فانبرى محمد الصالح بحشاش للرد عليه في مقالة بعنوان: (إفريقيا غربية لا شرقية) ونشرها في جريدة الشهاب، عدد 07، ديسمبر 1925.

وتشكل مقالات محمد الصالح حبشاش الموازية لآثاره الشعرية مجموعة نثرية من روائع المجموعات الأدبية الخالدة، لو قدر لها أن تنشر ستبين نموذجاً من الأدب الجزائري المقاوم زمن المحنة وحجم طاقته في التغيير والتمرد، حيث عاش حياة الالتزام الأدبي وناضل بمواقفه وقلمه ولم يكن هذا بالأمر الهين لا سيما في زمن الاستعمار، مبينا مواقفه من بعض قضايا الساعة، حتى يتسنى للقارئ أن يقف على الاهتمامات التي كانت تفرق الشاعر، وكثافة وعيه بخصوصية معالجته لهذه القضية أو تلك.

وكان لمجالس الإمام عبد الحميد بن باديس دور مهم في تكوين أسلوبه الأدبي والتعالي به نحو النضج، فقد تأثر بالمقالات التي كان يحررها الشيخ ابن باديس، وينشرها آنذاك في المنتقد والشهاب وغيرها.

4- نشاطه الثقافي والأدبي:

لقد تفاعل محمد الصالح حبشاش مع السياق الثقافي والاجتماعي واحتك بالشعراء وتبارى معهم في تلك المساجلات على شكل ورشات شعرية كانت تعرضها الصحف والمجلات الدورية ومنها ما كتبه محمد الهادي الزاهري معلقاً على قصة (رشيد)¹. وقد اقترحت جريدة (المنتقد) على الأدباء رثاء رشيد بما لا يتجاوز العشرة أبيات وجعلت لذلك جائزة يأخذها المبرز فتنبارى الشعراء لراثه وكان منهم شاعرنا، الذي وسم

¹ هذه القصة التي قام بنشرها قائلا: (رشيد رجل جزائري صميم حصلت بينه وبين رجل إسباني يدعى فرنسوا نجس بالجنسية الفرنسية ألفه شديدة ؛ نشأت ألفتها منذ الصغر حتى أنهما قضيا صباها مع بعضهما متحابين حبا لم يكن الزمان ليطمع في إزالتهم من قلوبهما، قرأ في كتاب واحد إلى أن ترقيا إلى الكليات الكبرى، وكان أساتذتهما كثيرا ما يقولون لهما أن دولتنا لا فرق عندها بين عربي وفرنسي تسوي بين الجميع تسوية الأم بين أبنائها. ترعج رشيد على ما سمع من أساتذته حتى بلغ رشده فانخرط هو وصاحبه في الجندية الفرنسية وأخذ يطبق تعليمات أساتذته في المساواة فما راعه إلا وفرنسوا ارتقى إلى درجة قائد حربي كبير ولم يزل هو في الدرجة الثالثة على تفوقه في المعارف واقتحامه للمخاوف، فاشتغل لذلك ثم غادر الجندية مدافعا عن حقوق بلاده إلى أن مات شهيد العدل والمساواة، للتوسع أنظر، محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، المطبعة التونسية، تونس، 1926، ص 24.

قصيدته (شهيد العدل والمساواة)، تناول فيها القيم التي عاش من أجلها رشيد ومات من أجلها، وقد نافسه آنذاك مجموعة من الشعراء منهم محمد العيد آل خليفة¹ وغيره من الذين حركتهم التفرقة بأجلى صورها، وقد علق خبشاش على هذه الحادثة بقوله:

نعم لك في العلا عمل مجيد ولكن ما جزاؤك يا رشيد
 علام (فرانسوا) يعلوك كعبا وأنت لمثله الكفء الوحيد
 حياتك كلها مأساة حزن يشيب لهول منظرها الوليد

ثم اتسع نطاق العمل الأدبي للشاعر وأخذ يتجه إلى النشاط التفاعلي أكثر فأكثر منذ أن انتظم في جمعية (الرابطة الأدبية)² التي تأسست بقسنطينة³، بمقر الجمعية الخيرية يوم الأحد 1928/05/27، وقد فاز برئاسة هذه الرابطة الشيخ محمد النجار الحركاتي وبكتابتها العامة الشاعر محمد الصالح خبشاش، وقد تكونت هيئة الرابطة الأدبية من 14 شخصية منهم الزبير بن باديس كئائب أول للرئيس وأحمد بوشمال مستشارا وعمر الجيجلي أميناً عاماً للمالية. وتعتبر هذه الجمعية من أوائل الجمعيات التي تأسست لخدمة الأدب واللغة العربية في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي. فقد ضمت أسماء لامعة⁴ كان لها بريقها ورونقها، ويعد الشاعر محمد الصالح خبشاش أحد أعمدتها وواضعي لبناتها الأولى. وقد كان شديد الحرص على جدوى النشاط العلمي والأدبي راهنا مستمرا في مدينة قسنطينة فقد كان في

¹ - أبو القاسم سعد الله: محمد العيد آل خليفة، ط02، دار المعارف، مصر 1975، ص 156.

² - تأسست الرابطة الأدبية بقسنطينة سنة 1928، وقد توّعت بها جرائد تلك الحقبة مثل: النجاح، الشهاب، البلاغ الجزائري، لاديش La dépêche De Constantine، وقد قام خطيبا في هذه المناسبة كل من الإمام عبد الحميد بن باديس، وعمر الجيجلي، ومحمد الصالح خبشاش.

³ - سليمان الصيد: نفع الأزهار عسا في مدينة قسنطينة من الأعيان، ص 221.

⁴ - تضم الرابطة الأدبية أسماء لامعة في المجال الثقافي والإصلاحي، مثل: محمد النجار الحركاتي، والزبير بن باديس، وأحمد بوشمال، وعمر الجيجلي، وحمادي الوكيل، وعبد المالك زغليش.

طلبة الوفد القسنطيني الذي تكوّن من الأعيان والمثقفين في استقبال السيدة فاطمة رشدي¹ حين نزولها بقسنطينة عام 1932. وقد رحب بها بقصيدة من وحي الموقف تحت عنوان: (الجزائر تحيي مصر)².

إن مصرَ قد حلتَ اليوم (سرتا) ولسرتا التاريخُ يحنو سُجودا
رحبَ اليومَ قطر سرتا بوفد فمن البر أن تبر الوُفودا
هذه فرقةٌ تحل حمانا لترينا مصــــادراً وورودا
لترينا مَنازعا وسجايــــا لم يكنْ قُطرنا بها ليُجودا
تلكَ فاطمةٌ ولا غير رُشدي حسنتُ حلقةً وزادت قُودا

وكان من المستقبلين للسيد يونس بحري³ مراسل جريدة العراق ومجلة الكشافة ببغداد الذي قضى ثلاث سنوات متجولا في أنحاء المعمورة، وقد عزم على زيارة بعض العواصم الجزائرية منها مدينة قسنطينة. وكذلك كان الشأن في الاحتفاء بأмир الشعر التونسي الشاذلي خزندار⁴ فقد رحب به بقصيدة (تحية أمير الشعراء)⁵:

¹ - فاطمة رشدي (1908-1996): وصلت السيدة فاطمة رشدي ورفقتها إلى قسنطينة قادمة من تونس وقد استقبلتهن وقد يمثل سكان قسنطينة ومثقفها وأعيانها تحت رئاسة محمد النجار الحركاني، ومامي إسماعيل، والسيد أحمد بولحال، والشاعر محمد الصالح خبشاش وغيرهم، والسيدة رشدي من مواليد الإسكندرية بمصر، بدأت حياتها الفنية عندما كانت في التاسعة مع فرقة عبد الرحمن رشدي، بعدما انضمت إلى فرقة الجزائري، عملت في مسرح روز اليوسف ثم في فرقة رمسيس وصارت بطة للفرقة. بدأت عام 1921 في فريق الكورس والإنشاد مع سيد درويش ونحيب الريحاني، وفي عام 1933 انضمت إلى فرقة يوسف وبني مسرح رمسيس، كونت فرقتها للمسرحية الخاصة الشهيرة التي حملت اسمها وقدمت 15 مسرحية، وأخرجت نحو مائة كبارا.

² - جريدة النجاح: عدد 1204، 13/05/1932.

³ - محمد الصالح خبشاش: ما هذا يا أبا الفداء (مقال ترحيبي)، جريدة النجاح، عدد 662، نوفمبر 1928.

⁴ - محمد الشاذلي خزندار (1881-1954): ولد الشاعر في عائلة تونسية عريقة، حفظ القرآن الكريم وكتب على المطائفة، وقد تعلم على يد أساتذة أكفاء في بيته، وصقل موهبته الشعرية بالمطالعة والاجتهاد، انتسب إلى الزينونة بصورة غير نظامية، ويعتبر الشاذلي خزندار من المجددين في الشعر التونسي الحديث، من أهم آثاره: مسامرة في حياة الشعر وأملونه 1920.

⁵ محمد الصالح خبشاش: قصيدة (تحية أمير الشعراء)، جريدة النجاح، عدد 642، 23/09/1928.

تفديك الجزائر بالبينتا

أمير الشعراء دُمت لنا خدينا

بمربّعها ضيوفاً أكرميناً

ثُحبيك الجزائر مذ حلتكم

سلاماً يحكم الود المتينا

وبلّغ (تونس الخضراء) عنا

وكما يذكر المؤرخ توفيق المدني¹ في كتابه (حياة كفاح) أنه لما قدم إلى مدينة قسنطينة عام 1925 زاره الشاعر حبشاش، وتواجد أثناء زيارته: مبارك الميلي، أحمد معلم، ودويذة، مالك بن نبي، ثم شرفهم الإمام ابن باديس الذي انظم إلى مجدهم. وعموما فإن العوامل التي كان لها أثر بعيد المدى في هذا النشاط والشراء الاستثنائي في كتاباته يمكن إجمالها في ما يلي:

- نزوعه إلى تحقيق الذات.

- خصوصيته الفردية وقدرته على توجيه القول الشعري وحركية الإبداع.

- مظاهر تفوقه الشعري وقدرته الحجاجية والإقناعية.

- ثقافته المزدوجة التي أهلته للإطلاع على الآداب الغربية، وميله إلى التجديد بكل أبعاد.

5- نشاطه الصحفي.

حظيت كتاباته باهتمام النخبة المثقفة وبتابعة الجمهور الواسع العريض، حيث مثل عمله الصحفي قوة دفع في أعماق الوعي الشعبي ورصد تحولاته. تجاوز حبشاش المبادئ النظرية والأفكار المجردة. فقد كرس مقالاته المناقشة المموم الاجتماعية، قضايا (الوطن)، (التعليم)، (المرأة)، ولم يقتصر على التصعيد الوطني بل تجاوزه لمموم الأمة العربية، فقد "كان دور الجرائد حينئذ يتمحور حول استنهاض وأداء الواجب الوطني كاملا غير منقوص، والتصدي في شجاعة مظهر الظلم والإرهاب وكميت الحرية"².

¹ - أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، القسم الثاني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977، ص: 17.

² - محمد الصالح الجابري: الأدب الجزائري المعاصر، ط1، دار الجبل للطباعة والنشر، بيروت، 2005، ص: 116.

وكان محور كتاباته قضايا عصره¹، المتمثل في الإصلاح الديني والاجتماعي، مسخراً قلمه في اتجاه الطقوس البدعية وأطروحات المتطرفين من الطرفين الغارقين في الخرافات وشيوخ التصوف الموالين للاحتلال.

لقد دخل ميدان العمل الصحافي بالكتابة في الصحف العربية آنذاك فكتب في جريدة "الفاروق"² من عام 1920 إلى 1924، وترأس جريدة "الحق" الأسبوعية الإصلاحية الصادر في بسكرة عام 1926 والتي كانت حلماً تجتهد لتحقيقه مع صاحبها (علي بن موسى العقبي)، لكن الصحيفة لم تعمر طويلاً فلم يصدر منها سوى ثلاثين عدداً³. ثم أنشأ جريدة "المبصر"⁴، وبعد جهد ومعاونة اضطر إلى توقيفها وكتب مقالة يشرح فيها فصول تلك المسألة تحت عنوان: (ما طلع حتى غرب، جريدة المبصر والأزمة)⁵، وبعدها ينس من المحاولات الفردية انظم إلى جريدة النجاح⁶ ذائعة الصيت وكتب في الدعوة إلى مساعدتها على المضى قدماً وتمكينها في أن تصبح جريدة يومية مقالة تحت عنوان: (شعب الجزائر الكريم، أيد صحيفتك

¹ - محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1978، ص 226

² - صدر العدد الأول من جريدة الفاروق في 18 فبراير من عام 1913م، في مدينة الجزائر، وقد اختار لها عمر بن قدير اسم الفاروق، لتكوين فارقة بين الحق والباطل " وكان عمر بن قدير يوقع مقالاته فيها باسم (أبو حفص)، وقد عطلت الفاروق من طرف الاستعمار الفرنسي .

³ - محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2007، ص 130.

⁴ - ترأس الشاعر محمد الصالح حيشاش القسم العربي منها، بينما استلم السيد شاندرلي الجانب الفرنسي، وقد صدرت الجريدة في شهر نوفمبر 1931. للتوسع أنظر: سليمان الصيد: نفع الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار، ص 157.

⁵ - جريدة النجاح: عدد 1272، 1932/02/24.

⁶ - جريدة النجاح: صدرت عام 1919 بمدينة قسنطينة، أسسها الشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي، وشاركه فيها الشيخ مامي إسماعيل، كانت في أول أمرها مستقلة تعنى بالأدب والثقافة وكتب فيها ابن باديس نفسه ولكن بمرور الزمن تحولت إلى جريدة موالية للاستعمار الفرنسي، وقد توقفت أثناء الثورة التحريرية عام 1956. للتوسع أنظر، سليمان الصيد: نفع الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار، ص 158.

الكبرى النجاح لتطلع كالشمس كل يوم)¹، لقد استطاع خبشاش أن يحافظ على دوره الحيوي ضمن هذه الأرضية الفكرية التي تجسدت في:

- نشر العلم ومقاومة الجهل وانتشار الأمية.
- التحريض على ثقافة العمل، والتنديد بالاستكانة والخيوة والتردد.
- الدعوة إلى الوحدة الوطنية، والتمرد على الإجراءات التعسفية الاستعمارية ومقاومة الخلافات العنصرية أو التفرقات الجهوية.

1- مواقفه الوطنية والسياسية:

لقد كان محمد الصالح خبشاش المجاهد الذي سخر قلمه ولسانه دفاعا عن وطنه وقناعاته دون احتراز أو تحفظ، وكان الثائر الذي يتحسس منابع الظلم التي رافقت صيغ ومضامين وأشكال ممارسة الاستعمار الغاشم، والانحراف في دائرة المنظومة السياسية التي تتحرك في خط الصمت المخادع الذي هيمن على فكر النخب وعقول العامة من الناس. وكان يعبر عن ذلك بشعره الثائر يصوغه وفقا لإيقاعه الذاتي المشحون بالوطنية.

اهتم خبشاش بالشأن السياسي وقد طور مفاهيم ومواقف فكرية هادفة إلى الإصلاح السياسي، وأبان عن وعي متقدم بما يجري في الوطن العربي من تحولات ومستجدات ليشاطر أبناءها أحزانهم وانكساراتهم، واتسع شعره لكثير من الموضوعات السياسية، من أهمها: نصره (فلسطين) وتساءل عن الخلاص الذي يعيدها لأهلها، وقد نظم قصائد بشكل مكثف عن مأساة الشعب الفلسطيني تحت المضايقات والزرعة التدميرية للهيمنة الصهيونية، وكذلك وضعية الشعب الجزائري في محنته إبان الاستعمار. والجدير بالذكر أن خبشاش لم يفصل عن قناعاته التي كوّنّها في ظل الفكر الإصلاحية وأعتبر كل كفاحه هو استمرارية لرسائله الوطنية وتوحيها، ذلك لأنه عايش ظروفًا كانت الجزائر، والوطن العربي فيها ميدانا لمختلف أساليب

¹ - جريدة النجاح: عدد 611، 6 جويلية 1928.

الغزو الأجنبي ووكلاء مصالحه من كل نوع. ومن هنا كان حبشاش على وعي بدوره في الدفاع عن القيم واحترام الحقوق ضمن احترام موازين القوى المجتمعية وطبيعة العلاقات بينها. فقد تفاعل مع حادثة خلع الملك (أمان الله)¹، حيث تأثر الشاعر لهذه الحادثة رغم بُعدها عن وطنه ونظم قصيدته (المللكان المغصوبان، أمان الله وثريا)² وقد طفح شعره بمشاعر الاستهجان والاستغراب، وآلمه ما وقع لهما من مطاردات، وأثر فيه أن يصبح ملك الأفغان شريدا مطاردا:

أنشيدني جنال (كابول) من دَا أوقد النار في دُرى الأفعان؟
والصحيح الصحيح ما ليس فيه من شكوك تسري إلى الأذهان
هو (أن المللك) أضحي شريدا و(ثريا) تحيم في الوديان

وأيضاً حادثة اغتيال الجنرال (بكير صدقي باشا) يوم 21 جويلية 1937 رئيس أركان حرب العراق الذي يعتبر آنذاك أحد الرموز الوطنية في البلاد يقول في قصيدة (حوادث العراق)³:

يا شرقُ قدّ مدت له الأعناق فإذا به قدّ ساء منه عراق
حسبوه فُطر للتكائف قُدوة لكنه قدّ سار فيه شقاق
ولقد نعت بغداد مصرع (صدقها) والصدق في الدنيا له إتفاق
ماذا جرى في الشرق حيثُ تبدلت أخلاقه وتلبدت أفواق

¹ - الملك أمان الله: ملك بلاد الأفغان وقد تنازل بعد ضغوط كثيرة عن العرش إلى الملك (عناية الله)، بعد أن عرف عهد: اضطرابات منها إعلان الحرب على إنجلترا في الهند، وقد اكتفى النوار بتنازل الملك دون قتله عكس ما فعلوا مع والده الملك (حسب الله) الذي قتل في 05 فبراير 1919.

² - جريدة النجاح: عدد، 629، 1929/01/21.

³ - جريدة النجاح: عدد، 2030، 1937/08/14.

وكان يرى في الهند مصدر الإلهام والفلسفة والتأمل والحكمة، فهي قارة الحضارات وسحر الشرق، وهي قارة الكتل البشرية الضخمة القادرة على إحداث التوازنات الحضارية الكبرى، يقول في قصيدة (ذكرى الشرق)¹:

إيه "بومباي" كم بعثت رسولا	يَزْرَعُ الود في بَني الإنسان
إيه "بومباي" كم بعثت زعيماً	أَلزَمَ الخلق طاعة الرحمان
إيه "بومباي" كم بعثت عليماً	بنواهي الأفلاك والأكوان
إيه "بومباي" كم بعثت خبيراً	بارعاً في خَرَائط البُلْدَان

بالإضافة إلى العديد من القضايا الآتية التي كانت تشغله، كان غيبشاش يتحرك على أكثر من صعيد، وكانت له علاقات وثيقة بشخصيات سياسية نافذة في الحركة الوطنية الجزائرية.

ولقد حرص من خلال نشاطه السياسي والصحفي على إشاعة أنماط التفكير الجديدة وهو يؤدي دوراً بارزاً وفاعلاً في تعزيزها وجعلها واقعا معيشاً من خلال تقريب الخطاب السياسي من المواطنين وإدماج عموم الشعب في العمل والتعليم والحياة الكريمة، وهو الطريق الذي يهيم للتحويلات الحقيقية في المجتمع ويؤسس للمستقبل دون إمكانية النكوص، وفي هذا النطاق تقرر الشعوب مصيرها بينها:

جردوها من السكنة طُراً	فغدا الجو حالكا مكفهرها
يا بلادا يزداد شأنك خطبا	كلما شارب بأرضك طرا
زعموا أنهم يبشون نفعاً	فإذا هم يذكرون هولاً وضرا

أما المواقف الوطنية التي وقفها في مجابهة الاستعمار الغاشم وممارسته التمييزية وظلمه وجبروته، فهي أكثر من أن تُحصى، فمن تلك المواقف تصديه للتدمير المنظم والتصعيدي لكل بُنى المجتمع الجزائري حين يصف الوضع الجزائري المرعب:

¹ - محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 2، سنة 1937، ص 90.

جهل وفقير وأخلاق ملوثة كفر فهو رهين البؤس والتقىم

يا راجح العقل والإسلام رائده هل من طبيب يداوي القطر من سقم؟

لقد اعتبر خبشاش أنه حان الأوان لكسر ثقافة الخضوع والتبرير وتكريس الأوضاع السائدة . وكانت أشعاره تتضمن إدانة جذرية للظلم الاستعماري وتسمي الأشياء بمسمياتها.

2- دوره الإصلاحى والاجتماعى:

جاهر الشاعر بمعاداته الصريحة للفساد والمفسدين، وأخضع القول الشعري إلى المقام الإصلاحى والاجتماعى ومقتضياته، وركز على التعليم الذى اعتبره علامة المنعرج الحاسم المغاير. وفي هذا الخصوص يشير إلى ضرورة تغيير هذا الوضع قائلاً فى قصيدته (أنجا لكم)¹:

الشعب ليس موقفا	إن ضل عن عمل غلا
وبدون علم سافل	مهما تطاول واعتلا
لا تهملوا لا تهملوا	أمر المعارف مسجلا
كونوا كما قد شتمتم	أما مدارسكم فلا

ومن هذا المنطلق راح خبشاش يرسم المشهد الجزائرى بطابع واقعى يحرص فيه على تأسيس البنى التحتية الضرورية وتجهيز الجمعيات الخيرية ومساعدة المنكوبين والمعوزين فى وقت المناسب. ومن هذه المواقف قصيدته المؤثرة التى ألقاها حين اجتاحت الطوفان مدينة وهران بشكل لم يسبق له مثيل، وما تبع ذلك من أمراض وأوبئة

¹ - محمد الصالح خبشاش: قصيدة (أنجالكم)، جريدة النجاح، عدد 1937/10/2052،06.

وجرف للسودد والأكواخ والبشر، والتي عتوتها ب (دمعة على منكوبي الطوفان بأية
وهران)¹ عام 1927 قائلاً فيها:

ألف نفس بعد ألف ذهبوا
لا ترى في الحي إلا طفلة
شهداء السيل والرسم اندثر
أو صيبا وسط هاتيك الحُفَر
أنت الفُلك لكي تتقدمهم
فإذا السيل على الفلك انتصر

3- خبشاش والاسم المستعار:

لقد كان بعض الكتاب الجزائريين في الفترة الاستعمارية يميلون إلى الأسماء
المستعارة ويتخذونها قناعاً، نظراً لظروف التضييق أو الاعتقال، فقد كانت كتابات
مبارك الميللي مثلاً في الصحافة تصدر بإمضائه الصريح تارة، وباسم (البيضاوي) تارة
أخرى، وأبو اليقظان وقع باسم (المقيد)، وحتى الإمام عبد الحميد بن باديس
شخصياً كان يوقع ب (ابن الإسلام القسنطيني). ولقد أثبتت الدراسات التي تناولت
شعر خبشاش على قلتها أن إمضاء الوطني الصميم هو من تصميمه، فقد أورد محمد
ناصر في كتابه (الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية) بأن خبشاش كان
يوقع في جريدة النجاح باسم الوطني الصميم².

وكذلك أورد الأستاذ الشريف مريمي في دراسته لقصيدة (يا طائر) التعريف
التالي: "بأن خبشاش حضر دروس الشيخ ابن باديس، فانسج أمامه مجال الأمل،
وانكب على الدرس بحمة وجد ولازم هذا الأستاذ ثمانية أعوام، وكان يوقع أشعاره
باسم مستعار هو "الوطني الصميم"³.

¹ - محمد الصالح خبشاش: قصيدة (دمعة على منكوبي الطوفان بأية وهران)، جريدة النجاح، عدد
1927/12/528,09.

² - محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، ط 1، دار الغرب الإسلامي، الجزائر
1985، ص 727.

³ - الشريف مريمي: تحليل يا طائر، مجلة الوحدة الجزائرية، عدد 353، السنة 1982.

وأكد الدكتور شرفي أحمد الرفاعي في كتابه (الشعر الوطني الجزائري): " أن حبشاش كان ينشر رباعيات وقطعا قصيرة ويوقع باسم الوطني الصميم، سجل فيها الأحداث الوطنية والقومية"¹.

وأورد أيضا مجموعة من الباحثين في معجم شعراء الجزائر في تعريف الشاعر قَولهم: "حبشاش هو من شعراء الحركة الإصلاحية وعرف بأفكاره التجديدية في خدمة مجتمعه، وللأسف فإن آثاره وأشعاره لم تجمع في كتاب أو ديوان منشور حتى الآن، وكان يوقع باسم الوطني الصميم"².

4- وفاته ودفنه:

ودعت قسنطينة ابنتها البار الذي غيبه الموت مبكرا، واعتبرت فقدانه خسارة فادحة منيت بها المدينة وهي تشيعه إلى مثواه الأخير يوم الأربعاء الموافق ليوم 22 /03/ 1939، بعد معاناة مع مرض داء الصدر الذي لازمه سنتين حتى أنهكه وأخيرا وضع نهاية لحياته البائسة المأساوية، حيث بقي في المستشفى نحو عشرين يوما، وبه توفي- رحمه الله - وفي اليوم نفسه شيعت جنازته بعد صلاة العصر من الزاوية الشيجانية بالجزائرين بوسط مدينة قسنطينة ودفن في المقبرة المركزية، وقد خرج في جنازته جم غفير من سكان قسنطينة وضواحيها³. وقد نعته جريدة النجاح وهي تنقل خبر وفاته قائلة: "سار إلى رحمة الله وواسع غفرانه وجنانه المحرر المعرب المرحوم الأستاذ محمد الصالح حبشاش ذلك الشاب الذي دفنت معه العبقرية والنبوغ والصراحة والشمم"⁴. وقد تقاطرت من كل حدب وصوب كلمات التأبين التي راحت تردد مناقب الفقيه وتشيد بمآثره الخالدة وما قدمه من أعمال جليلة في خدمة الجزائر

¹ - شرفي أحمد الرفاعي: الشعر الوطني الجزائري، دار الهدى عين مليلة، الجزائر 1982، ص 287 .

² - الربيعي بن سلامة ومجموعة من الباحثين: معجم شعراء الجزائر، ص 310 .

³ - سليمان الصبيد: نبع الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار، ص 221.

⁴ - أنظر كلمة التأبين في جريدة النجاح: عدد 2272، 13 أبريل 1939.

واللغة العربية. ومن هذه الكلمات كلمة أحد أصدقائه وجلسائه السيد محمد خياط الذي قدم شهادته قائلا: محمد الصالح خبشاش فكره أرقى من كتابته شعر وبشر كان بائسا فقيرا ينام على أوراق الجرائد، وهو أشبه شيء بالشاعر المصرتي (عبد الحميد الديب) رحمه الله وقد كان يقول:²

ملك الموت أقبض الروح إن الروح كادت تفر من جثمان

أنا لا أطيق صبرا على الضيب — م ولو كنت في جنا رضوان

وقد تأثر الأشقاء في المغرب أيضا، فبعث آنذاك عبد الملك الكناني من فاس يتحسر لهذه الفاجعة الأليمة قائلا: "يوسفني أن يسكن ذلك الليل الغريد عن شجرة المطرب على شجرة (النجاح) الورقة الخضراء، محتتما كلامه بقوله: "يوسفني أن يسكن ذلك النسيم الذي يعث الزهر والانشراح في نفوس الناطقين بلغة تضاد المتبعث من قسنطينة على أجنحة النجاح. يوسفني أن يقف قلم (الوطني النسيم) على السيل فيقف بستان النجاح حزينا كئيبا ينادي وأسفاه"³.

5- قراءة في قصيدة قسنطينة (المدينة المنيعه)⁴:

انطلاقا من قول رولان بارت Roland Barthes (1915-1980) المدينة هي الكتابة، الكتابة معمار المدينة بكل تفاصيلها أما الأدب الشفوي فهو سهيل وصراخ في الغاب، ينطلق الشاعر محمد الصالح خبشاش في مدينة الكتابة وباعتبار جدلية العلاقة بين الكتابة والمدينة، يكون مضمون الكتابة مضمونا سوسولوجيا.

¹ محمد خياط المعروف بـ (الخياط) أحد المهتمين بالشعر وله بعض المقصائد المنشورة في النجاح آنذاك وكانت له علاقة صداقة مع الشاعر محمد الصالح خبشاش .

² محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر ج 2، سنة 1927، ص 90.

³ أنظر كلمة التأبين في جريدة النجاح: عدد 2272، 13 أبريل 1939.

⁴ محمد الصالح خبشاش: قصيدة "المدينة المنيعه"، ضمن كتاب محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، ص86، والقصيدة منشورة أيضا في جريدة النجاح: بتاريخ 1927/01/21.

وقد يعمد الشاعر إلى التركيز على كلمة شعرية، يجعل من تكرارها مفتاح الدلالة الكامنة في القصيدة وهي قابلة لمزيد التشكل، فيعبّر من خلالها عن عاطفته المشبوبة ونوازعه الروحية، فمن ذلك تكرار لفظة "المدينة". مدينة حبشاش مدينة حية طافحة بالفرح الموجل في اللذة، مدينة أسطورية تضاهي مدينة الفارابي، ومدن الشرق القديم بسحرها وحضورها:

تِلْكَ الْمَدِينَةُ هَلْ فِي الْأَرْضِ مِثْلَهَا وهلْ حَوَتْ كُتُبَ التَّارِيخِ مَعْنَاهَا ؟
مدينة أحكمَ الباني لها أسسًا مثلَى وأتقن بعدَ الوضع أعلاها
خَطَّتْ عَلَى ذُرُوءِ مَا بَيْنَ أَهْوِيَةٍ التَّجْمُ بِحِرْسِهَا وَالشَّمْسُ تَرَعَاها
قَامَتْ عَلَى جَبَلٍ أَعْظَمَ بِهِ جَبَلًا بَيْنَ الْجِبَالِ بِحُورِ الْفَخْرِ وَالْجَاهَا

إن استقرأ هذا النص بغنائته الجميلة ولغته الصافية السلسلة المتدفقة، وسعة مخيلته التصويرية، ومساءلة اللحظة التاريخية من خلال ارتباطها برموزها المضيفة وطقوسها الاحتفالية التي تقتفي أثر الذاكرة، يستدعيها ويعيد تأمل تجربتها في الحياة والإبداع، هو دليل على استيعاب الشاعر ولكنه الحضاري الشامل للمكان بأبعاده المختلفة الوجودية والمعرفية والسياسية:

(وادي الرمال) إذا أَبْصَرْتَهُ ذَهَبَتْ أَنْزَاخُ قَلْبِكَ حَتَّى النَّفْسِ تَنْسَاهَا
يُنْسَابُ فِي مَفْرَقِ الطُّودِ الْعَظِيمِ وَإِنْ صَدَتْهُ عَائِقَةٌ بِالرَّغْمِ أَلْقَاهَا
(وادي العقيق) وَكُلُّ الْعَرَبِ تُكْبِرُهُ هِيهَاتَ يَفْضَلُ وَادِي الرَّمَالِ إِنْ تَأَهَا
أَنْظُرْ إِلَى الْعَابَةِ الْهَيْفَاءِ كَيْفَ زَهَتْ لَمَّا الرِّبِيْعُ أَتَى وَالزَّهْرُ وَشَاهَا
وَأَهْبَطْ إِلَى مُسْحَخَةِ (الرِّيمِيسِ) كَمْ تَرَى تِلْكَ الْمَنَاطِرُ دَوْمًا تَذْكُرُ اللهُ
وَأَشْخَصْ بِطَرْفِكَ نَحْوَ الرُّؤْسِ حَيْثُ تَرَى أَنَّ الْمَدِينَةَ ذَاتَ الرَّجْعِ مَثْوَاهَا
وَإِنَّ (قَنْطَرَةَ الْأَحْبَالِ) مَا تُصْصِرَتْ إِلَّا لِأَنَّ مَهَيْبَ الْحِشْرِ نَادَاهَا
يَجْتَازُهَا النَّاسُ وَالْهَامَاتُ مَطْرَقَةٌ كَأَنَّ عَزْرِيْلَ بَيْنَ الصَّخْرِ يَكْلَاهَا

إن الإحساس بالالتباس بين النهائي واللا نهائي يقود المفارقة ويرجع الدهشة حيث التسامي إلى الأفق البرزخي، فقسطنطينة هي شقيقة الروح بالنسبة للشاعر، مدينة مثقلة بتاريخها وثقافتها وعنادها الأكيد، اتخذت أشكالاً حضارية متعددة عبر التاريخ بمهوية ثابتة ومتجانسة، تحمل في تخومها الثراء والتنوع والاختلاف.

فَقَدْ تَادَ آثَارَ (قسطنطين) وَاضَعَهَا ذَاكَ الَّذِي مَهَّدَ الدُّنْيَا وَسَوَّاهَا
لَا شَكَّ تُنْبِيكَ عَنْ قَوْمٍ ذَوِي فِكْرٍ ذَاقُوا الْحَيَاةَ وَطَافُوا بَعْدَ مَعْنَاهَا
سَازَ (الأمير) عَلَى النَّهْجِ الْقَوْمِ وَمَا فِي الْفَخْرِ مَنَقِبَةٌ إِلَّا تَعَالَاهَا
شَادَ الْأَمِيرُ جُمُشُورًا لَا تَزَالُ عَلَيَّ قَيْدَ الشُّخُوصِ كَأَنَّ الدَّهْرَ يَحْشَاهَا
أَعْلَى الْأَمَلِيِّ شَغَفُوا بِالْعِلْمِ صَوْرَتَهُ أَمَا الْجَهُولُ فَتَحَّتْ الْأَرْضُ أَحْقَاهَا
أَتَاهَا الْعُرْبُ حَظًّا كَانَ مُسْتَلْبًا وَعِزَّةٌ عَبَقَتْ فِي الْحَيِّ رِيَاهَا
فَاسْتَعْرَبَتْ وَتَرَقَّتْ فِي مَذَارِكِهَا الدَّيْنُ هَدَيْتَهَا وَالْعِلْمُ رَقَاهَا
فَاضْحَتْ مَدِينَتُنَا دَارَ السَّلَامِ بِهَا عِلْمٌ وَدِينٌ وَنُورٌ فِي مُجَاهَا
كَمْ مِنْ فَتَى وَفَتَاةٍ فِي مَدَارِسِهَا حَازَا مَرَاتِبَ مَا أَعْلَى سَرِيَاهَا
يَامِنِيَّةَ التَّفَسُّسِ مَا هَذَا سِوَى لَمْعٍ مِنْ بَعْضِ أَوْصَافِكَ الْغَرَاءِ سُمَّنَاهَا

إن الماضي الأسطوري المجيد لم يحصنها من الواقع المكلم، ففي عهد الاستعمار الفرنسي العاشم كادت تنطفئ شعلة المدينة ودخلت في سطوة الغياب وعتمة الجهول والفراغ الصامت، وقد خصص الشاعر أبيات من قصيدته تتساق مع مضمونا مع ما كان متعارفا عليه في رثاء المدن والممالك القديمة.

أَنْتَ الْخَبِيرَةُ بِالْأَخْبَارِ أَجْمَعِهَا فَخَبَرْنَا بِأَشْيَاءَ مَا عَلِمْنَاهَا
(نوميديا) مَا دَهَاكَ الْيَوْمَ فَاثْعَكْسَتْ تِلْكَ الْحُظُوظَ وَقَبْلًا كُنْتَ مَرَسَاهَا
بَاتَتْ لَكَ الْحَيَّةُ الرَّقْطَاءُ رَاصِدَةٌ مُفْلَةٌ سُمِّهَا الْفَتَاكُ فِي مَاهَا
(سرتا) تَعَالِي سِلَ الْأَدَهَارِ كَمْ دُولٍ مَرَّتْ عَلَيْكَ وَنَالَتْ مِنْكَ جَدَوَاهَا

يا جنة الأرض إنا لا نراك على حال منعمة كما عهدنساك
هل السعود تناءت عنك آفلة؟ أم هل تحولت النعوى بأشقاها؟
يا قوم مالي أراها غير ضاحكة وغير ناشطة والبشر غاذاها
من ذا زماها، ومن أبدى لها جملا مكدرات، ومن بالسوء آذاها
أود للبلدة لغيداء منزلة تعلو بها صهوة الجوزاء أسماها
لكن قومي والغارات ديدنهم يكهرون إذا ما فهت أفواها
أبغى سعادتهم إذ يضمرون أذى كيف الوصول إلى سعدى ومأواها
كيف السعادة يا قومي؟ وقد بلغت بنا الحماقة شوطا بعد أقصاها
بسن الخليل الذي يدي معاتبه على التي من عهد المهدي أهواها
نأمت قسنطينة من بعد يعظتها بل آذنت برحيل نحو أحرأها
إن كنت ذا فكرة فآرن بحآضرها ما فات من عهدا أيام نعامها
تلقى دلائل لا تحصى لها عدا الجهل والفقر أولاها وأدناها

لقد حاول الشاعر في هذه القصيدة إبراز مختلف المظاهر العمرانية والجمالية لمدينة قسنطينة، عبر من خلالها على محطات مختلفة في المدينة تكسب في كل وقفة جمالا ورونقا، "وكأنما صورتها ريشة رسام ماهر"¹.

إن مفردة "المدينة" التي تتكرر في القصيدة تنوعى رصد اللحظة والانخراط فيها وإثارة مشاعر التوتر وتصعيدها، فهي المنحى الإيجابي الذي يسهم في توسيع الفضاء الدلالي، "فقسنطينة" ليست مدينة باردة؛ كمدينة عبد المعطي حجازي التي أفرد لها ديوانه (مدينة بلا قلب)²، ولا تشبه مدينة توماس إليوت (Thomas Eliot 1888-1965)

¹ - حمزة بوكوشة: "نحات من الأدب الجزائري، محمد الصالح خيشاش"، جريدة البصائر، الجزائر، عدد 300، السنة السابعة من السلسلة الثانية، 7 ديسمبر 1954، ص6.

² - عبد المعطي حجازي: مدينة بلا قلب، مطبعة أخبار اليوم، القاهرة 1989.

المشيئة الآسنة في قصيدته (الأرض اليباب)¹، بل هي مدينة نابضة بالحياة، معبقة بالوجد الصوفي المكثف ونكهات من جماليات إيمانويل كانط Emmanuel Kant (1724-1804)، وأحلام فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900)، عن الأسياء الكاملة مدنا وإنسانا، يلجأ إليها الشاعر متى حاصره الخراب، وهي الملاذ، ندرت مشروعها للمقاومة وتصدت للقبولة والتنميط، فكيف يُضام جماها وهي قلعة التسنع والاستعصاء؟!

وعلى هذا النحو جاء تكرار لفظة "قسنطينة" مؤثرا في معمار القصيدة وفعلها الإبداعي، فهي بمثابة المفتاح الدلالي لدينامية فنية تجديدية وللدفقة الشعرية من خلال آليات التعبير المجددة لهذا الغرض. أمّا تكرار الفعل فهو الملمح الحاضر عند الشاعر، يدل على تراحم المواقف والأحداث التي مرّت في حياته، والفعل من طبيعته تجسيد التحول، لأنه مرتكز الحركة والصور المتوهجة في القصيدة، لتبصرنا بالواقع الذي نعيشه، والمليء بالأحداث المتسارعة والمآسي والأزمات المتباعدة وهذا ما يؤكد في مسار قصيدته.


تهض القصيدة دلاليا من أجل توسيع وتصعيد طاقة الإيجاء، إذ بدأ الشاعر بتأكيد أن المدينة لا تمارس سياسة الأبواب المغلقة، بل أحضانها مفتوحة لكل الأحيار على اعتبار أن دنحول المدينة هو رمز للخلاص والحضور الإيجابي رغم القسوة والانتهاك، وهكذا تندفق الصور التي تكشف عن هذا الواقع بتناقضاته وسلبياته، وتشابك الدلالات المرعبة، التي يضيفها الشاعر على وجع الذات، ويحتشد المعجم الغروي بمفرداته القائمة: (الجهل، والفقر، والحفض، والإعراض، والنوم، والمكدرات، والسوء، الرحيل). وهي كلمات محفوفة بكل المعاني، ومن هنا استطاع الشاعر صياغة أسئلته الشعرية الضاغطة متجاوزا في ذلك حالة الإحباط، ممّا أسهم في تعرية الواقع، وكشف سلبياته في تلوينات الزمان الذي يلف مصائر الناس.

¹ - تيماس إليوت: الأرض اليباب، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات ونشر، بيروت 1995.

خاتمة:

يعد هذا التأمل المتواضع مساهمة في إثراء التقصي عن شاعر قسنطينة (الوطني الصميم) محمد الصالح خيشاش، وتركيز بعض الأضواء البحثية الكاشفة عن تجربة رائدة معتبرة حفرت بماءها في تحولات المنجز الشعري الجزائري، وترسيخ عوالمه وفق خصوصيات ومدلولات عميقة ولا متناهية.

وهو من القلائل الذين احتضنتهم المدينة وبددت أحلامهم، عاش فيها الجسد المحتقن بمآزقه ولكن الروح المسكونة بالحرية وأيام الصفاء كانت ترفرف في عوالمها وخبابا أنفاسها حية نضرة نابضة بالحياة غير عابثة بالآني والزائف.



من أعلام قسنطينة
في التاريخ

أبن قنفذ القسنطيني ورحلته الزيارية في بلاد المغرب

د. بلقاسم فيلاوي

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

مقدمة: نشأ وترعرع بمدينة قسنطينة في العصر الإسلامي الوسيط كوكبة من أعلام العلماء، الذين جابوا المشرق والمغرب في طلب العلم، وبرزوا في شتى التخصصات العلمية المختلفة، ومن بين هؤلاء الأعلام العلامة الشهير ابن قنفذ القسنطيني [740-809هـ/1340-1406م]، فقد وولد ونشأ وتعلم بمسقط رأسه، ثم ارتحل في طلب العلم إلى تلمسان، وبعد أن حصل ما توفر لديه من شتى أصناف العلوم التي كانت تدرس بقسنطينة والمغرب الأوسط، انفتحت لديه شهية طلب العلم خارج موطنه ومنطقته، فتوجه إلى المغرب الأقصى وحل بمدينة فاس عاصمة الدولة المرينية للأخذ عن علمائها، واستقر بها مدة ثمانية عشر سنة بداية من سنة 759هـ/1357م إلى غاية عودته سنة 776هـ/1374م، ينهل بشغف من شتى المعارف والعلوم العقلية والنقلية التي كانت مزدهرة بمختلف حواضر المغرب الأقصى، وبعد أحداث وظروف حصلت له بهذه المنطقة فرضت عليه العودة إلى موطنه قسنطينة، ولكنه سرعان ما أدرك أن رحلته في طلب العلم لم تكتمل إلا بالتوجه نحو المشرق، لاستكمال مشواره العلمي، ولكنه توقف فجأة بمدينة تونس ولم يتجاوزها، واكتفى بالأخذ عن أشهر علمائها، وزيارة أشهر معالمها العلمية والدينية، ليعود إلى قسنطينة بحراً متفجراً من العلم، وشهاباً واريماً من الدين، تشهد له أعلى الوظائف التي مارسها، وأشهر المؤلفات التي تركها.

المبحث الأول: السيرة الذاتية لشخصية ابن قنفذ القسطيني وطلبه للعلم بالمغرب الأوسط.

المطلب الأول: السيرة الذاتية لشخصية ابن قنفذ¹

الفرع الأول: اسمه ونسبه

هو أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن حسين بن علي بن ميمون شهاب الدين الشهير بابن الخطيب وابن قنفذ²، وسبب شهرته بابن الخطيب لأن جده علي بن قنفذ تولى الخطابة مدة ستين كما صرح به في أنس الفقير أو خمسين سنة كما في الوفيات³، ثم تولاها من بعده ابنه حسن والده⁴، أما شهرته بابن قنفذ- وهي شهرة

¹- راجع ترجمته في: التنبكي كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدياتج، تح: أبو يحيى عبد الله الكندري، دار ابن حزم بيروت، ط1، 1422هـ/2002م، ص53، ونيل الانبهاج بتطريز الدياتج، تح: عبد الحميد عبد الله المرارة، دار الكاتب، طرابلس - ليبيا، ط2، 2000م، ص109، والونشريسي، تح: محمد بن يوسف القاضي، شركة نوايغ الفكر الفاهرة، ط1، 2009م، ص80، والحفناوي أبو القاسم محمد: تعريف الخلف برجال السلف، موفم للنشر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر، 1991م، ص32-38، والزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، أيار/مايو 2002م، ج1، ص117، وعمر رضا كحالة [1332-1408هـ/1905-1987م]: معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج1، ص205-206، وعمار هلال: العلماء الجزائريين في البلدان العربية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين [3-14هـ]، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ص32+15-160، وابن القاضي: جذوة الاقتباس 79، والبغدادي: إيضاح المكنون 1: 133، 189، 262، 310، 706، 713، والكتاني عبد الحي [1382هـ/1962م]: فهرس الفهارس 2: 323، وحاجي خليقة: كشف الظنون 1: 63، والمراكشي: الإعلام بمن حل مراكش 2: 16، والجزاينة التيمورية، 3: 248، وآداب اللغة 3: 209، وللكعبة الأزهري 6: 308، وجواهر الكمال، ج1: ص44 - 46.

²- أحمد بابا التنبكي: نيل الانبهاج بتطريز الدياتج، ص109

³- ابن قنفذ أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب [740-810هـ/1340-1404م]: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح: محمد الشاذلي النفير، وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968م، ص40

⁴- ابن قنفذ: شرف الطالب في أمسى المطالب، تح: عبد العزيز صغير، مكتبة الرشيد، الرياض، ط1،

1424هـ/2003م، ص18

عائلته - فقديمة¹، تعود إلى جده الخامس علي بن حسن بن ميمون بن قنفذ²، وبني قنفذ بطن من قبيلة أشجع العدنانية وهم بنو قنفذ بن سبيع بن أشجع³، وقنفذ اسم جد له لقب بهذا اللقب⁴ فاشتهرت به ذريته.

الفرع الثاني: مولده ونشأته

وولد ابن قنفذ بمدينة قسنطينة⁵ سنة 740هـ/1340م⁶، وتعلم بها⁷، ونشأ في عائلة امتازت بوراثته العلم والمناصب العليا والصلاح⁸ في قسنطينة، وينطبق ذلك على أسرته من جهة أمه وأبيه على حد سواء، عائلته القنفذية التي يتصل بها من جهة أبيه أو المدلارية التي يتصل بها من جهة أمه⁹.

¹ - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر - من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية لتأليف والترجمة والنشر، بيروت 2، 1400هـ/1980م (ص: 268)

² - ابن قنفذ: شرف الطالب في أسنى المطالب، ص 18

³ - وقبيلة أشجع أسلموا قديما، ذكر الواقدي: أنهم قدموا عام الخندق وهم مائة رجل ورئيسهم مسعود بن ربيعة بن عابد بن مالك بن حبيب بن نبيح بن ثعلبة بن قنفذ بن حلاوة بن سبيع بن بكر بن أشجع الأشجعي، فنزلوا شعب سلع فخرج إليهم رسول الله وأمرهم بأحمال التيم، ويقال بأنهم قدموا بعد ما فرغ من بني قريظة وكانوا سبع مائة رجل فوادعهم ورجعوا ثم أسلموا بعد ذلك، ابن كثير: البداية والنهاية (ج 5/ 106)، وابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص 39

⁴ - ابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص 39.

⁵ - قسنطينة مدينة عامرة، على قطعة جبل منقطع مربع فيه بعض استدارة، لا يتوصل إليه من مكان إلا من جهة باب في غربيها، أنظر: مجهول: الإستبصار في عجائب الأمصار، ص 165، وابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص 84، ومحمود بن سعيد: نزعة الأنظار، ج 1، ص 21، والإدريسي: أنس المهج وروض البحر - قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان -، ص 190، 198+203

⁶ - الزركلي: الأعلام، ج 1، ص 117 .

⁷ - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر (ص: 268)

⁸ - ابن قنفذ: أنس الفقير وعز الخفير، تح: مجاح عوض صيام، دار المقطم، القاهرة، ط 1، 2002م، ص 10

⁹ - ابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص 39

عاش ابن قنفذ وحيد أبيه وأمه من الذكور، وولد له بعد سن متأخرة حيث بلغ سنه ولادته السادس والأربعين من عمره¹، وعاش إلى جانب أخواته من البنات المتعمسات²، في كفالة والديه الذين كانا على وفاق تام وعشرة حسنة لمدة سبعين سنة³.

وكان سبب نجاح زواج أبيه من أمه، أن أباه اختار أمه من أسرة ذات حسب ونسب ودين وصلاح، فقد اختار مصاهرة شيخه جد ابن قنفذ لأمه أبي يعقوب يوسف بن يعقوب الملازي [680-764هـ / 1282-1326م]، قال فيه: ومن تلاميذه أيضا والدي الخطيب الحسن بن الخطيب علي بن قنفذ صافحه وعاهده وسنط طريقه وصاهره وقصد الله تعالى من مصاهرته واعتضد بقربه ومواصلته⁴.

الفرع الثالث: أسرته

أ- أسرته لأبيه: أول من يذكر في أسرة ابن قنفذ هو والده حسن بن علي بن قنفذ [694-750هـ / 1294-1349م]⁵ كان من العلماء الأعيان بقسنطينة، تعلم في بجاية⁶ وقسنطينة، وأخذ العلم والتصوف وطريقة أبي مدين عن صهره أبي يعقوب

¹ - المصدر نفسه، ص 53

² - المصدر نفسه، ص 43

³ - المصدر نفسه، ص 51

⁴ - المصدر نفسه، ص 42

⁵ - ابن قنفذ حسن بن علي [694-750هـ / 1294-1349م]، أنظر ترجمته في: ابن قنفذ أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب [740-810هـ / 1340-1404م]: كتاب الوفيات، تح: عادل نويهيض، دار الإقامة الجديدة بيروت، 1978م، ص 355-356، وعمار هلال: العنماء الجزائريين في البلدان العربية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين [3-14هـ]، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ص 358

⁶ - بجاية من بناء ملوك صنهاجة، مدينة على البحر، فوق جرف بحر، ومجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 128، والبكري: كتاب المغرب المأخوذ عن المسالك والممالك، ط الجزائر، 1234هـ / 1857م، ص 82، وأبو القدا عماد الدين إسماعيل: تقويم البلدان، ط بغداد 1256هـ / 1840م، ص 136، وياتوب الحموي: معجم البلدان، ط بيروت 1375هـ / 1955، ج 1، ص 339، والإدريسي: وصف إفريقيا الشمالية مأخوذ من نزهة المشتاق، ط الجزائر 1377م / 1957م، ص 63، وأنس المنهج وروض الفرج - قسم شمال إفريقيا

يوسف بن يعقوب الملازي [680-684/764-1282-1326م]: صافحه وعاهده وسلك طريقه... واعتضد بقره ومواصلته¹، ورحل في طلب العلم إلى المشرق وحج مرتين، وكانت رحلته الثانية قبل سنة 1344م²، وأخذ عن الشيخ أبي علي ناصر الدين البجائي وابن غريون وأبي حيان النحوي وشمس الدين الأصبهاني وأبي علي بن حسين البجائي³، وصار من كبار علماء المالكية وتولى منصب الخطابة بمسجد قسنطينة، وكانت الخطابة في تلك الأيام منصباً رفيعاً عند الدولة وعند العامة⁴، وترك مؤلفات منها المسنون في أحكام الطاعون الذي توفي فيه سنة 750/1349م، والمسائل المستترفة في النوازل الفقهية⁵، وكان على جانب كبير من العلم والأدب والتصوف⁶.

كان والده على اتصال ووافق تام مع صهره فكان يستعين بعارية كتبه في تدريسه للعلم، ويقاسمه فيما يترتب له على ذلك من حصول الثواب ونفي الأثم، وكانا مسرورين معا بمواصلتهما، وقليل أن تقع مساهرة في الصفاء كمصاهرتهما⁷، وفي نفس الوقت كان على علاقة طيبة مع أمراء الخفصيين بقسنطينة، ولذلك قبلوا خطابته، فكان من خطباء قسنطينة، وكان من الأثرياء بما حيث تكفل براتب شيخه

وبلاد السودان-، ص198، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى العبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر بيروت، 1399هـ/1989م، ج6، ص174-175، ومبارك الميلي: تاريخ الجزائر، في القدم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، ط2، ج2، ص225، ودائرة المعارف، ج3، ص350-353، ومحمود بن سعيد: نزهة الأنظار، ج1، ص25.

¹ - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص86-87، والفارسية في مبادئ الدولة الخفصية، ص42

² - ابن قنفذ: شرف الطالب، ص19

³ - ابن قنفذ: الوفيات ص355-356، وأنس الفقير، ص86-87، وعمار هلال: العلماء الجزائريين في

البلدان العربية الإسلامية ص358

⁴ - ابن قنفذ: شرف الطالب، ص19

⁵ - ابن قنفذ: الفارسية، ص42-45

⁶ - ابن قنفذ: المصدر السابق، ص19

⁷ - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص87

أبي علي بن حسن البجائي حين قطعت السلطة الحفصية راتبه¹، لكنه توفي عام 750هـ/1349م وتركه في العاشرة من عمره. أما الشخصية الثانية في أسرته فتتعلق بجده لأبيه علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ [644-733هـ/1246-1332م] خطب بجامعة قسنطينة نحوًا من خمسين سنة وتقلد خطة القضاء بها مدة². أما الشخصية الثالثة في أسرته فتتعلق بجده الثاني لأبيه حسن بن علي [664هـ/1265م]، وكان خطيبًا بقسنطينة أيضًا، واختص برواية الحديث، وذكر له سند إلى أبي الوليد الباجي، واقتصر على الدراسة بقسنطينة³ ولم يذكر له رحلة في طلب العلم. ولعل وجود عائلة ابن قنفذ بمركز حساس مثل قسنطينة جعل من أمراء الحفصيين ينظرون إليهم نظرة خاصة، لأنهم بمنطقة الانطلاق، فالعائلة تحتل مركزًا حساسًا أيضًا وهو توليهم لمنصب الخطابة بالقصبة⁴.

ب. أسرته لأمه:

حاز ابن قنفذ على مرتبة الشرف في جهة نسبه من أمه أيضًا فجده لأمه يوسف بن يعقوب بن عمران الملاوي البويوسفي [680-764هـ/1281-1363م]⁵، تخرّج بمدرسة أبي مدين، وكان سلوكه في التصوّف على يد والده، وبينه وبين الشيخ أبي مدين في لبس الخرقه وغيرها رجلان، كانت له زاوية بملاّرة⁶ على مرحلتين إلى الغرب

¹ المصدر نفسه، ص 87، والفارسية، ص 47

² ابن قنفذ أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب: الوفيات، تح: عادل نويهض، دار الإقامة الجديدة بيروت، 1978م، (ص: 345-346)

³ ابن قنفذ: الفارسية، ص 48

⁴ المصدر نفسه، ص 48

⁵ ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 83، وعادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص 314

⁶ - ملاّرة على مرحلتين إلى الغرب من قسنطينة، بما زاوية البيوسفيين، تقع بمشقة تسدان شمال غرب فرجوية، وتبعد عن ولاية مينة 12 كم، وهي خراب الآن، ابن قنفذ: الفارسية، ص 50

من قسنطينة دفن بها¹، وهو وارث الطريقة المالارية عن أبيه يعقوب بن عمران البويوسفي [630-717هـ/1232-1317م]، الذي أقام زاويته البويوسفية في تليك من قسنطينة على مرحلتين²، وهذا الأخير هو الذي تكفل به، وأخذ عنه سند الطريقة التي تنتهي إلى علي بن أبي طالب، وقال: هكذا سمعت هذا السند من جدي للأم يوسف بن يعقوب البويوسفي³.

ويكفيه فخرا أنه تعلم على يديه، وقد أثنى عليه كثيرا وأعاد ذكره وتمجيده أكثر من مرة في مؤلفاته، وأعجب بمحافظته على أداء الفرائض في المسجد فقال: وأقام نحوًا من خمسين سنة لا يطلع الفجر إلا في المسجد، ولا يسكت عن الذكر جهرا بعد صلاة الصبح إلا بعد أن تطلع الشمس، وكان يلزم للمسجد أبدا إلا في الضروريات البدنية⁴، كما أكد كثيرا على تدين جده وحرص كثيرا على تأكيد نسبه طريقه الصوفي إلى أبي مدين⁵، وهو وارث الطريقة المالارية⁶، وألبسه خرقة التصوف سنة 757هـ/1355م⁷ وأخذ عنه علم التصوف⁸، وكان فقيه من كبار الصوفية. وكانت له مكانة مرموقة عند بني حفص أصحاب إفريقية⁹، قال في ذلك ووضع الله له القبول عند الأمراء الراشدين-رضي الله عنهم وأعانهم على ما يرضاه منهم-، وعند ولائهم في قضاء الحاجات وقبول الشناعات، وكف المدعي عليهم بالجنايات، فكان يدخل بذلك على المكرويين

¹ - ابن قنفذ: الوفيات، ص 362.

² - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 93، 96.

³ - المصدر نفسه، ص 82.

⁴ - المصدر نفسه، ص 83.

⁵ - ابن قنفذ: الوفيات، ص 362.

⁶ - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 93، 96.

⁷ - ابن قنفذ: شرف الطالب، ص 21.

⁸ - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 79.

⁹ - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر (ص: 314).

المسرات¹، وكان مكلفاً بأصعب المهمات في ذلك الوقت وهي السفارة، كنفه بما
السلطان الحفصي أبي يحيى أبي بكر [718-747هـ/1317-1346م]²، وكان يحظى
بالتكريم من العلماء والصلحاء والسلاطين، وكان له تلاميذ منهم والده الذي اختار
مصاهرته، وكان مع كل ذلك صاحب جاه وثروة طائلة، فزق في مرضه على المحتاجين
من أقاربه ومعارفه ألف دينار دراهم جديدة، وثلاثمائة دينار ذهباً، جعل ذلك كنه
أكداً تحت فراشه، ولا يخرج الزائر المحتاج حتى يناوله بقدر حاله، وقسم سائر كسبه على
ورثته وليس ذلك في مرض موته³. في ظل هذه المكانة المرموقة لأسرة ابن قنفذ وولد
ونشأ وكان الوارث لمنصب جده ووالده في الخطابة بجامع قسنطينة، كما تولى منصب
القضاء بدكالة سنة 1367هـ/1769م⁴ وقسنطينة⁵.

الفرع الرابع: وفاته

بعد عمر مديد ونشاط علمي مديد وعطاء سديد، توفي العلامة ابن قنفذ
القسنطيني سنة (810هـ/1407م)، عن عمر ناهز السبعين سنة، كما ذكرت معظم
المصادر، كابن القاضي في الجدوة، والتبكي في النيل الذي نقله عن وفيات
الونشريسي، وعنه نقل الحفناوي في تعريف الخلف، والزركلي في الأعلام، بينما انفرد
الزركشي بذكر وفاته سنة 809هـ/1406م وحدد اليوم 12 من شهر ربيع الأول، وربما
يكون ما ذكره هو الأصح لضبطه التاريخ بدقة⁶. وبارك الله في عمره بما ترك لنا إرثاً

¹ - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 83

² - ابن قنفذ: الفارسية، ص 52

³ - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 85

⁴ - ابن قنفذ: شرف الطالب، ص 23، ومبارك بن محمد الميلي الجزائري (1364هـ/1945م): تاريخ الجزائر
في القلم والحديث، تقدم: محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، 1406هـ - 1986م،
(ج 2/493)

⁵ - الزركلي: الأعلام (ج 1/117)، وابن قنفذ: شرف الطالب، ص 25.

⁶ - ابن قنفذ: الفارسية، ص 63-64

علميا وثقافيا بل قل إن شئت كنزا معرفيًا وفيرًا، فيه فوائد جمة لمن يريد أن يقرأ عن مختلف التخصصات التي كتب فيها ابن قنفذ¹.

المطلب الثاني: طلبه للعلم في المغرب الأوسط:

الفرع الأول: تعليمه الأولي وشيوخه بقسنطينة

بدأ ابن قنفذ تعليمه الأولي على يد والده حسن بن علي بن قنفذ [694-750/د1294-1349م]²، وهو فقيه مالكي وأديب مرموق، تعلّم في بجاية وقسنطينة، ورحل إلى المشرق وأخذ عن علمائه، وكان من خطباء قسنطينة، وألف المسائل المسطّرة في التوازل الفقهية، والمسنون في أحكام الطّاعون³، لكنّه توفي عام 750/د1349م وتركه في العاشرة من عمره، وتعلم هو وأخواته عند شيخ العائلة أبو عبد الله الصفار [749/د1348م]⁴، قال ابن قنفذ: واختصه والذي رحمه الله - لبناته يعلمهن القرآن، ولم تفارقه إحداهن حتى نحتمت وكررت ثلاث مرات، وقرأت عليه الرسالة⁵، قال: أدركته صغيرا وتبركت به⁶، ثم توجه للتعلّم على يد جدّه لأمه يوسف بن يعقوب بن عمران المالري البويوسفي [680-764/د1281-1363م]⁷، الذي أخذ طريقة التصوّف عن والده، وبينه وبين الشّيخ أبي مدين في لبس الخرقه وغيرها رجلان، كانت له زاوية بملاّرة على مرحلتين إلى الغرب من قسنطينة دفن بها⁸، ووارث

¹- الحفناوي: تعريف الخلف، ج1، ص34.

²- ابن قنفذ: كتاب الوفيات، تح: عادل نويهض، دار الإقامة الجديدة بيروت، 1978، ص355-356،

رأس الغفير وعز الحقير، ص87، وعمار هلال: العلماء الجزائريين في البلدان العربية الإسلامية، ص358

³- ابن قنفذ: الوفيات، ص355.

⁴- المصدر نفسه، (ص: 356)

⁵- ابن قنفذ: أنس الغفير، ص85

⁶- المصدر نفسه، ص85

⁷- المصدر نفسه، ص83، وعادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص314

⁸- ابن قنفذ: الوفيات، ص362.

الطريقة المالرية عن أبيه يعقوب بن عمران البويوسفي [630-717هـ/1232-1317م]¹، وهذا الأخير هو الذي تكفل به، وأخذ عنه سند الطريقة التي تنتهي إلى علي بن أبي طالب، وقال: هكذا سمعت هذا السند من جدي للأم يوسف بن يعقوب البويوسفي²، وأخذ عنه علم التصوف³، وألبسه خرقة التصوف ثم أخذ عن جماعة من المشايخ، منهم حسن بن خلف الله بن حسن بن علي بن أبي القاسم بن باديس [707-784هـ/1307-1382م] أدرك في حديثه من المعارف العلمية مسام يذكره غيره في سنة⁴، روى عن ناصر الدين المشدالي [631-731هـ/1233-1331م]⁵

¹ - ابن قفلة: أنس الفقير، ص 93، 96

² - ابن قفلة: أنس الفقير، ص 82

³ - المصدر نفسه، ص 79

⁴ - ابن قفلة: انقارسية، ص 54، وأحمد بابا التنبكي: نيل الإبتهاج، ص 160

⁵ - أبو علي ناصر الدين منصور بن أحمد بن عبد الحق الزواوي المشدالي [631-731هـ/1233-1331م] أنظر: الغرني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بيحاية، المطبعة التعاليمية بمدينة الجزائر، 1322هـ/1910م، ص 200-201، محمد بن محمد العبدري البلسي: الرحلة المغربية، تج: أحمد بن حادو، مطبعة البعث قسنطينة، ص 11، وابن الطوايح: سبك المقال الفك العقال، تج: محمد مسعود حيران، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 1، 1995م، ص 198، وعبد القادر العافية: رحلة الحج ولقاء شيوخ التحيي نموذجاً، دار ابن حزم، الدار البيضاء، 1427هـ/2006م، ص 239+267+270، وأبو عبد الله محمد بن عزروق التلمساني: المناقب المرزوقية، تج: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المسلكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط 1، 1429هـ/2008م، ص 289، وابن قفلة: أنس الفقير، ص 95، وابن الخطيب لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني [713-776هـ/1313-1374م]: الإحاطة في أخبار غرناطة، تج: يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية بيروت، ط 1، 1424هـ/2003م، ج 2، ص 315+3، ص 249، وابن خلدون: مقدمة ابن خلدون المطبعة البهية بمصر، ص 545، وأحمد بابا التنبكي: نيل الإبتهاج، ج 2، ص 306-308، رقم: 753، وكفاية المحتاج، ص 485-487، رقم: 653، والفراي بدر الدين محمد بن يحيى بن عمر [1008هـ/1599م]: توشيح الدياتج وحلية الإبتهاج، تج: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1، 1425هـ/2004م، ص 245، رقم: 271، ونفري شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (992-1041هـ/1584-1631م): أزهار الرياض في أخبار عباد، تج: عبد السلام الحراس، صندوق إحياء التراث الإسلامي، المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة

وابن غريون البجائي [731هـ/1330م] عالم بجاية ومفتيها¹، وابن عبد السلام [676-749هـ/1277-1348م]²، وابن جابر الوادي آشي شمس الدين محمد بن جابر القيسي [673-749هـ/1274-1348م]³، وابن عبد الرزاق الجزولي أبو عبد الله محمد بن علي [785هـ/1356م]، ومن المشاركة أبو حيان محمد بن يوسف بن علي النفزي الجلياني [654-745هـ/1256-1344م]⁴، وشمس الدين الأصفهاني محمود بن أبي القاسم عبد الرحمان [674-749هـ/1275-1348م] شارح المختصر الحاجي الأصولي⁵، ولقي

1400هـ/1980م، ج5، ص30، ومحمد بن محمد مخلوف [1360هـ/1941م]: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر بيروت، ط11، بلا: تا، ص217-218 رقم 764، واخضراوي أبو القاسم محمد: تعريف الخلف برجال السلف، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر، 1991م، ج2، ص445-446، وعادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص302-303.

¹ - أبو عبد الله محمد بن محمد بن غريون البجائي [731هـ/1330م] الفقيه خطيب قصبة بجاية، المتمتع بالرواية السالك مسلك الدراية، من كبار المقرئين، أخذ عنه جماعة من علماء تونس والجزائر، انظر: ابن قنفذ: الوفيات، (ص:345)، والحنفاوي: تعريف الخلف، ص32، وعادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، (ص:251).
² - ابن قنفذ: الفارسية، ص31

³ - ابن جابر الوادي آشي شمس الدين محمد بن جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم القيسي [673-749هـ/1274-1348م] أصله من وادي آش وولد في تونس واستقر بها وتوفى في الطاعون صاحب الرحلتين، قرأ بفاس وبجاية ثم رحل إلى المشرق مصر والنجاز مرتين وجاور بالحرمين، أنظر: الصفدي صلاح الدين خليل بن أليك [764هـ/1362م]: كتاب الوافي بالوفيات، تج: أحمد الأرتاوط، دار إحياء التراث العربي بيروت، 1420هـ/2000م، ج2، ص209، وابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تج: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية النشر صيدر آباد الهند، 1392هـ/1972م، ج3، ص413، ولسان الدين بن الخطيب: الإحاطة، ج3، ص124-126، وابن فرحون: الدنياج للذهب، ج2، ص236-237، وابن القاضي المكتاسي: درة الخصال، ص120، والمقري: نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تج: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1388هـ/1968م، ج5، ص200، ومحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: تذكرة الحفاظ وذبوله، تج: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت، 1419هـ/1998م، ج5، ص150، ومحمد بن محمد مخلوف: شجرة النور، ص210، وأثر كني: الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، أيار/مايو 2002م، ج6، ص68.

⁴ - ابن قنفذ: الفارسية، ص43

⁵ - المصدر نفسه، ص43

جماعة كثيرة من الأولياء، وصفه ابن قنفذ بقوله: القاضي العدل الخطيب الحاج، وتوفي وهو قاض بقسنطينة¹، وأخذ عنه ابن قنفذ الحديث²، وسند طريقة أبي مدين الصوفية³. ومن شيوخه من نفس العائلة أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس [701-787هـ/1301-1385م]، روى عن ناصر الدين المشذلي [631-731هـ/1239-1332م]، وابن غريون البحائي [731هـ/1330م]، وابن عبد الرقيع أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن عبد الرقيع الربعي التونسي [733هـ/1332م] قاضي الجماعة بتونس⁴ وغيرهم، ورحل إلى المشرق فأخذ عن صلاح الدين العلائي أبو سعيد خليل بن كيكلي الشافعي المقدسي [694-761هـ] عالم بيت المقدس⁵ و خليل المكي [694-777هـ/1294-1375م]⁶ وابن هشام النحوي [708-761هـ/1308-1359م] صاحب المغني⁷، وقال: ختمت عليه ألفية ابن مالك ألف مرة على ما

¹ - ابن قنفذ: الوفيات (ص: 376)

² - المصدر نفسه (ص: 376)

³ - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 137

⁴ - ابن عبد الرقيع أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن عبد الرقيع الربعي التونسي [733هـ/1332م]، صاحب معين الحكام وسنه يقرب من مائة سنة، ابن قنفذ: الوفيات، (ص: 345)

⁵ - صلاح الدين العلائي أبو سعيد خليل بن كيكلي الشافعي المقدسي [694-761هـ]، كان إماماً في الفقه والأصول والنحو مفتناً في علوم الحديث وفنونه علامة فيه عارفاً بالرجال علامة في المتون والأسانيد ولم يخلف بعده مثله، أنظر: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: تذكرة الحفاظ، تح: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط1، 1419هـ/1998م، (ج 5/ 56)

⁶ - ابن خليل المكي عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن خليل بن إبراهيم الشافعي العسقلاني المكي [694-777هـ/1294-1375م]، أنظر: ابن تقي بري: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (ج 2/ 84)

⁷ - ابن هشام النحوي شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن بن هشام الأنصاري القاهري النحوي الشهير بابن هشام صاحب مغني اللبيب وغيره [708-761هـ/1308-1359م]، أنظر: أحمد رافع الحسيني القاسمي الطهطاوي الحنفي: التبيين والإيقاظ لما في ذبول تذكرة الحفاظ (ص: 136)، وابن تقي بري أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تقي بري بن عبد الله الظاهري الحنفي (ت: 874هـ): المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ج 7/ 131)

أخبره. له تلاميذ منها شرحه مختصر السير لابن فارس، وأدرك في حداثة سنه من المعارف العلية ما لم يدركه غيره في كبر سنه ولغلبة الانقباض عليه قل النفع به لمن أدرك حياته¹.

الفرع الثاني: شيوخه بتلمسان2

من شيوخه بتلمسان ابن مرزوق الخطيب أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد بن مرزوق التلمساني الشهير بالخطيب والحدّ والرئيس (710-781/1311-1380م)³، رحل إلى المشرق سنة 718هـ/1318م مع والده، وأقام بمصر مدة وعاد إلى تلمسان سنة 733هـ/1332م، فولي أعمالاً علمية وسياسية، وتقدم عند ملوك المغرب، وسجنه بعضهم، له كتب منها: "شرح عمدة الأحكام" في الحديث، و"شرح الشفاء" لم يكمله، و"شرح لأحكام الصغرى"، و"إيضاح المرشد فيما تشتمل عليه الخلافة من الحكم والفوائد"، و"الإمامة"، و"المفاتيح للرزوقية" في شرح الخرزجية، و"عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات التقليد"، و"المسند الصحيح الحسن من أخبار السلطان أبي الحسن"، من أكابر علماء المالكية⁴، حضر ابن قنفذ مجالسه العديدة وسمع منه صحيح البخاري وغيره¹.

¹- ابن قنفذ: الوفيات (ص: 376-377)

²- تلمسان: مدينة قديمة، في سفح جبل، له سور حصين متقن الوثاق، مجهول: الإستبصار في عجائب لأمصار، ص177: ابن فضل الله العمري: مسالك الأبيصار، ص134، الإدريسي: أنس المهج وروض الفرج- قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان-، ص189، الغربي، المطبعة التعاليمية بمدينة الجزائر، ط1، 1322هـ/1910م، ص60، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص51+ والفصاحي: تمهيد الطالب، 10، 95، وابن القاضي المكاسي [960-1025هـ]: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار لمنصور الرباط، 1973م، ج1، ص40، ومحمود ابن سعيد: نزهة الأنظار، ج1، ص18-19، وأمروسيو

هويشي ميواندا: تاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، تر: عبد الواحد أكمر، ط1، 2004م، ص126

³- ابن مرزوق الخطيب شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد العجسي (710-781/1311-1380م): فقيه وجه خطيب، من أعيان تلمسان، أتى عليه ابن خلدون، وأسهب المقرئ في ترجمته، الزركلي:

الأعلام، (ج5، 328)، معجم المؤلفين [ج2/156-157]، وحاجي خليفة: كشف الظنون 1055

⁴- الزركلي: الأعلام، (ج5/328).

المبحث الثاني: رحلته في طلب العلم إلى المغرب الأقصى وتونس:

المطلب الأول: رحلته إلى المغرب الأقصى

بعدما تشبّع ابن قنفذ من معارف أهل قسنطينة واستوفى كل علوم شيوخه تطوع للمزيد، فكان عليه بالرحلة في سبيل ذلك فانطلق إلى المغرب الأقصى سنة 759هـ/1357م، حيث توجه إلى مدينة فاس² للأخذ عن علمائها، ثمانية عشر سنة إلى غاية عودته سنة 776هـ/1374م، وتعتبر هذه المرحلة أخصب مرحلة في حياته وتكوينه العلمي، لأنّ المغرب كان يعجّ بالعلماء الذين سكنوه أو وفدوا عليه من الأندلس وغيرها³، ولذلك استغرقت رحلته مدة طويلة حصل خلالها علومًا جمة، كما راح يزور الأضرحة والمقابر ويقوم بها مختلف الشعائر، ويوزر الأولياء والصالحين ويتبرك بهم ويلازمهم.

الفرع الأول: رحلته في طلب العلم إلى فاس وشيوخه بها

توجه ابن قنفذ إلى فاس وهي عاصمة بني مرين أهم حواضر بلاد المغرب. استقطبت العلماء من مختلف أنحاء المغرب والأندلس، فقصدها وأقبل يتتلمذ على علمائها وينهل من علومهم ويحرص على ملازمتهم⁴، فاستقر بها للأخذ عن علمائها، ومن شيوخه بمدينة فاس:

¹ - ابن قنفذ: الفارسية، ص 57

² - فاس: مدينة محدثة، تقع على مقربة من وادي سبو شمال الأطلس المتوسط، أنظر: الحسوي: معجم البلدان، ج 4، ص 230، ومجهول: الإستبصار في عتائب الأمصار، ص 180-186، وأحمد بن يحيى بن فضل الله العمري: مسالك الأبيصار في ممالك الأمصار، ص 116، ابن القاضي المنكاسي: جذوة الاقتباس، ج 1، ص 5؛ والكتاني أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس [1274-1345هـ/1858-1927م]: سيرة الأتقياء ومحادثة الأكياس من أقر من العلماء والصلحاء بفاس، تح: عبد الله الكامل الكتاني وآخرين، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، 2004هـ، ج 3، ص 272، ومحمود بن سعيد: نزهة الأنظار، ج 1، ص 17، 18

³ - ابن قنفذ: شرف الطالب، ص 23.

⁴ - المصدر نفسه، ص 23.

1. أبو الخجاج يوسف بن عمر [761/1359م]، إمام جامع القرويين بفاس، له أورد مقدره ومحاسن لقراءة العلم والتصوف، وبلغ سنه المائة عند وفاته، وحمل ولم يبلغ من قبره من كثرة الزحام إلا بعد غروب الشمس¹.

2. أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسيني السبتي [697-1297/761-1359م] قال فيه: وكتب لي بالإجازة العامة بعد التمتع بمجلسه وله شعر مدون سماه جهدا المقل وله شرح الخزرجية في العروض وقدم عليها بعد أن عجز الناس عن فكها، وكان إماما في الحديث والفقه والنحو، وهو على الجملة ممن يحصل الفخر بلقائه ولم يكن تُحد بعده مثله بالأندلس²، وحضر مجلسه بين سنة [759-1357/761-1359م]³.

3. الشريف التلمساني أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي الإدريسي الحسيني [710-1370/771-1370م]⁴، الإمام الشهير من أشهر أعلام المالكية في المغرب، نشأ بتلمسان، ورحل إلى تونس عام 740/1339م، وفاس مع السلطان أبي عنان سنة 753/1352م⁵، ثم نكبه واعتقله شهرا وأطلقه (سنة 756/1355م) وأقصاه، ثم أعاده وقربه (سنة 759/1358م)، واستطاع السلطان أبو حمو استرجاع تلمسان سنة

¹ - ابن تقي: أنس الفقير، ص116

² - ابن تقي: الوفيات (ص: 362)

³ - ابن تقي: الفارسية، ص61

⁴ - الشريف التلمساني أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي الإدريسي الحسيني (710-1370/771-1370م): من أعلام المالكية انتهت إليه إمامتهم بالمغرب، وكان لسان الدين ابن الخطيب كلما ألف كتابا بعثه إليه وعرضه عليه، أنظر: محمود مقديش السفاقي: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح: علي الزواربي، ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م، (ج1/ 585)، وخير الدين الزركلي: الأعلام، (5/ 327)

⁵ - لما تقلد العرش أبا عنان فارس سنة 752/1351م، اعتمز توحيد كامل بلاد المغرب، فانطلقت الحملة العسكرية من فاس في فاتح سنة 753/1352م.

(760/1359م)¹ دعاه إلى تلمسان لما استولى عليها أبو حمو موسى بن يوسف الزياتي فذهب إليها، وزوجه ابنته، وبنى له مدرسة أقام يدرّس واستقرّ فيها²، وهو مؤلف مفتاح الوصول إلى بناء الفروع والأصول، وشرح الجمل الخونجي، ودفن المدرسة اليعقوبية من تلمسان³.

4. أبو زيد عبد الرحمان اللجائي [1372/773م]، اخصّص في الهندسة والطب والحساب⁴، قال: وكان يشدد عليّ درس الفقه والأخذ بطريقته... وكان اللجائي آية في فنونه، ومن بعض أعماله أنه اخترع اسطرلابا ملصوقا في حدار، والماء يدير شبكته على الصحيفة، فبأتي الناظر فينظر إلى ارتفاع الشمس وكم هو وكم مضى من النهار، وكذلك ينظر ارتفاع الكوكب بالليل، وهو من الأعمال الغريبة، وقد وقفت عليه زمان قراءتي بين يديه⁵، أخذ عنه الفقه⁶ وعلم الفلك.

5. أبو عمران الفاسي موسى بن محمد بن معطي العبدوسي [1374/776م]، عالم فاس ومفتيها، كان آية في المدونة أقرأها أربعين سنة، وحضر مجلسه رفقة الشيخ أبو عبد الله الرندي محمد بن إبراهيم بن عباد [792هـ]⁷، وقال: وكان مجلسه أعظم المجالس بفاس، يحضره الفقهاء والصلحاء والمدرسون، وحفاظ المدونة، وتحضر من

¹ - ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تح: محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية - بيروت، 1406هـ/1986م، ط2، (ج1/158)

² - ابن قنفذ: الوفيات، ص 368.

³ - أحمد بن محمد المقرئ التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1388هـ، (5/272)

⁴ - ابن قنفذ: الفارسية، ص 58

⁵ - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 110-111

⁶ - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 110

⁷ - المصدر نفسه، ص 123

مسحها بيد الطلبة ما يقرب من الأربعين، وكان له إذلال عجيب في إقراء التهذيب، سمعته يقول: لي أربعون سنة تقرئ المدونة¹، لازمه مدة ثمان سنين².

6. لسان الدين بن الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الغرناطي [713-776هـ / 1313-1374م]³، نشأ بغرناطة واستوزره سلطانها أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (سنة 733هـ / 1333م) ثم ابنه (الغني بالله) محمد من بعده، وعظمت مكانته وشعر بسعي حاسديه في الوشاية به، فكاتب السلطان عبد العزيز بن علي المنيخي برغبته في الرحلة إليه، وترك الأندلس خلسة إلى جبل طارق ثم ستة فتلمسان (سنة 773هـ / 1371م) وكان بها السلطان عبد العزيز فبالغ في إكرامه، وأرسل سفيراً من لدنه إلى غرناطة بطلب أهله وولده، فجازوه مكرمين، واستقر بفاس القديمة، واشترى ضياعاً وحفظت عليه رسومه السلطانية، وزير مؤرخ أديب نبيل، كان أديبا كبيرا وعلما متبحرا، وقتل بفاس بعد اتهامه بالزندقة⁴، ومؤلفاته تقع في نحو ستين كتاباً، منها (الإحاطة في تاريخ غرناطة)، و(الإعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام) في مجلدين، و(اللمحة البدرية في الدولة النصرية)⁵، قال سمعت جملة من تواليفه بقراءته هو في مجالس مختلفة⁶، لكنه لم يحدد متى كان الأخذ عنه في قدونه

¹ - المصدر نفسه، ص 62

² - ابن قنفذ: الفارسية، ص 59

³ - لسان الدين بن الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل الغرناطي الأندلسي [713-776هـ / 1313 - 1374م]، وزير مؤرخ أديب نبيل، أنظر: تراجم شعراء الموسوعة الشعرية (ص: 1928)، ولسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، ص 71.

⁴ - ابن قنفذ: الوفيات، ص 371.

⁵ - تراجم شعراء الموسوعة الشعرية (ص: 1928)

⁶ - ابن قنفذ: الوفيات (ص: 371)

الأول بين [761-763هـ/1359-1361م]، أو في قدومه الثاني بين [772-775هـ/1370-1373م]، لأن مقتله كان سنة 776هـ/1374م¹.

7. أبو العباس القباب أحمد بن أبي قاسم بن عبد الرحمن [779هـ/1377م]، فقيه وقاض من أئمة الحقاظ من أهل فاس³، نبيه ومدرك وحيد النظر كما قال لسداد الدين الخطيب [713-776هـ/1313-1374م]، طالب، فقيه، نبيه، مدرك، جيد النظر، سديد الفهم، حضر الدرس بين يدي السلطان، وولي القضاء بحبل الفتوح⁴، وكان أبو علي الفاسي عمر بن محمد الرجرجاني [810هـ/1407م]: يحضر مجلسه في الحديث والفقه وأصول الدين⁵، وحضر دروسه في فاس في الحديث والفقه والأصولين⁶.

8. الوانغلي الضير أبو محمد عبد الله [779هـ/1377م]، الفقيه العالم الصالح متي فاس وكان يحضر مجلسه رفقة أبو علي الفاسي عمر بن محمد الرجرجاني [810هـ/1407م]: وهو قارئ مجلسه، قال فيه ابن قنفذ: وقد انفرد بفهم كتاب ابن الحاجب في القروع والأصول: وعليه ختمت الأصولين بفاس بمدرسة الوادي⁷، وأخذ عنه المختصر والمدونة⁸.

9. أبو عبد الله محمد بن حياقي [781هـ/1379م] أخذ عنه بمدينة فاس، كان له تحقيق في النحو والقراءات، قال عنه: وطلب منه بعض الناس أن يقرأ عليه الجزولية في النحو

¹ - ابن قنفذ: الفارسية، ص 61-62

² - انظر ترجمته في: أحمد بابا التبكي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: 303)، ومحمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية، (ج 1/ 360)، والونشريسي: وفيات الونشريسي، ص 137، ولفظ الفرائد، ص 235. وابن القاضي: حلوة الاقتباس ج 2/ 495، ودرة المحال، ج 3/ 202، وفهرست ابن غازي ص 71.

³ - ابن قنفذ: الوفيات، ص 372، والفارسية، ص 59

⁴ - لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، (ج 1/ 24)

⁵ - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 120-121

⁶ - ابن قنفذ: الفارسية، ص 59

⁷ - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 121، والفارسية، ص 59

⁸ - ابن قنفذ: الفارسية، ص 59

فأخذها الأستاذ في يده وقصد شيخنا ومفيدنا أبا العباس أحمد بن الشماع المراكشي لمعرفة
بفن المنطق وقرأ عليه استفتاحها في الجنس والنوع وأنا حاضر ثم قرأها في عشية يومه¹.
10. أبو الربيع بن يوسف بن عمر [799/1397م]، قال فيه: ولي به معرفة وأخوة
من مجلس علم، وكان من كبار الصالحين ومن أهل الكرامات، وكانت له البركة التامة
في انقطاعه للعلم والعبادة، ولا رأيت أحسن قراءة ولا أسرع منه فيها لحديث النبي-
صلى الله عليه وسلم².

11. أبو علي الفاسي عمر بن محمد الرجاعي [810/1407م]³: كان من
أولياء الله تعالى وصدور العلماء وشهرته بالصلاح أكثر من شهرته بالعلم، أخذ عن
جماعة من مشيخة فاس منهم أبو عمران العبدوسي وعنه جلة منهم وابن علال
المصمودي، وابن الخطيب القسنطيني وعرف به وأثنى عليه كثيرا⁴، إمام جامع
الأندلس من فاس كان الغالب عليه الزهد والورع مع تقدمه في الفقه⁵، قال: لازمه
وقرأت عليه الحوفية في الفرائض وحضرت معه مجالس العلم كمجلس الحافظ الفقيه
القباب في الحديث والفقه والكلام، ومجلس الفقيه العالم الصالح مفتي فاس الوانغيلي
الضريير وهو قارئ مجلسه وانتفعت به كثيرا، وإذا قصدته فيما عسر علي فهمه

¹ - ابن قنفذ: الوفيات (ص: 375)، والقاسية، ص 60

² - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 117-118

³ - انظر ترجمته في: أحمد بابا التيكيتي: نيل الانتهاج بتطريز الديقاج (ص: 303)، ومحمد بن مخلوف: شجرة النور
الزكية، ص 250، والونشريسي: وفيات الونشريسي، ص 137، ولقط القراند، ص 235، وابن القاضي: جذوة
الاقباس ج 2/495، ودرة المجال، ج 3/202، وفهرست ابن غازي ص 71.

⁴ - محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (ج 1/360)

⁵ - السخاوي: الضياء اللامع (ج 6/146)

أجلسني مع السارية وجلس هو بين يدي كأنه السائل لتواضعه واحتفائه¹، وقدم للخطابة بالجامع الأعظم من عدوة الأندلس².

12. أبو عبد الله محمد المشنزائي الدكالي أخذ عنه بفاس، وقال فيه: بلغ ظني أنه يحفظ إحياء علوم الدين، لكثرة ذكره لمسائله، ويُسحر الناس بحلاوة لسانه في تذكيره، ويحملهم على التدرج والخروج من الدنيا فيمثل أكثرهم لأمره... وهو الآن يتردد من جزيرة الأندلس إلى أحواز فاس ومبسة³، وأكثر لبثه في الرباطات⁴، وأخذ عنه سند الطريقة الهزيمية، التي أسسها الشيخ أبي زيد الهزيمري عبد الرحمان بن عبد الكريم [706هـ أو 707هـ/1306 أو 1307م]⁵ شيخ الطائفة الهزيمية بالمغرب كان أعجوبة

¹ - ابن تقي: أنس الفقير، ص 120-121

² - المصدر نفسه، ص 122

³ - ستة: من العدوة المغربية على شاطئ المتوسط يحيط بما البحر من ثلاث جهات، ابن صاحب الصلاة أبو مروان عبد الملك بن محمد [594هـ/1198م]: تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تح: عبد الهادي التازي، دار الأندلس، بيروت، ط 1، 1383هـ/1964م، ص 147، ولسان الدين بن الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني [713-776هـ]: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تح: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط 1، 1423هـ/2002م، ص 144، ومحمد بن القاسم الأنصاري السبتي: اختصار الأخبار عما كان يفر سبته من سني الآثار، تح: عبد الوهاب بن منصور، ط 2، المطبعة المذكية الرباط، 1417هـ/1996م، ص 63

⁴ - ابن تقي: أنس الفقير، ص 118-119

⁵ - المصدر نفسه، ص 108+ ص 112-113، وابن حجر العسقلاني شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني [773-852هـ/1371-1449م]: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية النشر حيدر آباد الهند، 1392هـ/1972م، ج 2، ص 202، ابن القاضي المكناسي أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية للمكناسي [960-1025هـ/1552-1616م]: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور الرياض، 1973م: ج 2، ص 410، رقم: 426

وقته أسس الطائفة الآغماتية¹ وعرف بمكاشفاته يتحدث على ما في ضمائر الناس، وكان الناس يتزاحمون عليه بمسحون وجوههم بظرف ثوبه، وتوفي بفاس وقبره داخل باب الفتوح؛ قال ابن قنفذ: وقد أخذت طريقه عن ولي الله الحاج أبي العباس الدكالي عن ولي الله أبي زكرياء يحيى العماري عن الهزميري².

13. أبو العباس أحمد بن الشماع المراكشي نزير فاس، اشتهر بمعرفة علم المنطق، وذكر قراءته عليه بفاس³.

الفرع الثاني: رحلته إلى باقي مدن المغرب الأقصى

لم يكتب ابن قنفذ بالرحلة إلى مدينة فاس وحدها، ومن أجل التحصيل أكثر ساح في أنحاء بلاد المغرب ليستكمل تحصيله العلمي، ويشفي غليله الصوفي للتبرك برؤية العباد والصالحين، فدخل سبتة وسلا وبلاد ذكالة ومراكش وغيرها⁴.

¹ - نسبة إلى آغمات: عبارة عن مدينتين، تقع جنوب مراكش، الأولى آغمات وريكة تقع أسفل جبل درن الأعظم من شماله، وآغمات إيلان مدينة صغيرة، في شرق وريكة بينهم ستة أميال، ابن صاحب الصلاة أبو مروان عبد الملك بن محمد [594هـ / 1198م]: تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تع: عبد الهادي التازي، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1383هـ / 1964م، ص227، وابن الأثير أبو الحسن على بن محمد [630هـ / 1232م]: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط5، 1405هـ / 1985م، ج8، ص295، ومجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص207، محمود بن سعيد: نزهة الأنظار، ج1، ص12-13.

² - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص112-113.

³ - ابن قنفذ: الفارسية، ص60-61.

⁴ - ابن قنفذ: شرف الطالب، ص23.

أ. شيوخه بدكالة¹:

من شيوخه بدكالة الشيخ أبي الحسن بن يونس الصنهاجي، قال فيه: ولي فخر عظيم بلفاته واغتنامي لبركته ودعائه، أعرف أهل صنهاجة بإقراء التلقين، وله تلاميذ في الفقه وتلاميذ في الفقر، وكان إذا حدث له البكاء تصيب أهل المجلس خشية عظيمة، وتدمع عيم كل واحد منهم، حضرت معه ذلك غير ما مرة، وبت معه في جمع من الفقراء والفضلاء على ساحل البحر المحيط ليلة، وكانت من الليالي الغريبة².

ب. شيوخه بمراكش:

من شيوخه بمراكش أبو زيد عبد الرحمان القيسي يعرف بطالب عافية [1371/هـ/773م] قاضي الجماعة بمراكش، تلميذ ابن البناء المراكشي، عالم رياضي اختص في الهندسة والهيئة والحساب³، درس عليه علم المنطق بمراكش⁴، ومنهم أبو محمد عبد الله الزكندري [1366/هـ/768م] قاضي الجماعة بمراكش، قال حضرت درسه بمراكش في التفسير والحديث والفقه ولم يكن مثله في زمانه فيها⁵.

ج. شيوخه بمدينة سلا:

من شيوخه بمدينة سلا، الشيخ الحاج ابن عاشر أبو العباس أحمد بن عمر الأندلسي [765هـ]، قال: ولقد حضرت عنده في عام 763هـ... وطريقته أنه جعل

¹- دكالة: تقع على جهة البحر، والسهول المجاورة له، بين وادي أم الربيع ووادي نفيس، وتشتمل على عدد كبير من القبائل والبطون، الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 459، وعبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب، ص 324

²- ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 115

³- ابن قنفذ: الفارسية، ص 58

⁴- ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 109

⁵- ابن قنفذ: الوفيات، (ص: 366)، والفارسية، ص 57

إحياء علوم الدين بين عييته، وتبع ما فيه نجد واجتهاد، وصدق وانقياد، وكان الحجة في ذلك الطريق... ونخرجت على يده تلاميذ صحاء أخبار¹.

المطلب الثاني: رحلته إلى تونس

عاد ابن قنفذ من رحلته إلى قسنطينة بعد أن أمضى به ثمانية عشر سنة، حيث رواده حين العودة إلى الوطن، فعزم على الرجوع، وشجعه على ذلك انتشار المجاعة في المغرب، ونكبة شيخه ابن الخطيب، فلم يستطع المقام بعد ذلك وشرع في العودة سنة 776هـ/1374م²، لكنه شعر بعدم اكتمال رحلته ونقصاتها عن رحلات علماء زمانه، إذ أن رحلة الطلبة في ذلك الوقت لا تعد كاملة إلا إذا شملت بلاد المشرق، فكان هذا دافعا له في السنة الموالية للتوجه نحو المشرق.

رحل ابن قنفذ إلى تونس سنة 777هـ/1375م، ومن المعلوم أن تكون زيارته لمعلم العلم بما جامع الزيتونة³، ولكنه لم يمكث بما كثيرا، ومن شيوخه بما: أبو الحسن محمد بن أبي العباس أحمد البطري الأنصاري التونسي [703-793هـ/1303-1390م]، كان محدث تونس في عصره⁴، وأخذ عنه أدعية الشيخ أبي الحسن الشاذلي⁵. ومنهم رأس علماء تونس وخطيبها ابن عرفة أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة التونسي [716-803هـ/1316-1400م]، تخصص في الفقه والكلام والتفسير وغيره⁶، كان إمام تونس وخطيبها بجامع الزيتونة مدة خمسين سنة، ذكر في الوفيات أنه حين قدم تونس سنة 777هـ/1375م، قرأ عليه بعض مختصره وناوله إياه بدويرة جامع الزيتونة⁷.

¹ - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص 39، 42.

² - ابن قنفذ: شرف الطالب، ص 24.

³ - ابن قنفذ: شرف الطالب، ص 24.

⁴ - المصدر نفسه، ص 378.

⁵ - ابن قنفذ: انغراسية، ص 62.

⁶ - ابن قنفذ: شرف الطالب، ص 380.

⁷ - ابن قنفذ: انغراسية، ص 63.

المطلب الثالث: نتائج رحلة ابن القنفذ

إذا تتبعنا التخصصات العلمية التي أخذها ابن القنفذ عن شيوخه من جهة، وأهم التخصصات التي كان يتقنها شيوخه من جهة ثانية، عندها يمكننا أن نستخلص التخصص العلمي الذي أتقنه من خلال شيوخه، وهذه التخصصات يمكن تقسيمها إلى قسمين:

أ. العلوم النقلية والتاريخ والسير

اللغة والأدب	التاريخ	السير	التصوف	الأصول	الفقه	الحديث	القرآن
8	3	2	8	7	17	9	7
%32	%12	%08	%32	%28	%68	%36	%28

بلغ تخصص الفقه الإسلامي على المذهب المالكي أكبر نسبة من من سائر التخصصات قدرت بـ %68، ويليهما تخصص علوم الحديث بنسبة مئوية تقدر بـ %36، ثم تخصصي التصوف واللغة والأدب العربي بنسبة مئوية تقدر بـ %32، يليهما تخصصي علوم القرآن وأصول الدين بنسبة مئوية تقدر بـ %28 لكل تخصص، ثم تخصصي ثم باقي التخصصات المرتبطة بها.

ويمكن الاستعانة بمؤلفات ابن القنفذ في شتى التخصصات، لمعرفة التخصصات التي غلبت عليه، فقد بلغت مؤلفاته في شتى التخصصات خمسة وثلاثون مؤلفاً، ويمكن تصنيفها حسب الاختصاص في العلوم النقلية والتاريخ والتراجم:

تخصصات أخرى	اللغة	التاريخ	التراجم	السير النبوية	التصوف	الفقه والفرائض	الحديث
3	4	2	2	1	1	6	2
%08.57	%11.42	%05.71	%05.71	%02.85	%02.85	%17.14	%05.71

بلغت مؤلفاته في العلوم الشرعية واللغة والتاريخ والتراجم وسائر التخصصات المتعلقة بها واحد وعشرون مؤلفاً بنسبة مئوية تقدر بـ %60، موزعة بين علوم شرعية وهي الحديث والفقه والفرائض والتصوف، وله فيها تسعة مؤلفات، بنسبة مئوية تقدر

25.71% ، واللغة العربية وعلومها أربعة مؤلفات بنسبة مئوية تقدر بـ 11.42% ،
والسيرة والتاريخ والتراجم خمسة مؤلفات بنسبة مئوية تقدر بـ 14.28% ، وباقي
التخصصات المرتبطة بها ثلاثة مؤلفات بنسبة مئوية تقدر بـ 08.57% .

ب. العلوم العقلية

المنطق	الحساب	الهندسة	الفلك
3	2	2	1
08.57%	05.71%	05.71%	02.85%

بلغ تخصص شيخ ابن قنفذ في العلوم العقلية بصفة عامة نسبة مئوية قدرها 32% ، وهذا يعني أن ثمانية شيوخ من شيوخه كانوا يتقنون تخصصات عقلية، أولها المنطق بنسبة مئوية تقدر بـ 08.57% وهذا نتيجة لعلاقته بالعلوم الشرعية وخاصة الأصول واللغة، ثم الحساب وبنسبة مئوية تقدر بـ 05.71% وهذا لعلاقته بعلم الفرائض وغيرها من العلوم الشرعية والهندسة ثم علم الفلك. وهذه النسب تتماشى إلى حد ما مع مؤلفات ابن القنفذ في هذا الاختصاص أيضا فمن بين ستة وثلاثين مؤلفا نجد منها من بينها أربعة عشر مؤلفا في العلوم العقلية، يمكن توزيعها على التخصصات التالية:

الطب	الفلك	الحساب	المنطق
02	07	03	02
05.71%	20%	08.57%	05.71%

بلغت مؤلفاته في العلوم العقلية أربعة عشر مؤلفا بنسبة مئوية تقدر بـ 4% ،
نصفها في تخصص علم الفلك حيث بلغت مؤلفاته سبعة مؤلفات بنسبة مئوية تقدر
بـ 20% ، ثم الحساب حيث بلغت مؤلفاته ثلاثة مؤلفات بنسبة مئوية تقدر
بـ 08.57% ، ثم سائر التخصصات المنطق والطب بمعدل مؤلفين في كل اختصاص
بنسبة مئوية تقدر بـ 05.71% لكل اختصاص.

من خلال الجدولين معا يمكن أن نميز لابن القنفذ براعته في ثلاث تخصصات
رئيسية أولها الشرعيات وله فيها تسعة مؤلفات بنسبة مئوية تقدر بـ 25.71% ، ثم علم

الفنك وله فيه سعة مؤلفات بنسبة مئوية تقدر بـ 20%، ثم تخصص اللغة العربية ونحوها فيها أربعة مؤلفات بنسبة مئوية تقدر بـ 11.42%.

إلى جانب التخصصات الأساسية هناك تخصصات فرعية أخرى منها ما هو عقلي ومنها ما هو نقلي بنسب متقاربة جدا، وهذا يتماشى مع روح العصر الذي عاش فيه ابن القنفذ، إذ تعطى الأهمية الأساسية في التعليم للعلوم الشرعية أولا ثم العلوم العقلية ثم سائر التخصصات، وهو ما يتماشى أيضا مع مختلف تخصصات شيوخه الذين أخذ عنهم العلوم الشرعية والعقلية كما هو في مابين في تراجم شيوخه.

أحمد بن العطار

(الشيخ الحاج أحمد بن المبارك)

د/ أستاذ بالعطار

جامعة الأمير محمد القادر

العلوم الإسلامية

عرفت قسنطينة بأنها مدينة العلم والعلماء؛ فقد كانت ولا زالت مهد العديد من العلماء والقضلاء والصلحاء نذكر من بينهم أحمد بن العطار المعروف بالشيخ الحاج أحمد بن المبارك.

1. مولده ونشأته

هو أحمد بن عمر بن أحمد بن محمد بن العطار، وعرف عادة باسم الشيخ الحاج أحمد بن المبارك، وهو من أسرة عريقة ينتهي نسبها إلى الأشراف الأدارسة. وذكر عبد الكريم الفكون في كتاب "منشور الهداية" أسماء العائلات القسنطينية الشهيرة، والتي تولت الوظائف الرسمية في العهد العثماني، منهم آل العطار وهم علماء وصلحاء مقتدى بهم.¹ وقد كان أبو القاسم بن العطار وهو جد أحمد بن العطار من علماء المالكية البارزين، وأيضاً أبو عبد الله بن العطار كان من النساخ والخطاطين حتى قارنه بعض الكتاب بابن مقلة في حسن الخط، وربما اشتهر به على ابن مقلة وكان يقصده العام والخاص في الوثائق وانعقود.² ووصفه الحفناوي في ترجمته بقوله: "العلامة الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد المبارك كان وقاد القريحة، يديه الإدراك، واسع الفكر، عريض الفهم والإدراك."³

¹ - عبد الكريم الفكون : منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق سعد الله أبو القاسم،

1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان - 1989م، ص38.

² - المرجع نفسه، ص 39

³ - محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة والمكبة العتيقة، ص2، 1985 ج2، ص78.

وقد قضى أحمد ابن العطار معظم حياته بقسنطينة التي ولد فيها عام 1790 وفي سن مبكرة من حياته انتقل إلى مدينة ميله التي هاجر إليها معظم أفراد العائلة المسيورة والمتصوفة بحثا عن الأمن والهدوء وعن أراضي وأملاك جديدة تستوفي العائلة الكبيرة، وهي لا تبعد كثيرا عن مدينة قسنطينة.

2. حياته العلمية والعملية

تلقى في زاوية أسرته المعروفة بزاوية عائلة ابن العطار، حفظ القرآن الكريم وعلموه، ومبادئ العلوم اللغوية والأدبية، والعقيدة الأشعرية وفقه مالك، وطريقة الجنيد السالك. ثم عاد وهو في سن الصبا إلى مسقط رأسه قسنطينة، وشرع في مزاوله التعلم في مساجدها على يد أعلام قسنطينة آنذاك من أمثال الشيخ العلامة أبو راشد عمار الراشدي المعروف بالعربي، والذي كان أديبا له الباع الطويل كما يقول الحفناوي في المعقول والمنقول وشاعرا مجيدا، ولي الفتوى المالكية والخطابة بسيدي على بن مخلوف والتدريس بمدرسة سيدي الكتاني ثم جامع القصبة له تاليف من أبرزها: حاشية على الشيخ إبراهيم الشيرخيتي شارح المختصر، وتوفي بقسنطينة في جمادى الثانية 1251هـ¹، كما تلمذ على يد الشيخ أبو منصور عمار الشريف القسنطيني الذي كما يقول عنه الحفناوي كان نخبة قسنطينة ودره أعيانها، فقيها أديبا بيانيا مشاركا في جميع الفنون أخذ عنه الونيسي الأصغر والميلي، وتقلد نظارة الأوقاف والقضاء مرتين، والخطابة بجامع رحبة الصوف، وتوفي رحمه الله في سنة 1241هـ²، كما تلقى التعليم على يد الشيخ العلامة أبي عبد الله محمد العربي بن عيسى القسنطيني الذي كان من جلة العلماء، وأفاضل البلد، أخذ عن العباسي، والطلحي، وولي النظر على الأوقاف والقضاء والتدريس بمسجد سيدي جليس،

¹ - المرجع نفسه، ص 37.

² - المرجع نفسه، ص 64.

وتوفي رحمه الله سنة 1254هـ. كما كان لابن العطار الحظ في التلقي على شيخ
الشيخ أحمد بن سعيد العباسي الذي كان آية زمنه حفظا وإتقاناً وبياناً في علم
البلاغة والبيان، عارفاً برجال الحديث وعلله، له اليد الطولى كما يقول الحفناوي في
فن المنطق والكلام والعلوم الإلهية، وعالماً كذلك بالقراءات السبع، ومتمكناً من أدب
المناظرة ولي بدوره النظر في الأوقاف، ثم القضاء مرتين، والخطابة بسيدي علي بن
مخلوف، ثم بمسجد رحبة الصوف وترك العديد من المؤلفات من بينها "تقايد على
صحيح مسلم ومصنفات أخرى"¹.

لما بلغ أحمد بن العطار مرحلة الشبية والنضج الفكري انطلق لممارسة التجارة في
الخبر والعطور حرفة آباءه وأجداده وهو ما مهد له سبيل التنقل في البلاد وخارجها،
فكانت رحلاته الأولى خارج الجزائر إلى القطر التونسي الذي عادة ما كان محط
رجال التجار القسنطينيين كما حدثنا الرحالة الحسن الوزان المعروف بكنية نون
الإفريقي. كانت رحلات ابن العطار إلى أسواق تونس يهتم بها في التجارة في عمائم
التحرير وكذلك أطياب مختلف أنواع العطور ولقد مكنت حرفة التجارة للمؤرخ ابن
العطار من التردد أثناء زيارته لتونس على جامع الزيتونة المعمور والاستفادة من
حلاقات الدروس التي كانت تلقى فيه وعلى وجه الخصوص حلقات العلوم الشرعية
 واللغوية، كما تمكن من تمتين هذه المعارف أثناء أدائه لفريضة الحج فوسع من خلالها
 من مداركه في علوم الشرع واللغة وهو ما مهد له السبيل لتولي منصب التدريس
 بالجامع الكبير خلفاً لشيخة العباسي التي وافته المنية سنة 1251 هـ، فشرع في تلقين
 العامة الخاصة العلوم الإسلامية، مع إعطاء محاضرات عامة ومتنوعة في مختلف
 المعارف المرغوبة آنذاك وهو ما جعله ينال شهرة ويصبح من أقطاب العلماء البارزين
 بقسنطينة الأمر الذي رشحه لتولي منصب الفتوى خلفاً لمفتي قسنطينة الشيخ محمد

¹ - المرجع نفسه، ص 71.

اجتباي، وبإضافة إلى هذا التشريف تم إضافته مستشاراً في المجلس الشرعي الإسلامي
الذي كان ينعقد دورياً بمدينة قسنطينة.¹ خلال هذه المرحلة التي بلغ فيها
نشاط الشيخ ابن العطار أوج العطاء أقدم على تأليف جملة من الكتب القيمة، وعد
من مجموعة علماء قسنطينة وأعيانها الذين شاركوا في رحلة إلى باريس سنة 1844 م.
وإطلعوا على المظاهر العمرانية بها، وهم صالح العنزي: محمد بن القاضي، محمد
الشاذلي، أحمد بن العطار، بلقاسم بن محمد بن عيسى، محمد بن المسبح، أبو
منصور عمار بن شريط، عمار المغربي ومصطفى شاوش.²

3. مؤلفاته:

ألف العديد من المؤلفات من بينها "تاريخ حاضرة قسنطينة" وكذلك حاشية
على منظومة "الجوهر المكنون في الثلاثة قرون"؛ وهي أصناف البلاغة من المعاني
والبيان في جزئين، والبديع للأخضري، دفين زاوية بنطوس من قرى بسكرة. وكتاب
سلم الوصول في الصلاة على الرسول" مع تأليفه لسلسلة عن طريقة الشيخ الزواوي
مرى الطريقة الحنصالية بقسنطينة سماها " نصيحة الإخوان في أصول التربية وآداب
السلوك" وقد تولى شرحها والتعليق عليها الشيخ صالح بن مهنا رحمه الله وهي
مطبوعة ومتداولة بين أيدي المريدين، وقد أثنى شيخه العباسي على هذا الأثر، كما
نظم مطولة في مدح الرسول (ص).

1 - ابن العطار أحمد بن المبارك: تاريخ قسنطينة. تحقيق راجح بونار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974 م،
ص 6-7.

ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر الجزائري، ط1، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع
الشرعي، 2000م، ص 137.

2 - محمد الطمار: الروابط الثقافية بين الجزائر والخراج، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983 م،
ص 134.

4. ابن العطار المؤرخ:

إن ما اشتهر به الشيخ أحمد المبارك هو تاريخه حول مدينة قسنطينة، المعروف ب " تاريخ حاضرة قسنطينة"، وهو مصنف صغير، غير أنه يحتوي على معلومات مهمة تعرض فيه باختصار للأحداث التي عرفتها قسنطينة في العهد العثماني، مع إشارة سريعة في مستهله إلى تأسيس المدينة وموقعها وتخصياتها، وقد ركز فيه بالخصوص على بعض الأعمال العمرانية لصالح باي وقصة مقتله، وتولي حسن باي مكانه، مع ذكر بعض الخصائص التي تعرضت لها قسنطينة من الأعراب المهلاليين، ومن أبي عنان المريني ومراد الباي التونسي وحمودة باشا الحسيني التونسي، والثائر ابن الأحرش الدرقاوي، هذا بالإضافة إلى تعريف موجز ببعض البايات الذين تولوا الحكم ببايلك قسنطينة مثل: حسين الكلياني، حسن بوحنك، حسن أزرق العينين، أحمد باي القلي، صالح باي قبل أن يختم كتابه بترجمة لكل من الشيخين فتح الله وأحمد القبائلي على بعض الكتب المتداولة ذكر منها : المؤنس لابن دينار القيرواني على أن مصادره الأساسية هو ما أخذه عن الشيوخ الذين عاصروا الأحداث وتناقلوها عن طريق الرواية.

ولقد تميز تاريخ قسنطينة بأسلوبه السهل، وبلغته البسيطة التي تعكس مستوى ثقافة عصره، قام بترجمة تاريخ حاضرة قسنطينة إلى الفرنسية مدير المدرسة الرسمية بقسنطينة : ألفريد دورنون (Alfred dournon) ونشره بالجملة الإفريقية سنة 1913 اعتمادا على نسختين إحداهما بالمكتبة الوطنية الجزائرية، وهي أكمل النسخ والأخرى بمكتبة مدرسة الجزائر، ومؤرخه في 23 صفر 1265-5 ديسمبر 1852، وقد قام بعد ذلك بإصدار الأصل العربي مع تصحيحه والتعليق عليه، ووضع عناوين لفقراته نور الدين عبد القادر بالجزائر سنة 1952 م¹.

¹ سعد الله أبو القاسم : تاريخ الجزائر الثقافي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ج 1، ص 509-

5. ابن العطار المتصوف:

عرف عن الشيخ ابن العطار انتماءه الروحي إلى الطريقة الخنصالية التي عرفت بقسنطينة وله شعر صوفي ومنظومات دينية مختلفة، وتنسب إلى مؤسسها الشيخ يوسف الخنصالي المعروف في نواحي قسنطينة. وكانت له مكانة مرموقة في أوساطها حيث يحظى بالتقدير والاحترام بين الجميع إلى درجة ظل بيته فيها ملجأ لمن يقصده بحثاً عن الأمان والبركات. وفي قصيدة مطولة "يا أهل الدار" لابن السائب يظهر تبحره في معرفة الأولياء والصالحين من الصوفية حيث يذكرهم بأسمائهم وصفاتهم من بينهم أحمد بن العطار.¹

وتعتبر هذه الطريقة أحد فروع الطريقة الشاذلية، كما يقال أن لها علاقة بالطريقة الرحمانية، وأشهر رجالات هذه الطريقة بقسنطينة وضواحيها الشيخ أحمد الزواوي الذي كانت له مع صالح باي مواقف ذكرها العنزي في تاريخه، وكما يقول الخفناوي بلغ ابن العطار منزلة في هذه الطريقة أن "أسندت لعهدته رئاسة الطريقة الشاذلية فساسها على متون الشريعة وهذبها بنصائحه المفيدة" ولما في كان له الشرف العظيم أن يسجد في مداخل زاوية شيخ الطريقة على مقربة من مرقد إمامها الشيخ الزواوي انكائن بجبل شطابة المطل على شمال مدينة قسنطينة.

كان للشيخ عاشور الفضل والسبق في تسجيل تاريخ وفاة هذا العلامة في قصيدة من نظمه نقشت على قبر ابن العطار وما تزال شاهد إثبات إلى يومنا هذا حيث سجل فيها تاريخ وفاة الشيخ ابن العطار التي كانت يوم الثلاثاء الأول من شهر رجب عام 1287 هجرية الموافق ليوم خمسة أكتوبر 1870 ميلادية. وقد ذكر كل من (depont et coppolani) في كتابهما Les Confréries religieuses musulmane " أن لابن المبارك ولدا كان ينتمي بدوره إلى الطريقة الخنصالية

¹ - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن السائب: الديوان، ص 1، مطبعة بن خندون، تلمسان، ص 109.

وقد كان له الشرف أن يحظى برتبة "مقدم" عام 1879 وقد نال هذا التشريف من طرف شيخ الطريقة آنذاك الشيخ بلقاسم بوحجر ابن الشيخ حمو بن الزواوي وصاحب الزاوية المعروفة في بلدة سيقوس جنوب قسنطينة والذي كان صديقا حميما للشيخ أحمد بن العطار. كما ورد أيضا ذكر لحفيد ابنتن المبارك قد تقلد بدوره رتبة مقدم في الزاوية الحنصالية.

محمد المهدي شغيب

حياته وأثاره¹

أ.د. إسماعيل سامعي

جامعة الأمير محمد القادر

للعلوم الإسلامية

من الأعلام الذين أفنوا حياتهم في خدمة العلم والمعرفة في الجزائر عموماً وقسنطينة خصوصاً الشيخ محمد المهدي بن علي شغيب الذي عاش 85 سنة كلها كفاح وجهاد في هذا الاتجاه، ولكنه لم يترك أثاراً منشورة ومطبوعة ومتداولة سوى كتابه المطبوع: "أم الحواضر في الماضي والحاضر - تاريخ قسنطينة - وبعض الملفات والأحاديث، لكنه ترك ركاباً من الأوراق والكراسات والوثائق والملفات التي يمكن إذا جمعت ودرست وصنفت من طرف مختصين أن تكون عدد من المصنفات في مجالات شتى أهمها التاريخ المحلي، والتربية والفقه والأدب والشعر.

مولده وحياته: محمد المهدي بن علي بن بلقاسم بن عمار العمراني البوزيدي شغيب ولد بضاحية الشمال الغربي من بلدة وادي الزناتي في شتاء عام 1326هـ/ 1908م، ووالدته مسعودة شغيب بنت صالح بن عمار والتي يلتقي نسبها مع نسب والده في جده عمار، وهي من مواليد وادي الزناتي² أيضاً في أوائل القرن الرابع عشر

1- عندما طلب مني الأستاذ عزيز حداد نائب مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة: والمشراف على إعداد كتاب التخرج لندفة رمضان 1437هـ/ جوان 2016 م المشاركة بمقال أو دراسة في هذا كتاب الموسم "أعلام قسنطينة"، عرضت عليه نشر موجز من ترجمة الشيخ محمد المهدي شغيب الذي أعددت عنه كتاباً في إطار قسنطينة عاصمة الثقافة العربية، وهو تحت الطبع، كما نشرت عنه أيضاً مقالاً في مجلة المعالم جسعية التاريخ والمعالم الأثرية بقائمة العدد 18. فوافق على ذلك تعميماً للفائدة، فعمدت عندئذ إلى إدخال بعض التغييرات على موجز الترجمة بالزيادة والنقصان تمسحاً مع سياق الكتاب.

2 - وادي الزناتي بلدة مشهورة تنسب إلى الوادي الذي يمر بها، والروايات الشعبية تنسبه للزناتي خليفة الأمير «الابن»، وإن كنت لا أبحث هذا، وقد يكون الوادي كان ملكاً لأحد الزناتيين من قبيلة زناتة، كما يدعي وادي

المهجري سنة 1301هـ/1883م، والتي توفيت في قرية ابن سميع الواقعة جنوب شرق مدينة قالمة على بعد 17 كلم عام 1336هـ/1917م تقريبا، ووالده علي بن بلقاسم الذي ولد هو الآخر في نفس الجهة حوالي سنة 1298هـ/1880م، وتوفي عام 1342هـ/11 أبريل سنة 1924م¹.

أصل نسبه: يذكر الشيخ محمد المهدي شغيب أن أجداده الأوائل كانوا مستقرين بمحانة²، ويبدو أنهم شاركوا في ثورة المقراني والشيخ الحداد سنة 1278هـ/1870م، ونتيجة هذه المشاركة أخرجوا من ديارهم كما أخرجت الكثير من القبائل في إطار مصادرة الأراضي، وتفتيت القبائل لأضعاف قوتها وتلاحمها؛ فقد صودرت أراضي أجداده وأملاكهم وأرزاقهم في جملة الأعراس الثائرة التي لقيت نفس المعاملة والمصير إذ طردوا من أراضيهم بعد حجز أرزاقهم وانتزاع أملاكهم منهم لتوزيعها على المستعمرين، وتخصيص مساحات منها لإقامة الثكنات العسكرية، وإنجاز المشاريع الاستعمارية خاصة التي تضررت من الثورة³.

ويبدو أن هذه الثورات والثورات الأخرى، وما نقله إليه الأجداد من حكايات الظلم والقتل والتشريد هي التي أثرت في ميوله نحو التاريخ كسلاح من الأسلحة التي تجعل من المقاومة مستمرة، وهي التي جعلت من الشيخ محمد المهدي - رغم هدوئه وورزائه وهما صفتان من صفات العلماء اللذنان يمتاز بهما - ثائرا، وقلمه ثورة. وعلى

الذهب لخصوية تربة المنطقة وتفردتها بإنتاج أحود القموح، وسيدي ثام الولي الصالح. أنظر مقال مسعود خالدي، مدينة وادي الزناتي ودور سكانها في الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي، مجلة المعالم، جمعية التاريخ والمعالم الأثرية العدد 14 سنة 2013، ص 24، 25. بوسماحة عبد الحميد، رحلة بني هلال إلى المغرب وخصائصها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية، وزارة الثقافة الجزائر، 2008، ص 155.

¹ نفسه، 53، 54.

² محانة : مدينة تقع شمال ولاية برج بوعريبيج الجزائرية. تبعد عن الولاية بـ 09 كلم فقط تحتوي على عدة مرافق وأماكن أثرية.

³ المهدي شغيب، مخطوطة بعنوان التراجيح، 54.

أثر هذه الثورة، وما قام به الاستعمار من حملات انتقامية نزع أسلافه إلى ناحية جيجل، ومن ثم إلى ناحية وادي الزناتي بولاية قالمة اليوم حيث استقروا بأراضي عرش السواحلية بالشمال الغربي من هذه البلدة نواحي برج صباط اليوم، خاصة وأن البندة هي أحسن المناطق الزراعية في الجزائر، وهي ومنطقة قالمة عموما جذبت إليها عددا معتبرا من سكان جيجل ومنطقة القبائل الصغرى، وتوجد حتى اليوم حالية جيجلية معتبرة بمدينة قالمة وبعض القرى كقرية هيلوبوليس، كما أن بقالمة حي شعبي كبير يقع شمال غرب المدينة يحمل لقب " شغيب " يبدو أن الأوائل الذين أسسوه وسكنوه كانوا من هذا القبيل أو العرش المهاجر إلى المنطقة.

انتقل والده بعد ذلك إلى قالمة حوالي سنة 1327هـ/1909م وعمر محمد المهدي لا يتعدى العام، واستقر في بداية الأمر بقرية بن سميح (الجزارة) جنوب شرق قالمة بجوار القائد أحمد بن يخلف الذي استقدمه لتعليم أولاده وتربيتهم، وهناك توفيت أم محمد المهدي، وبعد وفاتها انتقل الوالد إلى مدينة قالمة حيث اشتغل خياطاً، مع التطوع بالأذان في مسجدها الجامع¹.

تعليمه: يذكر محمد المهدي شغيب في ترجمته لنفسه أنه بدأ التعليم في مدينة قالمة على عادة الجزائريين في ذلك الوقت وفي تلك الظروف بقراءة القرآن العظيم ومبادئ العربية والعلوم الدينية، وكان معلمه الأول والده الذي علمه القرآن بروايتي ورش وقالون لقراءة الإمام نافع من طريق أبي عمرو الداني الأندلسي، ويوضح في هامش ترجمته لنفسه

¹ - جامع قالمة العتيق يقع وسط المدينة القديمة، ويحمل هذا الاسم كما حمل اسم ابن خلدون، وهو أول جامع بني في بداية الاحتلال سنة 1852هـ، وأقدم جامع في الولاية، وبعد تحفة معمارية، وفنية حيث أن جدرانه الداخلية مزخرفة بالخطوط الهندسية، وقد أعيد ترميمه وتوسيعه عدة مرات أخرها في السنوات الأخيرة منذ سنة 2007م، وقال عنه الشيخ محمد المهدي بن شغيب: " فكان للمسجد (الجامع العتيق) يمثل صورة تضاهي بصدق جامع الزيتونة بتونس في نشاطه العلمي: والدروس التي تلقى فيه يومئذ هي: الفقه، والتوحيد، والعربية، والسيرة النبوية، والحديث، " أنظر، أم الحواضر في الماضي والحاضر - تاريخ مدينة قسنطينة - (قسنطينة / الجزائر: مطبعة البعث، 1400هـ/1980م)، 250.

التفرقة بين القراءة والرواية فيقول: " في اصطلاح القراء: ما ينسب للإمام يسمى قراءة، وما ينسب للراوي عن الإمام يسمى رواية، وما ينسب للآخذ عن الراوي يسمى طريق، فيقال مثلا: قراءة نافع برواية ورش أو برواية قالون، من طريق أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني الأندلسي، وهكذا يقال قراءات بقية الأئمة ورواتهم، كما هو مشهور في اصطلاحهم"¹، ويبدو أن والده كان متمكنا من علم القراءات الذي أخذ القراءة عن شيوخ ببلاد زواوة² ولاسيما في زاوية -شلاطة³ التي كانت يومئذ قبلة طلاب القرآن والعلم لشهرة علمائه وثرائه والاعتناء بروايات القرآن وعلمه، ولذلك حرص على تلقين علم القراءات لأبنيه محمد المهدي وفقا للقراءة الشائعة في بلاد المغرب.

شيوخه الذين أخذ عنهم العلم: أول من أخذ عنه هو والده الذي توفي في السابع من شهر رمضان المعظم سنة 1342هـ الموافق للحادي عشر أبريل سنة

¹ المهدي بن شغيب، مخطوطة بعنوان التراجم، 55، هامش 1.

² زواوة : إيزواون ومفردها أزواو صفة تطلق على لون الشخص أو الحيوان، ومعناه الأحمر والمائل للحمرة أو الاصهب الأشقر، والبعض يرى أنها تعني الرجل المكتمل، وكان الأتراك ينطقونها "زوافة" Zuave أي زواوة، وأخذها عنهم الفرنسيون فنطقوها زواف. وبلاد زواوة في الأصل حول جبال حرجرة، وحسب العديد من المصادر التاريخية والجغرافية كانوا يتقنون بين بجاية ودلس، وتجاورون كتامة . أنظر : العبر، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1968م)، 262/6، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، مراجعة لجنة من العلماء، (بيروت: دار الكتب العلمية، دت)، 501/2، البكري أبو عبيد، المسالك والممالك، تحقيق، جمال طلبة، (بيروت: دار الكتب العلمية 1420هـ/2002م)، 250/1، ابن حوقل أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، (ليدن، مطبعة بريل، 1889م)، 106، ابن خلكان أبو العباس، وفيات الأعيان، تحقيق، إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، د ت)، 197/6، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة "طبعات كثيرة" منها: (بيروت: دار صادر، ودار بيروت، 1384هـ/1964م)، <http://ar.wikipedia.org>، 15.

³ - زاوية شلاطة عنى مشارف أقبو بجاية وتنسب لسيدي محمد بن علي الشريف الزواوي الشلاطي. أنظر: الحفناوي محمد أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، (الجزائر: مؤلف، 1991م)، 402/2؛ سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الشافي، (الجزائر: عالم المعرفة 2011م)، 139/2، 182/3، 183، 184، 185 - les manuscrits herbères au Maghreb et dans les collection européennes:66-70، études de document berbères:djamel aissani:83. - les manuscrits berbères au Maghreb et dans les collection européennes:69. - <http://www.thakafomag.com>

1924م، وتولى الأخ الأكبر مسؤولية العائلة وكفالة أخيه الأصغر محمد المهدي. فتلمذ بعد ذلك على عدد من الشيوخ الذين إما تخرجوا من جامع الزيتونة أو تأثروا بشيخه لاسيما في أسلوب التدريس فيه بحكم الأخذ مباشرة أو بالجوار والاتصال الدائم لقربه من بلدتهم - قلمة - وسهولة المواصلات وحرية الأسفار بين البلدين آنذاك.

ومن شيوخ بلدة قلمة الذين أخذ عنهم محمد المهدي وكانوا يتطوعون بالتدريس في مسجدتها الجامع وزواياها¹: العلامة الشيخ التهامي بن السريدي الذي كان يحفظ من الشيخ خليل في الفقه عن ظهر قلب، كما يحفظ القرآن حفظا تاما، فقرأ عليه من أول المتن إلى باب "الدكاة"² كما قرأ عليه متن الأجرومية في النحو³، والسنوسية في التوحيد⁴، والمرشد المعين في التوحيد⁵، والفقه لاسيما العبادات والمعاملات

¹ الجامع: المقصود به الجامع العتيق بقلمة والوحيد بالبلدة الذي سبق ذكره، وأما زوايا المدينة فمنها زاوية بن صويحج.
² الدكاة، الذبح، أنظ، العجم العربي الأساسي (لا روس)، الصادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: 1989م، ص، 484.

³ الأجرومية أو متن الأجرومية أو المقدمة الأجرومية في مبادئ علم العربية كلها عنوان للمكتاب الذي ألفه ابن آجرزم (حروم معناها بالبربرية الفقير) أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، ويعرف بابن آجرزم (723هـ/1323هـ) فقيه ونحوي مغربي من صنهاجة، أوجز مؤلفه فيه كتاب «اجتئل في النحو» لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزنجاني في 145 بابا تناولت: أبواب النحو، والصرف، والأصوات، والضرورات الشعرية، أنظر، ابن القاضي أحمد بن محمد المكتاسي، جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس، (الرياض/ المغرب: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973م)، القسم الأول، 233، السيوطي حلال الدين، بغية الوعاة، 1/38، ابن العماد، شذرات الذهب، 6/62، الزركلي غير الدين، الأعلام، (بيروت: دار العنم للملايين، 1995م)، 33/7. ابن شنب، ابن آجرزم، دائرة المعارف الإسلامية، (بيروت: دار المعرفة، دت)، 1/84.

⁴ السنوسية في التوحيد لصاحبها السنوسي محمد بن يوسف الذي يلقب بالحسني التلمساني، وهو في الحكم العقلي الذي ينحصر في ثلاثة أقسام: الوجوب، والاستحالة، والجواز. أنظر، متن السنوسية، ونويحس، معجم أعلام الجزائر، 180، الزركلي، الأعلام، 142/3، وموقع: www.neelwa

⁵ المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، وهو في التوحيد مؤلفه الشيخ عبد الواحد بن أحمد بن عاشر الأندلسي المتوفى سنة 1040هـ/1631م والشهير بمتن ابن عاشر. أنظر، الزركلي، الأعلام، 175/4، والموقع: www.startim

والتصوف، وقال عنه: "هو من جلة علماء عصره"¹ ومن الذين أخذ عنهم أيضا العلامة المحقق الشيخ مصطفى بن الزاي الأزهرى مفتي المدينة يومئذ أخذ عنه "المواهب اللدنية في الشمائل الحممدية" للترمذي، وأبوأبا من مختصر الشيخ خليل في العبادات، وباب البيوع، وباب الفرائض² والشيخ الأديب الفاضل عبد الحميد بومعزة المدارس بمدارس المدينة الحكومية، والمتطوع بمسجدها الجامع الذي أخذ عنه شيئا من السيرة والنحو والصرف والفقهاء والحساب، والتوحيد، والذي انتقل فيما بعد إلى قسنطينة، كما قرأ بعض المتون الأخرى على خلفه الشيخ علي فاضل المدارس بالمدراس الحكومية والمتطوع هو الآخر بمسجد المدينة الجامع مثل الفرائض والحساب، والسيرة، والفقهاء، والتوحيد والنحو والذي انتقل إلى عنابة³.

تعلمه الفرنسية: لما شب أدرك أهمية تعلم اللغات الأجنبية لاسيما اللغة الفرنسية التي فرضها الاستعمار على الجزائريين فسعى إلى تعلمها بنفسه، وأورد عن ذلك فقال أنه تعلم شيئا من مبادئ اللغة الفرنسية عندما كان بعناية على يد أساتذتها من بعض أصدقائه⁴.

وكان تعلمه للفرنسية تعلمًا عصاميا فهو لم تتح له الفرصة لتعلمها في المدرسة الفرنسية العامة النظامية أو الرسمية كغيره من بعض الجزائريين، وإنما تعلمها بنفسه وبرغبته تعلمًا حرا حتى توج ذلك بنيل شهادة في الترجمة.

وفي سنة 1356هـ/1937م سئحت له فرصة السفر إلى بلاد فرنسا فنزل عاصمتها باريس التي أقام فيها مدة سبعة شهور قضاها في تعميق وتوسيع معرفته باللغة الفرنسية،

¹ أم الحواضر، 650.

² الشيخ خليل: هو ضياء الدين أبو المودة خليل بن إسحاق بن موسى بن شغيب المالكي المعروف بالجندي المصري نشأ بها وتعلم في القاهرة، وولي الإفتاء على مذهب مالك توفي سنة 776هـ/1374م له مختصر الشيخ خليل المشهور. أنظر، التزكلي، الأعلام، 315/2، والموقع: sahamela.ws/ind، وأنظر، الشيخ محمد المهدي، أم الحواضر، 350.

³ المهدي بن شغيب، مخطوطة بعنوان التراجيح، 57. وأنظر، الشيخ محمد المهدي، أم الحواضر، 350.

⁴ نفسه، 58.

كما تردد على مكتباتها لاسيما المكتبة الوطنية بباريس، وقال معلقا على هذه الرحلة: "فانتهازتها فرصة لتعزيز معارفي من هذه اللغة وأخذها من منبعها الأصلي بالاتصال بأهلها، فنلت منها قدرا سهلا عليّ الاستمرار في قراءتها بعد رجوعي إلى الجزائر، حيث شاركت في امتحانات نلت فيها شهادات الترجمة والعدالة والتدريس"¹. وقد أتقن كنه اللغة الفرنسية أيما إتقان لكنه كان لا يستخدمها إلا في المجالات التي تتطلب ذلك حتى لا يخجل للناس أنه لا يعرفها حتى إذا نطق بما أجاد، وإذا جادل أو ناقش أفحم، وإذا كتب أبحر.

توطنه بقسنطينة وعشقه لها: محمد المهدي شغيب قالمي المولد والمنشأ: وقسنطيني الدار، فقد انتقل من قلعة إلى قسنطينة أين استقر بها نحائيا رغم أن الظروف أحيانا أجبرته على العيش خارجها لبعض السنوات، لكنه سرعان ما يعود إليها، ومن عشقه لها أنه سخر جهده العلمي للكتابة عنها، وتوج ذلك في كتابه "أم الحواضر في الماضي والحاضر - تاريخ قسنطينة"، ولم ينس مسقط رأسه، ونشأته الأولى ولم يقطع صلته بها قامة، فكان يترد عليها من حين لآخر، سواء كان ذلك لأجل صلة الرحم، أو للمشاركة في المناسبات الثقافية والفكرية كالملتقيات والأسابيع الثقافية التي كانت تقام فيها.

لقد وطن محمد المهدي شغيب لنفسه بحاضرة قسنطينة على منوال العائلات العريقة، فتزوج من الكريمة حليلة بن العابد المولودة، وهي ابنة أخت الشيخ عبد الحميد بن باديس خيرة المدعوة الزهرة، فزواجه من هذه السيدة التي هي سليلة عائلتين عريقتين بقسنطينة في النسب والعلم والفضل والجاه عائلة ابن باديس، وعائلة بن العابد. وزواجه من حليلة بنت العابد، وابنة أخت عبد الحميد بن باديس

¹ الشيخ محمد المهدي، أم الحواضر، 351.

مكنه من الاحتكاك المباشر ببيوتات العلم والتدين، وبيوتات القضاء بقسنطينة¹،
وربطه بعلاقات علمية مع عدد من علماء قسنطينة والجزائر وتونس والمغرب.

المهن والوظائف التي تولاهها: زوال منذ أن تمكن من التحصيل العلمي مهنة
التعليم العربي الحر كغيره من معلمي العربية في تلك الظروف التي كانت فيها العربية
غريبة في موطنها منطلق فرضه الاستدمار البغيض، وذلك في مدارس أسسها بمجهوده
الخاص، وأعاناه في ذلك بعض الخبيرين في كل من عنابة التي لم يبق بها إلا قليلا، ثم
انتقل إلى قلمة سنة 1937م². ولعل أهم مدرسة علم بها وأدارها مدة طويلة هي
مدرسة أو معهد الكتانية الكائن بقسنطينة مقابل سوق العصر ومكنه إتقانه للغة
الفرنسية إلى جانب اللغة العربية الاشتغال في مجال الإعلام المسموع والمكتوب، فقد
اشتغل أولا في الإعلام المسموع وذلك في الإذاعة الجزائرية بعد رجوعه من فرنسا أوائل
سنة 1358هـ/1939م وذلك بقسم التعريب كامل مدة الحرب العالمية الثانية (1939م-
1945م)، ويبدو أنه كان يحضر حصصا تاريخية ويقدمها، إلى جانب ما كان يترجمه،
ولعل ما كان ينشره في المجلة التابعة للإذاعة المسماة: "هنا الجزائر" عن المدن الجزائرية هو
أحد البرامج التي كان يعدها ويقدمها في القسم العربي من إذاعة الجزائر. كما تعامل مع
الإذاعة المحلية بقسنطينة بعد استرجاع السيادة الوطنية، فخصص له برنامج بما أو اقترحه
هو يحمل عنوان "التاريخ المحلي لحواضر الشرق والغرب الجزائري والقصص الشعبية".

بعد الحرب العالمية الثانية شارك المهدي شغيب في امتحان القضاة الشرعيين أو
ما سماها العدالة الإسلامية والتعليم العربي والتعريب فتجح في جميع مواد الامتحان
وذلك في حريف سنة 1945م، لكنه على ما يبدو لم يتول منصب القاضي الشرعي
إلا بعد العودة من الجزائر إلى قسنطينة والعمل من جديد في جريدة النجاح، قبل أن

¹ مثل عائلة آل الفتوح، وعائلة آل ابن باديس،

² طبع هذه المدارس لا تعدو أن تكون آنذاك تسميا أو حانوتا يحول إلى قسم لتحفيز القرآن وتدريب بعض
العلم بفقهاء وعلوم العربية.

ينخرط في سلك العدالة الإسلامية، ولم يبق بها كثيرا إذ تخلى عنها وعاد إلى العمل بإدارة جريدة "النجاح"، ومباشرة التعليم الحر بالمدرسة الكتانية المهنة التي ظل يجهها. ولما قامت الثورة المباركة سنة 1374هـ/1954م والتحاق معظم الطلبة بها، وأصبح المعلمون في موقف حرج، وتكهرب الجو في قسنطينة التحق الشيخ محمد المهدي من جديد بسلك العدالة الشرعية الإسلامية، وذلك في ربيع سنة 1375هـ/1955م بمحكمة الوادي وعمل بها مدة أربعة شهور، ثم انتقل من محكمة الوادي إلى محكمة جامعة¹، وهناك التحقت به عائلته حيث قضى بها حوالي عشرين شهرا، لينتقل منها إلى بسكرة التي قضى بها ست سنوات² أي إلى نهاية الثورة واسترجاع الاستقلال الوطني سنة 1962م، واستمر فيه إلى غاية ربيع 1964م حيث تقدم إلى وزير العدل بطلب الإغفاء من هذا المنصب رغبة منه في العودة إلى التعليم المهنة الوحيدة التي أحبها وقضى حياته من أجلها.

أثاره: ترك محمد المهدي شغيب بعض الآثار المطبوعة والمنشورة والمخطوطة، وهي على درجة من الأهمية يمكن حوصلتها في الآتي:

1- التاريخ المحلي: من ذلك تاريخ قسنطينة والذي ركز فيه على التاريخ الثقافي ومآثر قسنطينة وأثر: "أم الحواضر في الماضي والحاضر - تاريخ قسنطينة" وهو العمل الوحيد المطبوع، وله أيضا في تاريخ الحواضر بحوث، مخطوطة يبدو أنه كان يكتبها للإذاعة عندما كان يشتغل بها، وقد سبق ذكر بعضها كمدن جيغل، وبجاية، وتلمسان، وعنابة، وقالمة، والقل، ووهران وغيرها.

2- التراجم: لقد تنوعت جهوده في التراجم بين تراجم أعلام قسنطينة وتراجم أعلام الجزائر، وبعض تراجم العرب والمسلمين لاسيما بعض الصحابة

¹ مدينة جامعة إحدى مدن ولاية الوادي تقع بين المغرب وتقرت جنوب شرق الجزائر.

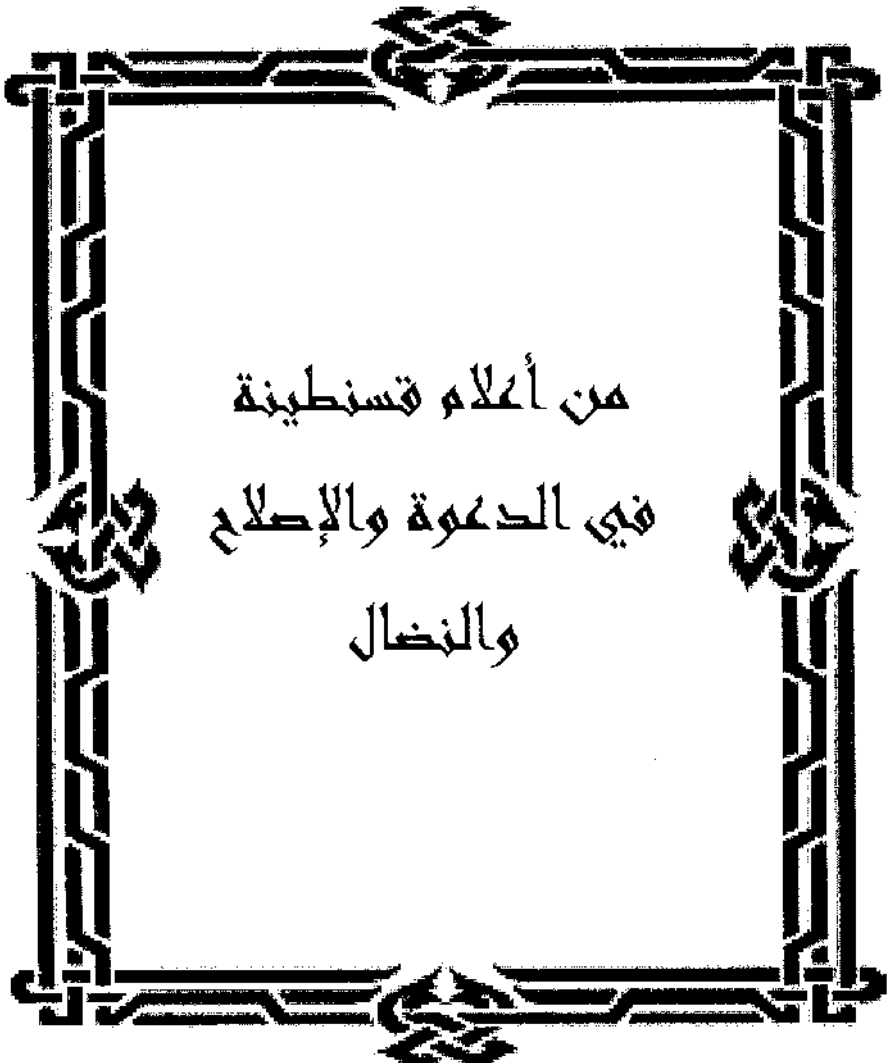
² المهدي شغيب، مخطوطة بعنوان التراجم، 61، 62.

والتابعين، وهذه التراجم نشر بعضها في كتابه أم الحواضر، وما زال البعض الآخر مبعثرا يمكن إذا جمع أن يكون سفرا ضخما.

3- التأليف المدرسي: من ذلك مخطوطة بعنوان "الحارس لطلاب المدارس"، وهي في الكتابة الموجهة إلى الأطفال، كما أعد عددا من القصص التربوية تحت موضوع عام "القصص الشعبية المختارة" يبدو أنه كان قد قدمها للإذاعة الجهوية بقسنطينة.

4- التحقيق: حاول محمد المهدي شغيب تحقيق بعض المخطوطات التي تمكن منها والتي تهم تاريخ الجزائر بالخصوص ككتاب "علاج السفينة في بحر قسنطينة" وكتاب "رحلة أبي راس العسكري ولكنه لم يكملهما.

بعض المخطوطات التي تم تحقيقها
بواسطة محمد المهدي شغيب
في إطار مشروع "الحارس لطلاب المدارس"
من قبل وزارة التربية والتعليم
بجانب وزارة الثقافة
والمعاهد البحثية
والمكتبات الوطنية
والمكتبات الخاصة
والمكتبات المدرسية
والمكتبات الجامعية
والمكتبات البلدية
والمكتبات الحرفية
والمكتبات الشعبية
والمكتبات الخيرية
والمكتبات الدينية
والمكتبات العلمية
والمكتبات الفنية
والمكتبات الرياضية
والمكتبات الصحية
والمكتبات الاجتماعية
والمكتبات الاقتصادية
والمكتبات السياسية
والمكتبات الثقافية
والمكتبات التربوية
والمكتبات البحثية
والمكتبات التوثيقية
والمكتبات الأرشيفية
والمكتبات التاريخية
والمكتبات الجغرافية
والمكتبات الفلكية
والمكتبات الفلكية
والمكتبات الفلكية



من أعلام قسنطينة
في الدعوة والإصلاح
والنضال

الشيخ عبد الكريم الفكون

-الإمام المريني والمصلح الديني والداعية السلفي-

أ. نبيل ربيع - جامعة باتنة 1

هناك شخصيات مغمورة ودراسات مفقودة في تراثنا العربي الأصيل، مجلة من علماء وأدباء في الجزائر عموماً، وعلى وجه التخصيص قسنطينة، ومن أبرزهم شخصية الإمام والعالم عبد الكريم الفكون القسنطيني، الذي أتى عليه حين من الدهر، ظل فيه كنزاً دفيناً وركازاً محبوباً، بعيداً عن الأضواء، محتفياً في دوائر الظلال، لا يكاد يرسوا على شاطئه باحث أو يأنس لأجوائه دارس، أو يرنوا إليه قلم. وذلك بالرغم من البريق اللامع الذي تألقت به شخصيته بوصفه عالماً من أعلام المدرسة السلفية إبان القرن العاشر الهجري.

ولا يزال الأمر كذلك حتى التفت إليه بعض الباحثين ففتحت الطريق إلى دراسة تلك الشخصية الفذة في تاريخ الفكر الإسلامي وفي تاريخ الجزائر. عصر عبد الكريم الفكون القسنطيني.

قبل الحديث عن الأوضاع السياسية يجب أن نشءذير أن مؤلفات الفكون تعطينا صورة حية عن المحطات السياسية والاجتماعية والثقافية خاصة فيما يتعلق بالسلطة التركية ومختلف فئات المجتمع القسنطيني، وهذا من خلال أبرز مؤلفيه: منشور الهداية ومحدد السنان.

- الأوضاع السياسية: كانت قسنطينة في فاتح القرن العاشر (16م) تتبع الحكم الحفصي الذي كان مقره تونس، حيث كل ما يحدث في نظام الحكم بتونس ينعكس تماماً على إقليم قسنطينة أيضاً، وقد عرف النظام الحفصي في فاتح القرن مراحل من الضعف والتهالك جعلته مطمع المتمردين من الداخل والغزاة من الخارج (العثماني بخانب الإسباني معاً) إضافة إلى أضماغ الدويلات الإيعالية المجاورة. حيث كان

الوقود المحرك لهذا التدخل هم أهل الأندلس الذين استنجدوا بالقوة العثمانية والذي انتهى بعد ذلك بفرض الحكم العثماني في الجزائر وطرابلس. مما جعل نظام الحفصي ينهار أمام القوة العثمانية الجديدة.⁽¹⁾

حيث كان إقليم قسنطينة في وقت من الأوقات منطقة النفوذ لعدة أطراف: السلطات المحلية، بما فيها شيوخ القبائل، التي شعرت بتراخي قبضة السلطان الحفصي فعرفت كما لو كانت بدون سلطان والقوات الإسبانية التي عادت إلى تونس وطردت العثمانيين ومدت عينيها إلى إقليم قسنطينة فعينت لها حاكما على عنابة والعثمانيون الذين كانوا متمركزين بالجزائر ويريدون أن يجعلوا من إقليم قسنطينة حدودهم الدفاعية الشرقية ضد الأسبان، وهكذا كثرت الأطراف المتنافسة وكان كل طرف يبحث له عن الحلفاء والأنصار، وكان الدين عاملا مهما في انضمام السكان إلى العثمانيين⁽²⁾.

كما عرفت قسنطينة عدة ثورات داخلية وغارات منها ما حدث سنة 975هـ/1567م ضد الحماية العثمانية بسبب التعيين الولاة والسلاطين. حيث لم تتوقف الثورات حتى بعد أن استقر الوضع العثماني وأصبحوا يعينون حكامهم (البايات).

وهكذا يمكننا القول أن الأوضاع السياسية في قسنطينة في عصر عبد الكريم الفكون لم تكن مستقرة أتم الاستقرار ولا مضطربة طوال السنة. فكانت تضطرب وتستقر باختلاف الحكام والبايات عليها منذ دخول الأتراك إليها، واستقرار حكمهم فيها إلى نهاية ذلك بخلافة أحمد باي عليها وخروجه منها إلى غاية الاستعمار الفرنسي الذي أخضع مدينة قسنطينة تحت نفوذه سنة 1837م. بعد مقاومة عنيفة

¹ - أبو القاسم، سعدالله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون الداعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط: 1، 1406هـ، 1986م، ص: 11.

² - المصدر نفسه، ص: 12-14.

وطويلة الأمد واجهها الفرنسيون من طرف أحمد باي هذا الأخير الذي اضطر إلى الخروج منها والاتجاه إلى الصحراء أين استمرت مقاومته للاستعمار الفرنسي.

- الأوضاع الاجتماعية: قبل الولوج في سرد مظاهر الحياة الاجتماعية وجب علينا تسجيل بعض العوامل المؤثرة في المجتمع الجزائري والتي منها:

* هجرات الأندلسيين التي بدأت خلال القرن التاسع وتفاوتت خلال القرن العاشر.

* الوجود العثماني.

* التأثيرات السياسية.

* تأثير المجتمع الجزائري بالحالة الصحية والمعاشية.

* كثرة الأمراض والأوبئة في مقابل ندرة الأدوية والعقاقير، فالصيدلية الوحيدة الموجودة بمدينة الجزائر. كانت لا تتوفر إلا بعض العقاقير والحشائش، وأن الباش جراح القائم عليها كان يجهل مواصفاتها وفوائدها الطبية.

* حصول وباء بالطاعون الذي حلّ بقسنطينة خلال 1602/1603 حيث قتل خلق كثير وحصل قحط وجفاف توالى لتسعة سنوات كاملة أدى إلى حصول مجاعات قتلت كثير من الخلق⁽¹⁾.

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية: يمكننا أن نلاحظ أن المجتمع القسنطيني كان يعيش في اضطراب وعدم استقرار، وقد شاركت في صياغة هذه الحالة كثير من الأطراف. منها السلطة الحاكمة وربما هي التي كان يشير إليها إمامنا الفكون باسم الظلمة أو ممثليها من المخزن أو شيوخ الأحياء. فقد وردت نازلة من نوازل الإمام الفكون أحاب عنها الفكون الحفيد جاء فيه: "أن جماعة وقعت بينهم وبين شيخ

¹ -حسين بوحلوة: عبد الكرم الفكون القسنطيني حياته وأثاره، رسالة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة السانية، وهران، 2008/2009م، ص: 19-22 (بتصرف).

جومتهم مكاملة فوشاهم إلى المخزن فطلب بعضهم وهدمت دورهم من غير أن يفعلوا ما يستحقوا به ذلك لا بالشرع العزيز ولا بالقانون السلطاني".

ناهيك أن قسنطينة كانت عرضة لجماعات والأوبئة خاصة الطاعون الذي أهلك كثير من الناس؛ منها طاعون 1582م، و1602/1603م، حيث تلاء جفاف وقحط استمر لمدة تسعة سنوات. وقتل خلق كثير ثم حل بعد ذلك طاعون آخر سنة 1622 الذي كان ضحاياه باي قسنطينة، وطاعون سنة 1643م الذي أودى بحياة ثلاثة علماء كبار بقسنطينة وهم: (بركات بن نعمون، عبد اللطيف المسبح، وبركات بن عبد المؤمن) وطاعون آخر سنة 1644م، إذ مات منه ثلاثة مئة شخص في يوم واحد، إضافة إلى الجفاف الذي ضرب عام 1647م كل المقاطعة وانتشرت جراءه المجاعة وارتفع ثمن الحبوب، كما انتشرت اللصوصية والقتل وعمت الفوضى بعد الاضطرابات السياسية.⁽¹⁾

- **الأوضاع الثقافية:** كانت لدى قسنطينة في عهد عبد الكريم الفكون رصيد قوي من الثقافة ورثته عن المعهد الحفصي والذي عرفه القرن التاسع الهجري (15م)، حيث عرف القرن الموالي نشاطا واضحا في الحياة الثقافية التي لم تؤثر فيه كثيرا من الأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة. فقد انتشرت الزوايا، بعضها تحت رعاية العائلات الكبيرة في المدينة.⁽²⁾ كما كانت هناك بعض المدارس المخصصة لنشر العلم، كما كان هناك جامع الزيتونة القريب والذي كان الطلبة يقصدونه بقطع النظر عن التحولات السياسية.⁽³⁾

¹- حسين بوخلوة: المرجع السابق، ص: 24.

²- سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص: 28 (بتصرف).

³- المصدر نفسه، ص: 29.

فإذا عدنا إلى شخصيات علمية التي عرفتها قسنطينة أمثال عمر الوزان ويحيى الفكون اللذين أخرجنا مجموعة من التلاميذ البارزين منهم من قاد العلم فيما يأتي من الأيام، ومنهم من جمع بين العلم والتصوف. بل منهم من تزعم ثورات هددت النظام العثماني في قسنطينة مثل يحيى الأوراسي.

كما عرفت قسنطينة مجموعة من الزوايا التي تعتر بها عائلاتها مثل عائلة الفكون وعائلة ابن باديس وعائلة بن نعمون... إلى غيرها، وكانت هذه الزوايا مقصد الطلبة للعلم والراحة والإقامة، كما كانت كذلك مقراً ونزلاً للعلماء الزائرين.⁽¹⁾

بعد عرض أهم الجوانب الثقافية نسجل النقاط التالية:

- أن التعليم بجميع مستوياته كان منتشرًا في المدارس والمساجد وفي الزوايا التي أخذت تنتشر وتتوسع، حيث كانت حلق التدريس حول كل أستاذ مشهور سواء في المدرسة أو الجامع أو الزاوية هو المنبع الذي ينهل منه تلاميذ طلاب القرن التاسع الهجري.

- ظهور عقيدة المرابط وانتشار الزوايا وافتتاح عهد التصوف العملي والمبالغة في الاعتقاد بالشيخ، إضافة إلى ابتداء الحضرة والأوراد وانتشار الأضرحة. وهو ما كان له شيخان خطيران أولهما تبسيط المعرفة وغلق الاجتهاد والاكتفاء بالحد الأدنى من التعليم؛ فأصبحت الزاوية تنافس الجامع والمدرسة بل تفوقت عليهما، فلجأ الجميع إلى تبسيط العلوم المدرسية وازداد التنافس بين الطرفين بحثًا عن لقمة العيش، فبينما كانت الأديرة في أوروبا تدافع عن نفسها كانت الزاوية في محل المحجوم⁽²⁾.

1- سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، ص: 30-33 (بنصرف).

2- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط: 1، 1990، ج: 2، ص: 46.

موقفه من السياسة: ما يمكن قوله هو أن الفكور كان بكرة التقرب من الأمراء ومخالطة الأمراء، وجماعة السلاطين، كما أنه لم يتعرض لكثير من الأحداث السياسية المهمة التي وقعت في عصره، والتي من أبرزها ثورة ابن الصخرى عام 1637، كذا الصراع بين الإسلام والصليبية في هذه الفترة، لكن ما الذي جعل فكور يغض الطرف عن هذه الأحداث؟ هناك تفسيرات أما الأول فهو أن هذه الأحداث لم تكن موضوع (منشور الهداية) لأنه ألفت للنصح العام، ومحاربة البدع، والاحتياط العقلي وهو ما يتلاءم مع ما كان عليه العالم من صراع شديد بين العثمانية (الإسلامية) والإسبانية المسيحية، فإن صح هذا التفسير يكون عمله هذا مكملًا لعنصر القوة الخارجية.¹

أما التفسير الثاني فهو أن الفكور كان رجل دين وعلم يؤمن بعدم التدخل في الشؤون السياسية والمحافظة على مكانة رجل الدين والعلم أمام رجل الحكم والسياسة.²

وعلى ما نرى أن نسجل أن الفكور رغم ابتعاده عن شؤون السياسة عموماً وهو ما يتوافق مع تصوفه إلا أننا نلمس ذوق سياسي فكان يتحسس من السلطة التركية، ويصف قضائهم بقضاة العجم، كما أننا نجد متعاطفاً مع الثورة التي قام بها يحي الأوراس والذي تصدى للإفتاء بقسنطينة ودار سلطنتها بالجزائر ونتيجة الوشاية لدى الأمراء والقول عليه بخلع البيعة فر من قسنطينة إلى أوراس، واجتمع عليه الناس، ووقعت بينهم وبين عساكر الجزائر حروب كثيرة، وبقي كذلك إلى أن قتل -رحمه الله- بحالة غدر من بعض الفرق، فبيوته فغدروا فكان من أمره ما قدر الله، وقال أنه يموت شهيداً.³

¹- المرجع نفسه، ص: 72.

²- المرجع نفسه، ص: 72.

³- المرجع نفسه، ص: 72.

موقفه من التصوف: رغم نقد الفكون لتصوفة عصره فإنه كان شخصياً من المتصوفين، وكان في الواقع شاذلياً زروقياً، وهو لا يخفى ذلك أو يتكره بل يعلنه في غاية الصراحة، وكان يسير على مقتضى تعاليم الطريقة الشاذلية والطريقة الزروقية في أرائه وسلوكه، وقد تأثر بهذه التعاليم، كما سنرى من عدة مصادر⁽¹⁾.

المصدر الأول: إنه أخذ عن والده عن جده عن عمر الوزان، الذي قال عنه الفكون أنه دعوة من دعوات الشيخ أحمد زروق، وبين ذلك بأن الشيخ زروق كان يتردد على قسنطينة وكان والد الوزان يعمل جانياً للضرائب بباب المدينة. فكان يعفي الشيخ زروق من الدفع. وقد جاء الشيخ زروق ذات مرة فلم يجد ذلك الرجل فسأل عنه فقيل له إنه يقيم وليمة بمناسبة ميلاد ولد له، فذهب إليه زروق وحمل الولد (عمر الوزان) في كفه وأخذ يدور به في غرفة وهو يتمتم له بكلام صوفي وأدعية، مفادها أن عمر الوزان سيكون من أهل العلم والصلاح في قومه. لذا فالفكون من المنتسبين إلى مدرسة الوزان التي هي مدرسة الإمام أحمد زروق، وقد ورث هذا الانتماء عن والده عن جده⁽²⁾.

المصدر الثاني: أنه قرأ على الشيخ يحيى الأوراسي، كما عرفنا. وكان الأوراسي قد أخذ الطريقة الزروقية عن شيخه طاهر بن زيان الزواوي عن أحمد زروق عن عبد الرحمن الثعالبي. وكان زروق قد أقام مدة في كل من بجاية وقسنطينة وترك هناك تلاميذ ونشر تعاليمه الشاذلية المنقحة. ونحبرنا بعض الروايات أن الفكون قد لبس الحزقة الصوفية الزروقية-الشاذلية-على يد شيخه يحيى الأوراسي عن طاهر بن زيان المذكور عن أحمد زروق الصغير عن والده عن محمد بن يوسف السنوسي⁽³⁾.

¹- سعد الله، عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص: 109.

²- سعد الله، عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ص: 109-110.

³- العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص: 206، ط- المغرب، 1899.

المصدر الثالث: أن الفكون درس قصيدة القدسية لعبد الرحمن الأخصري وهي قصيدة التي تذكر أحوال المتصوفين في القرن العاشر الهجري (16م) وتدعى عليهم اللجوء إلى الخرافة والشعوذة، وتدعوا إلى التمسك بالعلم ونبد البدعة والعمل بالكتاب والسنة، والجمع بين علمي الظاهر والباطن جمعا صحيحا واضحا. وكان الأخصري من تلاميذ الشيخ أحمد زروق، وكان الفكون قد أعجب إعجابا شديدا بالقدسية حتى أنه كاد يذكرها كاملة في كتابه (منشور الهداية)¹.

ونضيف أيضا أننا نجد أن الفكون ظل محافظا على خطه الأصيل الذي هو التصوف ويقرر في "محدد السنان": (أنه إذا تعارض رأي الصوفية مع رأي غيرهم؛ فإن الحق معهم لعدم اجتماع رأيهم على الخطأ)². وفوق ذلك فقد حافظ الفكون على عدة أفكار صوفية منها، الإيمان بالمراثي والمنامات، فقد صدق رجلا قرأ أن اسم النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة هو عبد الكريم، وأنه رأى في المنام جده الذي قال له: كان فعل ماضي فكان سبب تحوله لدراسة النحو، وكذلك إيمانه بوجود الأغوث والأقطاب وغيرها³.

وأخيرا نقول أن للفكون حاسة روحية في التفسير الإشاري، وقد كان له منه النصيب الأوفر، حيث يبرز ذلك من خلال مؤلفاته، وهو سني في تصوفه - تصوف معتدل - فهو لا يذهب مذهب الحوليات أو وحدة الوجود.

المطلب السادس: مؤلفات الفكون

وختاما الحديث عن علم من أعلام الجزائر عموما، وعلى قسنطينة خصوصا، ناهيك عن المكانة العلمية الراقية التي كان يتمتع بها سواء من خلال مجالسته للعلماء

¹ - منشور الهداية، ص: 229-234.

² - حسين بوخلوة، عبد الكريم الفكون حياته وأثاره، ص: 80.

³ - حسين بوخلوة، عبد الكريم الفكون حياته وأثاره، ص: 80.

والمشايخ، أو من خلال آثاره العلمية التي تجلت في تلاميذه ومؤلفاته، التي شاعت وذاعت في أقطار العالم الإسلامي، كما عرفت سعة علم الفكون من خلال تنوع إنتاجه الفكري وشموليته لمختلف الفنون كالفقه واللغة والأدب والتصوف وغيرها. كما أنه تأثر بالظروف المحيطة به وخاصة حركة التصوف، التي غلبت على مؤلفاته مسحة صوفية تجلت في كثرة نقله واستثناسه ببعض لطائف التي قال بها أهل الإشارة دون أن ينسأع وراءها.

وأخيرا لا ندعي أننا أثينا بما لا تأتي به الأوائل، وغنما حاولنا الإلمام وإماطة اللثام في دراستنا هذه المتواضعة عن تعريف بشخصية من شخصياتنا المرموقة، فإن أصبنا فمن توفيق الله، وإن كانت الأخرى فمن أنفسنا والشيطان.

الشيخ صالح بن مهنا القسنطيني وآراؤه الإصلاحية

د/ زكية منزل غرابة

د/زهرة لعلع

جامعة الأمير محمد القادر

للعلوم الإسلامية

تؤكد الأدبيات التاريخية التي تحدثت عن الشخصيات الجزائرية عموما وأعلام قسنطينة على وجه الخصوص أن هؤلاء الأعلام قد تركوا بصمات شهد لهم بها التاريخ، وتعد قسنطينة باعتبارها موطن العلم والعلماء من المواقع الجزائرية التي أنجبت العديد من الشخصيات في مجالات متعددة ومختلفة.

وإذا كان المقام هنا يختص بذكر أعلام قسنطينة من علماء العلم والمعرفة فقد حق لنا أن نقف عند واحد من أبرز شخصياتها في مجال الإصلاح الديني والاجتماعي، وإنما نقصد هنا رائد الإصلاح المغمور الشيخ صالح بن مهنا، الذي يعد بحق من أعلام قسنطينة الذين حملوا لواء الثورة على الجمود إن لم نقل أن الإرهاصات الأولى لفكرة الإصلاح تعود إلى هذا الشيخ الوقور، فقد عاش الرجل طوال حياته يستنهض هم الجزائريين ويوظفهم من غفلتهم وكبتهم التي عمل الاستعمار وأذنا به سنوات طويلة لأن يبقى الشعب الجزائري خارج الذاكرة الدينية والوطنية.

وعلى الرغم من أن شخصية الشيخ ابن مهنا جديرة بالاهتمام لما تحفل به حياته من مواقف وجهود مضيئة في سماء الإصلاح بالقطر الجزائري إلا أن المهتمين بتاريخ الجزائر قد أغفلوا ذكره في أكثر من موضع عدا ما قام به الأستاذ سليمان الصيد الذي أفرد له كتيباً ذكر به مسيرة الرجل، وما أشاد به مالك بن نبي بشخصية الرجل في كتابه شروط النهضة.

وعليه فإننا نرى أن الواجب يحتم علينا إبراز مواقفه وآرائه الإصلاحية.

آراؤه الإصلاحية: عرف الشيخ بموقفه من شيوخ الطرق الذين يكرسون الجهل بالدروشة بما ينشرونه من اعتقادات خرافية، حيث شن حملات عنيفة ضد الذين يجعلون من التصوف بوق شعوذة ومصدر استرزاق من الضعفاء والسذج وفي هذا يقول مالك بن نبي "والحق أن هذا الشيخ الوقور كان في طليعة المصلحين، إذ أنه قام قومة مباركة ضد الخرافيين (ال دراويش) (1).

لقد كان مالك بن نبي معجبا كثيرا بهذه الشخصية فما فتى يأبى على ذكره ويشيد بأعماله في كتبه مثل شروط النهضة وشاهد القرن معتبرا إياه من أوائل مصلحي الجزائر الذين أرادوا لبلادهم اليقظة من غفلة النائمين محملا المسؤولية في تلك الغفلة إلى الاستعمار أولا ثم أذنا به من مدعي التصوف ودراويش الطريقة، وهذا بالفعل ما نلمسه بوضوح من خلال مطالعتنا لمساره وتوجهه الإصلاحي، حيث كان يرى أن ثلاثة هم أبعد ما يكون عن الفلاح وهم: ابن شيخ الطريقة وزوجته وخادمه لأن ابنه قد نشأ وشب على رؤية الجموع وهي تحمل الشيخ على الأعناق وتتهافت على تقبيل يديه بما لا يدع في نفسه مجالاً للخروج على نواميس ودروب الدروشة. والحقيقة أن موقف صالح بن مهنا من الطريقة أذئاب الاستعمار هو موقف مشترك بينه وبين العديد من رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر مثل البشير الإبراهيمي وعبد الحميد بن باديس ممن حاربوا تلك الخيانات الروحية لبعض الطرق الصوفية في الجزائر. "ولئن كان الإصلاح قد مس جوانب مختلفة من حياة الفرد الجزائري بشكل عام فإن أبرز صور الإصلاح تمثل في الإصلاح الديني الذي يشير إلى تطهير العقيدة الإسلامية التي ران عليها كثير من البدع وممارسات منحرفة عن فهم السلف الصالح ومحاوله تجاوز الوضع الطرقي الذي مس صميم عقيدة الجزائريين" (2).

(1) - مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط11، 2012 م، ص25 .

(2) - نور الدين تيبو، قضايا الحركة الإصلاحية عند رابع زناتي والأمين العمودي، ماجستير غير منشورة، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 1997م، ص32 .

وقد كانت الطريقة كما يقول شكيب أرسلان: "من ضمن الأسباب التي للموضوعية التي تقف وراء دوام الاستعمار في ديار المسلمين بفعل الحيوانات الروحية حيث كانت الطرق الصوفية العين الساهرة على حماية مصالح الاستعمار في مقابل ما باعوه من ذمم وهكذا كان صالح بن مهنا من الشخصيات الثقافية التي عاجلت هذا الداء، حيث كان رائدا من رواد نقد المرابطين والمحرفاتهم العقدية وممارساتهم السلوكية التي عمقت الجهل والتعاس في الأمة ولذا كانوا ابتداء من النصف الثاني من القرن العشرين مطية للاستعمار الذي استخدمهم لقهر روح التمرد على الطغيان الفرنسي"⁽¹⁾.

كما شغلت قضية الأشراف حيزا كبيرا في المسار الإصلاحية للشيخ صالح بن مهنا وهي القضية التي كانت ذاتة في عصره، بل كانت حسب سعد الله "مسألة حساسة في الجزائر بل في المشرق أيضا. فقد كثر المرابطون وأدعياء الشرف منذ السبعينات من القرن الماضي، وروجت له الدعاية العثمانية عن طريق أبي الهدى الصيادي، نقيب الأشراف على مستوى الدولة لفكرة الشرف وأهميته بالنسبة لسلاطين آل عثمان أنفسهم، وارتبط كل ذلك بفكرة الجامعة الإسلامية"⁽²⁾. وقد وجد ابن مهنا نفسه مطالبا بالإدلاء برأيه في هذه المسألة، حيث رأى فيها ادعاء لحق بغية الوصول إلى مكاسب غير مشروعة، إذ يقول أن الكثير من الدجالين ينسبون أنفسهم ويصلون نسبهم بالنبي عليه الصلاة والسلام فثار على هذا الوضع الذي تشدق به أدعياءه تكسبا موضحا أن الشرف مرده إلى التقوى دونما احتياج إلى الزردة والمشعوذين الذين يصفهم في كتبه بالكفار و"من ذلك كتابه تنبيه المغترين في الرد على إخوان الشياطين"، أين رد على رسالة "في ضوء الشمس" لأحمد بن دادا التي وضعها بقصد مدح وتبجيل الأشراف، وقد كان لكتاب بن مهنا وقع شديد على

(1) - أحمد الشرياصي، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، 1978م، ص 191

(2) - أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص 118.

أدعياء الأشراف فرد عليه أبو عيسى المهدي بن محمد العمراني الوزاني برسالة سماها "السيف للسلول باليد اليمنى في الرد على ابن مهنا" ورد ابن مهنا هو الآخر على أبو عيسى برسالة عنوانها بـ "الفتح الرباني في الرد على المهدي المغربي الوزاني"⁽¹⁾. والواقع أن ردود الفعل هذه استفادت منها الإدارة الفرنسية لضرب الأنصار والخصوم معا لفكرة الشرف ومعارضة توسع الجامعة الإسلامية، وقد اعتقلت الإدارة الفرنسية في البداية الشيخ عاشور الخنقي بدعوى أنه أساء إلى بعض الأعيان، ونفته وفرضت عليه الإقامة الجبرية والسجن، ثم وصل الأمر إلى محمد الصالح بن مهنا نفسه بدعوى أنه أساء إلى الدولة الفرنسية، وأنه تفوه بكلام ضدها وضد علماء الوقت لا يتناسب مع وظيفته كخطيب في جامع رسمي⁽²⁾. ولم يتوانى الشيخ صالح بن مهنا عن الصدع بكلمة الحق في حلقات دروسه أين تفرغ لوظيفة التدريس والإمامة بالجامع الكبير وكذا الزاوية الخنصالية كمتطوع في جميع مواد الدراسة حوالي ثلاثين سنة، إلى جانب انصرافه للتأليف، حيث أكترى بيتا بالقرب من الزاوية الخنصالية ليتفرغ للتأليف وهذا حرصا على نشر العلم. ولم يكن الشيخ في مسيرته الإصلاحية بعيدا عن مواجهة السلطة الاستعمارية وكشف مخططاتها بوصفه أحد أبناء النخبة القسنطينية أين أرسلوا عريضة في 14 نوفمبر 1886م إلى حاكم عمالة قسنطينة مطالبين فيها بجملة من المطالب وعلى رأسها إصلاح أمور دينهم عن طريق استكمال ترميم المسجد الكبير، إلا أن الإدارة الاستعمارية قد تماطلت تجاه تلك مطالب تلك النخبة وهو ما دفع بأعيان قسنطينة وعلى رأسهم الشيخ صالح بن مهنا إلى تحرير رسالة مؤرخة في 28 جويلية 1887 إلا أن الإدارة الاستعمارية لم تعرها اهتماما إلى أن قامت النخبة القسنطينية إلى رفع شكواها إلى الحاكم العام بالجزائر العاصمة السيد لويس تيرمان (Louis Turman) ضمن عريضة 8 جويلية 1892 بإمضاء 48 شخصا برئاسة إمام الجامع

(1) - عادل نويهيض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهيض الثقافية، بيروت لبنان، ط2، 1980م، ص323،

وموقع: shamela.ws/brows_c.php/book/ تاريخ الدخول: 2016/4/13م.

(2) - أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص119.

الكبير الشيخ صالح بن مهنا وآخرون أمثال الحسين بن الشيخ الفقون مؤكدين خلالها على عدم تخليهم عن المؤسسات الدينية التي آلت إلى حالة مزرية وخاصة مسجد الجامع الذي تحولت بعض أجنحته إلى محلات تجارية⁽¹⁾.

وقد تعرض الشيخ صالح بن مهنا جراء مواقفه تلك وجهوده الإصلاحية إلى محن عصيبة من العدو الفرنسي وكذا أبناء وطنه من الطرفين، حيث عملت الإدارة الاستعمارية على عزله من إمامة المسجد وألقت القبض عليه مستولية على مكتبته وفي هذا يقول مالك بن نبي " غير أن الحكومة الساهرة على الهدوء كيلا يستيقظ النائمون عملت على إبعاده وعاقبته بمصادرة مكتبته الثمينة وقرت أمثاله من مقلقي النوم العام في نظر الاستعمار"⁽²⁾. ولم تكن الإدارة الاستعمارية وحدها من تصدت للعدوان على صرخة هذا الرجل الوقور بل تضافرت جهود دراويش الطرقية لئلا ينال منه شعرا ونثرا ومنهم عاشور الخنفي الذي ألف كتابا يتضمن قضية الأشراف التي هاجمها ابن مهنا وكان عنوانه "منار الأشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف"، كما ألف ضرفي آخر وهو هيان بن بيان كتابه "كشف النقاب على الورتلاني الكذاب"، وقد امتد نطاق تلك الردود حتى خارج الجزائر من الطرفين أمثال المهدي الوزاني ومحمد عابد بن سوادة .

خاتمة: هذه إذن صورة مختصرة لأحد أعلام الإصلاح بقسنطينة، ومما يمكن قوله أن الرجل كان بحق القائد الذي يستحق لقب رجل الإصلاح بامتياز، ولئن حاولنا استجلاء جوانب من مواقفه الإصلاحية فإننا نعتقد أن مجال البحث في إطار هذه الشخصية ما يزال مفتوحا أمام الباحثين، للدراسة آثاره في مجال التأليف في المجالات المختلفة .

(1)- أحمد مريوش، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر المعاصر، ج 1، ص 114-115.

(2)- مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 25.

صالح بن مهنا القسنطيني... مسيرة عالم

أ. سهيلة حازة

جامعة الأمير محمد القادر

للعلوم الإسلامية

المقدمة:

تعد قسنطينة من مدن الجزائر العريقة، فهي قسنطينة التاريخ والحضارة والعلم، بفضل جهود علمائها الذين رسموا لها خط الحضور فسّمت بأهم الحواضر وأهم المعامل وأهم العلوم؛ فهي فعل ثقافي تحرك بعباء رجالها الأفذاذ، الذين شغفوا بالعلم والمعرفة وشقى الفنون بدلا وأخذوا حتى ارتقوا بها إلى مصاف الحواضر الثقافية في المغرب والمشرق، وهم بذلك يستحقون أن لا يقوا تحت الظلّ وفي ذاكرة النسيان، لذا سعيت أن ألتفت بقراءة ترجمة حول واحد من صنّاع تاريخ قسنطينة العريق وهو العلامة صالح بن مهنا القسنطيني؛ الذي يعد شخصية جديدة بالاهتمام لما له من هامة علمية وروح نقدية وموهبة إصلاحية، فهو العالم المصلح والمؤلف الناقد والإمام المدرس، والفقير العارف، الذي لو ذكرنا كل علم برز فيه لوجدناه شخصية موسوعية متنوعة المعارف، رغم هذا نجد أنّ الدراسات المهمة بتاريخ الجزائر وأعلامها لم تحفل به كثيرا، إذا استثنينا جهود المؤرخ سليمان الصيد⁽¹⁾، والمفكر مالك بن نبي الذي كان

(1) سليمان الصيد مؤرخ ومدرس ومحامي وجامع اللغات الجزائري ولد بطولقة ولاية بسكرة سنة 1929م درس على يد الشيخ عبد النعمي ببلده ثم انتقل إلى تونس ليتحصل على شهادة الألفية شهادة التحصيل ثم واصل دراسته بالمغرب أين تحصل على الليسانس سنة 1966م اشتغل بالتدريس في مدارس جمعية العلماء المسلمين وبعد الاستقلال تولى التدريس بثانوية عبد الحميد بن باديس ثم بمعهد الحقوق بجامعة قسنطينة ثم محاميا كلفا إلى أن توفي سنة 2004م ودفن بقسنطينة بلد النشأة، له 15 مؤلفا مطبوعا منها الشخصية الجزائرية عبر التاريخ صلح بن مهنا القسنطيني نفع الازهار عما في مدينة قسنطينة من أخبار تاريخ الجزائر القديم تحقيق كتاب النحة المسكية للسفارة التركية وغيرها كما ترك كتابا لم تطبع بعد كتب مقالات كثيرة كما مشاركات عديدة في الملتقيات الوطنية والدولية.

المرجع : عايشت الأستاذ سليمان الصيد وعاشرته بحكم صلة القرابة وأخذت منه ترجمته.

يعتبره رمزا للإصلاح في الجزائر وبنوه بذكرة في كتبه ومقالاته.

لقد تميز صالح بن مهنا بالحركية والفاعلية وإبداء آرائه العلمية والفقهية بلا عقد ولا خوف في زمن ساد فيه الركود الفكري ومداهنة القوى الاستعمارية، هذه الشخصية الفاعلة أوغرقت صدر العدو المستعمر ضدها فعمد إلى إخماد حركة الرجل لما اكتشف فيه من قدرة على المقاومة والتضحية في سبيل الفكرة الحرة، ولم يتوان حتى المحيطون من حوله في محاربتة، لأنه كان يمثل خطرا على مستوى تفكيرهم ومصالحهم المادية. لقد تعرض العلامة الكبير صالح بن مهنا في حياته إلى محن وإهانات، ولقي النسيان بعد وفاته، فهو من علماء الجزائر المغيبين في سجل المغمورين. ولعل ابن مهنا كان يعلم بخبرته أن أهم الأفكار التي تعيش وسط الباحثين هو هذا النسيان عندما قال: «وقوع الإهمال في وطننا فإنه أكثر إهمال من كل وطن من الأوطان الأربعة، أعني أقطار المغرب الأربعة... فترى كل وطن له اعتناء بفن التاريخ وذكر مناقب الأولياء والعلماء إلا وطن الجزائر، فكل عالم ولى صار عندهم نسبا منسيا...»⁽¹⁾، ولعلنا نلاحظ أن هذا التدمير موجود في علمائنا ومستمر، رغم أن تقدير المعرفة والعارفين في اعتقادي هو سبيل التغيير الإيجابي والارتقاء بالأمة إلى المستوى الذي يرى فيه العالم أساس كل إضافة حضارية.

عصر ابن مهنا: عاش صالح بن مهنا في فترة صعبة، كان الشعب الجزائري يتجرع غصة المستعمر ويتعرض لأبشع أنواع الظلم والاستغلال، وذلك بعد قضاء الاستعمار على الثورة المقرانية الشعبية، وتسليط التالوث الخطير عليه التحقير/التجهيل/الظلم، إضافة إلى تفنن المحتل البغيض في سن القوانين الجائرة المسلطة على الشعب الجزائري المسلم، كقانون الانديجينا وقانون التجنيد الإجباري، وقانون نزع الأملاك، كان الغرض منها مسح الهوية الجزائرية، كما فتح المستعمر في تلك الفترة، باب الجزائر على مصراعيه، لتندفق إليها أمواج بشرية من كل جنس ودين

(1) - صالح بن مهنا، هامش الرحلة الورتيلانية، طبع في تونس، ج 1، ص 52.

(مالطا، كورسيكا، والأزراس، واللورين...) ⁽¹⁾، ليحلوا محل السكان الأصليين الذين انتزعت منهم أراضيهم العروشية لتسلم لقمة سائغة لهؤلاء الدخلاء الذين ابتليت بهم الجزائر في وقت عصيب وخلفوا لها صفات الجشع، الطمع، الانحطاط، والتعفن...

إلا أنّ الفئة المتنورة من أبناء الجزائر لم تستكن لهذا الواقع المرير الذي جلبته ويلات المستعمر فحركت الهمم ورفعت صوتها بكل شجاعة احتجاجا ورفضاً لهذه المظالم وسعت إلى التغيير ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ومن أبرز هاته الشخصيات الجزائرية الفذة، الشيخ صالح بن مهنا الذي اعتنى بالتدريس والتأليف والقاء خطب الجمعة: رافضاً الخضوع للاستعمار والرضا بالواقع المر، كما رفع الغبار عن صحائف الإسلام، ودعا الناس إلى نبذ الخرافات التي تؤسس للسلبية والحمول.

مولده ونشأته: ولد صالح بن مهنا عام 1840 بقرية القشرة (كركرة) ⁽²⁾ بلدية القل، حيث تقطن قبيلته، وقد ذكر صالح بن مهنا أصله في الطرة التي كتبها على رحلة الورتيلاني ⁽³⁾، والموسومة بـ: "زهة الأنظار في فصل علم التاريخ والأخبار"، وعندما بلغ من العمر 35 سجّل نفسه من مواليد قسنطينة في شهر ماي 1889، حسب ما هو مسجل في الحالة المدنية لبلدية قسنطينة ⁽⁴⁾.

وعن نسبه: تمتد جذور عائلة بن مهنا إلى المشرق العربي بالمدينة المنورة، فقد ذكر في تعليقه على الرحلة الورتيلانية قائلاً ⁽⁵⁾: «مهنا من أسلافنا، ولنا أسلافنا بالمشرق وبللمدينة المنورة أشرف وأمرء ذكرهم ابن خلدون في تاريخه، ولنا أسلاف أيضاً بالمشرق ذكرهم أبو القداء في

⁽¹⁾ _ انظر: سليمان الصيد، صالح بن مهنا القسطنطي، ط1، (1404هـ-1983م)، دار البعث، ص20-22.

⁽²⁾ _ تبعد قرية القشرة عن قسنطينة بنحو 100 كلم.

⁽³⁾ _ هو الشيخ الحسين بن محمد السعيد الشريف الورتيلاني، له عدة تأليف منها "رحلة الورتيلاني"، توفي سنة 1194هـ.

⁽⁴⁾ _ صالح بن مهنا، المرجع السابق، ص27. بين سليمان الصيد أن الاختلاف في ولادته هو ضياع تراثه ومؤلفاته من

جراة النكبة التي تعرض إليها من طرف الاستعمار وتبعثرها بين يدي خصومه كما سيأتي الحديث عنه.

⁽⁵⁾ _ الرحلة الورتيلانية، مصدر سابق، ج3، ص151.

تاريخه وابن الوردي في تاريخه، وكان جد صالح بن مهنا من الصالحين ومن العابدين»⁽¹⁾. فقبيلة بن مهنا شريفة لا يعود أصلها إلى المغرب فقط، بل لها جذور في المشرق، ولعلّه ذكر هذا في كتابه المفقود الذي ترجم فيه لعلماء قسنطينة وأدبائها وفضلائها⁽²⁾.

رحلته إلى طلب العلم: درس صالح بن مهنا القرآن الكريم وبعض مبادئ العلوم التي كانت في عصره من فقه ونحو وصرف، ثم سافر إلى تونس بغية طلب العلم والاستزادة منه، وتعلم هناك على مشايخ فضلاء، ومن تونس انتقل إلى القاهرة والتحق بالجامع الأزهر سنة 1279هـ الموافق 1857م، أين تتلمذ أيضا على كثير من شيوخه، كما حج ابن مهنا إلى البيت الحرام وزار بيت المقدس؛ لكن لم تعثر على تواريخ محددة لرحلاته العلمية، سواء داخل الوطن أو خارجه⁽³⁾.

مشايخه: لم يتحدث صالح بن مهنا عن أساتذته وشيوخه الذين درس عليهم في قسنطينة ما عدا أستاذه عبد الله الدراجي⁽⁴⁾ الذي كان معجبا ومتأثرا به كثيرا، وقد ترجم هذا الحب والاهتمام عندما ألف عنه كتابا عنوانه "إسعاف الراجي في بعض مآثر الشيخ عبد الله الدراجي"، ومما قال في شيخه: «من أولاد دراج شيخنا العلامة الورع الزاهد الولي الصالح المرابي المكاشف سيدي وسندي الحاج عبد الله الدراجي»⁽⁵⁾، كما ذكر أيضا: «فإن شيخنا الدراجي قدس الله سره لا يزال درسه للبخاري بجامع الزيتونة وجامع سبحانه الله بتونس يعرض الأمير ويزجر عن الظلم..»⁽⁶⁾.

(1) _ المصدر نفسه، ج3، ص151.

(2) _ صالح بن مهنا: مرجع سابق، ص31.

(3) _ انظر: المرجع نفسه، ص39.

(4) _ الشيخ عبد الله الدراجي، من أهل العلم والزهد انتقل من قسنطينة إلى تونس علما أخذ بقراءة البخاري قراءة ودراية، من أحفاده في الجزائر الفقيه الشيخ حمو بن الدراجي، وأخوه الأديب علي الدراجي وقال فيهم بن مهنا: «وأولاد دراج ومنهم سيدي عبد الله الدراجي وأولادهم هم أشرف، وفيهم الحيزر والصالح وكلهم عرب أصلهم من ربيعة، وهم يظنون اليوم في الحضنة دائرة بريكة ولاية باتنة. للتوسع انظر: الرحلة الورتيلانية، ج1، ص107 وما بعدها.

(5) _ صالح بن مهنا "قسنطيني": مرجع سابق، ص40-41.

(6) _ المرجع نفسه، ص40-41.

توفي الشيخ عبد الله الدراجي بالمدينة سنة 1296هـ الموافق لـ 1878، قرأ البخاري دراية ورواية، من تأليفه: إرشاد أهم الهمم القلية فيما يطلب منهم من الأدعية النبوية على اختلاف أحوالهم الزكية»، و«تحاف المريدين بتحقيق رابطتهم بالحضرتين». وقد تأثر صالح بن مهنا بشخصية شيخه الدراجي القوية، الذي كان لا يخاف في الله لومة لائم وهو يصدع بالحق، وليس من الغريب أن تكون هذه الصفة قد ورثها تلميذه عنه حيث كان له صدى فيما جهر به من أفكار وآراء ومواقف.

مشايخه في تونس: أما المشايخ الذين درس عليهم في تونس نذكر منهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر وهم كثيرون⁽¹⁾:

1. الشيخ الجري المالكي، نسبة إلى جربة، فقيه، درس عليه بجامع الزيتونة "المختصر بشرح الشيخ الدردير، توفي سنة 1863م.
2. الشيخ قابادو التونسي: أديب وعالم تونسي له ديوان شعر توفي (13 رجب 1268هـ-1887م).
3. الشيخ صالح النيفر: روي عنه سند التونسيين في مذهب الإمام مالك، توفي سنة 1290 والموافق 1873م⁽²⁾.
4. الشيخ محمد النيفر الأكبر⁽³⁾: التونسي: هو الشيخ أبو عبد الله محمد النيفر، تولى القضاء والتدريس بجامع الزيتونة، توفي 12 محرم 1272هـ الموافق 1860م، ودفن بالبقيع في المدينة المنورة.
5. الشيخ المازري: هو عبد الله محمد بن الطاهر المازري توفي (8 رجب 1284هـ-1887م).
6. الشيخ عاشور الساحلي التونسي قال فيه: «رجل صالح ورع ذو دين قرأت عليه بجامع الزيتونة».

(1) _ المرجع نفسه، ص 43-47.

(2) _ محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القلم والجديد، 1939، تونس، ص 33. وانظر: محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، طبعة مصر، ج 1، ص 393.

(3) _ انظر: سليمان الصيد: صالح بن مهنا القسنطيني، مرجع سابق، ص 42-47.

أما شيوخه في الأزهر نذكر منهم:

- الشيخ إبراهيم الباجوري الأزهرى صاحب حاشية الجوهرة⁽¹⁾.
- الشيخ محمد بن أحمد عيش الطرابلسي⁽²⁾، شيخ السادات المالكية ومفتيها، تأثر به كثيرا حتى أنه كان ينسب نفسه إليه في بعض كتبه واعترافا بفضله عليه في العلم، صالح بن مهنا القسنطيني العليشي، توفي (1299م-1881م).
- الشيخ حسن بن أحمد المرصفي الأزهرى (1307-1809م).
- الشيخ حسن العدوي الحمزاوي صاحب الشجاعة الأدبية الفائقة (ت1303م-1885م)⁽³⁾.
- الشيخ الشرقاوي الشافعي والشيخ محمد الأشموني الشافعي ت سنة (1321م-1903م)⁽⁴⁾.

وغيرهم من المشايخ الذين درس عليهم واعترف من مناهل علومهم⁽⁵⁾.

عودته إلى أرض الوطن: بعد عودة الشيخ صالح بن مهنا من مصر إلى الجزائر سنة 1887م، أقام بزواية الشيخ بوحجر، في عهد الشيخ علي بن بلقاسم بوحجر، لمدة طويلة حيث تزوج من عائلة بن الشائب من أولاد صخر وهي قبيلة تابعة لهذه الزاوية، وألف معظم كتبه بما بعضها ما زال مخطوطا⁽⁶⁾.

(1) - انظر: كتاب "الأزهر في ألف عام"، ج1، ص157. وكتاب الحموي، من الفكر الإسلامي في تاريخ الفقه السامي، ج4، ص186. طبعة تونس، ص44. و ص66-67 من الأعلام، ج1، للزركلي.

(2) - انظر: محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، ص385. وانظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج6، ص244-245.

(3) - صالح بن مهنا القسنطيني، مرجع سابق، ص45.

(4) - هامش الرحلة الورتيلانية، مصدر سابق، ج2، ص62.

(5) - خير الدين الزركلي، الأعلام، 1980، بيروت، ج7، ص301.

(6) - انظر: صالح بن مهنا القسنطيني، مرجع سابق، ص47-48.

تولى الشيخ صالح بن مهنا إمامة المسجد الكبير بقسنطينة⁽¹⁾، بطلب من الشيخ محمود الشاذلي⁽²⁾، الذي كانت له علاقة طيبة مع الشيخ بوحجر، ونفوذ أدبي مع السلطة الحاكمة، كما كان يلقي دروسا في الحديث للعوام بالزاوية الختصالية⁽³⁾، إضافة إلى تطوعه بتقديم دروس في شتى المواد لتلامذته بصفة دائمة، كان قد أجر بيتا ورابط فيها على التدريس والتأليف، وإرشاد الناس وتوجيههم بالخطب والدروس، ظل ينشر العلم الصحيح بكل صدق وإتقان لمدة 30 عاما وبالتالي وخلال هذه الفترة، تخرج عليه تلامذة يعرفون بعلمه وإخلاصه المتسامي في سبيل نشر العلم والعرفان، ومحاربة البدع، كان علما زاهدا لم يستطع الاستعمار التأثير عليه، كما أن الذين عاشروا الشيخ بن مهنا، وتعلموا منه يذكرون أنه كان حريصا على الوقت حيث كان يقضي جلته في التدريس معتكفا على المطالعة، التي عُرف بشغفه بها، ويذكر عنه صديقه مختار بن بهناس أنه كان قليل الكلام والجدل، آية في العلوم، ويعد بحرا زاخرا في التدريس بجميع فنونه، حيث كان يسرد عند كل فخر صحيح البخاري في الجامع الكبير⁽⁴⁾.

تلاميذ الشيخ صالح بن مهنا: أثمرت رحلته الطويلة في التدريس بقائمة من طلبة العلم نذكر منهم:

1- الشيخ عبد الحميد ابن بريك بن الحاج بستانجي، ولد بقسنطينة (1300هـ- 1882م)، كان كثير الملازمة لشيخه ومن المقرين إليه، لما كان عليه من دماثة الأخلاق

(1) _ المسجد الكبير، يوجد في فجج العربي بن مهدي في قسنطينة.

(2) _ هو الشيخ محمود بن محمد بن الشاذلي البوزياني، كان مديرا لمدرسة قسم للتعليم المزدوج (عربية - فرنسية) خلفا لأبيه ومدرسا للفقهاء بها، توفي سنة 1905هـ ودفن بقسنطينة.

(3) _ تقع هذه الزاوية بنهج رواق السعيد، قرب المكان المعروف بارصيف، بقسنطينة، كانت هذه الزاوية منارة لحفظه لقرآن ومختلف العلوم، قبله لطلاب العلم من كل ولايات الشرق الذين درسهم شيوخ من حريجي جامع الزيتونة والأزهر.

(4) _ انظر: صالح بن مهنا القسنطيني، مرجع سابق، ص 53-54.

وصدق العمل، نسخ له معظم كتبه⁽¹⁾ توفي (17/9/1972-1392م) ودفن بقسنطينة.

2- الشيخ رودسلي عبد الكريم بن عمر بن العربي، ولد بقسنطينة سنة (1867م) من أنجب تلاميذته المخلصين، نسخ له كتاب "الفتوحات الأزهرية في الخطبة المنبرية الجمعية"، وكتاب الرد على إخوان الشياطين"، دافع عنه أيام محتته بالقول والقلم توفي (3/09/1908) في حياة أستاذه ابن مهنا، وقد كتب الشيخ رودسلي عبد الكريم أبياتا في أستاذه ابن مهنا نذكر منها:

وعظ الأنام أمانا الــــذي	سكب العلوم بحر فضل طافح
فسقى القلوب بعلمه وبوعظه	والعلم يشفى إن يكن من صالح.
قسنطينة أفخري وحق لك الفخر	بصالحنا ابن مهنا الكتم الأبر
لقد حليت منه الــــبلاد	وزخرت بكوكب نوره وأجفانه الزهر ⁽²⁾

-الشيخ بهناس المختار بن صالح : ولد بقسنطينة سنة 1860 كان من الملازمين له، كان يقضي معه موسم الصيف في الجباس بضواحي قسنطينة، تولى الشيخ بهناس مختار حفظ مكتبة صالح بن مهنا بعد وفاته⁽³⁾، ت 1/3/1935م.

الشيخ يوسف بن بروان، والشيخ علي بن اليسرى، والشيخ محمد بن مسعود حماني والـد الشيخ أحمد حماني رحمهما الله، ت سنة 1939م⁽⁴⁾.

آراؤه وجهوده الإصلاحية: عرف الشيخ صالح بن مهنا بروحه النقدية واتجاهه الإصلاحية إذ أثار العديد من القضايا التي لم تكن لشخص آخر بتلك الأهمية، كما له آراء في مسائل دينية واجتماعية وتاريخية، كانت تعتبر من المقدسات في عهده منها:

(1) _لتوسع: انظر: المرجع نفسه، ص58-59-60.

(2) _المرجع نفسه، ص61-62.

(3) _المرجع نفسه، ص61-62.

(4) _المرجع نفسه، ص65.

1- آراؤه في التصوف ومشايخ الطرق:

لم ينكر صالح بن مهنا على الزوايا أنها كانت معاقل للأحرار ورباطات جنود الله الذين نذروا حياتهم للعلم والدين، فقد كانت مخاطب للعلماء فيها درسوا ومنها تخرجوا وانطلقوا لمحاربة الجهل وسرطان الاستعمار، واستئصال جذوره، كما كانوا دعاة وبناءة علموا الأمة وربوا الأجيال، وأناروا لهم الطريق، وهو ممن درسوا ودرّسوا في الزوايا، إلا أنه شن حملات عنيفة ضد الذين يجعلون من التصوف شعوذة ووسيلة للاستزقاق، مدافعا في الوقت نفسه عن التصوف الحقيقي وفكرة الصوفية التي تدعو إلى إتباع هدي القرآن والسنة، وأن التصوف في حقيقته هو الزهد في الدنيا ومجاهدة في العبادة، وتعلق القلب بالله، فهو التدين بأسمى صورته والإيمان في إيجابياته، والإحسان في العادة والعبادة.

ولا يرى ابن مهنا أن التصوف ليس ثوب مرقع أو صوف بل كما يقول:

ليس التصوف لبس الصوف تزقعه ولا بكاؤك إن غنى المغنون
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا احتباط كان قد صرت مجنوننا
بل التصوف أن تصغو بلا كدر وتتبع الحق والقرآن والدينا
وان ترى محاشعا لله مبتهلا لذنوبك طول الدهر محزوننا⁽¹⁾

كما يضع صالح بن مهنا شروطا علمية أخلاقية للمتصوف منها:

- أن يكون عالما ملما بالفقه والحديث.

- وأن شيخ التربية (المقدم) يحتاج إلى سلوك طريق القوم على يد شيخ متبحر

في علوم الشريعة، يقرر مذاهب الأئمة الأربعة وغيرها ويعرف أدلتها ومنازع أقوالها.

كما نقد صالح المهنا المشيخة في زمانه قائلا: (وقد صارت المشيخة في هذا

الزمان ملعبة في يد الأحداث والصبيان... بل صارت حرفة في أيدي الجهلة يأكلون

⁽¹⁾ - المرجع نفسه، ص 61-62.

بها الحرام ويضلون الأنام ويحوضون في البدع والآثار⁽¹⁾.

وعن مرابط عصره يقول: (صار لفظ مرابط يطلق على كل جاهل غافل مضيع لحقوق الله وحقوق عباده وعلى كل مغفل معتوه ومجنون وفاسق منتهك لحرمات الله كترك الصلاة وانتهاك حرمة شهر رمضان وشرب الخمر وسب الدين، والأغبياء يقولون هذا مرابط...) (2).

ويجد أن صالح بن مهنا في فكره الصوفي الإصلاحية متأثراً بالعلامة عبد الرحمن الأبخري⁽³⁾، فهو بدعوته امتداد له، ويتضح هذا من خلال الآيات الشعرية من "قدسية"⁽⁴⁾ عبد الرحمن الأبخري في الذكر:

الرقص والصراخ والتصفيق عمدا بذكر الله لا يليق
وأما المطلوب في الأذكار الذكر بالخشوع والوقار
موقفه من الزردة والمشعوذين:

حارب صالح بن مهنا ظواهر البدع والضلالات التي كانت منتشرة في عهده ووقف موقف المصلح بقوة مبينا أن هذه الشعوذة والتدجيل على الناس ليس من الإسلام بالحجة والبرهان، وعن الزردة التي كانت تقام عند أضرحة الأولياء يقول: «من هذا القبيل ما يفعله بعض الناس في هذه البلاد من الطعام المسمى عندهم بالزردة، فيذبحون فيه جملة من البقر في وقت معلوم بقصد الشهرة، ولو قيل لهم تصدقوا بهذا الطعام سرا على المخاويج وهم كثيرون بجوارهم لامتنعوا، لأنه يفوتهم غرض الشيطان ويثقل عليهم، مع أن صدقة السر أعظم أجرا وأقله تعباً، وأما ما

(1) - الرحلة الويتالية، للمصدر السابق، ج3، ص192.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص242.

(3) - هو العلامة الصوفي عبد الرحمن الأبخري بن محمد الصغير بن محمد وعامر الأبخري البنيطوسي، له عدة كتب في الفقه والتبليغ والمنطق والحساب والفلك وغيرها، (ت983هـ).

(4) - القدسية: منظومة في التصوف لعبد الرحمن الأبخري، رحلة الويتالية.

يفعلونه فإنه أكثر تعبا وأقل أجرا، إن لم نقل رياء لا أجر فيه أصلا⁽¹⁾.

وعن المشعوذين الذين كانوا ينتهكون حرمة بعض قواعد الإسلام، بدعوة أنهم في حل من ذلك لمكانتهم عند الله يرد قائلا: «حدثني أن بعض من ينسب إلى المشيخة يترك الصلاة وينتهك حرمة الشهر أي رمضان بالأكل والشرب، ويقول الذي أمرك بالصيام أمرني بالأكل، وهو مع ذلك صاح يتصرف تصرف العقلاء، فهذا كافر إباحي...»⁽²⁾.

وعن الدجالين بالمنام وما أشبهها من الخرافات أبان صالح بن مهنا أن المنام لا تثبت به شريعة كما جاء ذلك على لسان كثير من العلماء، أمثال سيد محمد الزرقاني في شرح الموطأ، والمناوي في شرحه الكبير... وغيرهم⁽³⁾.

آراءه في بعض المسائل التاريخية:

- رأيه في المغرب الأقصى والأترك⁽⁴⁾: صحح صالح بن مهنا نظرة المشرق إلى المغرب العربي، التي كان مفادها أن دول المغرب هي نسخ من تركيا ومن الغرب، وقد لاحظ أن هذه الادعاءات ضد المغاربة بدأت تزول بعد الاستقلال الجزائري، وأن القناع قد أزيح عن أعين المشاركة الذين تيقنوا أن العرب لا تقوم لهم قائمة بدون المغرب العربي الكبير، وهذه الادعاءات كان يغذيها الاستعمار وتحركها النعرة الإقليمية لدى المشاركة⁽⁵⁾ وبالتالي كانت له جهود جليلة في تعريف أهل المشرق بالمغرب الكبير. كما تحدث عن تاريخ قسنطينة في عهد الأتراك، كحديثه عن النوبات، وهي جمع نوبة كناية عن شردمة من العسكر الأتراك كانوا يتوجهون من

⁽¹⁾ - رحلة الوريثاني، مصدر سابق، ج2، ص110.

⁽²⁾ - المصدر نفسه، ج3، ص92.

⁽³⁾ - انظر: المصدر نفسه، ج3، ص93.

⁽⁴⁾ - انظر: المصدر نفسه، ص118-18...، ج2، ص90-110، 219-220.

⁽⁵⁾ - المصدر نفسه، ج2، ص673.

قسنطينة إلى ولايات أخرى (تيسة، ميله، مسيلة) فيقيمون بها عاما أو أكثر، ربما تزوجوا هناك، ثم إذا جاءهم التوبة إلى بلد آخر تركوا نساءهم وأبناءهم - وهم أبناء ترك- ورحلوا، كما حدث عن الأتراك الذين كانوا يقدمون إلى قسنطينة وغيرها أربعة أخماس منهم المسلمون وخمس من اليونان⁽¹⁾، كما له حديث مفصل على تاريخ قسنطينة⁽²⁾ وعن البربر في هامش الرحلة الورتلانية⁽³⁾.

رأيه في الأشراف:

عالم صالح بن المهنا قضية الأشراف التي كانت منتشرة في زمانه، حيث كان كثير من الدجالين ينصبون أنفسهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأجابهم بأن الشرف مرده التقوى لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَبَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]، ويقول في ذلك (قد يغتر الظلمة من الأشراف والفسقة منهم بشرفهم عن ظلمهم للأنام وتمردهم على الأحكام وعصيانهم للملك العلام، ومخالفته لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم... هيئات هيئات ما هو إلا غرور شيطاني أحلام أمانني فالشرف لا ينفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فلا يسقط عنهم حدود فيقتل الشريف إن قتل ويقطع السارق ويرجم إذا زنى ويجلد شارب الخمر، أما في الآخرة فلا يوضع شرفه في ميزانه وإنما يوضع في ميزانه عمله الصالح، وأما الشفاعة فهي لأهل الكبائر من جميع الأمة والمهالكين...⁽⁴⁾ وفي تصديده لهذه الأفكار نجد مالك بن نبي يذكر صدى دعوة ابن مهنا في قسنطينة أثناء طفولته في كتابه "شروط النهضة والصراع الفكري".

(1) _ المصدر نفسه، ج 3، ص 232-233.

(2) _ المصدر نفسه، ج 2، ص 120-125، 156، 196.

(3) _ المصدر نفسه، ج 3، ص 196-197، ج 2، ص 91، 156، 196.

(4) _ النظر: المصدر نفسه، ج 1، ص 178، أنظر كتابه تنبيه المغتربين في الرد على إخوان الشياطين.

من آرائه الاجتماعية:

نجد صالح بن مهنا يفضل المدن على القرى كونها مجمع العلماء وملتقاهم، أما القرى فهي بعيدة عن هذا الجمع المعرفي، وقد أورد وصية ليحيى بن يحيى الأندلسي راوي الموطأ قال له: «لا تسكن القرى فيضيع علمك»⁽¹⁾. هذا ولاين مهنا آراء فقهية في مسائل مختلفة، لا يتسع المقام لذكرها.

محنته وصموده فيها

تعرض الشيخ صالح بن مهنا بسبب جهوده الإصلاحية وآرائه القوية إلى محن كبيرة، تمثلت في تأليب السلطات الاستعمارية الناس عليه، وتحريضهم على إيذائه وعزله من وظيفة الإمامة، وألقت القبض عليه كما استولت على مكتبته الثمينة، حتى تدخل المستشرق ألبان روزي Alpinroze لدى السلطات وطلب فك أسر الشيخ بن مهنا وإرجاع مكتبته، وقد تم ذلك في يوم كان مشهودا في قسنطينة⁽²⁾. والشيخ بن المهنا لم يتعرض لهذه المحن من طرف الاستعمار فقط، بل تعرض إلى محن أكثر من طرف أبناء بلده، تمثلت في ردود بعض أصحاب الطرق عنيه، شعرا ونثرا منهم: عاشور الخنقي، وهيان بن بيان⁽³⁾، ومن خارج الوطن تلقى نقدا لاذعا ي شخسه وآرائه، خاصة من المغرب، على رأس هؤلاء: المهدي الوزاني، كما كانت ردود عليه من طرفين من خارج الوطن، من المغرب على رأسهم المهدي الوزاني، ومحمد العابد بن سودة وغيرهم⁽⁴⁾. وقد رد صالح بن مهنا وأنصاره المؤيدين له على منتقديه بتأليف عدة.

(1) - انظر: المصدر نفسه، ج2، ص38، ج1، ص208، 201.

(2) - انظر: صالح بن مهنا، مرجع سابق، ص104-105.

(3) - هو الشيخ عاشور بن محمد بن عبيد الخنقي، ولد 1264هـ، توفي 1929م.

(4) - انظر: صالح بن مهنا، المرجع السابق، ص106-104.

ترك صالح بن مهنا كتباً عديدة ومتعددة، أجاد فيها وأبدع، تعد من التراث الجزائري الذي يستحق الدراسة والتحقيق، هي كالاتي:

الكتب المخطوطة⁽¹⁾:

- شرح نظم الأسماء الحسنى المسمى: بالدرر الأسمى في بيان معاني نظم الأسماء.
- شرح ابن عاشر.
- السر المصون على الجوهر المكنون.
- أقرب الوسائل في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وجمع الشمائل.
- تنبيه المغترين والرد على إخوان الشياطين.
- مولد النبي صلى الله عليه وسلم.
- كتاب فتح الفتاح القدير بشرح حزب الفلاح وحزب الكبير.
- كتاب تكملة مختصر الشيخ عبد الرحمن الأخضرى.

2- الكتب المطبوعة:

- حاشية وتعليق على رحلة الورتيلاني.
- فتح الرحيم الرحمان بشرح نصيحة الإخوان.
- مناسك الحج.
- الفتح الرباني في الرد على المهدي المغربي الاوزاني.
- وكتاب إظهار الحق...

⁽¹⁾ _ قدم الأستاذ سليمان الصيد ملخصاً لهذه المؤلفات في كتابه صالح بن مهنا. انظر: ص 147-170.

هَذَا أَوْلَادُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَوْلَادِهِ السَّبِيحِ السَّامِعِ
ابْنِ مَعْنَى الْأَزْهَرِ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَتَقَدَّرَ بِهِ وَيَبْتَزُّ كَلِمَةَ إِيْمَانٍ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَمَلَى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَقَوْلًا نَاصِحًا
وَعَلَى آتِيهِ وَحُجْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْلَقَ
فِي سَمَاءِ الْأَرْزَاقِ شَمْسَ نَوَارِ مَقَارِبِ النُّجُومِ الْعَمَدِيَّةِ:
وَأَشْرَقَ مِنْهَا فِي أَسْرَارِ مَكَاهِلِ الرِّسَالَةِ تَجَلُّمَ الْبَقَائِبِ
الْأَحْمَدِيَّةِ: أَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ وَجَّعَ آسَاسَ نُجُومِهِ عَلَى سَوَائِفِ
أَرْزَاقِهِ: وَرَفَعَ عَايِقَ رِسَالَتِهِ عَلَى لَوَائِحِ أَيْدِيهِ: وَأَشْهَدُ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: الْقَوْلُ الْمُنْفَرِدُ فِي قَوْلِ كَلِمَتِهِ
بِالْقَضَاءِ وَالْجَلَالِ: الْوَاحِدُ الْمُنْفَرِدُ فِي وَجْدِ نَيْبِهِ: بِاسْتِحْقَاقِ
تَعَوُّتِ الْعَمَالِ: وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَقَدِيبَتَنَا حَسْبُ الْعِبَادِ
وَرَحْمَتُهُ: أَشْرَقَ نَوْعَ الْإِنْسَانِ: وَأَنْسَانَ غَيْرَ الْأَعْيَانِ
الْمُسْتَحْلَسِ مِنْ فَخْرِهِ وَلِإِعْدَانِ: الْمُتَمَوِّجِ بِيَدِ الْبَيْعِ
الْأَلْيَتِ: الْمُخْصُوصِ بِمَعْنَى الرِّسَالَةِ وَعَرَايِبِ الْمُعْجِرَاتِ:
الْبَيْتِ الْجَلِيمِ الْبُرْقَانِ: الْمُخْصَصِ بِمَوَاهِبِ الْقُرْبِ مِنَ النَّوْعِ
الْإِنْسَانِيِّ:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

يقول العبد الفقير المذنب محمد بن عبد الله الحنفى رحمه الله تعالى
أرضع منى إمامهم الملائكى الأتقى بالثقة فى كتاب الله له الأثر فى
الأميين والاميين

الحمد لله الواحد ذواته المنزه بالاسماء وصفاته الكريمة
عنه نبيه بكلمته وعجزت العفوانة اوضو ان فى فاني حكمه وضعفه والعبادة
والشفاع على حيد نائمة الصان ابي المبلغ جمع ما الرسلية للخلق عزه الامين
وعلى الابرار وعاقبة الاخيار وبعصر بقية اخرج محض بقية صفة بالقول
القدية على من الغصيدة على التوحيد اجماع الله شرفه نوره غير النورية
ونكده غير الفسوة والقد الشوق والهداية الى الفرح كبرية وقصدا ان الفرح
له على صرا النظم المبارك الحمد لله . هو الواحد صوته صوته انه جل عرشه عرش
قال الاعلانة الخلية لغة الشيا بالعلم على اجميل الاختيار على هذه التعصيم
والتمثيل واحكامها جعل بينه وبين تعصيم النعم بسبب تونه شجع على التمام او تعصيم
سواء كان ذلك البعق قولاً باللسان او اعترافاً بالقلوب او عملاً بالاعمال كما نوره الخديفة
الحمد لله الشكر ما شرف الله عبد الامية والله على من لا اله الا هو اوجب الوجوه المسمى
جميع الخاتمة والواحد معناه المزمع في ذاته وصعاقبه واجماله ومازله معناه الله الال
له وصورة اياه للغير وقوله سبحانه اية نوره على ايلين به وقوله جل جلاله تكلم
وتنزه والتشبه السابغ في اغلب الوجوه والمثل المسابغ في جميع الوجوه والتكلم به
لله تعظيم على من فعلت بقدر ما احضرت فالنعم ليس كمنه فهو وهو التتميم
البعيد وبالتيقن من انواع البديع براعة الاستتلال وبه ايضا التصريح صور عبادة
عنا استنوا والخرم في صدر البيت واخره في حجره والوزن والروي والاعراب وصق
الين ما يكون بلماح العصابة بلطيف في الال من نعمه اجله نعمة اياهه باف حسنة

بسم

بعني استفضت في الحديث عن هذه الشخصية الفذة، بيد أن ما ذكرته لا يعدو ان يكون غيضا من فيض، لما خلفه الرجل من منحزات جليلة، عزَّ على الكثير نغديها في زمنه، وإنني لأرجو أن يقوم الباحثون بدراسات مستقبلية تفتح على الشيخ صالح بن مهنا كما تكشف اللثام عن علماء جزائريين أمثاله، لا يزالون في انقل مهمشين وهم يستحقون الاهتمام والتنقيب عن جهودهم وأفكارهم إبقاء على الذاكرة المرجعية، فمن الواجب على الباحثين أن يستجمعوا هذه الجهود المتناثرة في عزائن النسيان، وفي الزوايا ومكتبات المشرق والمغرب، ومكتبات باريس والغرب الأوروبي، هذا التراث النفيس الذي تألبت على تشتيته وتبيده قوى هدامة هي الاستعمار والمستشرقين ومشايخ الطرق المزيفين الدجالين.

استراتيجية الإصلاح والتغيير في الفكر الباديسي.

د. حنان بومالي

المركز الجامعي - ميلة

مقدمة:

لقد ظن حكام الاستعمار الفرنسي في الجزائر بعد أن بسطوا نفوذهم على كامل التراب الوطني، أن الجزائر قد استسلمت لهم نهائيا ورضيت بقدرها، ولم يعد فيها من يفكر في أية مقاومة أو ثورة ضد السلطة الاستدمارية؛ ولم يكونوا يتصورون أن الضمير الجزائري ما زال حيا يقظا، وأن الشعور بقيمة الوطن وحقيقته ما يزال يهز نفوس الكثيرين ممن اتخذوا من القلم نبراسا ومن المدرسة وطنية وأخلاقا، ومن النهضة والتجديد تبصيرا وإدراكا، ومن الإصلاح سبيلا إلى الحفاظ على الهوية الوطنية. وتعد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أبرز الحركات السياسية والثقافية والدينية التي عرفتها الساحة الجزائرية، واشتهر فيها عدد من العلماء الأعلام والمصلحين الأفاضل، منهم الإمام المؤسس الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان أمة وحده في أصلته وفكره وصموده ونهضته وإصلاحه، ولعل هذه الدراسة أن تبين مجالات الإصلاح في فكر الشيخ وتنوعها بين إصلاحات سياسية ودينية واجتماعية وفكرية وثقافية وغيرها، والتي ساهم بها هذا الزعيم المصلح؛ فكان رائد النهضة والتجديد في الجزائر خاصة وفي الوطن العربي والعالم الإسلامي عامة.

نص المقال:

منذ بدء الغزو الفرنسي الاستدماري للجزائر سنة 1830م، وهو يعمل على محو الخصائص القومية والروحية لسكان هذا القطر العربي الإسلامي، وذلك تمهيدا لإدماجه نهائيا في الكيان الفرنسي، وقد ظلت هذه السياسة الاستعمارية مسيطرة لدى حكومة باريس، ولدى الاحتلال الفرنسي، حتى برهنت حرب التحرير الجزائرية على فشلها.

ثم إن الكيان الاستعماري استطاع بجزورته وتعسفه أن يفرض لغته على كثير من المتقنين في الجزائر وشمال إفريقيا، وإن لم يستطع أن ينال كثيرا من العقيدة الإسلامية رغم ما بذله المختصون في شؤون الثقافة من محاولات لفصم العقلية الجزائرية، عن طريق تمجيد التصوف الكاذب*، وإشاعة الخرافات والأباطيل، ومحاربة الثقافة العربية عن طريق القضاء على المراكز الثقافية المزدهرة في الجزائر منذ القرنين الرابع والخامس عشر*، كما أغلقت نحو من ألف مدرسة ابتدائية وثانوية وعالية كانت موجودة في الجزائر.¹

بالإضافة إلى هذا مكنتهم انتصارهم العسكري من وضع أيديهم على كل شيء فكسبوا انتصارا آخر، وهو استمالة طائفة من المواطنين الجزائريين ذوي النفوس الضعيفة إلى صفهم، وأما البقية الباقية التي لم يتمكنوا من استمالتها وكسب تعاطفها، فإنهم اصطنعوا أسلوبا آخر لرصد حركاتها ومراقبة كل ما يصدر عنها، وأضافوا إلى ذلك تقييد حرية التنقل، والمبالغة في تشديد الرقابة على مصادر التثقيف ونشر العلم.

1- إرهابات الإصلاح:

وهكذا بدا لهم أن العقول الجزائرية التي اجتهدوا في ضرب الحصار عليها أصبحت مكبلة ومحاصرة، لا تصل إليها الأفكار التي تنيرها وتنيرها، ولا تصدر عنها الأفكار التي يريدون انتشارها، ولكنهم نسوا أو تناسوا أن العقل البشري لا يمكن سجنه أو محاصرته أو تجميد نشاطه، حتى ولو سجن صاحبه، بل قد يكون السجن

* على نحو ما نراه في مؤلفات "لويس ماسينيون" الذي خصص حياته للكتابة عن الحلاج، فيعله صورة من المسيح في الإسلام، وتعتقد أن ماسينيون ما كان يعنى بالحلاج قدر عنايته بتنفيذ مخطط استعماري أحكم صنعه.

* كانت مدينة تلمسان وقسنطينة من أشهر هذه المراكز.

² - محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس "الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية". دار المعارف: القاهرة.

عاملا من عوامل اليقظة التي تفجر في الإنسان القدرات والمشاعر التي بها يثور على الوضع، ويحاول مقاومته أو تغييره وإصلاحه بشتى الوسائل.¹ و

نتيجة لهذا فقد حدث في الفكر الجزائري هزة جديدة وضعت أمام واقع جديد مغاير تماما للواقع السكوبي وتمخضت الأيام عن بلورة موقف جديد لهذا الفكر؛ تمثل في ضرورة التصدي للاستعمار ومخططاته التي تقفن العقل الاستعماري في حبكها وإحكامها على الشعب الجزائري، وهذا الموقف الجديد عبرت عنه جملة من الحركات في الواقع الجزائري بأساليب ذات مضمون واحد تقريبا بدءا بالشيخ عبد القادر المجاوي (1848م-1914م)*، وانتهاء عند ثورة غرة نوفمبر التي غيرت الموازين ورجحت الكفة لصالح الجزائريين باقتلاع الكيان الاستعماري من جذوره. فقدمت بذلك للفكر الكولونيالي درسا في البطولة والتضحية والمصير المحتوم لكل ظالم ولكل ظلم، وإلى هذه الحركات تنتمي "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" التي أسسها ونشط بها ثلة من العلماء الذين رجعوا إلى أرض الوطن وأخذوا يؤسسون المدارس والنوادي والجمعيات، وإن كانت فكرة إنشائها ترجع إلى فترة ما قبل الحرب كما يقول أحد مؤسسي الجمعية.

حيث إن العلماء الجزائريين كانوا قد تحدثوا عن قضية خلق منظمة لهم قبل ثورة التحرير الكبرى عندما كانوا مقتنعين أن تدهور الجزائر الاجتماعي والديني قد أصبح منذرا بالخطر، فمنذ حقبة ما قبل الحرب إذ كان العلماء يناقشون بناء على هذا المصدر دورهم الفعال في قيادة الشعب إلى حياة أفضل،² فكان هذا التحول يرهان أكيدا على انتصار حركة الإصلاح التي يقودها بعزم رائع وإرادة صلبة وإيمان عميق

¹ - عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان؛ إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس. دار الأمة: الجزائر. 2010م. ص 22.

* - أحد رجال الإصلاح الذين حاربوا البدع والخرافات، عاش لتعلم والتعليم وتخرج على يديه كثيرون منهم الشيخ حمدان الوئيسي الذي أصبح فيما بعد أستاذا للشيخ عبد الحميد بن باديس.

² - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية. دار الرائد: الجزائر. عالم للتعرف: الجزائر. 2009م. ج 2. ص 385.

وحجة دامغة وعلم غزير، الشيخ عبد الحميد ابن باديس ومن وقف إلى جانبه ساعة العسرة من المؤمنين الصادقين.

وكانت هذه الحركة الإصلاحية تدعو في مجموعها إلى أفكار المصلح الإسلامي الأكبر شيخ الإسلام "ابن تيمية"، واتخذت مجلة "الشهاب" شعارا لها قول الإمام مالك بن أنس رضي الله عليه: «لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، واكتسبت الحركة قدرتها وقوتها من خلال الصراع المستمر، ومن خلال تجاوزها للتحديات المتتالية وعبر تحركها اليقظ والحذر على طريق التقدم والتطور.¹

وقد جاء في قانون هذه الجمعية أمّا إنمّا «أسست تبعا لنظام وقواعد الجمعية المبينة بالقانون الفرنسي المؤرخ بغرة جويلية 1901م، وأنه لا يسوغ لها بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في الأمور السياسية»² ولكن هذا لم يكن في الحقيقة إلا ستارا رقيقا، إذ خاضت الجمعية منذ نشأتها في خضم السياسة عندما اعترفت تنظيم الحملة للقضاء الحاسم على الطرقية، وإنشاء المدارس العربية في مدن الجزائر وقراها.

وهكذا نشأت "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" ولم تعرف الحكومة الفرنسية كيف تجابه هذا الموقف الجديد، لأن تأسيسها كان حدثا تاريخيا عمل على تنظيم تيار جارف أمكن له تغيير أوضاع الجزائر دينيا وعلميا وأخلاقيا واجتماعيا؛ فكانت تثبت في كل مكان روح الإيمان الخالص والوطنية الحقة، وتعد كل الترتيبات لنجاح انطلاقتها، لأن أفرادها على علم بأن الطريق وعرة المسالك، وإذا ما أصاب المشروع عطب في الطريق تكون الأمة قد أصيبت بنكسة شديدة.

وهذا أمر ما كان للإدارة الفرنسية أن تتقبله بالرضا، خاصة بعد أن كشفت أصول دعوة جمعية العلماء عن الطريقة التي ارتضاها ابن باديس في الإصلاح الديني،

¹ - بسام العسيلي: عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية. دار النفائس: بيروت. ص 110.

² - محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس. ص 24.

وهو المقدمة الضرورية لتحرير الجزائر، وكانت هذه الأصول من كتابة ابن باديس نفسه؛ فإذا لم تكن هذه هي السياسة التي يريدونها فأي شيء تكون، بدليل أنه لا يلبث أن ينادي في مبدأ آخر بتحريم الاستعباد والجزويت بجميع وجوهه، ثم يؤكد هذا المعنى برسم طريق للخلاص من تعسف المحتل عندما يطالب بأن يجعل الحكم شورى ليس فيه استعباد ولو لأعدل الناس.¹

2- مجالات الإصلاح الباديسي:

والواقع أن جمعية العلماء نضجت على يد ابن باديس وتلاميذه وأنصاره خلال العشرينيات، فخلال هذا العقد نشأت الصحافة الإصلاحية وتأسست النوادي وبيئت المدارس الحرة ومساجد الوعظ والإرشاد في كثير من القرى الجزائرية ومدنها، وكان ابن باديس هو العصب المحرك لهذه الحركة بشخصه وقلمه ولسانه وتلاميذه وسماعته،² ورغم أن هناك عوامل أخرى ساعدت على تأسيس الجمعية كوجود نادي الترقى وشخص عمر إسماعيل،³ فإن شخصية الزعيم المصلح ابن باديس هي التي وحدت كلمة المؤسسين وجمعت شملهم على تمزق.

ولم يكن ابن باديس لشخصه وعلمه فقط، ولكن لعناصر أخرى جعلته جديرا بالثقة التي منحها له المجتمعون رغم غيابه عنهم، يأتي فكره الإصلاحي المتولد عن العصبية الثقافية التي وقفت في وجه الغرب مدة قرن من الزمن في الدرجة الأولى، هذا الفكر الإصلاحي المتوزع بين مجموعة من المجالات وليس مقصورا في الإصلاح الديني كما يتوهم البعض، ولا عجب أن يكون كذلك، فالشيخ من أسرة عريقة من جهة وموالية للفرنسيين من جهة أخرى، وبهذه الصفة اكتسب الحماية من اضطهاد الإدارة الفرنسية. ثم إنه فوق هذا من مدينة قسنطينة وهي عاصمة جهوية كبيرة، فكان له

¹ - المرجع نفسه، ص 24.

² - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، ص 84.

³ - أحمد توفيق المدني: حياة كفاف "مذكرات"، دار البصائر: الجزائر، 2009م، ج 2، ص 172.

فيها أنصار، إذا خذله الآخرون ومقاخرة إذا اقتضى الأمر ذلك، وأخيرا لقد كان شيخ معتدل الأحكام متسامحا مع خصوم الإصلاح ورافضيه¹ وهذه الخصائص التي لم تكن متوفرة في رجال الإصلاح الآخرين، منحتها الثقة ووفرت له جوا إصلاحيا توزع بين جملة من الميادين، لعل أهمها ما يأتي:

أولا - الإصلاح الديني:

هناك مجموعة من العوامل تضافرت على تكوين شخصية عبد الحميد بن باديس تكويننا دينيا محضا، يأتي توجيه والده الصالح له في مقدمتها، حيث رباه تربية دينية وخلقية فاضلة، ووجهه وجهة صالحة في الحياة، واختار له طريق العلم وانتقى له معلمين ممتازين يجمعون إلى العلم، التقوى والصلاح والاستقامة الخلقية، وأسغ عليه رعايته وهو صغير، وكفاه مؤونة الحياة وهو كبير، ووفر له كل أسباب الحياة كي يتفرغ لأداء رسالته على الوجه الأكمل، دون أن يشغل فكره أو باله بالناحية المادية اللازمة له. وقد كانت نفسية الشيخ تنفر بطبيعتها من الانغماس في الأمور المادية ولا تميل إلى زخرف الحياة، لذلك اكتفى من دنياه بالزاد القليل، وانحصرت مطالبه في أمور تحتم دينه ووطنه وشعبه، فلم يحمل والده عناء كبيرا في إعاشته على الرغم من ثراء أسرته العريض². يضاف إلى ما سبق عامل يفوق غيره من العوامل في تكوين شخصية الشيخ وهو "القرآن الكريم" الذي وهب له ابن باديس الجزء الأكبر من حياته الحصة يتعلمه ويتدبره، ثم «يفسره للناس في الجامع الأخضر بمدينة قسنطينة من أجل هدايتهم به وتوعيتهم، حتى أمته تفسيرا ودراسة في خمسة وعشرين عاما، والمعروف أنه لم يحتتم القرآن الكريم تفسيرا في الجزائر أحد غيره؛ وقد ضاع على الجزائر

¹ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، ص 85.

² - ربح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس "رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر". المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار: الجزائر، ط 5. 2001م، ص 168.

والمسلمين كنز لا يقدر بمال بسبب عدم تسجيل تفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس كله.¹

إن هذا التكوين الديني المنفرد لشخصية العلامة ابن باديس جعله يعي وبشكل كبير أهمية الإصلاح الديني في تغيير الوضع المتردي داخل الجزائر، وضرورته من أجل القضاء على البدع والخرافات والطرق الصوفية المنحرفة فكانت الخطوة الأولى التي خطاها في هذا الميدان التعليم المسجدي (تعليم الكبار)، وكانت البداية من الجامع الكبير حيث بدأ يدرس بعض الطلبة، وكان الكتاب المركز عليه هو كتاب الشفاء للقاضي عياض، أما العامة فكان يقدم لهم دروساً في الوعظ والإرشاد. غير أن مدة تعليمه في الجامع الكبير لم تطل، لأن مفتي المدينة والمسؤول عن الشؤون الدينية فيها² منعه من مواصلة التدريس، بحجة أنه لا يملك إذناً بذلك، والحقيقة أنه رخص له في ذلك، ومن هناك بدأت المواجهة بينه وبين الإمام الخطيب بهذا الجامع، ولكن الشاب عبد الحميد لم يتوقف، بل تمادى ولم يستسلم في نشر دعواه الإصلاحية وبالمقابل تمادى الشيخ المفتي في مضايقته وكلف من يشوش عليه، ويظفئ المصاييح وقت الدرس.²

تأثر العلامة ابن باديس لهذه المعاملة السيئة في بيت الله ومن مفتي الإسلام وحامي حرمي الإسلام فيها، وفكر في الهجرة من جديد والدحاق بأستاذه المهاجر، ولأنه كان يعلم أن والده لا يوافق، علق هذا العزم بفكرة أخرى قد يقبلها أبوه وهي الحج إلى بيت الله الحرام، فقبل والده ووافق، وهياً له الأسباب التي تمكنه من تحقيق هذه الرغبة.

وبعد أداء مناسك الحج والعمرة زار المدينة المنورة وأقام بها، وفي أثناء إقامته بها لقي أستاذه الأول الذي درس عليه في قسنطينة (الشيخ حمدان التونسي)، وتعرف بها أيضاً على بعض العلماء من رفقاء أستاذه، تحاور معهم وأطلع على أحوال المسلمين

¹ - المرجع نفسه، ص 174-175.

² - إنه الشيخ المولود بن الموهوب الإمام الخطيب بهذا الجامع.

² - عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص 37.

وقارنهما بأحوال بلاده، كما دفعه ذلك إلى التفاعل مع الحركة الإصلاحية التي انتشرت على يد الإمام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا، متأثرين بزعيم المصلحين جمال الدين الأفغاني وبالحركة السلفية في الحجاز.¹

والمعروف أن الشيخ العلامة ينتمي إلى مدرسة التجديد الإسلامي، أو المدرسة الإصلاحية السلفية التي ظهرت في العالم الإسلامي خلال القرن الثامن عشر الميلادي على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب (1696م-1891م)، ومحمد بن عبد الله الشوكاني (1758م-1834م) ثم جمال الدين الأفغاني (1838م-1897م)، ومحمد عبده (1849م-1905م)، ورشيد رضا (1865م-1935م)، وعبد الرحمان الكواكبي (1848م-1902م) في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العشرين.

وقد عملت هذه المدرسة منذ البداية في ثلاثة ميادين، يأتي إحياء جذوة الدين الإسلامي في نفوس المسلمين في مقدمتها، حتى يعود الدين كما كان في عصور الإسلام الأولى قوة دافعة للنهضة والبذل والتضحية، ثم تطوير اللغة العربية وحمايتها في الدرجة الثانية، باعتبارها لغة القرآن الكريم وأداة الدين ووعاءه، وأخيراً مكافحة الخرافات والبدع والأفكار الشاذة الغربية عن الدين التي ألصقها رجال التصوف وعمامة المسلمين المقتدين بهم، بالدين الإسلامي في عصور الجهل والجحود والانحطاط.² ومن هنا يمكن القول إن لمشروع الإصلاح الذي طبقه ابن باديس بعد عودته من مناسك الحج والرحلات العلمية التي قادها إلى تونس والحجاز ومصر وسوريا ولبنان، والتحاور مع علمائها، هو مشروع مستمد من المدرسة الإصلاحية السلفية في العالم العربي، يركز على العمل الإصلاحي من خلال نشر التعليم وتربية الأجيال، وتوعيتها دينية خالصة.

¹ - المرجع نفسه، ص 38-39.

² - أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث. مكتبة النهضة المصرية: القاهرة، 1949م، ص 5-9.

إن الخطة التي اتبعتها العلامة المصلح منذ البداية تتألف من مجازين: تعليم الطلاب المتفرغين لتلقي العلم، وتعليم العامة وتثقيفهم، هذا بالنسبة إلى التعليم الخاص للكبار، أما التعليم الموجه لأطفال الكتاتيب، فقد أوكل أمره إلى بعض طلابه، بعد أن حط لهم المنهج الذي ينبغي أن يسيروا عليه، وحتى لا يتكرر ما حدث بينه وبين الشيخ ابن الموهوب سابقا، استصدر له والده رخصة رسمية من والي ولاية قسنطينة تسمح له بأن يدرس بالبحان في الجامع الأخضر، أحد المساجد الثلاثة الجامعة في المدينة، والتي تشرف عليها الحكومة.

وكان من دروسه العامة تفسير القرآن والحديث النبوي الشريف من الموطأ؛ أما الدروس الموجهة للطلبة فتختلف حسب مستوى كل طبقة، ويركز فيها على العلوم الدينية واللغوية والتاريخ الإسلامي والتوحيد والمنطق وغير ذلك من العلوم التي تدخل في تكوين طالب العلم الحقيقي.¹ والتي تأخذ به إلى بر النجاة بعيدا عن أشكالي الانحراف والبدع والخرافات التي تعرفها الساحة الجزائرية.

وهكذا أدرك العالم الروحي ابن باديس، ويتوفيق من الله، أن أساس الإصلاح الديني هو تصحيح بعض العقائد الإسلامية التي تسربت إليها البدع والخرافات من جراء الطرق الصوفية والخيرية المنحرفة في عصره، لأنه ما من أمة يمكن أن تنهض حقيقة إلا عن طريق التربية، وأن هذه التربية لا تكون مجدية إلا على أساس تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، والدعوة إلى حرية الإرادة وحرية العقل.

يضاف إلى هذا مقاومته بعض الظواهر الاجتماعية المرتبطة بالدين «كتقديس الأولياء في حياتهم والتمسح بقبورهم بعد وفاتهم»²، ويقيس أكبر عمل ديني ورثه المسلمون الجزائريين عن هذا المصلح الفد، هو تفسير القرآن الكريم الذي يعد من أجود

¹ - عبد القادر فضيل، محمد الصاخر رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص 41.

² - عبد الكريم بو الصمصاف: رواد النهضة والتجديد في الجزائر (1889م-1965م)، دار الهدى: عين مليدة، 2007م، ص 36.

التفاسير وأثرها وأكثرها ملائمة للعصر، بالإضافة إلى المعرفة الدينية والأخلاقية التي تربى المجتمع وترتبط اللحمة بين أفرادها وترسخ فيها روح الحرية وبقطة الضمير الإنساني.

ثانياً- الإصلاح الاجتماعي والفكري:

لم يكد الشيخ ابن باديس يستقر في بلاده حتى بدأ في التفكير فيما يجب فعله لإنقاذ البلاد مما هي فيه، خاصة وأنه كان يرى ويتأمل كل ما يحيط به، فكان يتألم للأوضاع التي يعيشها مجتمعه والتي تنحلى في الفقر والجهل والتشرد والحرمان والانحلال الخنقي والفساد الاجتماعي، يضاف إلى ذلك محاولات التنصير والتجنيس التي كانت تعتمد الإغراءات والمغالطات.

وكذا تزوير الحقائق التاريخية والتجهيل المتعمد، بتضييق مجال التعليم الممنوح للجزائريين، والتميز في المعاملات الإدارية والسياسية بين الجزائريين وغيرهم من أبناء الجاليات الأوروبية، إلى غير ذلك من أنواع الظلم والانتهاكات القانونية والإنسانية التي ترتكب في حق الجزائريين.¹

لقد كان هذا الأمر يؤلمه ويعمق إحساسه بذلك، خاصة حين يرى الغاصبين المحتلين يتمتعون بخيرات البلاد وأبناء البلاد لاحق لهم فيها، بل يعيشون على هامش الحياة، ويعانون كل أشكال البؤس والحرمان، هذه الأمور وغيرها أثرت في تفكير الشيخ، ودفعته إلى التفرغ للعمل الإصلاحي الاجتماعي، وتربية الناشئة تربية صحيحة تمنحهم القوة والأمل، وتجعلهم قادرين على مجابهة الاستعمار.

لقد حاول ابن باديس أن يقدم حلولاً مناسبة لمجتمعه حسب ظروفه الخاصة، وقد «راعى في ذلك عنصرين أساسيين، وهما: قيم الإسلام وروح الحضارة الحديثة هذا من جهة، ومن جهة أخرى اهتم بالمرأة ففتح الباب أمامها للأخذ بكل المعارف الدينية

¹ - عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص36.

والدنيوية»¹ كما دعا إلى العمل وضرورته في التغيير، وأول خطوة في العمل هي الدعوة بدعوة الإسلام الصحيحة، أي بالتضحية من أجل الجماعة، والثناء من أجل المنسب. ثم إن العمل يخرج الناس من جو المهارات التي وقعت بين علماء الكلام الذين لم يجدوا عملاً أفضل في ظنهم من أن يكفر بعضهم بعضاً، مع أنهم من دين واحد وأهل قبلة واحدة، وهذا هو الخسران المبين،² فمن خير العمل ترك القشور للاهتمام بالأخلاق والهداية الإسلامية، والقرآن الكريم يبين لنا مكارم الأخلاق ونفعها. ومساوئها وضررها. ولما كان «الحرص على تحقيق التكامل بين العلم والعمل وربط النظرية بالتطبيق من صميم التربية الإسلامية وحقيقة من الحقائق الكبرى التي يقوم عليها الفعل التربوي المتطور»³ فإن ابن باديس أدرك هذه الحقيقة وعمل على أساسها، فكانت رؤاه في التربية والتعليم دعوة العلماء والمربين إلى تحقيق هذا الربط بين التعليم والحياة العملية والتكامل الوظيفي بين العلم والعمل، ليصبح كل منهما دعماً للآخر ومكملاً له.

وفي إطار الإصلاح الاجتماعي أخذت قضية إصلاح عقلية الجزائريين عناية كبيرة من عمله ومجهوداته، ذلك أن إصلاح العقول هو المقدمة الطبيعية لكل إصلاح ناجح في المجتمع، ومن أجل تكوين جيل قائد في الجزائر يعمل على بعث نهضة شاملة في البلاد تخرج بها من حالة الجمود والركود إلى الحيوية والنشاط، ومن ثم تندفع إلى مزاحمة الشعوب في ميادين الرقي والحضارة.

وبالتالي تنهض متكاتفة إلى كسر قيود الاحتلال الغاصب الذي بسط سيطرته عليها ردحا طويلاً من الزمن نظراً لتخلف الجزائريين الفكري والعلمي والحضاري؛ ويظهر هذا من الاهتمام البالغ للشيخ بأمور التربية والتعليم، ومن الكتب التي كان

¹ - عبد الكريم بو الصفصاف: رواد النهضة والتجديد في الجزائر، ص 36.

² - محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص 52-53.

³ - عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص 189.

يدرسها لتلامذته، حيث كان يدرس لهم مقدمة ابن خلدون وموطأ الإمام مالك والمراجع الأساسية في الأدب العربي وتاريخ الحضارة الإسلامية.¹

ولقد ضح الشيخ العلامة فكرة الكيان الجزائري خلال الثلاثينيات، مؤكداً بذلك فكرة أخرى وهي القومية العربية، وبعث الأمل في نفوس أمة ظن الاستعمار أنه قضى على شخصيتها وعروبته، وأنه كاد أن يدمجها في الوطن الأم كما يقال، والإمام يبعث الأمل في النفوس مستعينا بالله - عز وجل - دائماً، وبدور القرآن الكريم في تكوين هذا الجيل المنشود.

ولأنه ابن جمعية العلماء المسلمين ورائدها، وهدفها إصلاح المجتمع من الجهل والخمول وإصلاح المجتمع يعني التهيئة لثورة التحرير، فالنهضة الفكرية عنده قد «هيات مهدوء والشعب كان يتسلح تسليحاً روحياً بمعرفة دينه اليقين وتاريخه المجيد، وإذا صحت العقيدة انبعث الجهاد، وهي القاعدة الصلبة التي لا تعرف الخمول»² وهكذا كانت التهيئة الروحية على يد ابن باديس، هذه النهضة التي تحولت بداية الخمسينيات من نهضة فكرية إلى حركة تحررية.

وكان يرى هذا المصلح الفذ أن تحقيق هذه النهضة المنشودة يتوقف بالدرجة الأولى على تكوين الفرد الجزائري من الناحية الفكرية والنفسية تكويناً عربياً إسلامياً متيناً من ناحية، ثم العمل على ربط كافة الجزائريين بشبكة واسعة النطاق من التنظيمات الاجتماعية والسياسية والوطنية للدفاع عن كيان الوطن المهدد بالخطر من ناحية أخرى، حتى يعملوا متكاتفين على تحرير الجزائر من الاحتلال في دائرة حضارتها العربية الإسلامية لا في دائرة اللائكية، أو الاندماج أو التجنيس كما كان ينادي بعض الجزائريين المتأثرين بالثقافة الفرنسية.³

¹ - رابع تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 204.

² - زهور أسعد: ثورة العلم من ابن خلدون إلى ابن باديس، دار هومة: الجزائر، 2010م، ص 43.

³ - رابع تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 204.

ولما كان الإصلاح بالمعنى الشامل قد «يبدأ بالثقافة أو بالدين أو بالمجتمع ويغطي في النهاية كل مظاهر الحياة في مجتمع ما»¹ فإن نضال الشيخ المشهود في مجال الإصلاح امتد به إلى ميدان آخر أبلى فيه بلاء حسنا، وأولاه من العناية والرعاية جزءا كبيرا من مشروعه، ألا وهو إصلاح أخلاق الجزائريين التي تدهورت تدهورا كبيرا، نتيجة لفساد العقول وفساد العقيدة الإسلامية والدينية، ولذلك وجه عنايته إلى هذا الجانب الهام في المجتمع الجزائري، على اعتبار أن صلاح الأمم من صلاح أخلاقها، وفساد الأمم من فساد أخلاقها.

ويذهب العلامة ابن باديس إلى أن الأخلاق إنما تتبع من داخل الفرد، وبالتالي يجب العناية بإصلاح هذا الداخل قبل أي شيء آخر، والوسيلة لذلك هي تطهير القلوب وتهديب النفوس وإصلاح العقائد، حتى يعمل الفرد على تغيير ما بنفسه كي يغير الله ما به من سوء وانحطاط، طبقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾² والظواهر عند الشيخ دلائل على البواطن، فإذا كان باطن الفرد صالحا كان ظاهره كذلك وليس العكس، ومن هنا ركز على محاولة إصلاح ضمير الجزائريين ونفوسهم، حتى تكتمل الشخصية الإنسانية لديهم.

ويرى ابن باديس أن التربية الأخلاقية الفاضلة تبدأ في الأسرة ثم المدرسة ثم المجتمع، وهي العاصم للفتى والفتاة من الانحرافات الخلقية والوطنية معا، لأن الفرد الذي لا يستطيع كبح جماح نفسه في سبيل مرضاه ربه أو مصلحة وطنه، لا يمكن ائتمانه على مصالح الأمة والوطن.³ وعليه يتضح مما سبق أن الإصلاح الاجتماعي والفكري الباديسي يقوم على الدعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح، وإلى الكتاب والسنة وهدى السلف الصالح للأمة، من أجل طرد البدع والضلالات،

¹ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ص 88.

² - سورة الرعد، الآية 11.

³ - رابع تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 207.

وتكوين مشروع متكامل يتكفل بإحداث ثورة في النفوس، وتعبئة شاملة للمواطنين، توجه للكبار والصغار، للمتقنين والأميين واستخدام كل الوسائل التي تخاطب العقل والروح والوجدان.

ثالثا- الإصلاح السياسي:

لم يكن ابن باديس مصلحا دينيا واجتماعيا وفكريا فحسب، بل كان مجاهدا سياسيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، فقد وضع للأمة الجزائرية دستور المستقبل، عندما يبرهن لها على عدم مشروعية الحكم الفرنسي في الجزائر معتمدا في ذلك على ما استنبطه من حكم الخلافة الراشدة، فأصول الحكم في الإسلام تناقض أصول الحكم الاستعماري تماما. ويرى الشيخ أيضا أن الحكم الفرنسي غير إنساني وغير شرعي، بل هو حكم استبدادي أصيل في استبداده وحاجز سميك أمام حرية الشعب الجزائري، والواقع إن الناس كلهم أمام القانون سواء لا فرق بين قويهم وضعيفهم يطبق على القوي دون رهبة لثوقته، وعلى الضعيف دون رقة لضعفه، وهذا ما لم تفكر فرنسا قط في تحقيقه، رغم زعمها أن الجزائر فرنسية، بل ظلت تفرق بين المنعمرين الفرنسيين والمواطنين الجزائريين.¹ والحقيقة أن هدف ابن باديس في مشروعه الإصلاحية لم يكن الخوض في المسائل السياسية البحتة، ولكن الوضع المتردي الذي كانت تعيشه بلاده والانتهاكات والمظالم التي كان يتعرض لها الشعب، فرضت عليه أن يدخل هذا الميدان من مداخل مختلفة، وإن لم يصرح بذلك، ويخوض في بعض المسائل التي يراها حديرة بالمناقشة والتي كان يحرص من خلالها على إكساب المواطنين وعيا بحقوقهم، وبأشكال الظلم المسلط عليهم.

لقد استعمل الشيخ العلامة مجموعة من الأساليب في تنفيذ إصلاحه السياسي، تمثلت أساسا في المواجهات السياسية الساخنة التي كانت تظهر في الميدان مع الإدارة

¹ محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس. ص 66.

الفرنسية وعملائها، وفي الدعوة إلى تحضير الرأي العام وتعبئة الجماهير للمطالبة بحقوقهم، كما كانت تظهر في الاجتماعات التي تعقد للنظر في أوضاع الجزائر، وتحديد المطالب التي ترفع إلى السلطة الفرنسية، وفي تقديم العرائض والاحتجاجات، وفي الردود الصحافية التي كان أساسها الدفاع عن الشخصية الجزائرية، وكرامة المواطن التي أصبحت محل مساومة.¹

إن هذه الأساليب والمواقف السياسية التي مارسها ابن باديس، جعلت فرنسا تنظر إليه على أنه خصم أفسد عليها سياستها، ومهد للقطيعة التامة بين الفرنسيين والجزائريين بعد الحرب العالمية الثانية، وكشف النقاب عن عبث جميع المحاولات التي قامت بها فرنسا، أو بعض زعماء الأحزاب السياسية الجزائرية في الثلاثينيات والأربعينيات. وبهذا قاد الزعيم المصلح معركة الوطن الجزائري بمهارة بالغة، ففي سنة 1933م يتهم الوالي بالتدخل في الشؤون الدينية والسياسية لمسلمي الجزائر على نحو مخالف للدين والقانون الفرنسي أيضا، وينذره أنه لو أراد أن يدخل إلى الميدان السياسي لدخله جهرا، ولضرب فيه المثل بما عرف عنه وأصحابه من الثبات والتضحية،² ولكنه يدخل إلى الميدان علانية في سنة 1937م فيعلوا صوته على أصوات السياسيين الآخرين ويوجه نداء إلى الأمة الجزائرية وإلى نوابها دون أن يشرك الجمعية معه. وفي نداءه إلى الأمة الجزائرية ونوابها يشير إلى ضرورة اليأس من الاتفاق مع الاستعمار، وضرورة الثقة بالنفس وقد تجاهلت فرنسا قيمة الوطنية الجزائرية، فما على الجزائريين إلا أن يعرفوا قيمة أنفسهم.³ كما نادى لحركة المقاطعة ما لم ينل الجزائريون حق المساواة في المجالس النيابية بالجزائر، ودعا جميع الأحزاب إلى تناسي الخلافات وإلى التسامي عن النزاعات الشخصية.

1- عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص 119.

2- محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص 73.

3- محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، ص 72.

ومما لا ريب فيه أن الظروف السياسية التي أحاطت بالجزائر في تلك الآونة هي التي أملت على رئيس جمعية العلماء هذا الاتجاه السياسي، والذي تقوم إستراتيجيته على أساس عمل نشيط ومضاد لأهداف السياسة الاستدمارية الفرنسية في الجزائر، من أجل المحافظة على مقومات الشخصية الجزائرية بكل أبعادها الروحية والثقافية والجزائرية والوطنية، مهما كانت الوسيلة إلى ذلك. ولم يكن ابن باديس في كل هذه الاتجاهات يخفي أفكاره السياسية التي «كان يعبر عنها بلهجة حادة أحيانا تنبئ عن شخصية قوية وجريئة، وثقة عالية بالنفس، وعن تفكير منسجم يظهر معه تفكير اخصوم ضعيفا ومتهافتا؛ وحتى الحكام لم يسلموا من نقده لهم وتسفيه أفكارهم، والتنديد بأساليب معاملتهم لأبناء البلد الذين استعانوا بهم في وقت الشدة والحروب، وتعنيفهم على المماطلة في تنفيذ الوعود التي كانوا يلوحون بها».¹

ويمكن تلخيص الأمور التي تشكل الوجه السياسي في الخطة الباديسية والعمل الإصلاحي الذي أعطاه ابن باديس كل حياته في مجارته للإدارة الفرنسية والدخول في صراع معها، مع دعوة النواب إلى مقاطعة المجالس النيابية ومحاوره لجنة البحث البرلمانية الفرنسية، وكذا لجنة البحث البرلمانية الفرنسية التي لم يتردد في محاورتها، وبالتنالي محاولة التفاوض مع حكومة فرنسا.

لم يكتف الشيخ بهذا وإنما تعداه إلى الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي والمساهمة فيه من أجل مقاومة سياسة الاندماج والتجنيس، وكذلك نداؤه إلى سكان قسنطينة لمقاطعة الاحتفالات القرنية لاحتلال المدينة، والتي أسهم في إخماد نار الفتنة القائمة فيها بين اليهود والمسلمين،² إضافة إلى تقديم العرائض والاحتجاجات والرود على التصريحات وغيرها من

¹ - عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص120.

² - المرجع نفسه، ص120.

الإصلاحات السياسية التي عبر من خلالها عن الوطنية تعبيرا حديثا، وقدم فيها منظورا سياسيا عميقا اعتبر الأساس الذي بني عليه الفكر الوطني في الجزائر بعد ذلك.

خاتمة:

هكذا إذن تشعبت مجالات الإصلاح في فكر الشيخ عبد الحميد بن باديس وتعددت بتعدد اهتماماته وثقافته فهو المفكر المصلح العربي المسلم، تأخذه الغيرة على دينه وإسلامه ولغته وعروبته ويتألم لوطنه ومعاناة أبنائه، ثم إنه فوق هذا يمتلك من عناصر القدرة والتجربة والذكاء والطموح ما يجعله قادرا على الخوض في المجال السياسي ومحاججة الاستعمار ومجاهته، لأنكل هذه من مقاومات رجل السياسة المخنك القادر على خوض المعارك مهما عظم شأنها.

ومهما يكن من أمر فإن هذا الزعيم الروحي قد جمع في شخصه كل مقومات الإصلاح الديني والاجتماعي والفكري والسياسي، فلا عجب إذا أن تتوسع نظرتة وتعدد مجالات الإصلاح في فكره والتي أضفى عليها الطابع الوطني الذي يشكل الخيط الرابط بين هذه المجالات جميعا، وحرري بأبناء هذا الوطن أن يفخروا برائد النهضة والإصلاح والتحديد في بلادهم، لأنه واحد من كبار قادة العالم الذين غيروا مجرى التاريخ وأحدثوا انقلابا في حياة شعوبهم من الأسوأ إلى الأحسن عن طريق التفكير الإصلاحي الإيجابي والفعال في التغيير والتجديد والحداثة.

محمد الصالح بن جلول وإسهاماته السياسية

(1893-1985م)

د. نفيسة دويحة

المدرسة العليا للأساتذة

بوزريعة - الجزائر

مقدمة:

عرفت الجزائر في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين بوادر حراك تحضوي مثير للاهتمام؛ انطلقت أولى فعالياته بشكل محتشم مع ظهور العرائض ورسائل الاحتجاج؛ لكنه سرعان ما مس مجالات كثيرة ومهمة كالصحافة والجمعيات والمنابر البرلمانية والمجالس التمثيلية المختلفة، بالإضافة إلى التجمعات والمحاضرات والوفود ... الخ. وقد مثلت مدينة قسنطينة مركز ثقل في حركة النهضة أوائل القرن؛ بما حوته من شخصيات نخوية، ونشاط صحفي مكثف. وهذا ما جعلها نموذجا رائدا للإشعاع الثقافي والفكري؛ رغم التضييق الاستعماري على تحركات أعيانها وممثلها.

ولعل الدراسات تركز في هذا المجال؛ خاصة على الحركة الإصلاحية المتنامية منذ الثلاثينات، وعلى جهودها بالمدينة وبمنطقة الشرق الجزائري ككل في حين نلاحظ أن نشاط كل التيارات السياسية والنقابية والطلابية كان متزامنا ونشاط النواب والمنتخبين وغيرهم من فصائل المشهد الجزائري. وعليه فقد اخترنا دراسة مسار شخصية قسنطينية المولد والنشأة والنشاط والوفاء؛ نعتقد أنها لم تحظ بعناية الباحثين والدارسين (إلا قليلا)، وارتبط الحديث عنها بإطلاق الأحكام أكثر من دراسة المواقف، وقد جمعت بين التقارب الظرفي مع الإصلاحيين، وبالتوافق المؤقت مع المنتخبين؛ هي شخصية الطبيب والسياسي والصحفي محمد الصالح بن جلول (1893-1985م).

التعريف بشخصية محمد الصالح بن جلول: المولد والنشأة:

ولد محمد الصالح بن جلول بمدينة قسنطينة في 08 ديسمبر 1893م¹. ينتمي لعائلة برجوازية "متواضعة" النفوذ (على حد قول اجيرون). ولم نبين تفاصيل كثيرة عن والديه وأسرته بالعموم؛ سوى ما عرف وتداولته الدراسات بشأن القرابة مع أسرة ابن باديس المعروفة.

زاوّل ابن جلول دراسته الابتدائية والثانوية في أوائل القرن بمسقط رأسه قسنطينة؛ ثم انتقل إلى مدينة الجزائر لاستكمال الدراسة الجامعية بكلية الطب، حيث تخرج منها، وطبعت أطروحته بعد مناقشتها بتاريخ 08 أبريل 1922م². ولم تشر المصادر إلى تجرّبه الدراسية، ومدى تأثيرها في تكوينه الفكري والثقافي، ولا على نشاطاته في الجامعة، وعمّا إذا كان قد انضم للجمعيات الطلابية حينها أم لا؟؟ كما حدث مثلا مع بعض أقرانه ومعاصريه، وعلى رأسهم فرحات عباس والعربي طاهرات ومحمد عزيز كسوس وغيرهم؛ على الرغم من انتمائهم إلى جماعة النخبة "الاندماجية" المفرنسة³.

¹ ورد هذا التاريخ في التعريف بابن جلول؛ ضمن قائمة النواب في النيران الفرنسي؛ انظر:

Bulletin officiel des anciens sénateurs de la IV^e république française. وقد تضاربت الكتابات بشأن تاريخ مولد ابن جلول؛ مثلا ذكر اجيرون سنة 1896م، ووردت سنة 1895م في غلاف أطروحته؛ انظر: شارل رويبر اجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة : من انتفاضة 1871م إلى اندلاع حرب التحرير 1954م، دار الامة، الجزائر، ط01، 2008م، م 02، ص 520. كما ان الدكتور ابو القاسم سعد الله اشار إلى انه من مواليد منطقة الاوراس سنة 1894م. انظر:

ابو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، دار البصائر، الجزائر، طبعة خاصة، 2007م، ج 02، ص 354.
² Molamed Salah Bendjelloul : La sérothérapie anti-typhique par le sérum rodet, thèse pour le doctorat en médecine, faculté d'Alger, 124p.

³ عبر هؤلاء في كتاباتهم عن تجاربهم على مقاعد الدراسة وخارجها؛ بكثير من التفصيل والتركيز، بل اعتبروها مطلقا أساسيا في تكوينهم الفكري والسياسي. انظر مثلا: Ferhat Abbas : le jeune algérien, ed. Garnier, paris, 2^eed, 1981, p 48.

بعد التخرج؛ باشر ابن جلول ممارسة مهنته كطبيب في القطاع العام. ولم نطالع على شهادات معاصرة تؤكد ارتباطه بالمهنة النبيلة؛ بقدر تسجيل فعالية حضوره في المجالس الانتخابية، وعلى صفحات الجرائد، وفي غيرها من المنابر؛ كما سيأتي شرحه. ومن جهة أخرى كانت فئة الأطباء الجزائريين قد لمعت في المجال السياسي، ودفعت بنفسها وبحركة المطالب الوطنية قدما إلى الأمام؛ من أمثال: الطيب مرسلني، قدور بن العربي، بلقاسم بن التهامي، علي بوضربة، زروق بن بريهمات، الشريف سعدان وغيرهم. ولذلك بدت اهتمامات ابن جلول سياسية في المقام الأول؛ فاحتك بعد تخرجه مباشرة بتيار الأمير خالد ومجموعته في جريدة "الإقدام"، وشرع في التعبير عن نفسه من خلالها.

المسار السياسي لمحمد الصالح بن جلول:

يمكن القول بداية ان الدكتور ابن جلول قد تقلد تقريبا كل المناصب السياسية الممكنة بالنسبة للجزائريين. وبدأ نجمه يلمع مع بداية الثلاثينات؛ حيث أصبح مستشارا بلديا، ثم عضوا بالمجلس العام بقسنطينة أمام منافسه المندوب المالي ابن باديس سنة 1931م، وشن حملة كبيرة ضد "المرشحين الذين باعوا أنفسهم للإدارة". وضاعف من نشاطه في تلك المرحلة؛ فترأس وهداً إلى باريس لتقديم جملة من المطالب والمقترحات؛ لكنه لم يستقبل من طرف وزير الداخلية الفرنسي "كاميلشوطان" (C.Chautemps)¹.

1. الدكتور ابن جلول وفيدرالية المنتخبين:

مثلت فيدرالية المنتخبين المسلمين الجزائريين تجمعا ضم مجموعة النخبة والنواب والمنتخبين في المجالس الفرنسية. تم تأسيسها بالجزائر العاصمة في 18 جوان 1927م برئاسة بلقاسم التهامي، وعقدت مؤتمرها الأول في 11 سبتمبر 1927م؛ بهدف توحيد

¹ شارل روبر اجيزون، المرجع السابق، م 02، ص 520-521. وانظر ايضا:

سعد الله: المرجع السابق، ص 411.

الجهود على مستوى العمل السياسي لمنتخبين، والدفاع عن مصالح العامة الذين فوضوهم، "وانعمل في إطار القوانين الفرنسية. وأكدت على الرغبة في توطيد العلاقات مع الأوربيين؛ من أجل الخير الكبير للوطن المشترك فرنسا"¹.

وجاءت احتفالات الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر (1930م)²؛ التي خصصتها السلطات الاستعمارية لتكريس هيمنتها، واعتبرتها فرصة لتأكيد فكرة أن الجزائر فرنسية للأبد؛ بمثابة مناسبة لعزم ابن جلول ورفاقه من النخبة والمنتخبين على مواصلة النهج السياسي المرتكز على إبداء "الولاء"، و"تجديد الثقة" في فرنسا "الإنسانية"³. خاصة لما صرح رئيس الحكومة الفرنسي "البير صارو" (A. Sarraut) "إن الاحتفال بالذكرى المئوية لن يمر دون حضور نواب جزائريين"⁴. ولذلك تمادى البعض في التعلق بجدوى العمل السياسي؛ والمراهنة على نجاح مشروع الاندماج انتام؛ مثل شريف سيسبان (رئيس القسم العربي للمندوبيات المالية)؛ الذي قال في أعقاب استقباله من قبل رئيس الجمهورية بمناسبة الاحتفالات الرسمية: "إن الهدف الذي نصبو إليه هو هدف بناء فرنسا الحقيقيين، فرنسا التي نحبها، والتي نحن مستعدون للتضحية من

¹ Claude Caullot et Jean Robert Henri : Le mouvement national algérien (1912- 1945), ed. OPU, Alger, 1981, 2 ed, p 40- 41.

وعن برنامج الفيدرالية الذي تمت المصادقة عليه؛ انظر:

André Noushi : La naissance du nationalisme algérien. ed. Minuit, paris, 1962, p 63.

² للتفصيل انظر:

Jean Melia : Le centenaire de la conquête de l'Algérie et les reformes indigènes, ed. Ligue française en faveur des indigènes, paris, 1930, p 63.

³ عبر اخرون عن الآمال العريضة بهذه المناسبة؛ فكتب مثلا رابع زلاني (مدير جريدة "الصوت الاهلي") في احدي

مقالاته قائلا: " .. ان الاحتفال بالذكرى المئوية يجب ان يكون بالنسبة الينا عيد 14 جويلية؛ اي انتصارا للحق والحريه

على الاستبداد"، و اضاف معبرا عن امنية اخيرة: "املنا ان تكون المئوية بالنسبة للجميع ميثاقا للخوة والتقدم". انظر:

RahelZenati : Notre ambition, La voix des humbles, N0 58, mars 1928, pp 01- 04.

وانظر لأكثر تفصيل: نفيسة دويذة: النخبة الجزائرية: مسار وأفكار (ملاحم التكوين، النشاط والمواقف)، دار

ثالثة: الجزائر، 2014م، ص 120.

⁴ انظر: اخرون، المرجع السابق، ص 647.

حيميا . وهذا تحديدا ما أثار ضده حجة من بعض الصحف الوطنية¹. وقد وجهت الانتقادات الفيدرالية المنتخبين عموما(لاسيما من قبل الصحافة الوطنية)؛ بسبب عدم فعالية أدائها، ودورها الهزيل في التعبير عن القضايا المطروحة. وكان الانتقاد الرئيسي قد استهدف شخص رئيسها بلقاسم بن التهامي؛ الذي وصف بـ "عدو العمال والأهالي، واخائن لنقضية الإسلامية"؛ خاصة بعدما قلده السنطات الاستعمارية وسام الضابط الساسي لجوقة الشرف في جانفي 1930م².

وبالنظر لكل تلك التطورات؛ برز مشروع إنشاء اتحاديات جديدة للنواب في كل عمالة، وتجسد عمليا في اجتماع الفيدرالية بتاريخ 17 ديسمبر 1930م بالعاصمة، والذي تم فيه التخلي عن مشروع الاتحادية المشتركة الدائمة؛ لصالح تنصيب فروع جديدة تحافظ على الاستقلالية؛ خاصة بعد اعترافها بالفشل³. واستطاع ابن جلول؛ بفضل علاقاته، ونظرا لتزايد شعبيته بعد التجمعات والزيارات التي قام بها إلى موريس فيوليت (M. Violette)؛ أن يقود فيدرالية المنتخبين المسلمين بقسنطينة ابتداءً من سنة 1933م؛ بعد أن أزاح رئيسها الأستاذ شريف سيسيان.

2. الدكتور ابن جلول وأحداث قسنطينة 1934م:

لاشك أن الأحداث "الشهيرة" التي وقعت بمدينة قسنطينة في صيف 1934م مثلت محطة مهمة في تاريخ الجزائر عموما؛ لأنها أبانت عن سياسة التواطؤ الاستعماري في التعاطي مع القضايا "الأهلية"، وكذا لأنها كشفت عن الاختلالات؛ التي طبعت علاقة الجاليات اليهودية بالمدينة والإدارة والمسلمين؛ بفعل سياسة التمييز والعنصرية⁴.

¹ شتيك فديش: تاريخ الوطنية الجزائرية (1919-1939م)، ترجمة. احمد بن البار، دار الأمة، الجزائر، 2008م، ص 41.

² Mahfoud Kaddache : La vic politique a Alger de 1919 a 1939, ed. SNEI, Alger, 1970, p 150- 151.

³ اجرون، المرجع نفسه، ص 648.

⁴ للإطلاع على تفاصيل الاحداث يمكن الرجوع إلى الكتابات التالية:

ولم يكن الدكتور ابن جلول بعيدا عن الأحداث، حيث لعب -والنواب- دور بارزا في الدعوة إلى التهدئة والسيطرة على المتظاهرين، وقد فسر البعض أن المظاهرات التي انطلقت عبر أرجاء مدينة قسنطينة؛ كانت بسبب شائعة اغتيال الدكتور ابن جلول من طرف اليهود، خاصة انه كان من المفترض أن يعقد تجمع شعبي يخطب فيه، وقد غاب عن حضوره¹. وقام ابن جلول على رأس ثلاثين شخصية؛ بالتوقيع على وثيقة وجهت للحاكم العام؛ تضمنت بالخصوص إبداء الاستعداد لاحترام النظام العام، والالتزام بالحدود الأمنية الممكنة². لكنه عاد واتهم السلطات بتدبير "المؤامرة"؛ عندما أغلقت يومها (05 أوت) المساجد، واقترح تشكيل وفد جزائري يطلع الحكومة على حقيقة الأوضاع بالجزائر؛ لكن وزير الداخلية رينييه (Régnier) رفض ذلك، وهذا ما دفع بابن جلول إلى توجيه انتقادات لاذعة للإدارة.

1. الدكتور ابن جلول وجمعية العلماء:

أبدى الدكتور محمد الصالح بن جلول تقبلا للعمل المشترك مع العلماء؛ منذ بداية نشاطهم، خاصة انه كان قد مال قبلا إلى صف الأمير خالد ضد منافسه بلقاسم بن التهامي، وربما يكون للعلاقة العائلية التي جمعتهم والشيخ ابن باديس دور في توطيد هذا التعاون؛ غير أن حاجة كلا منهما إلى الآخر كانت هي الأخرى سيدة الموقف. اللهم أن أول خطوة عملية في التقارب بين الطرفين جاءت مباشرة بعد صدور منشور "ميشال" في فيفري سنة 1933م، والخاص بتضييق مجالات التعليم العربي

محفوظ قداش: حوادث قسنطينة (أوت 1934م)، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، الجزائر، العدد 12 (ديسمبر 1974م)، ص ص 73-93.

Larbi Tahart : Emeutes de Constantine, La voix des humbles, (15 octobre 1934)
Ferhat Abbas : Juifs et musulmans d'Algérie, L'entente, N0 03, (12 septembre 1935).
Inoushi, op. cit. p 74- 75.

² سعد الله، المرجع السابق، ج03، ص 71.

والإسلامي للعلماء¹؛ احتج ابن جلول، وتعاطف مع جمعية العلماء المسلمين، وحضر اجتماعا شعبيا بالمناسبة؛ إلى جانب الشيخ عبد الحميد بن باديس. وقدم معا احتجاجا رسميا على قرارات اللجنة المختلطة المكلفة بمراجعة المنشور، وفرق ابن جلول من جهته بين سياسة فرنسا في بلادها، وفرنسا في الجزائر، والتي قال أنها قد نسيت تضحيات الجزائريين في سبيلها².

وتكرر دعم ابن جلول للعلماء عند صدور قرار "رينيه" في 30 مارس سنة 1935م، والذي جاء عقب زيارة هذا الأخير للجزائر، وتضمن المزيد من القرارات القمعية ضد المتظاهرين ومثري الشغب. بالإضافة إلى انه وضع ضوابط أخرى لتضييق مجالات العمل الجمعي الديني والتعليمي. غير أن تحالف ابن جلول والعلماء سرعان ما اعترضه جملة من المشاكل والقضايا؛ التي انتهت إلى فضه، وإلى عودة الأول إدراجه باتجاه النخبة والنواب، أما العلماء فقد دخلوا مرحلة من "الصراع الداخلي"، وعدم التوافق في الرؤى كان من شأنها التأثير على أدائهم وفعالية أدوارهم.

3. الدكتور ابن جلول في المؤتمر الإسلامي:

يعتبر المؤتمر الإسلامي الجزائري محطة مهمة في تاريخ الحركة الوطنية؛ نظرا لكونه أول تجربة "اتلافية" وحدوية. ويغض النظر عن النتائج التي تم التوصل إليها؛ فإنه مثل منطلقا منظما للعمل السياسي في المرحلة المقبلة. بالإضافة إلى انه ربط بين

¹ شغل ميشال وظيفة الكاتب العام للولاية بالجزائر. وقد اصدر منشوران استهدفا نشاط جمعية العلماء المسلمين، وفيهما تعليمات صارمة لرجال الامن قصد مراقبة تحركات رجال الجمعية؛ بعدما ضاقت بهم الادارة ذرعا. وقدم ميشال حججه؛ من منطلق تدمير الجزائريين أنفسهم من نشاط الجمعية، وكذا ارتباطهم بالحركة الوهابية في المشرق. انظر:

عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى (1931-1945م) دراسة تاريخية، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، ص 100.

² ساعد الله، المرجع نفسه، ج 03، ص 47.

تطلعات الجماهير الشعبية والقيادات السياسية النشطة بمختلف تياراتها: الإصلاحية والليبرالية والاستقلالية والشيوعية¹.

بن الحديث عن تجربة المؤتمر الإسلامي الأول المنعقد بالجزائر العاصمة في (17 جوان 1936م؛ لن يمر دون ذكر شخصية الدكتور ابن جلول؛ باعتباره رئيس المؤتمر، ورئيس اللجنة التنفيذية المنبثقة عنه، ورئيس الوفد الجزائري المكلف بتقديم لائحة المطالب إلى الحكومة الفرنسية. ودون الخوض في تفاصيل المؤتمر بكل مراحلها؛ التي شارك فيها ابن جلول منذ البداية؛ يمكننا القول إن هذا الأخير قد أبدى انسجامًا مقبولًا مع المشاركين من باقي التنظيمات السياسية الأخرى (العلماء والشيوعيين خاصة). لكن يبدو أن صيغة إلحاق الجزائر بفرنسا، والتي تمثل المطلب الأول للمؤتمر؛ يبدو أنها كانت باقتراح منه. واستمر هذا الانسجام إلى غاية "تفريق الشمل"؛ بعد حادثة اغتيال المفتي محمود بن دالي المدعو كحول، والتي اتهم فيها الشيخ العقبي، وهنا تدمر ابن جلول، وأطلق تصريحات مباشرة استهدفت إلقاء المسؤولية على العلماء؛ رغم تبرئة العقبي من التهمة لاحقًا. من ذلك مثلاً قوله: "... بعد خطاب مصالي الحاج في 02 أوت 1936م، وبعد اغتيال كحول؛ انفارت كل جسور التعاون والعلاقات، وان كل ما ليس فرنسيًا سوف نحاربه بلا هوادة". وكرر نفس المضمون في حديثه لجريدة "صباح مرسيليا" (Marseille matin) يوم 13 أوت، ومما جاء فيه: "أنا حرب دينية تندلع... وجمعية العلماء نزع غريبة في الانخداع بالوقوع في شرك الشيوعيين"².

وناشد ابن جلول مرة أخرى الحكومة بعدم الإبطاء في تنفيذ الاصطلاحات؛ التي طالب بها المؤتمر الإسلامي، وأدى كل ذلك إلى هجوم غير مسبوق ضده؛ خاصة من طرف الأمين العمودي (المحسوب على العلماء) على صفحات جريدته "الدفاسع"

¹ لا يتم تفاصيل عن الموضوع؛ انظر:

Abderahim Bendjab Taleb: Le congrès musulman algérien 1935- 1938, 1^{ère} expérience d'un front national anticolonialiste, DIES, Alger, 1973, p 75.

² جزيرة، المرجع السابق، ص 716.

(La defense)، وانذر للتراجع عن تصريحاته؛ لكنه رفض، وتلقى الدعم من طرف رفاقه في الفيدرالية، وهو ما أدى بلجنة المؤتمر لاتخاذ قرار بعزله، وأدانت موقفه "المتقلب" و"عدم صراحته"، وعوضته بالدكتور بشير رئيس فيدرالية النواب بالجزائر العاصمة¹.

4. الدكتور ابن جلول وتجربة التجمع الفرنكو- إسلامي:

استمر ابن جلول في نشاطه على رأس فيدرالية المنتخبين؛ بعدما حدث سنتي 1936 و1937م؛ وخاصة منها عدم المصادقة على مشروع فيوليت الإصلاحية، بالإضافة إلى فشل المؤتمر الإسلامي بطبعتيه الأولى والثانية، حيث أعاد ثقته في النخبة والنواب، وصرح لاحقاً أن الفيدرالية ستحافظ دوماً على الموقف المتخذ منها منذ عام 1931م، والذي يقوم على أساس المطالبة بحقوق المواطن الفرنسي للإنسان الجزائري المسلم؛ مع الحفاظ على أحواله الشخصية². ورغم ذلك واجه الرجل مقاومة عنيفة من عدة أطراف كالعلماء والشيوعيين؛ لاسيما في الانتخابات البلدية الجزئية؛ التي لم يفز بها إلا بفارق بسيط³. ومن جهة أخرى حاول الدكتور ابن جلول أن ينتهج طرقاً مختلفة في العمل السياسي؛ بعدما أيقن من عدم جدوى التجربة الوجودية والعمل المشترك، وعلى رأسها توفير آليات مدروسة للنضال الحزبي المنظم والأكثر فاعلية؛ لكنه عول في هذه المهمة على فئة النخبة والنواب فقط⁴. وبإشراف ابن جلول في صيف سنة 1938م إجراءات تأسيس حزبه، والذي يمكن اعتباره - حسب البعض - تجمعاً لبعض الشخصيات المرموقة، وأنه "لا يرقى لمستوى الهيكل الحزبي المنظم"؛

¹ اجرون، المرجع السابق، ص 717.

² L'entente, 01 mars 1939.

³ كان موقف العلماء منه متحفظاً؛ امام تصريحاته القوية؛ التي دعم بها زميله فرحات عباس؛ اثر نشر المقال الشهير: "فرنسا هي انا" على صفحات جريدة "الوفائق".

⁴ ولا يمكن هنا أن نتغاضى عن الاختلاف في التوجهات الذي طبع علاقة ابن جلول بصديقه المقرب فرحات عباس، واتجاه هذا الأخير بدوره لتأسيس حزبه الجديد: "الاتحاد الشعبي الجزائري".

نكون صاحبه لا يتمتع أساسا بمواصفات الرجل المنظم؛ التي كان يمكن أن تصنع منه رئيس حزب حقاً.

وسمي هذا الحزب "التجمع الفرنكو- إسلامي الجزائري" (RFMA) على أساس انه سيكون مفتوحاً لكل الأفراد والمنظمات الجزائرية والأوروبية؛ بمختلف فئاتها وانتماءاتها. غير أن هذا التنظيم سرعان ما اعتراه الجمود، ولم يتمكن من تأسيس فروع محلية له؛ لأنه كان مهتماً باستقطاب النخبة والأعيان إليه أكثر من العامة؛ في حين حقق حزب فرحات عباس نجاحاً معتبراً، وذلك في وقت وحيز بسبب انفتاحه على الفئات الشعبية، وتركيزه على الجزائريين المسلمين دون الأوربيين.

والملاحظ أن ابن جلول أوقف نشاطه السياسي؛ مع ظهور البوادر الأولى للحرب العالمية الثانية، وأعلن (وهو في منتصف الأربعينات) عن تطوعه للتحديد في صفوف الجيش الفرنسي "دفاعاً عن العلم". ومثل انخزام فرنسا أمام جيوش النازية انكساراً للديمقراطية في اعتقاده، حيث قال: "أيها الإخوان الأعزاء في كل مكان؛ في المدن والدواوير؛ قد أجبتم حاضرون لنداء الوطن". وذكر الجزائريين بتضحيات أجدادهم سنوات 1870 و1914م، وأضاف بأنهم "سينتصرون السلام والحرية والديمقراطية، وبالتالي سيخدمون الإنسانية بتحقيق انتصار فرنسا"²، ومن جهة أخرى لم تثمر اتصالاته (مع فرحات عباس وآخرين) في إحداث أي تغيير يذكر؛ في ظل اضطراب الأوضاع بفرنسا، وتخوف حكومة فيشي من أية انزلاقات محتملة، وصرح ابن جلول حينها قائلاً انه قد أصيب بالغيثان من الحياة السياسية بالجزائر، وأضاف؛ في رده على طلب فرحات عباس بإرسال وفد إلى حكومة فيشي؛ قائلاً: "لقد

¹ اجيرو، المرجع السابق، ج 02، ص 521.

² انظر: سعد الله، تاريخ الحركة الوطنية، المرجع السابق، ج 03، ص 79.

أبعدونا، أنحم لا يريدوننا؛ فلندعهم يديرون أمورهم وحدهم"، وقد صدق تنبؤه ذلك؛ عند عدم استحابة الحكومة لأية مقترحات إصلاحية.

وفي ماي 1942م أوقف ابن جلول جريدة "الوفاق" لسان حال فيدرالية قسنطينة، وغادر اللجنة المالية في أوت من نفس السنة؛ مع كثير من الفوضى والجلبة، وأعلن انه سيرفض من الآن فصاعدا أي عرض مورط¹. ولاحقا انضم ابن جلول على مضمض إلى الشخصيات الموقعة على بيان فيفري 1943م، لكنه لم ينشط كثيرا داخل الائتلاف الظرفي الذي تشكل داعما للبيان، والمتمثل في "حركة أحباب البيان والحرية" (AML). وبعد مجازر ماي 1945م الدموية؛ ذات الأثر العميق في نفوس الجزائريين عامة؛ عاود ابن جلول نشاطه السياسي، وخاصة في المجال الانتخابي؛ من غير أن يكون لصوته صدى كبيرا؛ في ظل تنامي النزعة الثورية - الاستقلالية لحزب الشعب - حركة الانتصار (PPA-MTLD)، وابتعاد جمعية العلماء عن النشاط السياسي المباشر.

¹ لاجرون، المرجع السابق، ص 894.

مما سبق يمكن أن نخلص إلى الملاحظات والنتائج التالية:

مثل الدكتور محمد الصالح بن جلول؛ ضمن مجموعة النخبة المفرنسة؛ توجهها خصوصا به؛ على الرغم من اشتراكه معهم في عدة مسائل: كوحدة التكوين، والانتماء اللغوي والثقافي، والطرح الليبرالي (الاندماجي) للقضايا الوطنية.

اعتبر في نظر البعض اندماجيا "معتدلا"¹، فهو لم يكن "سكونيا" مثل بعض المتعلمين والمعلمين والمرزقين المنطوون على أنفسهم. وليس اندماجيا "متطرفا" كجماعتي جريدة "الصوت الأهلي" (La voix indigène) ومجلة "صوت المستضعفين" (La voix des humbles). ولم يكن متفتحا على الشعب مثل فرحات عباس، وليس اشتراكيا كمحمد عزيز كسوس، ولا ماسونيا كالدكتور ابن التهامي... الخ. وكان اقرب إلى أطروحات الأمير خالد في العشرينات؛ على الرغم من بقائه يراوح مكانه؛ في ظل تسارع المستجدات داخليا وخارجيا.

سجل ابن جلول حضورا قويا ومهما بمدينة قسنطينة، وبالجزائر عموما؛ خاصة خلال عقد الثلاثينات؛ على الرغم من وجود زعامات قيادية من أمثال الشيخ عبد الحميد بن باديس، ومصالي الحاج، وفرحات عباس... الخ.

ارتبط نشاط ابن جلول إجمالا بمدينة قسنطينة؛ التي اعتنى بحضور كل فعاليتها، ونشاطاتها السياسية والفكرية؛ منذ العشرينات وحتى الخمسينات. ويمكن القول انه مثل بصمة في تاريخ المدينة (من بعد الشيخ ابن باديس). خاصة أن المدينة استقطبت آنذاك (في فترة بين الحربين) شخصيات نخبوية رائدة؛ من أمثال: رابح زناتي وسعيد فاسي والعربي طهرات وعزيز كسوس... وغيرهم.

¹ انظر مثلا: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج 06، ص 228.

مثلت فيدرالية المنتخبين منبرا هاما جمع كثرة النواب، واحتضن حصيلة أعمالهم. ولعل نشاط ابن جلول في فيدرالية قسنطينة كان الأبرز على الإطلاق؛ بالنظر لثقل شخصيته، وقوة مركزه، ونفوذ علاقاته؛ ما أعطى الفيدرالية موقع الريادة. كانت شخصية ابن جلول صلبة المراس، عنيدا إلى حد كبير، طموحا؛ "غير واضح السلوك" كما قيل عنه، مكروها لدى أعدائه (خاصة الشيوعيين منهم)، ونعت بأوصاف عدة¹.

ظل مراهننا على نجاح مساعيه بشأن التغيير؛ لكنه تأرجح بين الدعوة الاندماجية والإصلاحية، واعتمد دائما على فئة النخبة والنواب، ولم يتوجه - إلا قليلا - للقاعدة الشعبية؛ على الرغم من السمعة التي اكتسبها بعد احتكاكه وتقاربه مع النعماء. ولم تتغير أطروحاته السياسية المتشبثة بمشروع الاندماج خلال الثورة التحريرية؛ حتى ولو انه اعترف ضمنيا بفشل جهوده، وبتفوق الإيديولوجية الثورية؛ فانسحب بعيدا عن الساحة السياسية، واستمر على هذا الحال حتى وفاته.

لم يبد الدكتور ابن جلول (في مقالاته) - إلا عرضا - اهتماماً بالقضايا الإقليمية والدولية؛ على عكس بعض رفاقه، وتركز تفكيره على الجزائر خاصة. تميز أفراد النخبة الليبرالية عموما بكثرة الكتابات، بتنوعها وراثتها المعرفي، وبمستواها اللغوي؛ غير أن ابن جلول لا يصنف ضمن هذه الفئة؛ خاصة انه لم يترك مذكرات شخصية، ولا مؤلفات تذكر؛ عدا المقالات الصحفية المنشورة في مختلف الجرائد، ولعل أبرزها: التقدم، الوفاق، الميدان وغيرها. وربما شغله النشاط السياسي؛ حتى على حساب مهنته الأصلية كطبيب.

¹ قال عنه اجبرون انه "لم يمتلك قناعات ثابتة"، وانه كان يعلن ان لا عقيدة له، وانه يصنف من "اللاادريين".
وانه انضم إلى منظمة "سليمان النار" (Croix de feu) (Association des combattants de l'avant et des blessés de guerre cités pour action d'éc-

521. انظر: اجبرون، المرجع السابق، ص 521.

تمتع ابن جلول بالقدرة الخطابية بالغة الفرنسية، ولم يمتلك ناصية اللغة العربية. وكانت مداخلاته ونقاشاته في مختلف المجالس التمثيلية، ومنها على الخصوص البرلمان الفرنسي؛ منابر لعرض مؤهلاته الخطابية، وبلاغة أسلوبه.

وفي الأخير نقول أن شخصية ابن جلول هي نموذج للرجل السياسي المتحضر؛ الذي لم يقطف ثمار نضاله ومساره الحافل؛ سواء من طرف إخوانه الجزائريين، أو حتى من قبل السلطة الاستعمارية والكولون. ولكن اشتهر شعبيا ولمع في العشرينات والثلاثينات؛ فانه سرعان ما تناقص دوره، وأفل نجمه في الأربعينات وما بعدها؛ بسبب تخليه عن الطموحات المشروعة للشعب؛ في ظل عدم قدرته على مراجعة الأخطاء، وتحديد الأولويات، وبالنظر لتطور وتزايد نشاط الوطنيين الأكثر راديكالية منه كأحباب البيان وحزب الشعب.

كما أننا نضطدم عند التطرق لشخصية ابن جلول بالأوصاف التي ألصقت به؛ سواء مادحة أو مقزومة، وهو في رأينا لم ينصف تاريخيا؛ من حيث التركيز على نشاطه السياسي والصحفي، وتصوراته المتعلقة بالقضايا الوطنية.

الشَّهيد أحمد بوشمال: حياته وجموده الإصلاحية.

د. محمد بوبدان.

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

إنَّ المرءَ إذا ما أراد أن يُترجم لشخصٍ ما، فإنَّه عادةً ما يختار شخصيَّةً معروفةً ومشهورةً في أغلب الأحوال؛ ومن الدوافع في ذلك أن تتوافر لدى المترجم الكثرة من المصادر التي تعينه على إخراج عمله في الصورة المطلوبة. ولكن ثببتنا صفحات التاريخ أنَّ شخصياتٍ كثيرة لا يتوافق ما قدَّمته مع ما دُوِّن عنها؛ وذلك لأسبابٍ متعدِّدة: لقلَّة الوثائق الأرشيفية، أو أن تكون الشَّخصيَّة المقصودة لم تبتغي أن يكون عملها علنيًّا، بل تحب العمل في الظلِّ؛ وحقُّ على الدارسين حينئذٍ أن يُظهروا من صفحات التاريخ ما يندرس من جلائها؛ يحذوهم في ذلك: الوفاء والإجلال والعرفان.

وفي ضوء ذلك ارتأيتُ أن أتناول بالدراسة شخصيَّةً فذَّةً؛ عاملةً من دون أضياء الاشتهار؛ ذراع ابن باديس التي تُقضى بها الحاجات؛ وهو الشهيد: "أحمد بوشمال" رحمه الله تعالى؛ والذي كان مصاحباً للشيخ عبد الحميد بن باديس في عمله الإصلاحية، من قبل أن تتأسس الجمعية أصلاً؛ وبقي وفيًّا على العهد من بعد وفاة الإمام؛ وكان من الناشطين المحتضنين للعمل الثوري إبان حرب التحرير الكبرى؛ والذي لم تستطع معه حيلةٌ إلا اغتياله، وتضييعُ جثته، فلا يُؤوَّف له على قبرٍ إلى يوم النَّاس هذا؛ ولكن لا نغايةً كما أرادوها، فالرجل حيٌّ مرزوقٌ في ذاكرة التاريخ، في صفحات الخلود؛ وهذا البحث نبشٌ فيهنَّ.

المولد والنشأة.

ولد السيد "أحمد بوشمال" بمدينة قسنطينة عام 1899م ونشأ بها؛ وحفظ القرآن في مسجد "سيدي ياسمين" - بين سيدي جليس ورحبة الصّوف - واشتغل في صغره بصناعة الأحذية الأهلية¹، شأن أمثاله من أبناء البلد في تعلّم صنعة؛ ثمّ مارس التجارة، ولازم دروس الأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس، وكان من تلاميذه الأوّلين². ليصبح "أحد أنصاره وأتباعه المخلصين؛ وأحد عنماء قسنطينة الذين ظلّوا على ولائهم لجمعية العلماء، والفكر الإصلاحية بعد وفاة ابن باديس"³.

سافر قبل اندلاع الثورة سنة 1954م لأداء فريضة الحجّ والتحوّل في المشرق، ولقاء إبراهيمي الذي كان بالقاهرة آنذاك⁴.

دوره في إنشاء المطبعة الإسلامية الجزائرية.

لما عزم الشيخ ابن باديس على إنشاء الصّحافة الوطنية الصادقة وإعداد مطبعة لضمان سيرها المنتظم قدّم له بوشمال خدمةً جليلة حيث تبرّع أن يكون محلّه التجاري مكانا للمطبعة الإسلامية الجزائرية، وهو الكائن اليوم بنهج عبد الحميد بن باديس بحي الأربعين شريفا، وكان يدعى من قبل نخج: (ألكسيس لامبير).⁵ (Lambert Alexis). حيث كان مقهى بن يمينة الشهيرة في طرف، وفي طرف آخر مطبعة الشّهاب، ويتوسّطهما مكتب الشيخ بن باديس⁶.

¹ - ما يسمّى بـ"البلغات".

² - أحمد حتاتي: صراع بين السنّة والبدعة، أو القصة الكاملة للسطو بالإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس، دار البعث، قسنطينة 1984، (112/1).

³ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي؛ دار البصائر: الجزائر، 2007م، (310/5).

⁴ - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان 1990م (67/2).

⁵ - الصراع بين السنّة والبدعة: مرجع سابق (112/1).

⁶ - مالك بن نبي: مذكرات شامد لقرن، ط2، دار الفكر، دمشق-سوريا، 2004م ص106.

تم تأسيسها سنة 1925م¹؛ وعهد بها ابن باديس إلى الشيخ أحمد بوشمال.² وقد حثت مدير المطبعة خليل الزواوي بن القشّي بالسبب في تأسيس المطبعة والصحافة، فقال: «كنت أعمل بمطبعة "التّجّاح"، وبينني وبين إسماعيل مامي، رئيس تحرير "التّجّاح" صلة قرابة، وأتقنت فنّ الطّباعة، وكان الشّيخ يكتب في التّجّاح فصولاً تحت إمضاء مستعار، وقد يتحاشى الإعلان عن اسمه، ولكن أبناء هذه المقالات كانت تصل إلى الإدارة الإستعمارية، فتُعرف أسرارها، وأحياناً قبل نشرها؛ فكان الشّيخ يذمّها. وذات يوم قلت له: «لماذا لا تنشئ لنفسك صحيفةً تكون لسان حال حركتك، وتنشئ مطبعة لها؟ إنّي أعدك أن أترك عملي بمطبعة "التّجّاح" وأتعاون معك». قال: فأجابني أنّه سيفكّر في الأمر، ويتخذ قراره بعد الاستشارة. ثمّ أعلن قبوله واختيار الذين يعملون معه، ومنهم تلميذه الكبير "إمبارك الملي" رحمه الله، وتأسست عصابة المطبعة الإسلامية الجزائرية أوّل أمرها من السّادة:

- 1- عبد الحميد بن باديس
- 2- أحمد بوشمال
- 3- إسماعيل صحراوي
- 4- عبد الحفيظ صويلح (الجنان)
- 5- خليل (الزواوي) بن القشّي.⁴

¹ - Abdelmadjid Merdaci, «Djam'iyat ettarbiya oua etta'lim» (1930-1957), Au carrefour des enjeux identitaires, In: Insiyat/إنسانيات [12 نـفـر في الإنترنت | 36-35 | 2007 نـفـر في الإنترنت], <http://insaniyat.revues.org/3773> تاريخ الاطلاع 14 mai 2016. URL :

² - أبو النّاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (5/310).

³ - الصراع بين السنّة والبدعة: مرجع سابق (1/112).

⁴ - الأسماء مكرّرة في: (2/238).

وهذا الأخير هو مديرها. ولظروف مالية قاهرة، انسحب من الجماعة الشيخ عبد الحفيظ الجتّان بعد حينٍ لوفاة والده؛ وكان يقوم بالعمل في المطبعة السيّد الصّحراوي، والسيّد ابن القشّي.

نشاطه الصحفي الإصلاحى.

لقد كان مجاهداً بالجريدة والمجلة بامتياز؛ ويمكنك أن تقرأ على الصفحة الأولى من الشهاب، وأحياناً في آخرها الآتي: «المكاتبات باسم مدير شؤون الجريدة، وصاحب امتيازها: بوشمال أحمد، نصح ألكسيس لامبير، عدد 33»¹. وفي أسفل الصفحة مكتوب: جريدة سياسية تهذيبية انتقادية، شعارها: «الحقّ فوق كلّ أحدٍ، والوطن قبل كلّ شيء».

وجرائد «السنة النبوية المحمدية»؛ «الشرعية النبوية المحمدية»؛ و«الصّراط السويّ» و- كلّها كانت تصدر في المطبعة الإسلامية الجزائرية- تجرد إمّا في أولها، وإمّا في آخرها: صاحب الامتياز "أحمد بوشمال"؛ أو "Le gérant Bouchemal Ahmed"². وهذه الجرائد الثلاثة صدرت بهذا الترتيب كلّما أغنقت السلطات الفرنسية واحدةً خلقتُها أخرى، ثمّ خلفتهم جميعاً جريدة «البصائر»³. وهناك جريدة ثالثة موالية للجمعية صدرت سنة 1949م باسم: "الشعلة"؛ وقد رأسها أحمد رضا جوحو؛ وتولّى امتيازها الصادق حمّاني، ودامت نحو عامين. وكانت تحاجم الطرقيّة

¹ - طبعة دار الغرب الإسلامي، ص1 بيروت- لبنان، 2001م.

² - طبعة دار الغرب الإسلامي؛ (دط) بيروت- لبنان، (دت).

³ - جريدة السنة النبويّة أسبوعيّة، رأس تحريرها الأستاذان: الطيّب العقبي، والسعيد الزاهري؛ صدر العدد الأوّل منها في 8 ذي الحجة عام 1351هـ وتوقف صدورها في شهر ربيع الأوّل عام 1352هـ/1933م. وجريدة الشريعة المحمديّة أسبوعيّة كذلك لنفس رئيسي التحرير؛ صدر العدد الأوّل منها يوم الإثنين 24 ربيع الأوّل عام 1352هـ/1933/7/7م، ثمّ صدرت في 1933/08/28م. وأمّا جريدة الصّراط السويّ الأسبوعيّة فصدرت في 1933/09/11م، وصدورت في بداية جانفي 1934م. انظر: مذكرات الشيخ محمّد خير المدين، (دط)؛ مطبعة دسلب: الجزائر، 1985؛ (296/1).

والاستعمار، وأنصار الإدارة الفرنسية؛ كم هاجمت البدع والجمود في السياسة
لداخية. من كتابها أيضاً الشيخ: أحمد حمّاني، وأحمد بوشمال، وموسى الأحمدي،
وعبد الرحمن شيان؛ وكانت تنشر الشّعر الفصيح والملاحون.¹

وإذا كان يحقُّ للقارئ أن يتساءل عن مدى كفاءة أحمد بوشمال في توثيق ذلك
المنصب؛ والإشراف والمتابعة الكليّة لجرائد ومجلاّت كان لها أثرها الإصلاحيّ الباهر في
الجزائر؛ بل وصددها في العالم الإسلامي ككل؟ فنقول إنّ عنوان الكفاءة لديه هو كونه:
"أديباً" لقب بذلك بلا نكير؛ وعزّةً بذلك العامُّ والخاصُّ؛ فأما من الخاصِّ فالبشير
الإبراهيمي الذي قال: «... سمعت همّة صديقنا الوفيّ الأديب أحمد بوشمال، كاتب
الأستاذ المفسر، وأمين سرّه...»². وأما من العامِّ فمراسلةٌ إلى الشّهاب من: "الطاهر بن
محمّد" مستخدم بالفطار الكهربائي بالجزائر؛ صدّرها بقوله: «حضرة الأخ أبو شمال:
سلاماً واحتراماً... وبعد: أيّها الأديب، قد اطّلت...»³. وهو ما أقله أن يكون مدرّساً
رفقة الشيخ: "الحفناوي هالي، إبراهيم مرهودي، محمّد الصالح رمضان، أحمد رضا
حوحو، وعبد الحفيظ الجنان»⁴. وجدت له مقالا في جريدة: «السنة التّبوية المحمّدية»⁵؛
عنوانه: «كاد فضيلة الشّيخ المفتي بقسنطينة أن يوقع فتنة بالجامع الكبير». وموضوعه
بشأن جريدتي: "المعيار" و"الحجيم"، وأنّ المفتي إنّما أراد الدفاع عن نفسه وعن الحاج
القريشي، لا الدفاع عن الحق. وكذلك كتب في الشّهاب ستّ مقالات؛ أحدها عن

¹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي؛ (272/5).

² آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي: جمعها أحمد طالب الإبراهيمي ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان
1997م (255/2).

³ مجلة الشّهاب، العدد 157، صحيفة 16، (156/4).

⁴ انظر: منخص محضر اجتماع المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الجلسة السنويّة العادية
بمركز الجمعية من 25 إلى 29 سبتمبر 1954م برئاسة محمّد خير الدّين، منشوراً في: أبحاث وآراء في تاريخ
الجزائر: مرجع سابق، (75/2).

⁵ السنة الأولى، العدد الثاني؛ ص5 و6.

محاولة الاعتداء عليه بمدينة الخلفة، من بعد الاعتداء الذي طال شيخه¹. وعنوان
المنقال: «عجز عن القول فاضطر إلى الضرب شأن الأوباش».

وثانيها: «مساحلة علمية في درس الأستاذ العقبي»² يحكي فيه زيارته لبسكرة،
في جولاته الصحراوية، بسكرة التي قال عنها: «أصبحت بفضل علمائها، وأدبائها
كعبة العلم وركن الأدب»³، وكان من جملة غرضه، كما بينه، التعرف إلى الشيخ
الطيب العقبي، وحضور درسه النفيس مرتين، وقد حضرهما العلامة محمد الطاهر بن
عمارة الشريف، والعالم الأديب إبراهيم بيوض، فدار كلام عن الإصلاح، فقال أحمد
بوشمال لقارئ الشهاب: «سمعت هاته النصائح البليغة، فأردت أن أزيّن بها أعمدة
جريدة الشهاب، التي ما عقدت جولتي إلا لخدمتها»⁴.

وثالثها: «الاحتفال بافتتاح مكتب عربي بالأغواط»⁵، وقد حضر بنفسه
الاحتفال، فوصف مباحجه، وذكر ما يُعلق عليه من آمالٍ، وبخاصة وقد تولى شأنه
وأمره الشيخ مبارك المليبي.

ورابعها: «قلمة - سدراتة»⁶، حيث في زيارته للبلدتين، رأى في كلٍ منهما شيئين
حزاً في نفسه، وهما: تقاعس أهل الأولى عن فتح المكتب العربي، وخلو الثانية من
مسجدٍ؛ في أوله تقرأ: «زار السيد أحمد بوشمال صاحب امتياز المجلة هاتين البلدتين،

¹ الشهاب: السنة الثالثة؛ العدد 87-الخميس 06 رمضان 1345هـ/ 10 مارس 1927م، (الصحيفة 1-11).

16)؛ (2/891-893).

² الشهاب: السنة الثالثة، العدد 81، الخميس 23 رجب 1345هـ/ 27 جانفي 1927م، (صحيفة 5-5).

7)؛ (2/765-767).

³ المرجع نفسه.

⁴ المرجع نفسه.

⁵ الشهاب: السنة الثالثة، عدد 85، الخميس 20 شعبان 1345هـ/ 24 فيفري 1927م، (صحيفة 15-15).

18)؛ (2/855-858).

⁶ الشهاب: السنة الثالثة، الخميس شعبان 1348هـ/جانفي 1930م؛ (صحيفة 12-14)؛ (5/614-616).

وكتب منهما المقال التالي لقراء الشهاب، ونحن نرجوا أن يقع كلامه من سرّادّ هاتين البندتين موقع الرضا والقبول لكلام ناصح أمين¹. وقد حاول بوشمال من خلال مقاله التّبيان لضرورة الإخلاص في تحقيق الإصلاح.

وخامسها: «حفنة مدرسة» لم أقف عليه. وسادسها: مقال كتبه على صفحة القراء موقعًا بحرفي اسمه¹: «أ.ب.» عنوانه: «نادي الشّبّان المسلمين القائلين»² الذين زاروا قسنطينة وأقاموا حفلة فنيّة بالمرح البلدي، ومن استهلاله: «إذا كان التمثيل هو تحريك الإحساس والمشاعر؛ وفرض التأثير على المشاهد، فتفتخر مآقيه بالعبيرات، ويفتح ثغره بالبسمات؛ فإنّ زوّارنا فناني الشّبّان المسلمين بلغوا هذه الغاية في احتفالهم». وفي الحفل أنشد الكشافة القائلية، وأنشدت البنات كذلك؛ وأبدع القسم الرياضي في حركاتهم، قال: «وأما التمثيل فكان موضعه محاربة الخمر، والدعوة إلى التعليم». وقد كان وصف الشيخ بوشمال دقيقًا كعادته، يدلُّ على فطنة ونباهة وقدره على الوصف بالكلمات الموجزات، وعلى عدم تفويت التّصحيح حتّى وإن قبل العذر كقولهِ: «وقد أدّى الممثلون أدوارهم في كلّ الفصول بغاية الإتقان؛ غير أنّ التّطلق بالعريّة أفسد على الأدباء؛ وشاهدنا تقزّزهم يتجدّد بتجدّد اللّحن؛ لكن حفظ الممثلين، وإتقانهم لأدوارهم غطّى على هذا النّقص».

نشاطه الإصلاحيّ الجمعيّ.

كان يستشار في شؤون الجمعيات، فمن ذلك أنّه كان عضوًا استشارياً في "الرابطة الأدبية"³، وهي جمعية رسمية تعمل لخدمة اللغة والأدب. ولمّا أسس ابن

¹ وقد حدّد أبو القاسم سعد الله أنّه هو صاحب المقال؛ في: تاريخ الجزائر الثقافي؛ الجزء الخامس، هامش ص 429.

² الشّهاب: الجزء الثالث، ربيع الأول 1358هـ/ 21 أبريل 1939م، المجلّد 15، ص 155 - 156.

³ الشّهاب: مرجع سابق، العدد 150، 19 ذو الحجة 1346هـ/ 07 جوان 1928م، (الصّحيفة 15)، (25/4).

باديس من بعد "جمعية التربية والتعليم" كان بوشمال رئيس قسم الشبان؛ فلما توفي عبد الحميد بن باديس، تولى رئاسة الجمعية، وبقي يتحمل هذه المسؤولية حتى أدرقت فرنسا نشاطها عام 1957م¹. ومما ورد في شأن هذه الجمعية في بيانها والتعريف بها في الشهاب الآتي²:

المادة الثالثة: تسعى الجمعية لمقصدها هذا:

- أولاً: بتأسيس مكتب للتعليم؛

- ثانياً: بتأسيس ملحقاً للأيتام؛

- ثالثاً: بتأسيس نادي للمحاضرات؛

- رابعاً: بتأسيس معملٍ للصنائع؛

- خامساً: بإرسال التلامذة على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى.

ومن ذلك "جمعية أحباب الفن" التي تأسست في مايو 1933م، لإحياء التراث العربي من الآداب والموسيقى والفنون؛ وكانت برئاسة محمد رحومي، وعضوية إبراهيم العموشي وأحمد بوشمال. وكانت على صلةٍ بحركة الإصلاح التي يقودها ابن باديس في المدينة؛ ولذلك كان نشاطها مرتبطاً بنشاط مدرسة التربية والتعليم أيضاً؛ فكانت تحيي السهرات الفنية لجمع التبرعات والمال لأبناء المدرسة؛ وهي إحدى وسائل ابن باديس في توسيع مشاريعه³. ثم تأسست "جمعية الشباب الفني" في إبريل 1937م، بعد انقسام حدث في جمعية أحباب الفن. وتولى شؤونها أحمد بوشمال، وإبراهيم العموشي؛ وكان كاتبها العام هو الشيخ عبد الحفيظ الجنان، وكانت "الشباب الفني"

¹ - انظر الصراع بين السنة والبدعة: مرجع سابق.

² - السنة السابعة (116/2).

³ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (5/317).

فقد أخلصت في أهدافها للحركة الإصلاحية؛ وقد وظفت الفنَّ والتَّمثِيلَ والموسيقى لخدمة النهضة العربية الإسلامية في الجزائر.¹

حبّه ووفاءه لشيخه:

حياة النَّاسِ ملأى بالأقوال، ووحدها الفعل تُصدِّق ذلك أو تكذِّبه؛ وثبتنا صفحات التاريخ عن أصحاب الأفكار وأتباعهم، وما يكون من شأنهم، بين الوفاء وبين الإلحاف عن العهد؛ وأحمد بوشمال كان من أهل الوفاء لشيخه ولما احتطَّه من مسير. قال أحمد حماني في سياق كلامه عن عصبة المطبعة الإسلامية الجزائرية: وكان هؤلاء النخبة من الشبان أطوع للشيخ عبد الحميد بن باديس من أبنائه وبناته؛ وعلى رأسهم الشهيد أحمد بوشمال؛ ينوب عنه في كلِّ المشاكل التي تعرَّضُ له، ويقدمُ نحْرَه دون نحْرَه، وصدْرَه دون صدره.²

وما كان ذلك مجرد كلام بل كان فعلاً؛ كان إسماعيل مامي ويعرف أيضاً بـ: "ابن العبدى" رئيس تحرير جريدة "التَّحاح"، قد آذى ابن باديس، قال أحمد حماني: وبلغ الغرور بالسيد مامي عفا الله عنه - أن صار يسخر أحياناً بالشيخ ابن باديس، ويحتج على لسانه محاورات، فبلغ السيل الزبأ، واشتدَّ غيظُ أحمد بوشمال، ولم يملك نفسه ذات يوم -1938م- أن ارتقى عليه في حيِّ تجاريٍّ مزدحم، وأعطاه "طريجة" حركم من أجلها، وحكَّم عليه بأربعمائة فرنك، وكانت كافيةً لكفِّه التَّهائي عن التَّعرُّض لشخصية الشيخ ابن باديس بسوء حتى مات رحمه الله.³

ولم تكن هذه المُرَّة الوحيدة التي يلج فيها بوشمال أروقة القضاء، بل منها كذلك ما قد ورد تفصيله في الشهاب⁴، في العدد 150 - وتتمَّة الأحداث في العددين 153، 154 - تحت

¹ - نرجع نفسه، (317/5).

² - الصراع بين السنَّة والبدعة: مرجع سابق (114/1).

³ - نرجع نفسه (131/1).

⁴ - شهاب: مرجع سابق، العدد 150، (الصحيفة 10 وما بعدها)/(20/4 وما بعدها).

عنوان: «بين الإصلاح والخرافات: حول محاكمة الشهاب والشريف السيد: محمد الصغير أبو صالح»، قالوا: كان يوم الخميس الماضي 31 ماي 1928م يوماً عظيماً. اشتدَّ فيه العراك بين الإصلاح والخرافات، وعظَّم فيهِ الصراع بين الحقِّ والباطل، وبين الهدى والضلال، فقد جرت فيه أمام مجلس الجنح (الكويكسيونيل)؛ قضيتان اثنتان: الأولى وجهها المسمَّى "سي العشعاشي"، (نسبة إلى عشعاش أو إلى عشعاشة)؛ على السيد أحمد بوشمال صاحب الشهاب، وعلى الشريف الحرَّ السيد: محمد الصغير أبو صالح...» والسبب هو مقال منشور رآه سي العشعاشي مسيئاً له. ووقع¹ الحكم على الشَّهاب بغرامة قدرها مائة فرنك، وبأرش قدره ألف فرنك...والحكم استؤنف.

«وبلا شكَّ فإنَّ اسم بوشمال، واسم بوصالح قد كُتِبَا على بياض الأيَّام بكلِّ تجلَّةٍ وفخارٍ، وبكلِّ شرفٍ وكرامةٍ، مع الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصَّالحين.»² هكذا ختمت الشهاب كلامها.

ويبدو أنَّ النَّاس كانت تدرك هذه المترلة للشيخ بوشمال عند ابن باديس، وانعادَوْ قبل الصديق؛ فيعد الاعتداء الأثم على ابن باديس لاغتياله سنة 1927م، وقع اعتداء على أحمد بوشمال ببلدة الجلفة، نجح فيه من الاعتداء المادي وإغراء النَّاس به، ولكن لم ينج من اعتداء لسانٍ كان حقَّه حقاً أن يقطع، والمعتدي قاضٍ يحكم بين النَّاس، ويصلح بين المتخاصمين، ومؤلِّفٌ أيضاً³. وقد كتب أحمد بوشمال نفسه مقالا نشر بالشَّهاب 6 رمضان 1345هـ الموافق لـ 10 مارس 1927م وعنوانه «عجز عن القول فاضطر إلى الضَّرْب شأن الأوباش»⁴ وسبب الاعتداء طبعاً معلوم: العداء للإصلاح ونهجِه الذي اختطَّته الجمعية لنفسها.

¹ - الشهاب، العدد 153، (الصحيفة 17)، (81/4).

² - الشهاب، العدد 154، (الصحيفة 14)، (98/4).

³ - انظر تفاصيل ذلك في الصراع بين السنَّة والبدعة، (119/1).

⁴ - لمرجع نفسه (116/1).

وقد وصف الشيخ إبراهيمي بعض ترجمة لهذا الحب والوفاء بإخراج جهد ابن باديس مضموناً، فقال: سمت همّة صديقنا الوفي الأديب، أحمد بوشمال، كاتب الأستاذ المفسر، ومين سره، فجرّد من بحنة "الشهاب" قطعةً صالحةً من "مجالس التذكير"، وطبعها في مطبعة الشهاب، طبعاً أنيق الحرف، بديع الورق، فحاج تحفةً فنيةً صغيرةً المحم، ولكنها عاليةً القدر؛ وفي نيته أن يصدر البقية في جزء آخر¹. لكن لم يتم له الأمر.

لكن لا أرى أن أتجاوز هذا العنصر دون الإشارة إلى شيء يتعلّق بالوفاء والخطأ والنهج؛ نكتني لن أقدم حكماً فيه، وإن كنت -لاعتباراتٍ بعضها موضوعي طريقةً ناس، وبعضه عاطفي- أجديني في جانب الشيخ أحمد بوشمال رحمه الله تعالى؛ ونكتني أدع الحكم فيه للمؤرّخين².

حيثُ ورد في ملخص محضر اجتماع المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في جلسته السنوية العادية بمركز الجمعية من 25 إلى 29 سبتمبر 1954م برئاسة محمّد خير الدين النائب الثاني للرئيس، ورد الآتي: تلا تقرير الأستاذ الرئيس عن البعثات ونظامها، ثمّ ختمه بتدبيرٍ مرّ عن إشاعاتٍ ومفترياتٍ قيلت فيه، ونقلها إليه الشيخان³. والمقصود بالشيخين حسب أبي القاسم سعد الله: العربي التبسي وأحمد بوشمال (فقد اتقيا بالإبراهيمي في القاهرة)؛ قال: وما زلنا لا نعرف محتوى الإشاعات والمفتريات وموضوعها؛ ولكن الأمر يتعلّق بالأوضاع الداخليّة للجمعية⁴. وقد اختتمت المسألة بـ: مطالبة الرئيس الجليل [يعني الإبراهيمي] بإعطاء بياناتٍ عن هذه الإشاعات

¹ - آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي: مرجع سابق، (255/2).

² - ونحو من ذلك ما حدث حينما حاول الشيخ الطيّب العتيبي طبع جريدته "الإصلاح" - التي ظهرت في سبتمبر 1927م. والتي عجز عن صعبها بعد عدة محاولات؛ ولم يظهر منها إلا بعض الأعداد الأولى فقط - فنحاول طبعها في البوابة الإسلاميّة بقسنطينة، فلم يُعظ بالنجاح أيضاً؛ وأنتم العتيبي القاقصين عنى هذه الطبعة بعوقله؛ ومنهم الشيخ أحمد بوشمال، وشيخ ابن الشيخ ابن باديس أيضاً. انظر: تاريخ الجزائر الثقاني، (255/5).

³ - أحداث وآراء في تاريخ الجزائر: مرجع سابق، (83/2).

⁴ - المرجع نفسه؛ هامش رقم 20.

الكاذبة، وعن المنسوبة إليه [محمد خير الدين] وعن ناقليتها بالتدقيق؛ مع بيان سائر الأسماء؛ ليُنخَذ المجلسُ موقفه من محاكمة هؤلاء الكاذبين¹.

ومأ يقوِّي كون الشيخ أحمد بوشمال مقصوداً أساساً، هو تحاشي الشيخ محمد خير الدين ذكر اسمه في مذكراته؛ فلم يذكره مثلاً عند الكلام عن صحافة الجمعية إلاّ مرّةً واحدة على أساس أنه صاحب امتياز جريدة الصراط السوي²؛ ولكنّه صاحب امتياز بقية الجرائد التي سبق له تعديدها كذلك؟ فالإقصاء متممٌ والله أعلم بسبب الخلاف بينهما؛ والله يرحمهما جميعاً.

حبُّ شيخه له:

وصفه الشيخ أحمد حماني بأنّه تلميذ ابن باديس ورفيقه، وعضدُ الأمين³. ووصفه الإبراهيميُّ بأنّه: «كاتب الأستاذ المفسّر، وأمين سرّه»⁴. ولا يُعتقد أن يبلغ الرّجلُ مبلغ أمين السرّ، إن لم يكن صغيّاً.

ولمّا اعتدّي على أحمد بوشمال في مدينة الجلفة كما قدّمنا سابقاً، تركت تلك الحادثة أثراً أليماً في إحساس الشيخ عبد الحميد، لما أصاب مدير مجلّته، ولكون المعتدي يحتلّ منصباً دينياً خطيراً في مجتمع المسلمين⁵، وهو القضاء.

مكانته في جمعية العلماء المسلمين.

وصفه أبو القاسم سعد الله فقال: أحمد بوشمال: أحد أعضاء الجمعية العاملين، غير الظاهرين⁶. ومن كان شأنه كذلك فمن الصّعب الوقوف على أعماله وإنجازاته، والتي

¹ - المرجع نفسه (84/2).

² - مذكرات محمد خير الدين: مرجع سابق، (296/1).

³ - الصراع بين السنّة والبدعة: مرجع سابق (205/2).

⁴ - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي: مرجع سابق (255/2).

⁵ - الصراع بين السنّة والبدعة: مرجع سابق (119/1).

⁶ - أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مرجع سابق (67/2).

تبيّن حجم الشَّخصيَّة المترجم لها ومكانتها في مجتمعها. لكننا على الرُّغم من ذلك سنستدل على مكانة الشَّهيد أحمد بوشمال من خلال جملة من الأمور كالتالي:

1/ العهد إليه بامتيازات الجرائد الإصلاحية منذ تأسيسها؛ وإشرافه على التعليم وشؤون الطلبة؛ وأمور الجمعيات التي تأسسها جمعية العلماء.

2/ كونه يُستشار في شؤون الجمعيات، فمن ذلك أنه كان عضواً استشارياً في الرابطة الأدبية¹، وهي جمعية رسمية تعمل لخدمة اللغة والأدب.

3/ استمرارية الثقة فيه من بعد ابن باديس رحمه الله تعالى حين انتقلت رئاسة الجمعية إلى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي؛ فكان محل ثقة وإخوانه: "الشيخ مبارك المليي، والشيخ العربي التبسي، والشيخ محمد خير الدين، وغيرهم. عليه اعتمادهم في كثير من شؤون الحركة، وإلى رأيه مرجعهم في الاستشارة، وفي تأسيس الجمعيات والمدارس بسائر أنحاء القطر، ولهذا انتخب عضواً في المجلس الإداري لجمعية العلماء عام 1946م؛ وقام بتنظيم شؤونها المالية مع الشيخ خير الدين، ثم مع الشيخ عبد اللطيف سلطاني"².

4/ انتظامه في سلك التعليم بالجمعية؛ وقد تمَّ إلحاقه بمدْرسي الدرجة الثانية سنة 1954م، رفقة الشيوخ السادة: الحفناوي هالي، إبراهيم مزهودي، محمد الصالح رمضان، أحمد رضا جوحو، وعبد الحفيظ الجَّان³.

5/ عندما أُسس معهد عبد الحميد بن باديس عام 1947م، لعب الدور الأكبر في تحقيق مشروعه، ثمَّ في تأسيس دار الطلبة، التي دشنت عام 1953م؛ وكانت من بعد قيام الثورة مقرّاً من مقرّات قيادة أعمالها في المدينة. وقد تحمّل مسؤولية المقتصد

¹ - انشهاب: مرجع سابق، العدد 19، 150، ذو الحجة 1346هـ/07 جوان 1928م، (الصفحة 15)، (25/4).

² - انصراف بين السنة والبدعة: مرجع سابق (1/114-115).

³ - انظر: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر: مرجع سابق، (2/275).

في معهد ابن باديس¹. وثمة رواية منظومة للحجة العلامة البشير الإبراهيمي رحمه الله تعالى تبين منزلته، أحتم بها، وإن كانت في قالب الهزل، اسمها "رواية الثلاثة"²، نظمتها في إقامته الجبرية بمدينة آفلو سنة 1941م، بأسلوبه المعروف الذي لا يُبارى؛ كلُّها هزلٌ هادفٌ، يداعب بها: ثلاثة من الأساتذة، لا يُدعون عن فضلٍ ولا أدبٍ، ولا ذكاءٍ، وما فيهم إلا بعيدُ الأثر في الحركة الإصلاحية، واسعُ الخطى في ميدان تعليم الناشئة وتربيتها³. وهؤلاء الثلاثة هم:

- الشيخ السعيد بن حافظ: مدير مدرسة التربية والتعليم الحرة بقسنطينة،

- والأستاذان عبد الحفيظ الجنان، ومحمد بن العابد (الجلالي)، المعلمان بها⁴.

ثم يقتل معهم مشكلة ما لها إلا حلان - وهو مع الحل الثاني منهما وهو حورٌ على ابن العابد - فلما تعاسر معهم لجأ إلى عضو رابع استقدمه ليعينه عليهم وهو أحمد بوشمال. قال له⁵:

لَأَسْتَعِينَنَّ بِكَ فِي الْمُرَادِ عَنْ مَارِدَيْنِ أَمْحَلًا مُرَادِي
فَكُنْ ظَهِيرِي يَا ظَهِيرَ الضُّعْفَا فَكُلُّ مَنْ خَذَلْتَهُ زَبَعٌ عَقَا

بدايةً رفضوا؛ وإنما انتهت⁶ مسألة العضو بموافقة تامة لسبيين: الثاني منهما إعلان الشيخ لاسم العضو المزيد، واسمه محبوب منهم جميعا (الكلام للإبراهيمي). وكان بوشمال مع الرأي الأول الذي لا جور فيه.

وَمَا جَاءَ فِيهَا مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى أَحْمَدَ بَوْشَمَالِ قَوْلَ الرَّاجِزِ:

¹ - الصراع بين السنة والبدعة: مرجع سابق (1/114-115).

² - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي: مرجع سابق، (2/59).

³ - المرجع نفسه (2/59).

⁴ - المرجع نفسه، (2/60).

⁵ - المرجع نفسه، (2/94).

⁶ - المرجع نفسه، (2/62).

إِلَى الْأَخِ الْبَرِّ الصَّغِيِّ الْأَمْجَدِ
 أَبِي الشَّمَالَيْنِ إِذَا مَا كُنِّيْنَا
 أَمَا اسْمُهُ فَخَيْرُ الْأَسْمَاءِ اسْمُهُ
 حِرْفَتُهُ إِدَارَةُ الْجَزَائِرِ
 إِنْ بَرَزَتْ كَانَ بِهَا مُحْتَمَالاً
 مَقَرُّهُ حَيْثُ يَكُونُ الْجَزَائِرَانُ
 وَاطْلُبُهُ فِي إِدَارَةِ الشَّهَابِ
 وَاطْلُبُهُ بَيْنَ أَدْوَاتِ الْمَطْبَعَةِ
 وَكُلَّمَا تَأَسَّسَتْ جَمْعِيَّتُهُ
 فَاطْلُبُهُ فِي دِيْوَانِهَا بِجِدَّةٍ

جهاده وتضحياته.

الْعُمْدَةَ الْحَرَّ الْأَبِيَّ الْأَسْعَدِ
 وَطَاهِرٍ بَصِيْدٍ هَذَا عُيَيْبَا
 وَكُلُّ نَفْسٍ لِيُعَادِ وَشِمُّهُ
 وَكَانَ وَمَا زَالَ لَهَا كَالرَّابِدِ
 أَوْ عَطَلَتْ كَانَ لَهَا مُحْتَمَالاً
 مُقَرَّرًا وَأَلُو بِغَابِ الْفَرْثَانِ
 بَجْدُهُ كَأَجْمَرَةِ ذَا التَّهَابِ
 بِجِدَّةٍ ثُمَّ رَابِعًا لِأَرْبَعَةِ
 تَسْعَى إِلَى الْمَقَاصِدِ التَّفْعِيَّةِ
 مُتَهَيِّئًا مَنْ يَسْتَفِيْدُ يُعِيْدُهُ

يمكننا الاستدلال على كونه ذا أيدٍ بارزة، وذا جهادٍ وتضحيةٍ، من خلال الآتي:
 1/ في أيام الإضراب الذي أعلنته جبهة التحرير الوطني في أواخر يناير 1957م؛ بقي في دار الطلبة مع التلاميذ للإشراف على حياتهم المادية والمعنوية إلى نهايته؛ وترك عائلته من النساء والعجائز، ورضيعاً عمره بضعة أشهر هو وحيداً¹.

2/ دفاعه عن التعليم العربي: فغير خافٍ أنه كان ممن يدافعون عن التعليم؛ ولما أغلقت المدارس كلها بأمرٍ عامٍّ صدر في الأسبوع الثاني من شهر ماي 1945م نصته: "أوقفوا كل نشاط"² ذهب أحمد بوشمال، وعبد الحفيظ الجنان إلى الجزائر، واتصلا بالأستاذ "ابن شنب"، فوضع لهما تقريراً هاماً عن التعليم العربي، وضرورة عودته، ووثّم كإعذار، وإنذار للإدارة الإستعمارية، فما عبأت به³. وكان في الوفد الذي

¹ - الصراع بين السنة والبدعة: مرجع سابق، (1/115).

² - المرجع نفسه، (2/297).

³ - المرجع نفسه، (2/297).

عَيَّنْتَه الجمعية ليفاوض السيّد "باي" بشأن التعليم العربي، برفقة العربي التيمسي، وعبد القادر محداد¹.

3/ دفاعه عن الصحافة التي كانت وسيلة مهمة جداً من وسائل توعية الشعب. لتحقيق حرّيته ونهضته؛ وكان دائم الاحتجاج على إغلاق جرائده؛ فقد تقدّم على سبيل المثال باحتجاج إلى مجلس الدّولة الفرنسي في يوم 29 جوان 1933م ضدّ القرار التعسّفيّ بغلق مقرّ جريدته: "السنة النبويّة" فتلقى جواباً غريباً نوعاً ما، إذ أبلغه أنّه يحقّ للسلطات الفرنسيّة أن تقوم بمنع صدور أيّة جريدة تنشر بلغّة أجنبيّة في الأراضي الفرنسيّة!!²

وطنيته وعمله في الثّورة.

لقد كانت وطنيّة معلومة لدى الصديق والعدوّ؛ وأعماله لخدمة وطنه وبنيه معلومة، ويتبيّن لنا شيء من ذلك من خلال الآتي:

1/ تلقيه بأوصاف الوطنيّة: قال العلامة الشّيخ إسماعيل بن علي بن صالح الجيجلي مخاطباً أحمد بوشمال في خطاب استدرაკي: «حضرة الوطنيّ الغيور: مدير مجلّة الشّهاب -وقفه الله- لما فيه خير الوطن وسعادة أهله...»³. وقد حدّث أحمد بوشمال أحمد حمّاني رحمة الله عليهما، أنّه استدعي من طرف مديرية الأمن واستنطق من أجل هذا الوصف "الوطني الغيور"⁴.

¹ - آثار إبراهيمي: مرجع سابق (235/3)؛ نشره في العدد السابعين من جريدة البصائر 07 مارس 1949.

² - انظر: عثّار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر، من البداية، ونهاية 1962م، ط1، دار العرب الإسلاميّة، بيروت.

لبنان، 1997م، ص256. نقلاً عن: Ageron : Histoire d'Algerie contemporaine ; p344.

³ - الصراع بين السنة والبدعة: مرجع سابق، (117/2). وورد لغير العلامة الجيجلي مناداته بالوطني الغيور، في الشّهاب، العدد156، (الصحيفة12)، (132/4): «حضرة الوطني الغيور، السيّد أحمد بوشمال مدير مجلّة الشّهاب الغزّاء: السلام عليكم...».

⁴ - المرجع نفسه؛ في الهامش.

2/ العمل في الثورة التحريرية الكبرى؛ حيث: إنَّه سخر المطبعة لخدمة الثورة، لنشر نداءاتها، وإعداد بعض وثائقها الإدارية، على غرار بطاقات جنود جيش التحرير الوطني¹. وقد سمعه الشيخ أحمد حمّاني يحمّد الله ويشكره على أن أمّدَّ في حياته حتّى رأى مطبعة الشيخ ابن باديس تقوم بخدمة الثورة الجزائرية المسلمة، وتحقّق غرضا من أغراض الشيخ. وبقي يمارس أعماله السريّة في خدمة الثورة، وخصوصا مع الشهيد صالح بوذراع أحد أساتذة مدرسة التربية، والشهيد مسعود بوجريو، المتعاون معه في مدرسة سيدي مبروك ومسؤول الكشافة الإسلامية، وكلاهما كان على رأس الحركة الفدائية بقسنطينة وضواحيها². وقد تميّز بالذكاء والفضيلة وحسن التدبير؛ فقد لُقّبته السلطات الاستعمارية بـ: "العلو الذكي"³؛ ولقد كانت دار الطلبة التابعة للمعهد من معاقل الثورة، بما ينزل رسلها إلى الولايات في ذهابهم إليها ورواحهم منها، كالشّهد عمارة رشيد رحمه الله. وقد تولّى للمسؤولية الأولى في الاتصال: الأخ الأستاذ إبراهيم مزهودي، وهما اللذان أعادا الاتصال -بعد انقطاعه لمُدّة عام تقريبا- كما شهد بذلك العقيد ابن طبال. ثمّ اكتشف أمره، فتجنّد واستخلف من بعده الأستاذ مصطفى بوعابة، فقام بأعبائها حتّى اكتشف وكاد يقع في يد الشّرطة، لولا يقظة وشجاعة الشّهد أحمد بوشمال رحمه الله⁴.

استشهاده.

كانت هنالك محاولة لاغتيال أحمد بوشمال في جماعة، على إثر ما قام به فدائيٌّ من إعدام المجرم "سان مارسيلي"⁵ الكورسي مدير الشّرطة بالقسم الثّاني، وهو

¹ - الصراع بين السنّة والبدعة: مرجع سابق (117/2).

² - المرجع نفسه (115/1).

³ - محمد عباس: الشهيد بوشمال الساعد الأيمن لابن باديس، مقال بجريدة الشروق اليومي، منشور بتاريخ 2010/07/12م.

⁴ - الصراع بين السنّة والبدعة: مرجع سابق، (300/2).

⁵ - المرجع نفسه (299/2).

مستعرب برع في مقاومة الجريمة فاغتر واستهان برجال الثورة وعاملهم معاملة محترفي الجريمة؛ وأظهر استخفافاً كبيراً بشأنهم متعالياً مفتخراً. فحدث أن الفرنسيين اعتقلوا بعض أعيان المدينة، منهم الأديب أحمد حوجو، والشاب محمد الطاهر العجاني، والحاج رابع بوشريط، والحاج إسماعيل بوعلاق، وعددهم 13 فأعدموهم. وكانوا عازمين أن يعدموا خمسين شخصا... وفيهم - كما يقال - المشايخ العربي التبسي، ومرهودي، وأحمد بوشمال، وأحمد حثاني¹.

وقد حكمت عليه المحكمة العسكرية بقسنطينة سنة 1955م بالإعدام رفقة آخرين، منهم مصطفى بن بولعيد²؛ ولم ينفذ. ثم اعتقل في 17 من شهر أوت 1957م فلم ينطق بحرفٍ يفيد العدو، ولا شهد عليه أحد بشيء، فأطلق سراحه. ثم اعتقل من جديد في ربيع عام 1958م، وأطلق سراحه. ثم اعتقل للمرة الأخيرة في 13 سبتمبر 1958م، وكان ذلك آخر العهد به. وقد بلغنا - يقول أحمد حثاني - أنه عُدبَ عذاباً أليماً حتى بلغ به الأمر إلى تمزيق الموت، وإلى دفع الجلادين إلى اغتياله: كان يحترقهم، ويشتم دولتهم أمامهم ويستفزههم، ويصق عليهم، مما يدفعهم إلى قتله. وهذا ما فعلوه، فإنه لم يظهر له أثر منذ اعتقاله، وكان مصيره كمصير صديقه العلامة الشهيد الشيخ العربي التبسي الرئيس الثاني لجمعية العلماء المسلمين، ومدير المعهد رحمه الله، وكمصير الشيخ محمد العدوي المدرس بالمعهد، وكمصير الشيخ أحمد حوجو الأمين العام للمعهد، كلهم اختطف، وعُدب: وأعدم³. رحمهم الله أجمعين؛ ورفع درجاتهم في عليين.

¹ - المرجع نفسه (300/2).

² - Sauvons les condamnés à mort d'Algerie ; Archive collection : Papers of Henry Sara and Frank Maitland ; Archive file : Miscellaneous leaflets and other ephemera ; Document reference 15B/7/154. Document date : 1955 ; Course code : III172

الفرنسية موجهة إلى رئيس الجمهورية، والحكومة). (النداء باسم مجموعة من الشخصيات يمكن الاطلاع على الوثيقة على الرابط التالي:


<http://contentdm.warwick.ac.uk/cdm/compoundobject/collection/tav/id/4572/rect1>

³ - المرجع نفسه (115/1).

ملحق فيه:

رسالة إلى أحمد توفيق المدني بخط أحمد بوشمال رحمه الله¹

تراب الكتابة بالحرب الأريفي هكذا
A. BEN BADIS
 12, rue J. Lacroix - Constantine (Algérie)
 رقم الهاتف 15-15

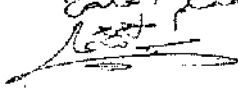

 الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
 تحت إشراف وزارة الشؤون الخارجية
 الجزائر

السيد أحمد توفيق المدني
 الجزائر

تاريخ: 10 شعبان 1386 هـ الموافق 17 يونيو 1966 م

فضيلة الأستاذ الكبير الدكتور أحمد توفيق المدني
 السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

أما بعد، وبالاستناد إلى كتابكم ووجه تشجيع من قبله - هذه الأمانة المحترمة
 بتأليفه وبتدقيقه الكريم من أحييت ليكنكم ينشر في 1966 المجلد في الجزائر تحت
 وإيداعه لدى وزارة الشؤون الخارجية من أجل ما هو المراد من
 السيد توفيق المدني عليه حوائجكم في 10 يونيو
 الاستناد بفتحكم على كتابكم أو تفتيحوا جلا سلفا على
 الشهادت الجارية المبرهنة السيد توفيق المدني كقيدوه في شرح
 هذه الجزئية، وبوجوده في مكان آخر منكم
 شكرا ما تقبلوا ما شاء الله عز وجل وأركان السلام من الاستناد
 والحياتية و مع خالصكم التحية


 أحمد بوشمال

¹ - تم تزويدها من على الرابط التالي:

مفهوم الديمقراطية عند مالك ابن نبي

د. ليلى فيلاي

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

تمهيد

يعد مالك بن نبي مفكراً ودارساً لمشكلات أمته ووضع حلولاً لها مع الاحتفاظ بحويتها وأصالتها، فكان ولازال يعتبر ظاهرةً فكرية فريدة من نوعها في العالمين العربي والإسلامي بحيث أتاح له اطلاعه الواسع على الثقافة الغربية (الفرنسية خصوصاً) إضافة إلى ثقافته الأصلية، إدراكاً عميقاً للأوضاع في العالم الإسلامي وفي الغرب، مما مكّنه من إنجاز قراءات واعية قدّمت نظرات ورؤى ومقترحات ذات قيمة يمكن بها تحقيق الإصلاح. وقد بادرت جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بإصدارها لكتاب يتضمن مجموعة أبحاث للإشادة بمآثر هذا المفكر الفذ، وقد أضلقت اسم مالك بن نبي على الدفعة التاسعة عشر المتخرجة عام 2006.⁽¹⁾ ويجدر بنا في هذا السياق تقديم ترجمة مقتضبة عن حياته.

ولد الأستاذ مالك بن نبي في 05 ذي القعدة 1323 هـ (1جانفي 1905م)، بمدينة قسنطينة، وانتقلت أسرته إلى مدينة تيسة ثم لحق بها بعد فترة قضاها في قسنطينة عند أقاربه، وفي تيسة انتظم في حلقة لحفظ ما تيسر من القرآن الكريم، وأتم تعليمه الابتدائي والإعدادي.⁽¹⁾

(1) جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، مالك بن نبي والفقه الحضاري: كتاب تخرج الدفعة التاسعة عشرة، دار الهدى عين مليقة، الجزائر، 2006.

(2) محمد الهادي الحسيني، مالك بن نبي: لمحات من حياته، وقياسات من فكره،

http://www.binabi.net/infos/detail/KWi785Rkl5Sc11 تاريخ الزيارة 2016/01/12.

وعاد بن نبي إلى قسنطينة لمزاولة الدراسة التكميلية ثم ثانوية التعليم الفرنسي الإسلامي، حيث نال شهادته سنة 1925، ثم وغادر الجزائر سنة 1930 متوجها إلى باريس لمواصلة دراسته، فحبل بينه وبين رغبته في دخول معهد الدراسات الشرقية: فتوجه إلى مدرسة اللاسلكي، التي تخرج فيها مهندسا كهربائيا سنة 1935، فكان أول مهندس جزائري في الكهرباء. (1)

وانطلق انتاجه الفكري الوفير منذ 1946 بنشره لكتاب "الظاهرة القرآنية"، بحيث كرس بن نبي حياته للبحث والتفكير في "مشكلات الحضارة"، وطور نظريته الخاصة حول الحضارة، فحاء فكره متميزا قويا يظهر فيه تشبع المفكر بالثقافة الإسلامية والغربية في آن واحد، وحمل وكتب حوالي 300 مقالا، كما نشط ندوات ومحاضرات بالقاهرة وعين كأحد مستشاري "المؤتمر الإسلامي" في القاهرة، ومكث هناك حتى سنة 1963، حيث رجع إلى الجزائر ليعين مديرا عاما للتعليم العالي، ولكنه قدم استقالته في سنة 1967 ليتفرغ للنشاط الإبداعي وكذا تنظيم الندوات الفكرية في بيته والتي كان يحضرها الشباب الجامعي خاصة. (2)

وقد تحولت هذه الندوات فيما بعد إلى "ملتقيات الفكر الإسلامي" التي تتعقد في مختلف مناطق الجزائر، كان آخرها الملتقى الرابع والعشرون بالجزائر العاصمة سنة 1990، وقد توفي مالك بن نبي في 31 أكتوبر 1973 عن عمر يناهز الثامنة والستون، (3) تاركا وراءه نتاجا فكريا متعددًا يدور حول "مشكلات الحضارة" بكل أبعادها الثقافية والاجتماعية والفكرية والسياسية. وقد خصص للجانب السياسي

(1) - نذير حمادو، "سيرة مالك بن نبي فقيه الحضارة" فيمالك بن نبي والفقهاء الحضاري: كتاب تخرج الدرجة التاسعة عشرة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2006، ص53.

(2) - موسى الحرش، مالك بن نبي: حياته ونتاجه الفكري، كتاب تخرج الدرجة التاسعة عشرة، مرجع سابق، ص41.

(3) - مرجع نفسه، ص41.

بمساعدة من المؤلفات منها كتاب الفكرة الإفريقية - الآسيوية، وفكرة كومونولث إسلامي وتأملات المجتمع العربي الذي قدم من خلاله مفهومه الخاص للديمقراطية وسبل ممارستها في المجتمعات الغربية والإسلامية على حد سواء.

مقدمة:

أثر مفهوم الديمقراطية جدلا واسعا على مر التاريخ بما عاناه من تعدد وتشعب في التعريف. وقد انطلقت غالبيتها من بيئات فكرية متباينة، وأحيانا متناقضة، تدعو للديمقراطية عقائدية معينة تنتمي إما للتيار اليميني أو اليساري للفكر السياسي أو تحتل موقعا وسط بينهما.

إن المضمون المعقد للديمقراطية يدعو إلى مغامرة ديناميكية مفتوحة على المستقبل تمكن من اختيار واعتماد تفكير عميق لتجاوز المضاعف التي تعترض بالتأكيد عملية توضيح مفهومي دقيق يستجيب لتغيرات المكان والزمان والأصول المذهبية والفكرية. حيث كتب عن الديمقراطية الكثير من الكتاب والمفكرين العرب والمسلمين الذين عاجلوا هذا المفهوم كل بحسب توجهه وغايته، ومنهم من أراد التذليل على أن الديمقراطية غريبة عن الإسلام وأنها ليست من منظومته العقديّة والفكرية، وفي المقابل كان هناك من جعلها من صميم الإسلام، معتبرا إياها حجر الأساس فيه كون الإنسان ولد حرا ويجب أن ينعم بحريته التي توفرها له الديمقراطية. ولكن القليل من عالج الموضوع برزانة وتردي وعمق في التحليل والغوص وراء المصطلح.

لقد شهدت نهاية القرن العشرين انهيار الاتحاد السوفياتي وانعكست آلياته عمليا في اتساع نطاق التحول نحو الديمقراطية في عالم اليوم، واقتحام تيار الفكر الليبرالي حصون الجمود والانغلاق وداهمت رياح الديمقراطية بنية المجتمع الدولي المعاصر، وهذا ما دفع فرانسيس فوكوياما إلى إعلان مقولته الشهيرة «إن الديمقراطية الليبرالية تشكل

عائمة مطاف التطور الإيديولوجي للإنسانية، والصيغة الأخيرة لنظام الحكم البشري المنشود، وبالتالي فهي تمثل حماية التاريخ»⁽¹⁾.

أصبحت الديمقراطية الليبرالية تمثل البديل العالمي بعد اختيار الأبنية السياسية والإيديولوجية ذات الطابع الماركسي والاشتراكي، وتعتبر وسيلة في أيدي القوى العظمى. وبعبارة أخرى فقد أصبح توخي الديمقراطية، ورفع شعارها هو الذي يمنح هذا النظام السياسي أو ذلك الشرعية. ولهذا فإن روني ريمون (René REMON) قد أكد على أن « هذا القرن يقوم على انتصار الديمقراطية كفلسفة ونظام سياسي... فهي تعد المبدأ الوحيد للشرعية... لأنه لا مرجع آخر لشرعية النظام السياسي سوى توجيهه من قبل الشعب ذي السيادة»⁽²⁾. كما يضيف وانستن وتشرشل (Winston CHURCHILL) فيقول «أن الديمقراطية نظام سيء، ولكنه النظام الوحيد الذي يمكنني من أعيش»⁽³⁾.

ونلاحظ أن بعض البلدان العربية الإسلامية تعيش حالة من البحث عن الديمقراطية، فهي تعبر بثوابتها التي اندلعت منذ نهاية 2010 وبداية 2011 عن الرغبة الكائنة في التحرر من الأنظمة الشمولية والتطلع لمستقبل أكثر إشراقا من وجهة نظر من قام بالثورة أو من يؤيدها على الأقل، وتطمح شعوبها إلى كتابة تاريخ جديد لها، ولكن الأمر أعمق وأصعب من أن يكون إزاحة نظام سلطوي عن سدة الحكم أو خلع رئيس مستبد، ثم العيش في نعيم الحرية والديمقراطية.

إن الديمقراطية ليست أن تفعل ما تريد ومتى تريد، كما أن حريتك تنتهي حيث تبدأ حرية الآخرين كما هو معروف. ثم ماهي الديمقراطية التي ستأخذ بها وكيف

⁽¹⁾ فرانيسكو كوياما، حماية التاريخ ونظام البشر، ترجمة حسين أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1993، ص8.

⁽²⁾ René. REMON, Regard sur le siècle, collection la bibliothèque du citoyen, PRESSE DE SCIENCES POLITIQUE, Paris, 2000.P84

⁽³⁾ Yves. LECLERC, La décaementie cult. - de - sec. Media- plus, Algérie, 1994, p13.

نطبقها وهل نحن كمجتمعات عربية مسلمة في غالبها على استعداد لتقبل هذا التغيير المفاجئ؟ هل بفقرا وقلة ثقافتنا لنا القدرة على فهم الديمقراطية؟ إذا كان الكثير ممن نطن بهم الثقافة لا يفهمون الديمقراطية إلا على أساس أنها معطى سياسي يرادف في معناه معنى الحرية.

فقد كان مالك بن نبي مفكرا حاول دراسة مشكلات أمتة ووضع حلولاً لها مع الاحتفاظ بمويتها وأصالتها، وعليه فنحن نريد أن نبرز كيف نظر الأستاذ مالك بن نبي للديمقراطية وكيف عالجها، فهل يتجانس الطرح الديمقراطي مع الأسس الإسلامية وما علاقة الإسلام بالديمقراطية؟ وكان مالك بن نبي واحداً من المفكرين السابقين لمحاولة الإجابة على هذا السؤال من خلال كتاباته المتعددة وبخاصة المحاضرة التي ألقاها في نادي الطلبة المغاربة في سوريا سنة 1960م، هذه المحاضرة التي حاول فيها إبراز الموقف الإسلامي من الديمقراطية في وقت لم يكن الموقف منها متبلوراً بالقدر الكافي داخل الوسط الإسلامي.

أولاً: معنى الديمقراطية في المذاهب السياسية والفكرية المختلفة:

لقد أثار مفهوم الديمقراطية جدلاً واسعاً على مر التاريخ بما عاناه من تعدد وتشعب في التعاريف. وقد انطلقت غالبيتها من بيئات فكرية متباينة، وأحياناً متناقضة، تدعو للديمقراطية عقائدية معينة تنتمي إما للتيار اليميني أو اليساري للفكر السياسي أو تحتل موقع وسط بينهما. ولا يمكن أن يعمل ثراء مفهوم الديمقراطية على إضعاف المبدأ الأول والعميق لها وهو سيادة الشعب وحكمه، ومهما اختلفت معانيها وأدائها بين التيارات السياسية والفكرية والاجتماعية المختلفة فإن حقيقتها تكمن في الأسلوب المستخدم من قبل الحكام في تجسيدها لها، فهي ليست إبداعاً فكرياً ونظرياً بل هي قيمة تستجيب لتداعيات الواقع بتحويلات وتغيرات المجتمع.

توجد فئات سياسية واتجاهات عقائدية واجتماعية متباينة ومتصاعدة، تدعي كل منها تمتعها والتزامها بالصفة الديمقراطية وتتكبرها في نفس الوقت لخصومها. وبالتالي فإن تعريف الديمقراطية بحاجة إلى دراسة أوفى لتوضيح مختلف الجوانب وتبيين الفوارق بين المدارس المختلفة مع الأخذ بعين الاعتبار بأن الديمقراطية في التطبيق تقترب بشكل نسبي وحسب من المثال الديمقراطي نفسه. كما أن تشعب مقومات المعنى العام للديمقراطية وتعدد النظريات بشأنها، علاوة على تميز أنواعها وتعدد أنظمتها والاختلاف حول غاياتها ومحاولة تطبيقها في مجتمعات ذات قيم وتكوينات اجتماعية وتاريخية مختلفة يجعل مسألة تحديد نمط ديمقراطي دقيق وثابت مسألة غير واردة عمليا. (1)

وهذا ما يقودنا إلى مفهومين للديمقراطية: مفهوم ليبرالي وآخر اشتراكي يحددان الخطاب السياسي والفلسفي الذي تطور داخل المفهوم فهذان المفهومان يعلنان العالم يعيش شكلين متناقضين للديمقراطية، وكل مفهوم يركز على مبدأ الحرية بينما تعتمد الديمقراطية الاشتراكية على مبدأ المساواة حيث أن "الديمقراطية غير الليبرالية" (non liberal democracy) تقوم على الطبقة العاملة، ومعنى أدق فهي القواعد التي تحمي مصالح الطبقة العاملة واهتماماتها». (2)

1- معنى الديمقراطية في التيار الليبرالي:

تعود أصول كلمة الديمقراطية إلى اللفظ الإغريقي (démokratia)، استخدمت في أثينا (Athènes) في القرن الخامس قبل الميلاد. وتتكون الكلمة في مدلولها اللغوي من لفظين ديموس (démos) وتعني الشعب، وكراتوس (kratos أو kratein) وتعني حكم. (3)

نشأت - إذن - كلمة الديمقراطية من اجتماع مصدرين يونانيين يصفان حالة مجتمع سياسي يحكمه نظام كامل، «والكلمة منذ أن تلفظ بها هيرودوت

(1) - عبد الوهاب الكياني، موسوعة "سياسة"، ج 2، المؤسسة العربية للدراسة ونشر، بيروت، 1981، ص 51.

(2) - C.B. MACPHERSON, The real world of democracy . OXFORD university press , new York and OXFORD , 1966 . P2 .

(3) - ENCARTA .encyclopédie (C.D) . "Démocratie" .coll. Microsoft corporation. 2003.

(Hérodote) (484ق.م-420ق.م) قاصدا معناها الاصطلاحي هي محور كل حل طرفاه حاكم ومحكوم، وشعار كل نظام سياسي يطرح نفسه على الناس، والمثل الأعلى الذي تتطلع له كل الشعوب»⁽¹⁾.

وقد صاغ الرئيس الأمريكي أبراهام لنكولن (Abraham LINCOLN) مفهوم الديمقراطية في عبارة مشهورة في تحديد معنى الكلمة حتى وقتنا الحاضر، وهي «حكم الشعب بواسطة الشعب ولصالح الشعب» (gouvernement du peuple, par le peuple et pour le peuple)⁽²⁾ وهذا حسب النظرية الفلسفية السياسية الموروثة عن اليونان القديم بهدف تمييز هذا النوع من الحكم القائم على حكم الأغلبية عن الأنظمة الأخرى، كالحكم الفردي الاحتكاري وأنظمة حكم الأقلية كالأليغارشية (Oligarchie) والأرستقراطية (Aristocratie). وفي تتبع مبسط لتعريف الديمقراطية في الدراسات والأدبيات الغربية نجد أن مونتسكيو (MONTESQUIEU) (1689-1755) يعرفها على أنها «نظام سياسي - اجتماعي يقيم العلاقة بين أفراد المجتمع والدولة وفق مبدأ المساواة بين المواطنين ومشاركتهم الحرة في صنع التشريعات التي تنظم الحياة العامة»⁽³⁾. أما أساس هذه النظرة فيعود إلى المبدأ القائل بأن الشعب هو صاحب السيادة ومصدر الشرعية، وبالتالي فإن الحكومة مسؤولة أمام ممثلي المواطنين لحقهم في مراقبة تنفيذ هذه القوانين بما يصبون حقوقهم العامة وحرياتهم المدنية.

ويرى بعض الباحثين أن البداية التاريخية لما يمكن أن يسمى بالديمقراطية المعاصرة بدأت في عصر الأنوار في أوروبا، وبسبب هذه النشأة نجد أن بعض الباحثين يعتبرون أن الديمقراطية عبارة عن مذهب سياسي، فيما يعتقد آخرون أنها شأن إجرائي،

(1) - عمرو عبد السميع، الديمقراطية : أحداث الحرب والسلام والديمقراطية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1998، ص 27.

(2) - Yves . LECLERC ,op.cit, P19.

(3) - عبد الوهاب الكيالي، ج 2، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، 1981، ص 751.

لكن التطورات التي حصلت للديمقراطية في العقود الأخيرة ترجح - بدرجة كبيرة - الرأي الذي يعتبر الديمقراطية شأنًا إجرائيًا.⁽¹⁾

الملاحظ مما سبق أن مفهوم الديمقراطية هذا قد نشأ تاريخيًا في ارتباط وثيق بالمفاهيم الليبرالية والمتعلقة بالفرد والحرية.

تركز المدارس الليبرالية على حقوق الفرد كأساس لتأمين المساواة والمشاركة في الحياة العامة، منها حرية التعبير والاعتقاد وحق التجمع وحق الاقتراع وحق الترشيح للمناصب العامة، ولئن ركزت الديمقراطية الليبرالية على حرية الفرد واستقلالية سلوكه الخاص بوجود المؤسسات الديمقراطية ابتداءً من الدستور والمجالس التمثيلية والقضاء المستقل والإدارة الحكومية النزهاء والصحافة الحرة والنقابات الغبورة على مصالح أعضائها، كما يعد فصل السلطات وحقوق الفرد الثابت بموجب الدستور من العوامل القوية التي أكد عليها أليكسيس دو توكفيل (Alexis de TOCQUEVILLE) وهذا من خلال كتابه "عن الديمقراطية في أمريكا" (De la démocratie en Amérique) (1835-1840)، والذي عبر فيه عن انهياره بالديمقراطية في الولايات المتحدة الأمريكية لأجل تدعيم الثورة الديمقراطية التي تعيشها فرنسا في هذه الحقبة الزمنية. وأشار في مؤلفه إلى الأخطار التي تواجه الحرية الفردية كظغيان الأكترية (La tyrannie de la majorité) وديكتاتورية الرأي العام وتمركز السلطة.⁽²⁾

تعتبر الديمقراطية- في علاقتها بالليبرالية- الحرية فيها العنصر الأساسي، باعتبارها مصدر المساواة والتأكيد على حقوق الأفراد، ويرى أندري هوريو (André HAURIO).⁽³⁾ أن الديمقراطية تبدو ليبرالية، فالأكترية تحترم الأقلية عن طريق تنظيم

(1)- عبد الرزاق عيد ومحمد عبد الجبار، الديمقراطية بين العلمانية والإسلام، سلسلة حوارات لقرن جديد، دار الفكر المعاصر، دمشق - بيروت، 2000، ص 136.

(2)- ENCARTA Encyclopédie (C.D.) , op .cit .

(3)- André HAURIOU , Droit constitutionnel et institutions politiques .6^{ème} édition, MONTCHRESTIEN, Paris, 1975, P319.

الانتخابات الحرة. ومهما بلغت قوة الأكتريية المؤيدة للدولة فإن الحقوق هي التي تحفظ للأفراد استقلالهم الذاتي.

2- مدلول الديمقراطية في التيار الاشتراكي:

لا ينكر الاتجاه الماركسي الحرية ولكنه يصر على أن الحرية الحققة لا تنال إلا إذا أقرت المساواة، فلا تتكرر الديمقراطية للمساواة ولكنها تهتم بالمساواة في الحقوق، ويرى أندري هوريو (Endré HAURIUO) « أن الهدف الأمثل عند الديمقراطيات الماركسية هو البحث عن التوافق الكامل عن الإجماع. ففي المجتمع الذي يتفق فيه الأفراد كلهم على كل شيء تتحقق فيه جميع الأمانى التي يقتضيها التصور المثالي للحرية، فالأفراد يتمتعون جميعا بحرية مطلقة وبذات الوقت يؤيد الجميع السلطة تأييدا مطلقا». (1)

يضيف أندري هوريو أن ممارسة الحرية تؤدي إلى خلق عدم المساواة والعمل على إقرار المساواة يؤدي بصورة حتمية إلى الحد من الحرية، فيقود التركيز على الحرية أو على المساواة إلى الديمقراطية الليبرالية أو إلى الديمقراطية التسلطية الماركسية. كما أن البلدان الغربية التي تسود فيها الحرية، تحقق الديمقراطية السياسية -على الأقل- شكلا مقبولا منها، مقابل ذلك قلما تهتم بالديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية. وتحاول البلدان الماركسية -التي يهتما البحث عن المساواة في الواقع، أي عن المساواة في الظروف المادية بين الناس- أن تحقق الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية، ولكنها قلما تهتم بالديمقراطية السياسية. فهناك الحزب الواحد والانتخابات غير تنافسية وغياب رقابة برلمانية فعلية على الحكام، وقلّة احترام الحريات الفردية. (2)

يتجلى مما سبق أن المفهوم الاشتراكي للديمقراطية يقوم على اعتبار الحرية جزءا من العلاقات الاجتماعية المسؤولة والمؤدية إلى ضمان مصلحة الفرد دون الإضرار

(1) - Ibid, PP321-322.

(2) - Ibid, PP321 - 322.

تصالح المجموع أو التقاطع معها أو المساس بحرية الآخرين من قبيل استغلالهم واستغلال جهودهم.

«إنها هنا حرية النشاط الشخصي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي لا يتعارض مع مصلحة الآخرين : حرية العقيدة والفكر والانتماء والمذهب والتبشير بالأراء والترشيح والتصويت والمراقبة والمساءلة... إنها ليست حرية فردية بمعناها الضيق والأناي بل هي حرية مبدعة خلاقية ومسئولة... لذلك فقط في الاشتراكية الديمقراطية ترتبط الحرية ارتباطا وثيقا بمبدأ الديمقراطية، المبدأ المطلق الثابت».⁽¹⁾

تعتبر الديمقراطية بصفة عامة واحدة من أهم سمات الحضارة الغربية بصرف النظر عن اختلاف تياراتها بين ليبراليين واشتراكيين فهم جميعهم ينطلقون من اجتهاداتهم في تأطير الديمقراطية سواء كانت ديمقراطية ليبرالية تعددية أو ديمقراطية الحزب الواحد.

3- معنى الديمقراطية في التيار الإسلامي:

يبدو أن الديمقراطية قد فرضت مكانتها في العالم بأسره حتى لو وُجِعت بمجموعة من التيارات الفكرية والسياسية والدينية مما جعلها رهانا للحوار السياسي الحالي. وبالرغم من أن كثيرين ممن يعتقدون أن الديمقراطية هي بنية غربية صممت على أساس الظروف التاريخية الخاصة التي شكلتها، وآخرون يجادلون في عدم صلاحية تبني الشعوب الأخرى الحرية والديمقراطية لأن ذلك يستجيب لتراثها السياسي والثقافي والاجتماعي، إلا أن هناك من ينادي بتعميم ممارسة الديمقراطية. وبشأن رؤية البعض للتعارض بين الإسلام والديمقراطية، فإن الإسلام عبر دائما عن الأهمية القصوى للعدل، وهو مفهوم تقريبي لمعنى الحرية في التعريف الغربي. الحرية تقتضي الحكم وفقا لما يحمله القانون الإسلامي الذي يؤكد على التشاور ويشجب

(1) شاعر كتاب، "قراءة أولية في فكر الاشتراكية الديمقراطية"، الحوار المتعدد-العدد: 3923 - 2012 / http://www.abewar.org/de/ban/show_art.asp?aid_334065;26:11 تاريخ الزيارة: 2016/05/15.

الحكم المطلق والظلم. وبين القاضي الكبير الشاطبي (المتوفى عام 790م) بأن المقاصد الشرعية تركز أهمية كبرى للمحافظة على الدين والحياة والفكر والعائلة والثررة، وهذه كلها أهداف تحمل سمات مشتركة بشكل يبعث على الدهشة مع أفكار نوك التي تم طرحها بعد ذلك بعدة قرون.⁽¹⁾

وقد أوضح مفكرون عديدون بأنه يجب إعادة تنقيح القوانين التي تتعرض مع المقاصد أو تعديلها لتتطابق مع الأهداف العليا، وليس هناك من شك في أن عناصر أساسية عديدة في الديمقراطية الدستورية والمجتمع المدني هي أيضا مكونات أخلاقية أساسية في الإسلام (حرية الضمير، حرية التعبير، وقدسية الحياة الملكية) كما تظهر بوضوح تام في القرآن إضافة للأحاديث النبوية، وربما بشكل خاص بصورة أكثر إحكاما وبلاغة في خطبة الوداع.⁽²⁾

ولعل أول من أثار حوارا حول الفكرة الديمقراطية في العالم العربي هو الشيخ رفاع الطهطاوي (1801-1873) الذي أتقن اللغة الفرنسية ودرس الفلسفة اليونانية والجغرافيا والمنطق، وقرأ مؤلفات رواد الفكر الفرنسي مثل فولتير وروسو. وما أن عاد إلى القاهرة حتى ألف في عام 1834 كتاباً بعنوان "تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز" دون فيه مشاهداته حول عادات ومسالك أهل فرنسا، وكال المديح للنظام الديمقراطي الذي نشأ فيها ووصف مشاعره تجاه انتفاض الأمة الفرنسية للدفاع عن الديمقراطية من خلال ثورة 1830 ضد الملك تشارل العاشر. وحرص الطهطاوي على إثبات أن

(1) سعاد جبر سعيد، القيم العلية في السلوك الإنساني، جدارا للكتاب العالمي، عالم الكتب، الأردن، 2008، ص177.

(2) المرجع نفسه، ص177.

النظام الديمقراطي الذي كان شهوده في فرنسا ينسجم انسجاماً تاماً مع تعاليم الإسلام ومبادئه. (1)

توجد فئات سياسية واتجاهات عقائدية واجتماعية متباينة ومتصاعدة، تدعي كل منها تمتعها والتزامها بالصفة الديمقراطية وتتكبرها في نفس الوقت لخصومها. وبالتالي فإن تعريف الديمقراطية بحاجة إلى دراسة أوفى لتوضيح مختلف الجوانب وتبيين الفوارق بين المدارس المختلفة مع الأخذ بعين الاعتبار بأن الديمقراطية في التطبيق تقترب بشكل نسبي وحسب من المثال الديمقراطي نفسه. كما أن تشعب مقومات المعنى العام للديمقراطية وتعدد النظريات بشأنها، علاوة على تميز أنواعها وتعدد أنظمتها والاختلاف حول غاياتها ومحاولة تطبيقها في مجتمعات ذات قيم وتكوينات اجتماعية وتاريخية مختلفة يجعل مسألة تحديد نمط ديمقراطي دقيق وثابت مسألة غير واردة عملياً. (2)

ثانياً: ماهية الديمقراطية في فكر ابن نبي:

الإشكالية الاصطلاحية للديمقراطية والإسلام:

أراد مالك بن نبي أن ينقل منهجية التيار الإسلامي في التفكير والتعامل مع المصطلحات الوافدة على الفكر الإسلامي فبدأ في تتبع تعريف كلا من الديمقراطية والإسلام ليرى مقدار المسافة التي تفصل بينهما من الناحية التاريخية ومن الناحية الجغرافية، أي المنشأ، ويقول في محاضراته التي ستعتمد عليها "الديمقراطية في الإسلام": "...و عليه يجب في خطواتنا الأولى أن نوضح وأن نعرف مصطلحاتنا : ما هو الإسلام ؟ وما هي الديمقراطية ؟ .." (3)

(1) أماني محمود عبد الله، "التغير الاجتماعي في الإسلام: بين النظرية والتطبيق"، أطروحة دكتوراه في الفلسفة، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، السودان، 2005، نسخة pdf، ص 188-189.

(2) عبد الوهاب الكيالي، مرجع سابق، ص 51.

(3) مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، سورية-دمشق، ط5، 1991، ص 66.

يلاحظ بن نبي من خلال دراسته لمفهوم الإسلام والديمقراطية أن أمم الغرب بحكم اتصالاتها بما في عهد الاستعمار واليوم قد فرضت علينا بعض عاداتها، ومفاهيمها، ومصطلحاتها، وأسلوب حياتها حتى أصبحنا نضم إلى الإسلام كل ما نعتقد أنه ذو قيمة حضارية، دون تمحيص ولا تحقيق لدرجتها من الصحة، واتفاقها مع جوهر شخصيتنا وفلسفة حضارتنا، ولا ننظر فيما يربط ذلك بالإسلام أو ينزه عنه، وأصبحت هذه المفاهيم المتصلة بحياة العالم الغربي، وتجزئته التاريخية مقبولة لدينا، نقيس بها واقعنا الاجتماعي.

ويرى مالك بن نبي أن "مشكلة الربط بين هذين المصطلحين، هي المشكلة الأساسية في الموضوع"⁽¹⁾ لذلك لا بد من تعريف كليهما، قبل دراسة مسألة الترابط بينهما، فيبدأ في بيان وقت دخول هذين المصطلحين في اللغة، ثم تحمله من معان خاصة، لأنه يرى أن كل مصطلح كان في أي وقت ماهو إلا كلمة محدثة لها ظروفها الخاصة بما واتفاق بين واضعي ذلك المصطلح.⁽²⁾

ويستهل بن نبي دراسته مبينا قلة معرفته بمصطلح الديمقراطية من حيث وقت دخول مثل هذه المصطلحات في اللغة العربية بما تحمله من دلالات خاصة بوصفها كلمات دخيلة ومستوردة، أي لا بد من معرفة وقت حدوثها زمنيا، ضمن لغتها الخاصة، وضمن اللغة المنقولة إليها، فيقول: «... إنما نعرف أنه من صيغ اللغة اليونانية قبل عصر (بريكلاس)، إذ أن المؤرخ (توسديد) يذكره على لسان هذا القيصر في إحدى خطبه الموجهة إلى شعب أثينة، أي منذ خمسة قرون قبل الميلاد..»⁽³⁾ ثم يأخذ في بيان الديمقراطية من ناحية الاشتقاق اللغوي قائلا: "إن أي قاموس اشتقاق في اللغة الفرنسية، يدلنا على أن الكلمة مركبة من مفردتين يونانيتين هما "ديموس"

(1) المرجع نفسه، ص 62.

(2) المرجع نفسه، ص 62.

(3) مرجع نفسه، ص 66.

و"كراتس" وتعني سلطة الشعب، أو سلطة الجماهير أي بتعبير تحليلي موجز تعني سلطة الإنسان".⁽¹⁾

أما بالنسبة للإسلام فإن بن نبي يرى أنه مصطلح درج في اللغة العربية وهو يعرف بالضبط متى حدث قائلا: «إننا نعرف بالضبط متى حدثت كلمة "إسلام" في اللغة العربية ومعناها الدارج، إنها لا شك من ابتكار القرآن الكريم». ⁽²⁾ وبعد استعراض مالك بن نبي لتاريخ المصطلح بين أن الصلة بين الديمقراطية والإسلام مفقودة بالنسبة للزمان والمكان، فلا ترابط بينهما من الناحية التاريخية ولا من الناحية الجغرافية وربما أدى هذا البعد بينهما إلى القول بأنه لا ديمقراطية في الإسلام. وتظهر عقبة أخرى أكبر كونهما لا يتقاربان بمجرد المقاربة في المعنى بل الأدهي أنهما على النقيض، فالديمقراطية في تعريفها البسيط هو "سلطة الإنسان" في مقابل الإسلام الذي يعني "سلطة الله" فهذه المناقضة الصورية تزيد من تباعد المصطلحين، وفي صعوبة الموازنة التي يريد ابن نبي أن يعقدها بينهما. فتعني الديمقراطية عند عمار طالبي (وهو من تلاميذ مالك بن نبي) في أبسط معانيها سلطة الشعب، سلطة الإنسان، فأى صلة، وأي وجه مقارنة بين مفهوم الإسلام باعتباره إيمانا بالله ورسوله واليوم الآخر، وأداء الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، ومفهوم سياسي يقرر سلطة الإنسان في نظام اجتماعي معين، بين مفهوم ميتافيزيقي يفيد إجمالا خضوع الإنسان إلى سلطان إلهي في نظام ما أو آخر، وشعارات نادى بها مثلا الثورة الفرنسية في مقاومتها للكنيسة: "لا نريد ربًا، ولا سيّدًا"، ومعنى هذا أن هناك تناقضا واضحا، فلا مجال إذن للمقارنة بينهما. ⁽³⁾

(1) المرجع نفسه، ص 63.

(2) المرجع نفسه، ص 66.

(3) عمار طالبي، "نظام الحكم والديمقراطية في تصور مالك بن نبي" مقالات بالعربية،

http://www.binnabi.net/infos/detail/9FDiY9I، تاريخ الزيارة: 12 / 05 / 2016.

إن مالكا في دراسته للإسلام والديمقراطية لم يتعمد منهج المقارنة بين النصوص، أي بين نص منبوع الوحي ونص آخر نسخة العقل البشري والتجارب الإنسانية ما صلح منها وما طلح، ولكن اهتمامه انصرف إلى وظيفتهما الاجتماعية (السوسولوجية) والبنائية، ولذلك تجده يرجع كل مصطلح إلى بعده (الزمكاني)، أي إلى مرجعيته الأصلية باحثاً عن روحه التي برزت أو تطورت عبر التاريخ لا يسقط في الأحكام القيمة الاعتبارية.⁽¹⁾

و يرى ابن نبي أنه يجب حفر سبيل أخرى تمكننا من مواصلة البحث لإيجاد العلاقة التي يمكن أن تكون غير ظاهرة في بادئ الأمر، وهي سبيل تنحرف بنا عن المناقضة التي واجهت الأستاذ، ولا يمكن ذلك إلا بإعادة تعريف الديمقراطية بدون ربطها مسبقاً بمفهوم آخر، ولذلك يقترح ابن نبي تعريفها في إطار عمومياتها قبل أن نربط الموضوع بأي مقياس مسبق.⁽²⁾

فقد نبه بن نبي، وهو يتحدث عن الديمقراطية في بداية الستينيات، إلى أننا لا ينبغي أن نتعامل مع الديمقراطية انطلاقاً من المفهوم اللغوي الذي تطرحه القواميس الغربية، لأن المفهوم في هذا المستوى مشبع بروح التجربة الغربية أو الفرنسية على وجه الخصوص، فنحن حينما نقول الديمقراطية هي حكم الشعب أو سلطة الشعب أو الإنسان فهذا التحديد اللغوي مرتبط بتقاليد الثورة الفرنسية.

فقد يؤدي تعريف مفهومي الإسلام والديمقراطية بالطريقة التقليدية إلى استنتاج عدم وجود علاقة بينهما من حيث التاريخ والجغرافيا، متنبهاً في ذات الوقت إلى أن تفكيك المصطلح في معزل عن محموله التاريخي وإعادة تعريف الديمقراطية في أبسط أشكالها تحريراً من القيود اللغوية والأيدولوجية قد يوصل إلى استنتاج مختلف.

⁽¹⁾ فضل بومالة، " مفهوم الديمقراطية في فكر مالك بن نبي"، مقالات بالعربية، 2012/08/27.

⁽²⁾ مالك بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص 67. <http://www.binnabi.net/infos/detail/KWi78Y12OvKWi78/>، تاريخ الزيارة: 2016/05/13.

2. جوهر الديمقراطية عند مالك بن نبي:

لئن كان المستوى اللغوي في تحديد المفهوم لا يفي بالغرض، فإن بن نبي يتبع أمامنا مستوى آخر يراه كفيلا بإثراء النقاش وجعل المقارنة بين (الديمقراطية) و(الإسلام) أمرا ممكنا. هذا المستوى - كما أشرنا من قبل - يتمثل في تجاوز التحديد اللغوي وعدم جعل المصطلح الثاني مقياسا للأول، وإنما علينا أن نتعامل مع كل مصطلح بشكل مجرد، في إطاره العام دون تحديد مسبق. فيعزز فهذا الإجراء من موضوعية الباحث ويمكنه من الوصول إلى حقيقة (المفهوم)، دون أن يقف التحديد اللغوي المرتبط بزمان النشأة ومكانها، حائلا بينه وبين مبتغاه، ودون أن يجعله التحديد المسبق يقفز على الحقيقة إما بالرفض وإما بالتأويل وإما بالتلفيق، وهي آليات المنظومات الفكرية المغلقة التي لا تكاد تفتح في بنائها نافذة لشعاع آخر يأتيها من الخارج.⁽¹⁾

وبناء على ذلك، فالديمقراطية لا يمكن اختصارها في عبارة (سلطة الشعب/الإنسان)، وإنما ينظر إلى جوهرها الذي يتحدد من خلال ثلاثة وجود، هي:⁽²⁾

1. الديمقراطية كشعور نحو (الأنا)
2. الديمقراطية كشعور نحو (الآخرين)
3. الديمقراطية كمجموعة من الشروط الاجتماعية والسياسية اللازمة لتكوين وتنمية هذا الشعور في الفرد .

وتعد هذه العموميات بحق الركائز الذاتية الخاصة بالفرد، والموضوعية التي تشكل الشعور الديمقراطي، فالواقع السياسي الديمقراطي يقوم على مقدار تمكن هذا الشعور في

(1) عمر عبد حسنة، "الديمقراطية عند مالك بن نبي: من الاستسماخ الآلي إلى تحقيق الشروط الموضوعية"، http://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=1&Chapter
(2) تاريخ الزيارة: 2016/05/18، Id=4&BookId=2032&CatId=201&start=0

(3) مالك بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص 67.

شخصية الفرد وفي تقاليد البلد «... فلا يمكن أن تحقق الديمقراطية واقعا سياسيا إن لم تكن شروطها متوافرة في بناء الشخصية وفي العادات والتقاليد القائمة في البلد»⁽¹⁾.
أ- الشروط الذاتية للديمقراطية:

هي شروط ليست من وضع الطبيعة ولا من مقتضيات النظام الطبيعي، على خلاف ما تصوره الفلسفة الروماتيكية في عهد جان جاك روسو، بل هي خلاصة ثقافة معينة وترويج لحركة الإنسانيات وتقدير جديد لقيمة الإنسان، تقديره لنفسه وتقديره للآخرين. ومن ثم فالشعور الديمقراطي وتطبيقاته تختلف من ثقافة إلى أخرى، غير أن القانون العام بالنسبة إلى طبيعة الشعور الديمقراطي «... سواء في أوروبا أو في بلد آخر، هو أن هذا الشعور نتيجة لاطراد اجتماعي معين : فهو بالمصطلح النفسي الحد الوسط بين طرفين كل واحد منها يمثل نقيضا بالنسبة للآخر، النقيض المعبر عن نفسية العبد المسكين من ناحية، والنقيض الذي يعبر عن نفسية وشعور المستعبد المستبد من ناحية أخرى»⁽²⁾.

ويوضح التلميذ عمار طالي ذلك بقوله: «يقصد بذلك الاستعدادات النفسية التي يقوم عليها الشعور الديمقراطي، والأساس الذي يستند إليه النظام الديمقراطي في مجتمع معين. فالديمقراطية باعتبارها واقعا سياسيا لا تتحقق إن لم تتوفر شروطها في بناء الشخصية، وفي العادات والتقاليد القائمة في هذا الوطن أو ذلك، فهذه العموميات هي التي تتحدد فيها المشكلة، ومعنى هذا أن الشعور بالديمقراطية مقيد بشروط لا يتحقق بدونها، وهذه الشروط هي خلاصة ثقافية معينة، غير مطبوع بطابع خصائص المجتمع الغربي الذي لا ينفصل عنه وعن تاريخه ليطبق على أمم أخرى، عند ذلك يكون القانون العام بالنسبة إلى طبيعة الشعور الديمقراطي سواء في أوروبا أو

(1) المرجع نفسه، ص 67.

(2) المرجع نفسه، ص 70.

غيرها هو نتيجة لاطراد اجتماعي معين: أي أنه بالمصطلح النفسي عبارة عن الحد الوسط بين نقيضين: نفسية وشعور العبد المستعبد، ونفسية وشعور المستعبد المستبد، فالإنسان الحر الجديد هو الذي تتمثل فيه قيم الديمقراطية.⁽¹⁾

يبدو لنا أن جوهر الديمقراطية هو الإنسان في تفاعله مع ذاته ومع الآخر، وما القوانين والדساتير إلا ضمانات تدعم البناء الديمقراطي ولا تنشئه، نصل الآن مع مالك بن نبي إلى جوهر أطروحته، فهو يرى أن الديمقراطية تبقى مجرد شعارات ما لم تتوجه وجوهر البناء الديمقراطي الذي هو الإنسان ذلك أن الأسس الثلاثة للديمقراطية «الشعور نحو (الأنا) - الشعور نحو (الآخر) - الضمانات الاجتماعية والسياسية»، تدور كلها حول الإنسان. فالإنسان هو أساس البناء الديمقراطي وجوهره ومركزه، ولكن ليس أي إنسان، وإنما هو الإنسان الحر فالديمقراطية لا يصلح لها إنسان يتجاذبه شعوران متناقضان:⁽²⁾

- عزز نحو ذاته بالعبودية .

- شعور نحو الآخر بالاستعباد .

فشرط الديمقراطية (تحرير الإنسان) حاكما ومحكوما من هاتين الرذيلتين، اللتين هما في الوقت ذاته (نافيتين) لكل القيم والالتزامات المصاحبة للديمقراطية. وها هنا يتضح لنا سر فشل التجارب الديمقراطية في الوطن العربي، على الرغم من الكم الهائل من الشعارات والدعاوى، بل والالتزامات الشكلية بآليات الديمقراطية، كالاتخابات والمؤسسات والדساتير... فالمسألة أساسا متعلقة بغياب أساس البناء الديمقراطي، الذي هو الإنسان، وليس أي إنسان، وإنما الإنسان الحر، فتطوير

(1) - عمار طالي، "نظام الحكم والديمقراطية في تصور مالك بن نبي"، مرجع سابق.

(2) - عمر عبيد حسنة، "الديمقراطية عند مالك بن نبي: من الاستمساخ الآلي إلى تحقيق الشروط الموضوعية"، مرجع سابق.

الإنسان، وتخليصه من قيود الاستعباد، وإعادة تقيمه، هو نقطة البدء في أي بناء ديمقراطي، مهما كان مضمونه وفلسفته بعد ذلك.

ومرة أخرى يعود بنا بن نبي إلى تجارب الديمقراطية الغربية، بنماذجها المختلفة: منبها إلى ما يطرأ على الإنسان في عمليات البناء الديمقراطي الجاد، من تطوير، قد نراه شكليا، لكنه يميلنا إلى ذلك التطور العميق، المتمثل في الحركة التاريخية التي أعادت تقييم ذلك الإنسان.

يعتقد مالك بن نبي أننا يجب أن ندعم ونقدر أي مشروع يهدف إلى تأسيس ديمقراطية على مشروع تنقيف في نطاق أمة وعلى منهج شامل يشمل الجانب النفسي والأخلاقي والاجتماعي والسياسي، وهذا بالضبط ما ينقص البلاد العربية اليوم ينقصها ثقافة الديمقراطية بوصفها مشروعاً حضارياً وشعوراً ينبع من نفسية الفرد والعادات التي يصنعها، فبقاء الديمقراطية "بمجرد عملية سياسية، وعملية تسليم سلطات إلى الجماهير؛ وإلى شعب يصرح بسيادته نص خاص في الدستور."⁽¹⁾

ويخلص مالك بن نبي أن الديمقراطية ليست تسليم سلطات بين حاكم ومحكوم بل هي في تكوين الشعور والانفعالات التي تعتبر الأساس لكل دستور. «وما الدستور في النهاية لا النتيجة الشكلية للمشروع الديمقراطي عندما يصبح واقعا سياسيا... ولا يكون معنى لهذا النص إن لم تسبقه التقاليد والعادات التي أوجت به أو بعبارة أخرى المسوغات التاريخية التي دلت على ضرورته»⁽²⁾.

(1) مالك بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص 74.

(2) المرجع نفسه، ص 75.

مواطن القصور الذاتية في الديمقراطية:

يمكن تبيان مواطن القصور في الجوانب الذاتية للديمقراطية الغربية الناتجة عن غياب الحواجز المانعة لظهور النزاعات السلبية المنافية للشعور الديمقراطي التي تم حصرها فيما يلي: ⁽¹⁾

- إذا كانت الديمقراطية تمنح الإنسان الضمانات الاجتماعية فهي تتركه عرضة إما لمنافع معينة، وإما تحت ثقل دكتاتورية طبقية.
- قيام الديكتاتورية على النظرة المادية البحتة القائمة إما على المنفعة، وذلك في المجتمعات الأوروبية الغربية، وإما على الحاجة، وذلك في المجتمعات الأوروبية الشرقية (سابقا)، وعدم إعطائها أي اعتبار للجوانب الروحية والأخلاقية « فالإنسان الغربي لا يحمل بين جنبيه الشعور بتكريم الله، ولا يشعرون بوزن هذا التكريم في تقديره لنفسه وتقديره لغيره» ⁽²⁾
- تشكل ظاهري العبودية في أئتنا والاستعمار في الغرب الحديث، تناقضا مع مبدأ الديمقراطية أو الشعور الديمقراطي في أوروبا؛ يوحى بأنه مجرد دستور مكتوب خل من أي روح.

ب- الضمانات الموضوعية للديمقراطية:

وتوافق هذه الضمانات مع الوجه الثالث المتعلق بالديمقراطية كمجموعة من الشروط الاجتماعية والسياسية اللازمة لتكوين وتنمية هذا الشعور في الفرد. فيرى ابن نبي أن الخلل إذا بلغ الشعور الديمقراطي فإن مصدره يعود إلى خلل في الضمانات الاجتماعية التي يمكن الحديث عنها من خلال ما يلي:

⁽¹⁾ يوسف بوراس، "الاتجاه السياسي في فكر مالك بن نبي"، مذكرة لئيل شهادة الماجستير في الفلسفة المعاصرة (عربية وغربية)، المدرسة العليا للأساتذة، جامعة الجزائر - بوزريعة، 2010-2011 (غير منشورة)، نسخة، pdf، ص 79.

⁽²⁾ يوسف حسين، نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث، دار التنوير، ط 1، دار التنوير، ص 81.

أولها: هو القصور في تحقيق التكامل بين ما هو سياسي من الحقوق، وما هو اجتماعي، ويظهر في اقتصار الإيديولوجيتين الأوروبيةين الليبرالية والماركسية على نوع واحد من الضمانات، فإما ضمانات سيبلية أو ضمانات اجتماعية، دون أن تجعل من أهدافها تحقيق الضمانات السياسية والاجتماعية معا في ذات الوقت، كون الإنطلاق بطلحة إلى كليهما معا، مؤكدا ذلك بن نبي قائلا: «ولأننا عندما نرصد هذه النتائج... نجد أنها تستهدف في أساسها إما منح الإنسان بعض الحقوق السياسية التي يصحح بها المواطن في البلاد الغربية، وإما الضمانات الاجتماعية التي يتمتع بها الرقيق في البلاد الشرقية»⁽¹⁾ وبالتالي فلا الثورة الفرنسية ضمنت حقوق المواطن الاجتماعية، بل تركه غنيا للمصالح الكبرى، ولا الثورة البلشفية ضمنت حقوق الرقيق السياسية، بل مارست عليه صنوف الديكتاتورية وهي من عليه بما أعطته من حقوق في المجال الاجتماعي.

تلبس البلدان الرأسمالية -إذن- قناعا مغايرا لواقع الترديات التي مست فيهما ومبادئها الدفعية إليها في كل الخفايا الدولية، غير أن الواقع يكذب الخيال، حيث يرى ذلك هوركايمر في مختلف أطروحاته الفكرية التي أترت الجانب النقدي للمدرسة، فهو يرى التباين الشديد بين المفهوم والشيء (Concept and objet) وبين الألفاظ والأشياء، لأن مفهوم الديمقراطية كقيمة ليبرالية أصبح مقرغا من محتواه، ويؤكد هوركايمر على التناقضات التي هي بين أفكار النظام البرجوازي والواقع، وبين عبارته وسلوكاته، ذلك النظام الاجتماعي الذي يدعو إلى القيم المثالية العالمية: الديمقراطية والمساواة والحرية كأسس لسياسته، لا وجود لها في ساحة التطبيق. (1) ويسمى هابرماس (HABERMAS) تعجبه من التقاء مفهومين متناقضان تناقض صراحة، لأن

(1) مالك بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص 77.

(2) Introduction to critical theory: HORKHEIMER to HABERMAS, SUNY Press, London, 1980, P183.

الاحتكار لا يجتمع مع الديمقراطية، حيث يرى في احتكار وسائل الإعلام من قبل فئة اجتماعية صغيرة يمثل مجموعة من المصالح فحسب، إذ يرى في نظريته "رد الفعل الاتصالي" (L'agir communicationnel) أن هناك تضاد بين الفضاء الناتج عن الحوار (Langage) والنظام المسير من قبل المال أو السلطة. ولا يمكن للديمقراطية أن تتواجد إلا في الفضاء الأول، فبين الرأسمالية والديمقراطية علاقة مشحونة ومتصاعدة على الدوام، فهما حقيقتان، وهما في الواقع أيضا مبدآن متضادان لا يمكن انصهارهما اجتماعيا لأحدهما في تنافس من الدرجة الأولى.⁽¹⁾

لذا يعتبر هابرماس التمركز والاحتكار خطرا يدهم الحياة الديمقراطية في المجتمعات الغربية المتقدمة، لأنه كلما زاد الاحتكار والتمركز كلما تقلصت درجة الحرية والديمقراطية، فالعلاقة بينهما عكسية وخاصة إذا ما تعلق الأمر بوسائل الاتصال الكبرى الواسعة الانتشار التي تعد العصب المحرك والمدعم للآراء والمصالح. فتعبير الديمقراطية - في هذا المقام - عن تقاطع الفعل (le fait) مع القاعدة (la norme) وتعلق بديناميكية اجتماعية وتاريخية حقيقية وليست تعبيراً عن مثالية، حيث لاتسعى الديمقراطية لتحقيق اتصال متحرر من الهيمنة يتجسد في توافر الإمكانيات السياسية الديمقراطية، وبصفة متبادلة تعمل هذه الأخيرة على ضمان تطبيق هذه القواعد.⁽²⁾

إن البناء الديمقراطي ليس شعارات ترفع، ولا تمسكا ظاهريا بالآليات والقوانين، وإنما هو تحقيق لشروط موضوعية نابعة من ظروف المجتمع وامتداده الحضاري .

البديل الإسلامي للنموذج الديمقراطي الغربي:

رغم انتقاد مالك بن نبي للنموذج العلماني من الديمقراطية وإبرازه لما فيه من سلبيات، إلا أنه سعى إلى التأكيد على أن "الإسلام بمعارضته الاستبداد وتحريه للإنسان

⁽¹⁾-Yves. SINTOMER, La démocratie impossible ? politique et modernité chez weber et Habermas, LA DECOUVERTE ET SYROS, Paris, 1999. PP 203-204.

⁽²⁾-Yves.SINTOMER, op.cit, PP 203.

فإنه ينمي الشعور الديمقراطي، ولذلك فإن بالإمكان التوصل إلى نظام ديمقراطي إسلامي يجمع محاسن الديمقراطية ويتجنب مثل بالعلمانية. ويرى أن الجواب على سؤاله لتوجد ديمقراطية في الإسلام لا يتعلق ضرورة بنص فقهي مستنبط من السنة والقرآن، بل يتعلق بجوهر الإسلام الذي لا يسوغ أن يعتبر مجرد دستور يعلن سيادة شعب معين، ويصرح بحقوق وحرّيات هذا الشعب، بل ينبغي أن يعتبر مشروعاً ديمقراطياً تفرزه الممارسة، وترى من خلاله موقع الإنسان المسلم من المجتمع الذي يكون محيطه بينما يسير في الطريق نحو تحقيق القيم والمثل الديمقراطية".⁽¹⁾ ومنه فإن الفصل بين الدين والدولة أو العلمانية لن يكون سياسة ناجحة؛ لأنها لا تستند إلى ما من شأنه أن يفرس في نفسية الفرد والمواطن القابلية والاستعداد للتضحية والبطولة والإيثار، كما يقرّر مالك بن نبي أن التجانس بين عمل الدولة وعمل الفرد ينبغي أن يقوم وحيثاً على عامل أخلاقي؛ لأن السياسة بلا أخلاق حرابٌ للأمة. وبما أن السياسة الغربية تقوم على مصالح عاجلة لا تعرف الثبات والاستقرار ولا تستند إلى قيم أخلاقية ثابتة فليس بإمكانها تحقيق التجانس المشار إليه، مما يؤدي إلى خلل ظاهر في صلة الدولة بالوسط الاجتماعي وتدهور العلاقة بينهما، والحاصل في رأي مالك أن السياسة الغربية لا تقوم على الأخلاق أو العقيدة، ولذلك فإن الدول الغربية مهددة بعدم الاستقرار في الداخل من جهة وتهدد العالم بسياستها اللا إنسانية من جهة أخرى.⁽²⁾

فقد اعتبر مالك بن نبي أن الحرية هو المقياس العام، الذي يقاس بها كون المبدأ ديمقراطي أم لا، لذلك أراد أن يضفي على الإسلام مفهوم الحرية، لكي يصل من خلالها إلى توضيح أن الإسلام ديمقراطي فيذكر أدلة من الحديث الشريف يعتبرها

(1) مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر العربي المعاصر، بيروت 1991، 133-164.

(2) نادية سعد معوض، "عرض كتاب يوسف حسين: نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث"، موقع

نوافذ، 31 ديسمبر 2009، -95-<http://www.islamtoday.net/nawafeth/artshow>

125206.htm، تاريخ الزيارة: 2016/04/22.

نادى على الديمقراطية الاجتماعية، عن عبد الله ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه. (1)

ويؤكد ابن نبي أن الديمقراطية «ليست مجرد عملية سياسية، عملية تسليم سلطات الجماهير، إلى شعب يصح بسيادته نص خاص في الدستور» (2)، ثم يأخذ في الاستدلال على ذلك بذكر أن إنجلترا ديمقراطية دون وجود نص دستوري خاص بها، وقد يأتي جبار فيلغي الدستور مثل نابليون، ولكن الديمقراطية لا تفقد معناها لأنها مرتبطة بشعور وبعادات وتقاليد، وانفعالات ومقاييس ذاتية وموضوعية تشكل في مجملها الأسس التي تقوم عليها الديمقراطية، في ضمير شعب قبل أن ينص عليها أي دستور. وعلى ذلك فإنه يرى أن الحرية والقيم والانفعالات والمقاييس موجودة في الإسلام ولذلك يقرر قائلاً: "منذ الآن متاح لنا التقرير بشرعية الحديث عن الديمقراطية في الإسلام." (3)

ويشير مالك بن نبي إلى الضعف الذي يصيب النماذج الديمقراطية في البلاد الغربية، أو حتى تلك التي تستورد بدون مراعاة القيم الداخلية للمجتمع المنقولة إليه، هذا الضعف الذي يتسبب في عدم الموافقة بين الديمقراطية السياسية والاجتماعية في المجتمع، ففي أغلب هذه النماذج نجد أن خلافاً ما يتطرق إليها ليغلب أحدهما على الآخر، ليجد الفرد الذي يتمتع بالديمقراطية السياسية مقهوراً بوجه من الوجوه في الناحية الاجتماعية والعكس، ولكن الأستاذ مالك يرى أن الإسلام استطاع أن يتجاوز هذا الضعف، ويسد

(1) مالك بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص 71.

(2) المرجع نفسه، ص 71.

(3) حسن موسى محمد العتيبي، "مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة"، رسالة ماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية أصول الدين، جامعة غزة، 2005، نسخة pdf، ص 133.

هذه الثغرة بالموازنة الدقيقة بين التوعين «و عليه فإن الإسلام يبدو وكأنه جمع موقف بين مزايا الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية» (1).

ويخلص بن نبي إلى أن في الإسلام ديمقراطية لا في الزمن الذي تحجرت فيه التقاليد الإسلامية— وفقدت فيه إشعاعها كما هو شأنها اليوم بصورة عامة، ولكن في زمن تخلقها ونموها— في المجتمع ولقد كانت حليل بن نبي ثورياً في زمنه لأن التوجه العام لدى من تسببتي التيارات الإسلامية في العالم العربي الذين اعتبروا الديمقراطية نقيضاً للإسلام (2).

(1) - مالك بن نبي، تأملات مرجع سابق، ص 88.

(2) - أماني محمود عبد الله، "التغير الاجتماعي في الإسلام: بين النظرية والتطبيق"، مرجع سابق، ص 189-190.

نستطيع مما سبق أن نقول أن علاقة عضوية تربط الإسلام بالديمقراطية، تلك العلاقة التي لم تظهر في البداية، حيث أن الديمقراطية لا يمكن فهمها في إطار لفظة مشتقة تعني تسليم السلطات إلى الشعب، ولا مما يستعار دون أن تراعى الأسس النفسية والتجربة التاريخية التي هي على الحقيقة لب وجوهر الديمقراطية. نستنتج مما سبق أن للإسلام إمكانية التقاطع مع التجارب البشرية، فإن كانت الديمقراطية تجربة بشرية يسعى الناس الآن إلى تحقيقها في مجتمعاتهم، فلا بد أن من أن، تنبه إلى أن مثل هذه التجارب لا يمكن نقلها ونسخها لأنها مصاغة بأسلوب تاريخها وبيئتها التي نشأت فيها، ومرتبطة بظروف معينة قد لا تتوفر لدينا كمجتمعات إسلامية، وعليه يجب أن ننظر للديمقراطية في إطار العموميات التي أشار إليها مالك بن نبي.

فليست الديمقراطية تصورا فكريا محضا ولا شعارا سياسيا فارغ المحتوى، بل هي مفهوم حضاري ذو محتوى سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي، حتى يكاد ينعقد الإجماع على أنها نسق للحياة والسياسة يقضي بالتنظيم النهائي للمنفعة المشتركة بحيث لا تتدرع الأقلية بهذه المنفعة في دفاعها عن منافعها الخاصة. وقد حث يورجنها برماس كمفكر معاصر على «أن الحقوق الذاتية والموضوعية في حركة مزدوجة لأنهما متأصلين معا (co-originares) فلا انفصام بينهما ولا استقلالية بينهما خاصة دون استقلالية عامة، وهذا ما يجعل حقوق الإنسان والسيادة الشعبية شديدا الترابط». (1)

إن الديمقراطية لا يمكن أن تُستنسخ آليا، وإنما هي مشروع حضاري متكامل يمس الجوانب النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، فمن الخطأ أن ننصو

(1) - حسن موسى محمد العتيبي، "مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة"، مرجع سابق، ص 189-

أن مصطلحا ما هو مجرد لفظة يمكن استيرادها وتطبيقها، لأن المصطلح كائن حي له تاريخ وله تكوين يؤثران فيه، فقد لا يعطي ناتجا إذا انتقل من الأرض التي نشأ فيها إلى أرض أخرى. كما أنها ليست بديلا عن الإسلام، بل الإسلام في جوهره يضع الأسس السليمة لنموذج ديمقراطي، أساسه الإنسان المكرم، الذي تحفظ وتصادق حقوقه الاجتماعية وحقوقه السياسية. لقد أثر مالك بن نبي ألا يشتغل بالسياسة كأكاديمي أو تنفيذي، وانصرف إلى إصلاح أعطاب العقل والفكر وبناء مشاريع النهوض الثقافي، وعيا منه بأن السياسة الصحيحة تتأسس على الفكر السليم، ونظر إليها من زاوية التغيير الحضاري والعمق الفلسفي والبعد الفكري المجرد. ومن هنا كان اشتغاله بالأفكار السياسية الكبرى -منها الديمقراطية- التي تؤسس لرؤية سياسية ناجعة، يمكن أن تترجم، إن وجدت رجال سياسة أكفاء، إلى مشاريع تفضوية واقعية.

وفي الأخير نشير إلى التجاهل الذي تتعرض له أفكار بن نبي ومقارباته، على الرغم من أنها لا تزال - في أغلب جوانبها - قادرة على أن تقدم لنا بعض الحلول عن المشكلات الحضارية وتزودنا بالإجابات عن أسئلة عديدة في واقعنا الجزائري خصوصا والعربي والإسلامي عموما .

من علماء الإصلاح الذين نشطوا الحركة التعليمية

بعمالة قسنطينة ما بين [1931 - 1958م]

د/ لوصيفه فوزية

جامعة الأمير عبد القادر

العلوم الإسلامية

المقدمة:

شهد الكثير من الرحالة والجزرالات الذين عايشوا بدايات الاحتلال الفرنسي للجزائر؛ بأنّ الأمية كانت منعدمة تقريباً في الجزائر، وأنّ سكان الجزائر قد يكونون أكثر ثقافة من سكان فرنسا، فحاول الاستعمار بجميع وسائله أن يقلب الأوضاع، ويعبث بكل مقدس لدى الشعب الجزائري، ليبعده عن أصوله وجذوره التاريخية واللغوية والدينية، فيجعل منه مجتمعاً مسخاً بلا هوية ولا ماض ولا مستقبل، ولأجل ذلك تكالب الاحتلال على محاربة الثقافة العربية الإسلامية بجميع رموزها ومؤسساتها، تمهيداً لتحقيق الفرنسية والإدماج والتنصير والتجهيل، وكان يدرك مدى خطورة العلماء على أهدافه الاستعمارية، وعلى وجوده وكيانه، فجعلهم في مقدمة قائمة المستهدفين بالمضايقة والقمع.

تحدى الشيخ عبد الحميد بن باديس الظروف الاستعمارية، وكل محاولات التضييق؛ وانطلق بحركة تعليمية واسعة مباشرة بعد رجوعه من المشرق في حدود سنة 1913م بالجامع الأخضر بقسنطينة، حيث تجمع من حوله ثلة من شباب المدينة ومن خارجها فرباهم على حب الوطن والتمسك بالأصول العربية الإسلامية الصحيحة. فكانت هذه الحركة التعليمية المباركة؛ من الأسباب المباشرة لظهور حركة الإصلاح والنهضة في الجزائر المعاصرة.

اشتهر عود الحركة الإصلاحية بعد الحرب العالمية الأولى، مع رجوع طلبة المدارس المتخرجين من المعاهد العلمية بتونس والمغرب والمشرق والحجاز، أمثال: البشير إبراهيمي، والطيب العقبي¹ (عادا سنة 1920م)، وفي سنة 1925م وما بعدها من الكثير من الطلبة أمثال: محمد السعيد الزاهري²، ومبارك الملي³، والعربي التبسي⁴، وغيرهم.

¹ - هو الطيب بن محمد بن إبراهيم بن الحاج صالح العقبي [1307هـ/1890م - 1379هـ/1960م]، ولد بسنندة عقبة بيسكرة، التحق صبغيا بأخيه البكر بالحجاز، فتعلم وتكون بالخرم المدني، كتب في الصحف "شريعة قبل الناس" العلمية، وشارك في الحياة السياسية بالمدينة، فأبعده الأتراك إلى الأناضول مع حملة أنصار النهضة العربية، وهناك بقي أكثر من سنتين، إلى حين انتهاء الحرب (1918م)، وعندما رجع إلى أرض الحجاز، عين مديرا بخريدة "القبلة" و"المسجد الأميري". ثم عاد إلى موطنه في مارس من سنة 1920م، حيث أقام مع أسرته بيسكرة يدعو إلى دين الله، ثم أعاد بدعوة ابن باديس على صفحات المقتصد فالتحق بفريق الإصلاح، وساهم في تأسيس جمعية العلماء، وشغل منصب أمين عام مساعد، في سنة 1938م انتسب من الجمعية واستقل بدعوته الدينية. انظر: الرفاعي شرقي: مقالات وآراء (بيروت: بقلم العقبي)، ج2، ص16-22، وعلي مزاد: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، ص108 - 120، وعادل نويهي: معجم أعلام الجزائر، ص238-239

² - هو محمد السعيد السنوسي الزاهري [1317هـ/1899م - 1376هـ/1956م]، ولد في قرية تيانة قرب بيسكرة. درس بمسقط رأسه، ثم على الشيخ ابن باديس، ثم بجامع الزيتونة، ومكث به أربعة أعوام حتى نال شهادة التطويح. وعاد إلى الجزائر عام 1925م، واستقر بالعاصمة مع جماعة الإصلاح، فعمل في التدريس، والوعظ والإرشاد، أصغر من جردة: الجزائر (1925)، والبرق (1927)، والوفاق (1938)، والمغرب العربي (1947). ورئيسا لبعض جرائد الجمعية؛ كجريدة السنة (1932) والصراف (1933). له مقالات كثيرة في الشهاب والأمة والنور، وفي صحف المشرق لا سيما بالرسائل والمنتظف والفتح. من آثاره: الإسلام في حاجة إلى دعابة وتبشير. ساهم في تأسيس الجمعية، واشتغل معهما في المدارس الحرة في العاصمة، والأغواط، وتلمسان. / انظر: عادل نويهي: معجم أعلام الجزائر بن صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهي الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1400هـ/1980م، ص157

³ - هو مبارك بن محمد بن رابع إبراهيمي الفلالي المشهور بالملي [1316هـ/1898م - 1364هـ/1945م]، ولد بقرية "أرامان" ناحية "موزال" في دوار أولاد مبارك بجبال المليية. بدأ تعليمه بجملة، ثم قصد قسنطينة ليتلمذ على يد ابن باديس، ثم التحق بالزيتونة فخرج منها عام 1924م. وعاد إلى بلاده، ليكون أحد أهم رجال الإصلاح بها وعشوا مؤسسا لجماعة العلماء. توفي بعد مرض عضال في 9 فيفري 1945م، وترك العديد من المقالات في الكثير من الصحف العربية الودية، وتكثابين هما: تاريخ الجزائر في القدم والحديث من جزأين، رسالة الشرك ومظاهره. انظر: محمد علي دوز: قضية الجزائر، ص260-262، وأحمد حامي: صراع بين السنة والبدعة، ج2، ص14، على مزاد: الحركة الإصلاحية، ص105-108

⁴ - هو العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرجات التبسي [اختلف حول تاريخ ميلاده: 1891م]، 1892م - 1894م، 1895م، 1896م - 1376هـ/1957م]، ولد في أسيح شمال الخيس الأبيض في الجنوب الغربي لمدينة تلمسان.

اجتمع هؤلاء والكثير من العلماء معهم حول كلمة الإصلاح والتجديد، وكان هدفهم الأول نبد الباطل والضلال والبدع حيثما وجدت، وإعلاء كلمة الحق كيفما كان الحال، حتى يعاد إلى الإسلام صورته المشرفة، التي شوهدت لسنوات جهالات الطرقية وانحرافاته، وتفوقوا على سلاح عظيم: وهو العلم والتعليم. وكللت جهودهم بنتائج عملية كبيرة؛ أهمها: إنشاء الصحف والجرائد الإصلاحية الدورية، وإنشاء الجمعية العلماء المسلمين الجزائريين" عام 1931م التي أصبحت الناطق الرسمي باسم الفكر "الإصلاحي بالجزائر. تمّ الانطلاق في حركة تعليمية حرة ومنتظمة بجميع القطر الجزائري، هذه الحركة التعليمية التي قادها في الأول الشيخ ابن باديس، ولم تنقطع بوفاته؛ بل استمرت بقيادة الشيخ البشير الإبراهيمي، قد حققت نتائج كبيرة اعترف بها العدو-الإدارة الاستعمارية- قبل الصديق.

فما هي هذه النتائج التي حققتها جمعية العلماء؟ وكيف استطاعت أن تحققها على الرغم من الظروف الاستعمارية القاهرة؟ ومن هم العلماء الذين ساهموا معها في تحقيق هذه النتائج؟

نشأ وتعلم بمسقط رأسه على والده أولاً، ثم انتقل إلى "الحققة" -جنوب شرق حنشلة- ليكمل تعليمه إلى غاية رحيله إلى غطة بتونس عام 1910م، ومنها إلى الزيتونة، فمكث بتونس قرابة إحدى عشرة عاماً قضاها في التحصيل العلمي، وبسبب الحرب العالمية الأولى؛ اضطروا إلى العودة إلى الجزائر، ثم رجع إلى تونس بعد الحرب، لمواصلة تعليمه حتى سنة 1921م. ليرحل بعدها إلى مصر فمكث بها أكثر من خمس سنوات، تلمذ خلالها على يدي أبرز علماء الأزهر. وأثناء رحلته الطويلة كان يتبع أخبار بلاده وأخبار الحركة الإصلاحية التي أعجب بها وبخاصة ابن باديس، والشهاب، عاد إلى الجزائر عام 1927م، واتصل برجال الإصلاح وصار واحداً منهم، وأثبت مكانته بينهم بالخلق والعلم والعمل. عمل بالتدريس والوعظ والإرشاد بسنة (18 سنة)، وسبق قرب وهران (مستن). وانتقل إلى معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس بـندرا ومدرباً. انتقل إلى العاصمة سنة 1956م، حيث واصل جهاده في إدارة جمعية العلماء، إلى أن احتفظه الجيش سري الفرنسي يوم 4 أبريل 1957م وأعدم سراً، ولا يعرف له قبر. النظر: محمد علي ديبوز: أعلام الإصلاح، ج2، ص15-71، وعبد الكريم بالصفصاف: رواد النهضة والتجديد في الجزائر (1889-1965)، ص: دار الحنشي، عين مليلة: الجزائر، ص71

وللإجابة على هذه التساؤلات حاولت تتبع مسار الحركة التعليمية لجمعية العلماء منذ بدايتها إلى توقف أعمالها بسبب الثورة التحريرية المباركة. وقد حصرت لدراسة بعمالة قسنطينة لأن حجم البحث لا يسمح بالتوسع أكثر، والأهم من هذا أن قسنطينة كانت ومازالت العاصمة العلمية للبلاد.

أولاً- المراحل التاريخية للحركة التعليمية الإصلاحية ما بين [1931م-1958م] درس رجال الإصلاح واقع الأمة بتعمق، وأدركوا أسباب الضعف والخلل فيه، فعلموا علم اليقين أن جوهر القضية في انحطاط المسلمين يكمن في تركهم المنهج الرباني الشامل والكامل، وابتعادهم عن القرآن والسنة علماً وعملاً، ولا سبيل للخروج من هذا البلاء إلا بثورة شاملة على أسباب الانحطاط، وبدايتها الإنسان لأنه الأصل ثم الجماعة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾¹، وتغيرها يكون بتطهير بواطنها من كل ما اعتراها من (ضلالات ملأت الأدمغة، وعلقت بالعقول، وفرخت في الصدور)²، فطمست بريق الإيمان، وشلت حركة العقول فصيرتها إلى موات.

هدف علماء الجمعية إلى دفع الفرد المسلم والأمة الإسلامية نحو حركة تحررية شاملة تقوم على التوحيد، فتنتقل بتحرير الذات من جميع القيود الداخلية والخارجية المشبطة عن التغيير للأحسن، وتنتهي بنتيجة حتمية ومنطقية؛ هي حركة تحررية ضد الاستعمار. فالثورة التحريرية عندهم ليست غاية في حد ذاتها، بل هي مرحلة منطقية لا بد منها، وهي جزء صغير من مشروع كبير، بدأ قبل الثورة ويستمر بعدها استمرارية خلود، لأن الثورة ليست مرحلة زمنية محدودة؛ بل هي مشروع تفضوي وحضاري وإنساني يرمي إلى الخلود بخلود رسالة الإسلام (الذي يدعو معتنقيه إلى أن يكونوا في

¹ - نزع، الآية 11

² - أحمد الرياعي شرفي: مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر (الإمام الشيخ العربي النسي) ط1، القسم الثاني، دار 3- السهوب، بانه، 1401هـ/1984م، ج3، ص62

إننا انعام: المثل الأعلى، وحملة المبادئ الحية التي تطارد الجبهالات والأوهام،
والخرافات وتضع الأمة الإسلامية في موضع أمة غنية، عالية، سائرة في الطليعة الأولى
من الأمم الحية¹.

ولن يتحقق هذا التحرير الشامل إلا إذا قام على قاعدة متينة من الإصلاح
العلمي. وقد أكد الشيخ الإبراهيمي على أنّ (الإصلاح العلمي هو ناحية من
نواحي الإصلاح الكثيرة التي يجب أن تعطىها جمعية العلماء المسلمين فضل اهتمام
واعتناء، ولو لم يحدث من الحوادث ما جعل اتجاه الجمعية إلى الإصلاح الديني أقوى
لكان الإصلاح العلمي أول ما تعالجه، وتبذل فيه جهودها لأنه ألصق باسمها وأكثر
ارتباطاً بحرفة رجالها، وكفيها دليلاً على خطر الإصلاح العلمي وقيمه أن أكبر
عناصر الإصلاح الديني الذي لا يمتري في لزومه عاقل يستمدّ قوته من شيء يستمى
علمًا ومن أشياء تسمى علماء...) ². ولذلك كان للعلم والتعليم حصة الأسد في
أهداف ومناهج وبرامج الجمعية في جميع مراحلها التاريخية.

انطلق علماء الإصلاح بعزيمة وثبات بكل الوسائل المتاحة؛ كل في جهته المكلف
بها، يجاهد بالنفس والنفيس، لتحقيق الأهداف المنشودة. ولا يهمنا من هذه الجهود
الجبارة في هذه العجالة؛ إلا ما كان متعلقاً بالجهود التعليمية والتربوية بعمالة قسنطينة
في الحقبة الممتدة ما بين [1931م/1958م]، أي من بداية جمعية العلماء إلى السنوات
الأولى للثورة التحريرية المباركة. والجدير بالذكر أنّ قيام الحرب العالمية الثانية واستمرارها
لمدة خمس سنوات [1939م/1944م]؛ ثم حوادث 8 ماي 1945م ومخلفاتها؛ ثم اندلاع
الثورة التحريرية؛ قد أثر على مسار الحركة التعليمية، وفرض تقسيمها إلى أربعة مراحل
متميزة:

¹ - أحمد الرفاعي شرقي: مقالات في الدعوة إلى النهضة، ج3، ص74

² - أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ج1،

1/ المرحلة الأولى: من بداية الجمعية إلى قيام (ح ع2) [1931م- 1939م]:

بعد تأسيس الجمعية مباشرة تقاسم أعضاؤها المهام الإصلاحية على ثلاث مناطق رئيسة؛ (على أن يكون العمل منسقاً بين القادة الثلاثة وبين بقية أعضاء الجمعية وفروعها وأنصارها في مختلف جهات القطر)¹، هذه المناطق هي:

- المنطقة الشرقية (عمالة قسنطينة): وعاصمتها قسنطينة، وتحت إشراف الرئيس ابن باديس، الذي تكفل بمدينة قسنطينة، مع مواصلة دروسه المعتادة بالجامع الأخضر وملاحقه (مسجد سيدي قموش، ومسجد سيدي بومعزة)، بالإضافة إلى إشرافه على تسيير الجمعية ومتابعة جميع أعمالها. وكان يساعده في مهامه بقسنطينة ثلة من أنجب تلامذته.

- المنطقة الوسطى (عمالة الجزائر): وعاصمتها مدينة الجزائر، تحت إشراف نائب الأمين العام العقبي

- المنطقة الغربية (عمالة وهران): وعاصمتها تلمسان، تحت إشراف النائب البشير الإبراهيمي

2/ المرحلة الثانية: طوال مدة (ح ع2) وأزمة 1945م [1939م- 1946م]:

بينما الحركة في اشتدادها وامتدادها قامت الحرب العالمية الثانية فأوقفت كل شيء وعطلت فرنسا جميع مشاريع جمعية العلماء، وفرضت الإقامة الجبرية بالصحراء على الشيخ الإبراهيمي، وعند رجوعه من المنفى وُضِع تحت المراقبة الإدارية حتى انتهاء الحرب. خلال هذه الفترة توفي رئيس الجمعية في أبريل 1940م، ثم توفي تلميذه وصديق دربه مبارك الملي في فيفري 1945م بعد مرض صارعه طويلاً. كما قامت الجمعية بتحويل الدروس العلمية من الجامع الأخضر بقسنطينة إلى تبسة، وانتقل طلاب الشيخ ابن باديس إلى الشيخ العربي التبسي، وانتسبوا إلى مدرسته. فبقيت

¹ - ربي مركي: التقدم القوم والاشتراكية الخيرية، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 30.

(الدروس بتبسة من 1940 إلى 1945 تحمل اسم قسنطينة، وتدل بالموقعة على أنها راجعة إليها في يوم من الأيام)¹.

3/ المرحلة الثالثة: من الفراج أزمة 1945 إلى بداية الثورة [1946م/ 1954م]:

استمرت هذه المرحلة ثماني سنوات، وتعتبر مرحلة ثرية بإنجازات الإصلاح العلمي، حيث زاد خلالها مستوى انتشار التعليم العربي الحر؛ بازدياد عدد المدارس، والمساجد، والنوادي؛ المشيدة من طرف رجال الجمعية.

4/ المرحلة الرابعة: من بداية الثورة إلى توقف أعمال الجمعية [1954م- 1958م]:

هي أقصر المراحل، حيث استمرت أربع سنوات، وأقل ما يمكن أن توصف به أنها فترة ثورة، ولذلك شهدت الحركة الإصلاحية -مثل جميع الحركات الوطنية الجزائرية- الكثير من الاعتقالات في صفوفها ذلك أنّ علماء الجمعية في هذه المرحلة مع استمرارهم في جهادهم التعليمي؛ انخرطوا أفراداً وجماعات في صفوف الجهاد الثوري إلى جانب إخوانهم من أحرار الوطن وشرفائه.

ثانياً/ التعليم المسجدي وأهم مراكزه وعلمائه بعمالة قسنطينة

التعليم المسجدي: هو ذلك (التعليم الذي تلتزم فيه كتب معينة في العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وأصول وأخلاق. والعلوم اللسانية من قواعد ولغة وأدب. والعلوم الخادمة للدين من تاريخ وحساب وغيرها، ويقوم به مشائخ مقتدرون في تلك العلوم محسنون لتعليمها، ونسبته مسجدياً لأنه كان من فخر الإسلام إلى الآن وما زال يلتقى في المساجد)². وهو النظام التعليمي المتبع في أعرق المساجد وأقدمها؛ الأزهر والزيتونة والقرويين. ولا يخفى ما لهذا التعليم من أهمية بالغة في حفظ المقومات الأساسية لشعوب البلدان الإسلامية، وبخاصة المحافظة على سير حركة تعليم الدين

¹ - البصائر: 2، ص 2، ع 18، الاثنين 22 صفر 1367هـ / 5 جانفي 1948م، ص 1

² - الإبراهيمي: آثار الإبراهيمي، ج 2، ص 170 / "البصائر"، العدد 7، السنة الأولى من السلسلة الثانية، 19 سبتمبر 1947م

الإسلامي الخفيف وفق برامج ومقررات معتمدة وموثوقة، ذلك أنّ الشعوب الإسلامية (مفتقرة دائماً إلى من يفتيها في التوازل اليومية ويبيّن لها أحكام الحلال والحرام. وما بقي الإسلام محفوظاً إلا بهذا النوع من التعليم الذي من أصوله تفسير القرآن والحديث النبوي...) ¹. وباقي العلوم التي تخدم الدين.

1- الدروس العلمية بالجامع الأخضر وعلمائها بقسنطينة:

حرص الشيخ ابن باديس على إحياء التعليم المسجدي، الذي افتقدته الجزائر في سنوات الاحتلال الفرنسي الطويلة. فبدأ به عند انطلاقة الأولى في حركته التعليمية بمدينة قسنطينة سنة 1913م بالجامع الأعظم، وبسبب المضايقات الكثيرة انتقل إلى الجامع الأخضر* ومسجد سيدي قموش ومسجد سيدي عبد المؤمن. فتوافد عليه الطلبة من جميع القطر الجزائري، لتزود بعلوم الدين واللغة. فتكونت على يديه ثلة من الشباب رباهم على حب الوطن والتمسك بالأصول العربية الإسلامية الصحيحة، (فما كادت تنقضي مدة حتى كان الفوج الأول من تلاميذ ابن باديس مستكمل الأدوات من فكر صحيح وعقول نيرة ونفوس طامحة، وعزائم صادقة، وألسن صقيلة، وأقلام كاتبة، وتلك الكنائب الأولى من تلاميذ ابن باديس هي طلائع العهد الجديد الزاهر)²، التي صارت من جنود الحركة الإصلاحية المباركة.

ثمّ بدأ عهد جديد في تاريخ الجامع الأخضر بعد تأسيس الجمعية، حين افتتحت به الدروس العلمية الإسلامية بداية من أكتوبر 1933م. فتحول إلى معهد للعلوم الإسلامية مثل باقي المعاهد في العالم الإسلامي -تقريباً-. حتى أنّه بلغ عدد

¹ - المصدر نفسه.

* - تمّ بناؤه للصلاة والتمسح والتعليم بأمر من حسين باي، أواخر شعبان 1156هـ. ابن باديس: بعد عشرين سنة في التعليم، نسأل: هل عندنا رخصة، جريدة الصراط، ع7، الإثنين 11 رجب 1352هـ/ 30 أكتوبر 1933، ص6

² - سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للمعتد بمرکزها العام نادي التوفي، دط، دار الكتب، الجزائر، 1982م،

تلاميذه في ديسمبر 1936م نحو ثلاثمائة (300) تلميذ مقسمة على ثلاث طبقات. وأصبح باقي المساجد الحرة ملحقات للجامع الأخضر؛ مثل: مسجد سيدي بومعزة، ومسجد سيدي قموش. وسهر على إحياء مجالس التعليم بالجامع الأخضر وملحقاته إلى جانب الإمام ابن باديس أساتذة أكفاء، جلهم من حيرة تلاميذه؛ نذكر منهم¹ :
 - أبو القاسم الزغداني^[1]: التحق للتعليم بالجامع الأخضر وسيدي بومعزة سنة 1934م، ثم حوله الشيخ ابن باديس إلى مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة.

- عمر دردور^[2]:

- حمزة بوكوشة^[3]: التحق بالحركة التعليمية بقسنطينة عام 1936م.

¹ ابن باديس: بيان عن الحركة العلمية بالجامع الأخضر، ص1، ع47، الجمعة 26 رمضان 1355هـ/11 ديسمبر 1936م، ص5 / عبد المجيد حيرش: حركة التعليم في هذه السنة، ص2، ع72، الجمعة 11 ربيع الثاني 1356هـ/25 جويلية 1937م، ص1

2- هو أبو القاسم شرغدني [1319هـ/1901م - 1399هـ/1979م]: ولد ببلدة عين الزيتون بأم البواقي. تعلم القرآن والعلوم الأولية بحسب راسه، ثم رحل إلى قسنطينة سنة 1920م لينظم إلى تلاميذ الشيخ ابن باديس. ثم رحل إلى الزيتونة عام 1924م فبقي ينهل من منابع علمها إلى أن تحصل على شهادة التلويح سنة 1930م. بعد رجوعه من تونس انطلق بالتعليم في مدرسة التهذيب التي أنشأها بنفسه في بلدته، بقي بها معلماً ومربياً إلى أن استدعاه ابن باديس لمساعدته بقسنطينة سنة 1934م. فبقي هناك إلى أن توفي شيخه ورئيسه. فعاد إلى مدينته وأسس بها نادياً علمياً، وأشرف على مدرسته وساهم في تسيط الحركة العلمية بعض المناطق الخرابرة (عين البيضاء وسوق أهراس)، ثم بمنطقة السمندو (زيفود يوسف حالياً) ما بين (1952-1954). وبعد اندلاع الثورة انخرط في صفوفها، فصار متبعاً من السلطات الاستعمارية وكادوا يفتكون به لولا تدخل أحد أقاربه -فايد- الذي قام بمساعدته على اللجوء إلى تونس سنة 1956م. فصار في خدمة الثورة مناضراً ومعلماً ومفتياً للاجئين إلى غاية الاستقلال. عندما رجع إلى الوطن استقر في قسنطينة إماماً لمسجد حسين باي، مع التدريس بثانوية بوغرطة، ثم أُحيل على المعاش سنة 1969م. بقي متطوعاً لمسجد حسين باي ومسجد الكيلو متر الرابع إلى أن أصغره المرض ولزم بيته إلى حين وفاته يوم 14 جانفي 1979م ودفن بمقبرة قسنطينة. أوصى ورثته بالتبرع بمكتبته «خادمة لإحدى الهيئات العمومية» فسلمها بجله عبد الحميد الزغداني إلى مكتبة بلدية قسنطينة. انظر: محمد مسعي: دور أعلام مدينة أم البواقي في الحركة الإصلاحية والثورة التحريرية، رسالة ماجستير في تاريخ المجتمع المغاربي الحديث والمعاصر: قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009-2010م، ص46.

³ هو حمزة بن البشير شوف المعروف بحمزة بوكوشة [1327هـ/1909م - 1445هـ/1994م]: ولد في واد سوف. بعد الفراغ والعلوم الأولية ببسكرة، لما بلغ 17 من عمره رحل إلى جامع الزيتونة فبقي إلى سنة 1930م. وعاد إلى الجزائر مرزداً بين الوادي وبسكرة. ثم انخرط في جمعية العمماء في بدايتها. أشرف مدرسة الإصلاح في دلس، ثم انتقل إلى قسنطينة

- الجيلاي الفارسي¹ [4]:

- سعيد الزموشي [5]:

- عبد المجيد حيرش [6]:

- البشير بن أحمد سطيفي [7]:

ليساعد الشيخ ابن باديس في دروسه بالجامع الأخضر. وفي سنة 1937م انتقل إلى مدينة وهران للإشراف على جريدة "المغرب العربي"، ثم تبين له أن أحد المشرفين عليها الشيخ السعيد الزاهري يريد أن يجعلها منبرا للتشويش على جمعية العلماء، والإساءة إلى أعضائها، فترك الجريدة ورجع إلى مساعدة الإمام ابن باديس في التعليم بقسنطينة. وفي سنة 1938م انتدبه جمعية العلماء للعمل في فرنسا، فاستقر بمدينة ليون، مدعماً مساعداً للشيخ الفضيل الورتلاني. وفي سنة 1956م باشر التدريس بفرع معهد ابن باديس بعي بلكور تحت إدارة الشيخ العربي التبيسي. بعد الإستقلال عُين متصرفاً مديناً بوزارة الأوقاف، ثم أستاذاً للغة العربية بثانوية عقبة بالجزائر العاصمة. درس بعد ذلك الحقوق وتخرج عام 1971. اشتغل تاجراً للتصوير، ثم مستشاراً بالقرعة المدنية، ثم محامياً منذ 1980. اعتزل العمل منذ 1991 ونفرغ للقراءة. توفي يوم الأربعاء 14 جمادى الثانية 1415هـ الموافق لـ 16 نوفمبر 1994م. ودفن بمقبرة القطار بالعاصمة. / أحمد مبروش: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، كنوز الحكمة، ج1، ص316 /

<https://ar.wikipedia.org/> / <http://www.albahrainprize.org/Encyclopedia>

¹ - الجيلاي بن أحمد بن البيهالي بن يحيى عدة الفارسي الشلفي [1327هـ/1909م - 1415هـ/1994م]، ولد في قرية الشرفة بأولاد فارس بولاية الشلف، حفظ القرآن وتعلم على جده من أمه الحاج بلقاسم، وباقى شيوخ المنطقة بمدينة غليزان. أول عمل ديني قام به كان البداية في كتابة المصحف الشريف بخط يده، وكان ذلك سنة 1929م. ثم توقف المشروع إلى حين انتهاءه من الخدمة العسكرية، وبعدها أم رحمه وحنتمه في ليلة الثامن من جمادى الأولى سنة 1356هـ الموافق لـ 1933م. ولعله كان من محاسن الفترة التي قضاها الشيخ بالخدمة العسكرية أن أسندت الإدارة الفرنسية إليه التكفل بعائلة القايد طيلة فترة تجنيده، فكان عليه مرافقة أولاده إلى المدرسة ذهاباً وإياباً، وهذا ما مكّنه من أن يحضر دروس الشيخ أحمد بن عاشور، فاعتنى على يده الحركة الإصلاحية التحريرية، وتلقى على يده المبادئ الأساسية في العلوم العربية والإسلامية. بعد الخدمة العسكرية سافر إلى قسنطينة ليدرّس هناك وقضى فيها خمس سنوات، ثم سافر بعدها إلى تونس لينتقل بجامعة الزيتونة، وعاد سنة 1942م. وقد كان من قبل أحد مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فهذه العضوية أخذ على عاتقه مهمة التعليم ونشر الدعوة الإصلاحية والفكرية في ولاية الشلف فتوبل بمضايقات كبيرة من الإدارة الفرنسية. التحق بالثورة بمجرد اندلاعها، سجن مابين (فيفري 1956م وجويلية 1958م)، ثم وضع تحت الإقامة الجبرية حتى الاستقلال. بعده عين مفتشاً جهوياً لوزارة الأوقاف في سنة 1963م. كما أسهم في إنشاء المعهد الإسلامي الأعلى فرع الشلف عندما قرر الوزير مولود قاسم نايت بلقاسم إنشاء 22 معهداً إسلامياً عبر القطر الجزائري إلا أن هذا المعهد لم يدم طويلاً فحوّل إلى ثانوية في عهد مصطفى الأشرف. ثم إنه تفرغ بعد ذلك إلى تدريس العلم منذ سنة 1972م بالمسجد العتيق بالشلف إلى غاية سنة 1992م. توفي يوم الأحد 16 محرم 1415هـ الموافق لـ 26 جوان 1994م، ودفن في قرية الشرفة. / <https://ar.wikipedia.org/>

- عبد الحفيظ بن صالح [8]:

- عبد الله الميلي [9]:

- الطيب الدراجي [10]:

عندما توفي الشيخ ابن باديس سنة 1940م (رحمه الله)؛ عينت الجمعية لخلافته بالجامع الأخضر:

- مبارك الميلي [11]: يحكي عنه تلامذته أنه (لما تبرع ذات يوم مقعد

أستاذه الراحل العظيم وحلت نفسه، وعظم الأمر لديه، وأثر فيه هول الموقف من تذكر رئيسه وأستاذه حتى سالت عبراته سخية على خديه، تواضعاً وإشفاقاً على نفسه أن تغتر وتتطاول بتبوتها ذلك المقعد¹. فهذه صفات النفوس المؤمنة الكبيرة، العامرة بمحبة الشقيق، وولاء التلميذ، ووفاء الصديق. لكن علل الجسد وأحكام القدر كانت أقوى من عزيمة العالم المجاهد "مبارك الميلي" حيث لحق بأستاذه المحب بعد خمس سنوات.

2- الدروس العلمية بالجامع الأخضر وعلمائها بتبسة:

بعد وفاة الرئيس الأول، ونفي الرئيس الثاني للجمعية، ومع اشتداد المرض على رفيقهما مبارك الميلي؛ صارت تبعات الدروس العلمية بالجامع الأخضر وملحقاته على عاتق الشيخ:

- العربي التبسي [12]: لكن حفت بالشيخ ظروف حالت دون تنقله من

تبسة، أهمها حرصه الشديد على بقاء الحركة الإصلاحية والتعليمية التي أشعل فتيلها بمدينة تبسة وما جاورها، فقامت الجمعية بتحويل الدروس العلمية من قسنطينة إلى تبسة بصفة مؤقتة لظروف تاريخية معروفة- قيام الحرب العالمية الثانية-، وانتقل

¹- محمد الميلي: الشيخ مبارك الميلي حياته العلمية ونضاله الوطني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001م،

طلاب الشيخ ابن باديس بالجامع الأخضر وسيدي قسوش وسيدي بومعزة إلى الشيخ العربي التبسي، وانتسبوا إلى مدرسته و(بقيت الدروس بتبسة من 1940 إلى 1945 تحمل اسم قسنطينة، وتدلل بالمؤقتة على أنها راجعة إليها في يوم من الأيام)!. لأن قسنطينة كانت دوماً -ومازلت- العاصمة العلمية بالبلاد.

وقد أصدر المجلس الإداري لجمعية العلماء بيانات للأمة الجزائرية لبيان الأمر؛ منها ما صدر في 19 أكتوبر 1943م. جاء فيه²: « إن المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المتعقد بمكتب الرئاسة بقسنطينة يوم 17 أكتوبر الحاضر، قد قرّر استمرار التعليم المسجدي الديني لتلامذة الجامع الأخضر بتبسة كإعادة الجارية في السنتين الماضيتين لدواعٍ ضرورية قاهرة. وأسند- كالمعتاد- القيام بذلك التعليم إلى كفاءة الأستاذ النقاغ الشيخ العربي التبسي الكاتب العام لجمعية العلماء مع التنويه بذكره، والإفصاح عن شكره على ما قام به في السنتين الماضيتين من المواظبة على تلك الدروس النافعة لأبناء الأمة في دينهم ولغتهم،... ».

استعان الشيخ في حركته التعليمية بتبسة بكثير من الأساتذة من كبار تلامذته الذين تخرجوا من الزيتونة؛ نذكر منهم³:

- العيد بن أحمد مطروح [13]:

- السعيد الزموشي:

- محمد الشوكي [14]⁴:

- حامد روابحية [15]⁵:

¹ - البصائر: 2، ص 2، ع 18، الاثنين 22 صفر 1367هـ / 5 جانفي 1948م، ص 1

² - الإبراهيمي: آثار الإبراهيمي، ج 2، ص 131-132

³ - محمد علي ديوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ط 1، مطبعة البعث، قسنطينة، 1370هـ / 176م، ص 30-33

⁴ - محمد الشوكي [1334] 1916م - 1426هـ / 2005م]:

⁵ - حامد روابحية [1336] 1918م - 1427هـ / 2006م]:

- الصديق السعدي [16]:

- الشاذلي المكي [17]:

- يوسف بن محمد شعشوعي [18]:

- عبد الحفيظ بدري [19]:

لكن مجريات أحداث ماي 1945م حالت دون استمرار هذه الدروس الأخرضية ببسة، حيث لاحقت سلطات الاحتلال الطلبة واعتقلت جميع الأساتذة، ولم تنطلق هذه الدروس إلا بعد افتتاح معهد ابن باديس بقسنطينة في ديسمبر 1947م.

ثالثاً. التعليم المكتبي وأهم مراكزه وعلمائه بعمالة قسنطينة

1- لمحة على جهود الجمعية في إنشاء المدارس الحرة:

كانت الجزائر كلها خالية من المدارس العربية النظامية الحرة إلا كتاتيب قرآنية مهددة بالإغلاق في كل حين. ثم قامت جمعية العلماء منادية بإحياء العربية على رغم أنف الاستعمار. فبدأ عمل الجمعية في السنوات الأولى بعدد قليل من المساجد لم تنته إلى العشر. وبعد حملات التوعية والإرشاد من طرف علماء الجمعية قفز عدد المدارس إلى العشرات¹.

عند قيام الحرب العالمية الثانية (1939م) عطلت فرنسا جميع مشاريع جمعية العلماء، لكن إصرار رجال الجمعية مكنهم من تحدي كل العراقيل، وتمكنوا من تجاوز الحصار المفروض عليهم سنة 1943م؛ حيث شيدوا (70 مدرسة، وهو عدد ضخم، نظراً لظروف الحرب المقيدة للحركة، وللمسغبة التي كان يعانيها الشعب الجزائري)².
والأكيد أن تعداد مدارس الجمعية في هذه السنة أكثر من هذا العدد المشيد.

¹- إبراهيمي: آثار الإبراهيمي، ج4، ص172-180

²- المصدر نفسه، ج2، ص17

ثم جاءت حوادث ماي سنة 1945، وأغلقت مدارس الجمعية كلها، واعتقلت عدد كبير من علمائها وزج بهم في غيابات سجون الاحتلال العاشم مع الكثير من شرفاء الوطن، وبعد مدة عسيرة أخذت الإدارة الفرنسية تطلق سراح المعتقلين تدريجياً كان آخرهم شيوخ الجمعية. فعقد مؤتمر من المعلمين ورجال الجمعيات في مارس 1946 بقسنطينة، وقرر عدم الاعتراف بقرار الغلق ووجوب إعادة الحياة للدراسة العربية ابتداء من أول السنة الدراسية، وفتحت المدارس فعلياً -رغم أنف إدارة الاحتلال- ابتداء من أكتوبر 1946، بعدها مباشرة رجعت الجمعية إلى عملها أقوى مما كانت، ونشطت حركة تأسيس المدارس، فازدادت أعداد مدارس الجمعية ونشطت حركتها التعليمية. والجدول التالي يوضح ذلك بالأرقام:

السنة	عدد مدارس الجمعية بجميع القطر	عدد المعلمين بها
1947	91	227
1948	140	-
1950	160	-
1951	125	275
1953	أكثر من 140	400
1954 (قبل الثورة)	أكثر من 150	-

2/ مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة وعلمائها:

كانت البداية من وقف استغل لبناء مدرسة للتعليم الابتدائي. ثم (شيد بجانبها بناية، جعلت مكتباً للتعليم العربي. الذي يعتبر نواة مدرسة التربية والتعليم الإسلامية... ثم قام أحد المحسنين بشراء مكان هذا المكتب، وجعله حياً على الحركة الإصلاحية والتربية والتعليم. وبعد مدة تحول المكتب إلى معهد به أقسام ملحقة. وبقي التعليم سائر في أقسام مكتب التربية والتعليم، وسيدى بومعزة،

1- نزل معدل عدد المدارس الإصلاحية بسبب التضييق الاستعماري، حيث بادرت سلطات الاحتلال العاشم إلى تعصّل كثير من مدارس الجمعية في عدة جهات من الوطن

والجمعية الخيرية الإسلامية، وسيدي قموش؛ حتى تمكنت جمعية التربية والتعليم من شراء دارا جديدة في نهج الأربعين شريفاً (ألكسيس لامبير). وتم افتتاحها في يناير 1937م¹، لتكون مركزاً لمدرسة التربية والتعليم. ثم صارت للمدرسة فروع تابعة لها بمدينة قسنطينة وخارجها؛ بل وبكامل القطر الجزائري. أما فروع قسنطينة فهي: فرع سيدي بومعزة، وفرع نهج ميله، وفرع نهج أولاد إبراهيم، وفرع باردو. وتولى التعليم بهذه المدرسة وفروعها في مراحلها الأولى الشيخ ابن باديس، بمساعدة ثلة من أئمة العلماء والتلاميذ، أما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد تكفل بإدارتها كل من:

- السعيد حافظ [20]:

- عبد الحفيظ الجنان [21]:

- أحمد رضا حوحو [22]².

- الصادق حماني [23]:

وقد استعانوا كذلك للتعليم بمجموعة من المعلمين والمعلمات، نذكر منهم:

- مبارك الميلي:

- بلقاسم الزغداني

¹ - فائزة ماصة: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتأثيرها على المجتمع الجزائري، مذكرة مكتملة لنيل شهادة الماستر في تخصص التاريخ المعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة محمد عيسى، بسكرة، ص 58.

² - هو أحمد رضا حوحو [1330هـ/1912م - 1375هـ/1956م]، ولد في قرية سيدي عقبة ببسكرة. وسافر الى المدينة المنورة عام 1934م، فكان مدرسا بمدرسة العلوم الشرعية فيها، وسكوتياً لجملة "المهل" إبان نشأته. ثم عين (1361هـ) مترجماً بمديرية البرق والبريد العامة. وعاد الى الجزائر حوالي سنة 1946م فعين استاذاً بمعهد ابن باديس، وعمل في جمعية العلماء المسلمين، وأصدر جريدة "الشعلة" وقام برحلات الى الدول الاشتراكية. وفي أثناء الثورة بالجزائر قبض عليه، وقتله الفرنسيون في محنة رهيبه، فكان من أوائل الكُتاب الشهداء الذين قدمتهم الجزائر على مذبح الحرية والكرامة والاستقلال. احتفظه الاستعمار الفاشم يوم 30 مارس 1956م، واعتزل قرب المحرة بقسنطينة ودفن سراً. انظر: أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1405هـ/1984م، ج2، ص 270 ونوهض: معجم

- 1- **الفضيل الورتلاني**[24]: كان مساعداً للشيخ ابن باديس في التدريس من سنة 1932م إلى 1936م، كما كان مرافقاً له في بعض رحلاته داخل الوطن.
- 2- **محمد بن العابد الجلاي**[25]: التحق بمدرسة التربية والتعليم من (1930م إلى 1943م).

1- هو حسين الفضيل بن محمد السيد بن فضيل المعروف بالفضيل الورتلاني [1317هـ/1900م - 1372هـ/1959م]، ولد في قرية "أبو" ببلدية بني ورتلان بولاية سطيف، من أسرة عريقة في العلم من أشهر أفرادها صاحب الرحلة جده الشيخ "الحسين الورتلاني". حفظ القرآن وتعلم صغيراً ببلدته، ثم انتقل إلى قسنطينة فاستكمل دراسته عند ابن باديس، وبعد تخرجه مباشرة (1932) صار مساعداً له في التدريس ومرافقاً له في بعض رحلاته بالوطن، كما كتب في البصائر والشهاب. سافر إلى فرنسا (1936م) مبعوثاً عن الجمعية لتعليم المغتربين، حقق نتائج باهرة أفلقت السلطات فضيقت عليه، فاضطر إلى المغادرة إلى القاهرة (1940)، انتسب إلى الأزهر فحصل على شهادته العالمية مع جهاده في خدمة "القضية الجزائرية"، وقضايا المسلمين عموماً، فأسس سنة 1942م "اللجنة العليا للدفاع عن الجزائر"، وفي 1944م "جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا" ثم مكتب جمعية العلماء المسلمين سنة 1948م، ثم صار عضواً في تصيرب حركة الإخوان المسلمين، وامتد نشاط الورتلاني إلى مساندة الأحرار في اليمن، فصار مطلوباً من سلطاتها بتهمة المشاركة في محاولة انقلابية فغادرها متقلاً بين عدة دول أوروبية، ورفضت الدول العربية استقباله حتى وافقت لبنان على استقباله، شرطاً أن يكون الأمر سرّاً. وبعد الإطاحة بالملك "فاروق" عاد إلى مصر وإلى جهاده ومؤازرة الثورة الجزائرية بعد استقلالها. وم تظل مدة إقامته بالقاهرة، فغادرها إلى بيروت سنة 1955م. توفي بإحدى مستشفيات "أنقرة" ودفن بها في 12 مارس 1959م، ثم أعيدت رفاته إلى أرض الوطن ودفن بمسقط رأسه في 12 مارس 1987. انظر مقدمة كتابه: فضيل الورتلاني: الجزائر الفاترة، دط، دار المدى، عين مليلة، الجزائر، 1992م، ص 30-36/ ويحيى بو عزيز اعلام الفكر والثقافة، ج 1، ص 176-208

2- هو محمد بن العابد بن عبد الله السائح بن سيدي يوسف بن السماي [1308هـ/1890م - 1387هـ/1967م]، ولد ببلدة أولاد جلال بولاية بسكرة، تعلم القرآن على يد أبيه وعلماء المنطقة. حاول الخروج إلى المشرق العربي لكن ظروف الحرب العالمية الأولى لم تنح له الفرصة. فمكث في قريته يقرأ صبيانياً القرآن. انتقل بعدها سنة 1920م إلى مدينة قسنطينة وتعمّل فيها على الشيخ بن باديس. وبعد إتمام دراسته انتدبه شيخه سنة 1925م للتدريس بالعلمة، ثم انتقل إلى مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة (1930م إلى 1943م). وأشرف على مدرسة التربية والتعليم بسكرة ما بين (1943-1947)، ومنها إلى مدرسة عين مليلة (1947-1954). التحق بالثورة مع اندلاعها، وما لبث أن ألقي القبض عليه بالهجرة بنواحي الخروب بقسنطينة، فسجن فحكم عليه بعشر سنوات سجناً فأمضى أولها في سجن الكدية بقسنطينة ثم نقل إلى سجن البرواقيّة. بعد الاستقلال عاد إلى إدارة مدرسة عين مليلة لمدة ثلاث سنوات ليتوقف نشاطه الإصلاحي سنة 1965م. توفي في 2 فيفري 1967م ودفن في مقبرة أولاد جلال. / طالب الإبراهيمي: آثار الإبراهيمي، ج 1، ص 366 / نوبهض: معجم، 114-115. وأحمد مزوروش: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، كتيب الحكمة،

ج 1، ص 316 / <https://ar.wikipedia.org/>

- محمد الغسيري [26]¹ :

- الشريف الصائغي [27] :

- محمد التجار [28] :

- عبد العلي الأخضرى [29] :

- عمر شكيري [30] :

- عبد القادر الفرجاني [31] :

- عبد الله بو القرون [32] :

- أحمد غوالمي [33] :

- محمود بوصبيعة [34] :

¹ - محمد يكن الغسيري [1332هـ/1915م - 1394هـ/1974م]، ولد بفسيرة، دائرة أريس ولاية باتنة، التحق بزاوية الشيخ أحمد بن الصادق بأولاد ميمون سنة 1925، حيث أتم حفظ القرآن سنة 1927، ثم التحق بمدرسة الإخاء عند الشيخ خير الدين بسكرة، ومنها انضم إلى تلاميذ ابن باديس بقسنطينة، ولم يكبد ينهي دراسته في الجامع الأخضر بقسنطينة سنة 1936، حتى عين في الجمعية في مدرسة باتنة سنة 1937، لم يمكث هناك طويلا وعاد إلى قسنطينة مدرسا. وكان يتوب عن الشيخ بن باديس في حال غيابه عن التدريس بالجامع الأخضر. انخرط في أوائل أربعينيات القرن الماضي في الكشافة الإسلامية، وكان مرشدا لفوج الإقبال بقسنطينة لعدة سنوات، وبعد استشهاد محمد بوراس، مؤسس الكشافة الإسلامية، انقسمت الحركة إلى قسمين تنظيميين، حيث أصبح محمد يكن الغسيري مرشدا عاما وعضوا فعالا في قيادتها العامة بالعاصمة. سجن بعد أحداث ماي 1945 بقسنطينة، ثم نقل إلى سجون أخرى. وعند صدور العفو بحقه؛ وضع رهن الإقامة الجبرية، ولم يطلق مسراحه إلا أواخر مارس 1946. وبعد عودته إلى قسنطينة تم تعيينه ككاتب في لجنة التعليم العليا، كما عين مفتش عام لجميع مدارس الجمعية على مستوى الوطن إلى غاية سنة 1949، وهي السنة التي عين فيها مندوبا خاصا لزيارة الطلبة الجزائريين وتفقد أحوالهم في تونس ومصر. التحق بصفوف الثورة التحريرية حين اندلاعها، بالتعليم وتعبئة الجماهير والتمويل والسلاح. وفي سنة 1956، وبعد اغتيال الشهيد رضا حوجو ورفاقه؛ غادر محمد الغسيري قسنطينة فارا بحياته، لأنه كان ضمن القائمة المقرر اغتيالها - أحيرهم بذلك الحامي باحمد الذي كان صديق والي المدينة، وطلب منه أن يغادروا المدينة ويلتحقوا بالجيال - فالتحق بالعاصمة ومنها سافر إلى فرنسا، ثم سويسرا فالقاهرة، وأمر من مسؤولي الجبهة يخرج من مصر متجها إلى موريتانيا حيث كتب ونشر وحاضر وعزف بالثورة الجزائرية، وفتح السياسة فرنسية. بعد الاستقلال عين سفيرا للجزائر في المملكة السعودية إلى غاية 1970، ثم سفيرا بالكويت إلى غاية 1974، حيث دعاه الرئيس الراحل هواري بومدين للعودة إلى أرض الوطن من أجل تكليفه بوزارة التربية الوطنية، لكن القضاء والتقدير أراد له غير ذلك، وتوفي في 24 جويلية 1974 ودفن بمقبرة العالية بالجزائر العاصمة. / السبي معلم: محمد

الغسيري المدوناسمي الرحلة: <http://batnainfo.com/Ar>

- أحمد الجموعي [35]:

- محمد الصالح رمضان [36]:

- أحمد حماني [37]¹:

- علي مرحوم [38]:

- صالح الجموعي [39]:

- صالح بوذراع [40]:

- علي جاو [41]:

ومن المعلمات الرائدات عام 1947 في مدرسة التربية والتعليم وفروعها بقسنطينة²:

- حورية عربية [42]:

- عقيلة كحلوش [43]:

- نعاة ونيسي [44]:

¹ - أحمد حماني [1330هـ/1915م - 1419هـ/1998م]: هو أحمد بن محمد بن مسعود بن محمد حماني، ولد في قرية الميلية، أحد القران والعلوم الأولية. نرح إلى قسنطينة سنة 1930 فاتم حفظ القرآن بكتاب سيدي أحمد النجار ثم انخرط في سلك طلبة الإمام ابن باديس ما بين [أكتوبر 1931 - سبتمبر 1934]. ليلتحق مباشرة بجامع الزيتونة، ودامت دراسته هناك مدة عشر سنوات إلى حين حصوله على شهادة العلية. عمل وكتب بمجلة "الشهاب"، ثم بمجريدة "المنار"، وتسلم مسؤوليات في جمعية النساء. شارك في الصحافة التونسية والجزائرية منذ سنة 1937، وانتخب أميناً عاماً في جمعية الطلبة الجزائريين بتونس بجانب الشاذلي المكي. رجع إلى الجزائر في 30 أبريل 1944م، فنزل بقسنطينة وابتدأ العمل في مدرسة التربية والتعليم، وعين مديراً علمياً بها. وبعد إنشاء التعليم الثانوي بها عين مسؤولاً على قسم الذكور. ثم ساهم في التنظيم والتدريس بمعهد ابن باديس. وفي سنة 1955 أسندت إليه رئاسة لجنة التعليم العليا. انخرط في سلك الثورة منذ بدايتها، وكان العمل سراً، وجمعت دار الطلبة من المراكز الأساسية للثورة، ودام هذا إلى يوم ألقى عليه القبض في 11 أوت 1957 بالعاصمة. وأغلقت دار الطلبة، واحتلتها العدو وجعلها مركزاً للتعذيب والاعتقال إلى 1962م. عمل مدرساً داخل المسجون. وكاد الاعتقال يناله عام 1960. بعد الاستقلال صار مفتشاً العام للتعليم العربي، ثم أستاذاً بمعهد الدراسة العربية بجامعة الجزائر (من 1962 إلى 1972م). ثم رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى. توفي رحمه الله سنة 1998م. انظر: أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ج2، ص285-306

² - وفي مدرسة الفلاح بهران: فاطمة طياب، وأمنة زعتان، وحورية خيبر، وفي مدرسة بلكور، حي الأمير عبد القادر الأتنة فاتحة فيو، وفي مدرسة ريسو بالعاصمة، زينب بوعامر، وفي مدرسة آقبو، حرمة الفاضلة / مولود عويمر: نساء في رحاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، موقع الإمام ابن باديس: <http://www.binbadis.net>

- زينب بوعامر [45]:

- عتيقة قارة [46]:

أما بالمناطق المجاورة فسنتكفي في هذه العجالة ببعض منها فقط وهي الواردة

في الجدول التالي¹:

المدرسة	أسماء المعلمين
مدرسة بيزو (ديدوش مراد حالياً)	يوسف القلي [47]
مدرسة السمندر (زيغود يوسف حالياً)	أبو القاسم أبو ديبزة [48]
مدرسة القرام	علي المزهودي [49]
مدرسة ميلة	محمد الصالح بن الطيار [50] أحمد بن الأعر [51] إبراهيم مرزق [52] محمود العمراني [53] السعيد بن المعلم [54]
مدرسة الميلية	عمار القلي [55] الحسين عتيق [56] أبو الأنوار أبو شعيب [57]
مدرسة شاطودان (شلفوم العيد حالياً)	أحمد رضا حوحو الحسين بن الميلي [58] محمد الشريف أبو عكاز [59] عبد العزيز بوزوزو [60] مسعود صالح [61]
مدرسة أم البواقي	محمود شيبان [62] حسن محفوف [63] محمد بن أبي الضياف [64]
مدرسة عزابة	أبو القاسم صدقي البعلاوي [65]
مدرسة قاسطونقيل (صالح بوشعور حالياً)	الشيخ محريف [66]

¹ - البصائر 2: ص 1، ح 10، الاثني 28 ذي القعدة 1366هـ / 13 أكتوبر 1947م، ص 6-7

2- معهد ابن باديس بقسنطينة وعلمائه:

استأنف علماء الجمعية - بقيادة الشيخ الإبراهيمي - نشاطهم ونظامهم بعزيمة جبارة؛ مباشرة بعد خروجهم من المعتقلات إثر مجازر 8 ماي الأليمة. فبعثت جريدة "البصائر" من جديد؛ بعد أن توقفت أثناء الحرب. ثم أسسوا معهدا ثانويا بقسنطينة. أطلق عليه اسم الرئيس الأول عبد الحميد ابن باديس، وقد أشرف على تسييره وتأطيره بكل حكمة وبراعة شيوخ أكفاء منهم:

- العربي التبسي: مديراً ومدرسا منذ تأسيسه إلى سنة 1956م
- محمد خير الدين¹ [67]: نائبا ومدرسا
- أحمد رضا جوجو: كاتباً عاماً، ومدرسا
- أحمد بوشمال [68]²: أشرف على الإدارة المالية والاقتصادية

¹ - هو محمد بن خير الدين بن محمد أبي جملين بن خير الدين بن الحاج محمد [1330هـ/1902م] - 1414هـ/1993]، ولد بقرقر بسكرة، تعلم بمسقط رأسه، ثم بقسنطينة على الشيخ الطاهر بن زقولة، ثم رحل إلى تونس سنة 1918م، ليتخرج من جامع الزيتونة سنة 1925م، عاد بعدها إلى بسكرة ليتخذها مركزاً لنشاطه الإصلاحي بالتنسيق مع رواد الإصلاح بالخزائر وعلى رأسهم الشيخ ابن بايس، فعمل بالتدريس في المدارس الحرة، والإمامة والوعظ والإرشاد في المساجد، إلى أن تأسست جمعية العلماء فأسندت له فيها مهام أمين ماليتها، كان من أوائل الذين أنشأوا معهد عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطينة رفقة التبسي وجوجو، كان من السابقين للانضمام لصفوف الثورة عند اندلاعها، فأسندت إليه مهام ممثل جبهة التحرير الوطني في المغرب الشقيق، وفي سنة 1958م عين عضواً في أول مجلس للثورة الجزائرية، بعد الاستقلال شغل مهمة نائب في المجلس الوطني الشعبي، ثم انقطع عن الحياة العملية والسياسية واعتكف بعدها في بيته يسترجع ذكرياته التي سجلها في مؤلف من جزأين سماه "مذكرات" تولى بدعاصمة ودفن بمسقط رأسه. محمد خير الدين: مذكرات، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دتا، ج1: ص70-88

² - هو أحمد بن اسماعيل بو شمال، ولد بقسنطينة سنة 1317هـ/1899م ونشأ بها وحفظ القرآن في جامع سيدي يامين - بين سيدي جليس ورجبة الصوف - كان من تلاميذ ابن باديس الأوائل، تولى رئاسة (جمعية التربية والتعليم) عند وفاة ابن باديس، وبقي على ذلك حتى أوقفها الاحتلال عام 1957م، من مؤسسي معهد ابن باديس، وسخر مطبعته لخدمة الثورة، اعتقله الاستعمار ثلاث مرات آخرها كان في 13 سبتمبر 1958م، ثم انقطعت أخباره عن العامة والخاصة. أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ج1، ص112-115

وحيث لتتدرج به أكفأ العلماء منهم مشايخ¹:

-- عباس بن الشيخ الحسين² [69]

-- أحمد حسين [70]

-- نعيم التميمي [71]

-- عبد المجيد حيرش

-- أحمد حماني

-- عبد الرحمان شيبان [72]³

1- حماني: صراع السنة، ج2، ص269-270

2- هو عباس بن إسماعيل بن دحمان بن علاوة بن الشيخ الحسين [1330هـ/1912م - 1409هـ/1989م]، ولد في زاوية الشيخ الحسين القشبي قرب ميله، حفظ القرآن وأخذ علومه الأولى على يدي مشايخ الزاوية، سافر مع أخيه الشيخ مرزوق (الذي أصبح فيما بعد إماما للمسجد الكبير بقسنطينة) إلى جامع الزيتونة. وما لبث أن انتقل إلى جامع القرويين بفاس، وتخرج منه بدرجة العالمية. انخرط إثر عودته من المغرب في صفوف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وسريعا ما أصبح عضوا للمكتبها لثالثه. عند اندلاع الثورة الجزائرية والحكم عنه ورفاقه بالإعدام من طرف السلطات الاستعمارية سافر متخفيا مع الأستاذ أحمد توفيق المدني إلى فرنسا، ومنها إلى سويسرا، ومن ثم إلى القاهرة؛ حيث شارك في تأسيس الحكومة الجزائرية المؤقتة برئاسة فرحات عباس. ثم ذهب الشيخ عباس ممثلا لهذه الحكومة وللثورة الجزائرية في المملكة العربية السعودية. بعد الاستقلال عين سفيرا للجزائر في المملكة العربية السعودية، لكنه ما لبث أن استقال. عُين بعد ذلك أول رئيس مكتب مقاطعة إسرائيل في الجامعة العربية. وعين أول رئيس للمجلس الإسلامي الأعلى الحديث التكوين بالجزائر. وبعد محاولات للإصلاح لم توافق عليها الحكومة الجزائرية، قدم استقالته. ثم عين سفيرا في إندونيسيا ولكنه رفض الذهاب إليها لاعتقاده أنه لا يستطيع خدمة بلده إذ هو لا يحسن اللغة الإندونيسية ولا الإنجليزية، وفضل البقاء في وطنه مبتعلا عن كل عمل رسمي مدة ثلاث عشرة سنة، مكتبيا بالتطوع كخطيب للجمعية بالجامع الكبير بالجزائر العاصمة. وفي سنة 1982م وافق على تنصيبه عميدا للمعهد الإسلامي وإماما لمسجد باريس الكبير، خلفا لحمزة أبو بكر وبقي هناك إلى أن وافته أنية في 3 ماي سنة 1989م/ <https://ar.wikipedia.org/wiki/1989م>

3- عبد الرحمن بن محمد البشير شيبان [1336هـ/1918م - 1432هـ/2011م]، ولد ببلدة الشرفة، دائرة مشكالة بالبويرة. تعلم القرآن وتلقى مبادئ العلوم بمسقط رأسه وبالزاوية السحنونية بالزاوية، وبني وُغليستي في بجاية. رحل إلى الزيتونة سنة 1938. ونال شهادة التحصيل في العلوم سنة 1947م، وإلى جانب ذلك كان يقوم بالنشاط الثقافي، وترأس جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين بفرنس. بعد التخرج عين للتعليم بمعهد الإمام عبد الحميد بن باديس بقسنطينة سنة 1948. حيث أُلحقت من أساتذة الطبقة الأولى بالمعهد 1954م، بقرار من المجلس الإداري لجمعية العلماء، إلى جانب الأساتذة: الشيخ عبد التميمي، والشيخ أحمد حماني، والشيخ عبد المجيد حيرش، والشيخ عبد القادر الباجوري، وغيرهم. وهو من أعضاء لجنة تعليم العمياء المكلفة بإعداد مناهج التربية والتعليم، والمكتب المدرسية بمدارس الجمعية المنتشرة في أرجاء

القطن الجزائري. التحق بالثورة مع اندلاعها، وعمل في ميدان الإعلام التابع لها. وفي عهد الاستقلال؛ شغل عدة مناصب منها؛ عضو في المجلس الوطني التأسيسي. ومن أعضاء اللجنة المكلفة بإعداد دستور. ومفتشاً عاماً للغة والأدب العربي، والتربية الإسلامية في مؤسسات التعليم الثانوي الرسمي. تولى رئاسة اللجنة الوطنية للمكلفة بالبحث التربوي التطبيقي والتأليف المدرسي؛ للمرحلتين: الإعدادية والثانوية بوزارة التربية الوطنية، حيث أشرف على تأليف نحو (20) كتاباً في القراءة، والأدب، والنقد، والتراجم، والبلاغة، والعروض؛ والتربية الإسلامية. وعضو في المجلس الإسلامي الأعلى. ووزيراً لمسئورن الدينية لمدة ست سنوات (1980 - 1986) حيث أشرف على تنظيم (6) ملتقيات سنوية للفكر الإسلامي. من المؤسسين لمجمع الفقه الإسلامي الدولي ممثلاً للجزائر حتى الآن. ساهم مساهمة فعالة في تأسيس معهد أصول الدين بالعاصمة (كلية العلوم الإسلامية حايا). ويُنقل جهداً في افتتاح "جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية" بقسنطينة، وتعيين السعيبة للمصلح الإسلامي المرحوم الشيخ محمد الغزالي رئيساً لمجلسها العلمي. طبع آثار إمام النهضة الجزائرية المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس، وفي طليعتها: (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ومجالس التذكير من حديث البشير النذير). شجع قراءة صحيح البخاري، رواية ودراسة، في مساجد العاصمة وفي أرجاء الجزائر. رأس بعثت الحج الجزائرية إلى الأراضي المقدسة (1980-1986). وبعد التقاعد؛ ساهم في تجديد نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ 1991. ودلوم على إلقاء دروس دينية في المساجد، والمراكز الثقافية في العاصمة وغيرها. وتولى رئاسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وإدارة جريدة البصائر الأسبوعية منذ سنة 1999 م. استرجع في حائقي 2002 (نادي الترقى) التاريخي فاستأنف نشاطاته بمحاضرات أسبوعية. بعث تراث جمعية العلماء لممثل في جرائدها. أسس وأشرف على شعب جمعية العلماء في مختلف الولايات. توفي في 12 رمضان 1432 هـ/ 12 أوت 2011 ودفن بمقبرة سيدي عمار شريف ببلدية الشرفة بالبويرة/ البصائر الحديثة: السيرة الذاتية لشيخ عبد الرحمن شبان، الاثنين 09 - 15 شعبان 1437 هـ/ 16 - 22 ماي 2016 العدد: 808

1- من بحري جامع الزيتونة؛ اغتاله الاستعمار الفاشم أواخر أوت 1957م. وصفه الشيخ حماني: بأنه من العلماء الأندلس. صراع بين السنة والبدعة، ج2، ص 270

2- هو علي الساسي [1344هـ/1926م]، ولد ببلدة كوراي بتيسة، حفظ القرآن ببلدته وما جاورها، أكمل تعليمه بـرسة إلى سنة 1946، ثم رحل إلى الزيتونة وعند حصوله على شهادة التطوع سنة 1952م عاد إلى موطنه وانظم إلى سلك أساتذة معهد ابن باديس إلى غاية 1957م، حين أُلقي عليه القبض مع جمع معلمي الجمعية في قسنطينة، ونقلوا إلى سجن الحامة (حامة بوزيان حالياً)، فقصوا فيه 28 يوماً ثم أطلق سراحهم. ثم قبض عليه مرة أخرى سنة 1959م، وقد شغل منصب القضاء في لمنطقة الرابعة بولاية أم البواقي إلى غاية الاستقلال. بعد الاستقلال درس بـثانوية رنسا حوجو بقسنطينة، إلى جانب الإمامة بعدة مساجد بالمدينة، ثم عين مفتشاً للشؤون الدينية بأم البواقي، إلى أن أحول عن التقاعد سنة 1959م. أنظر: محمد مسعي: دور أعلام منطقة أم البواقي في الحركة الإصلاحية والثورة التحريرية، ص57

- محمد الزاهي [75]¹
- مصطفى بوغابة [76]²
- عبد اللطيف سلطاني [77]
- عبد العزيز قروف [78]
- محمد الحفناوي [79]
- الطاهر سعدي [80]:
- عبد القادر الياجوري [81]
- محمد بن مبارك الميلي [82]
- عبد الرحمن غمراني [83]
- سعيد الزموشي
- معمر حتي [84]
- عمر جفري [85]

¹ - هو علي الساسي [1344هـ/1926م]، ولد ببلدة كوراي ببسة، حفظ القرآن ببلدته وما جاورها، أكمل تعليمه ببسة إلى سنة 1946، ثم رحل إلى الزيتونة وعند حصوله على شهادة التطويح سنة 1952م عاد إلى موطنه. وانظم إلى سلك أماندة معهد ابن باديس إلى غاية 1957م، حين ألقي عليه القبض مع جميع معلمي الجمعية في فسطنطينة، ونقلوا إلى عتشد الحامة(حامة بوزيان حالياً)، فقتضوا فيه 28 يوماً ثم أطلق سراحهم. ثم قبض عليه مرة أخرى سنة 1959م، وقد شغل منصب القضاء في المنطقة الرابعة بولاية أم البواقي إلى غاية الاستقلال. بعد الاستقلال درس بثانوية رضا حوجو بفسطنطينة، إلى جانب الإمامة بعدة مساجد بالمدينة، ثم عين مفتشاً للشؤون الدينية بأم البواقي، إلى أن أحيل على التقاعد سنة 1989م. /انظر: محمد سعدي: دور أعلام منطقة أم البواقي في الحركة الإصلاحية والثورة التحريرية، ص57.

² - هو مصطفى بوغابة [1342هـ/1924]: ولد بفسطنطينة ونشأ وترعرع بحي البارود "بودريار" سابقاً، تعلم القرآن بحي المنية قبل أن يلتحق بالثبوية والتعريب، بوساصة من والد الشهيد صالح بودراغ الحاج أحمد المعروف بـ "ابن جيمود" الذي أفتح والده بتعليمه مع تلاميذ الشيخ ابن باديس، فكان له الحظ في التعلم على يد الأستاذ محمد بلعابد (سماني)، قال عنه بكل فخر: أنه أول معلم صعّد الجليل بفسطنطينة. تابع دراسته بجامع الزيتونة ما بين سنتي (1947م و1951م) وبعد رجوعه للوطن عين مدرساً بولاية سطيف، ثم معلماً في معهد التربية والتعليم، ثم استدعي سنة 1953م للتدريس بمعهد ابن باديس حتى سنة 1956م، ليلتحق بصغوف التوار. / جريدة النصر الصادرة في 2013/03/09م

- أحمد بن ذياب [86]

- المولود النجار [87]

بجهود هؤلاء العلماء العاملين المجاهدين صار المعهد يستقطب ثلة كبيرة من شباب الوطن، ثم صار فرعاً للجامع الزيتونة، واعترف بشهادته وكفاءة طلابه الكثير من الجامعات العربية. وقد عاش معهد ابن باديس بقسنطينة عشر سنوات فقط ما بين (1947م و1957م)، وعلى الرغم من أنّ هذه المدة كانت وجيزة في سنواتها؛ إلا أنّها كانت كبيرة جداً في نتائجها، وعظيمة في عطائها وثمارها، فقد ساهم المعهد مساهمة معتبرة في تخريج رجال تحملوا تبعات الثورة المسلحة بكل صدق وإيمان، فكان منهم القائد، والجندي، والفدائي. كما صار المعهد بعد اندلاع الثورة المباركة (معتقلاً من معاقليها ومركزاً من أهم مراكزها حتى عام 1957م فاحتلته فرنسا، وشردت طلابه ونهبت مكتبته، وجعلته مركزاً للاستنطاق والتعذيب)¹. أما بعد استرجاع الحرية المنشودة فقد ساهم طلاب المعهد (في إعادة بناء هذا الوطن، كقياديين أو إطارات سامية في الدولة، فكان منهم الوزير والسفير، والوالي والمحافظ والقائد العسكري والأستاذ ومدير الجامعة...)².

رابعاً- النوادي العلمية والاحتفالات العصرية وأهميتها في الحركة التعليمية الإصلاحية

1- النوادي العلمية ومكانتها في الحركة التعليمية الإصلاحية

كانت الطريقة التي بنت عليها الجمعية أصول النهضة العلمية؛ هي الجمع بين التربية والتعليم، لأن العلم الخالي من التربية ضرره أكثر من نفعه، وما أصيب المسلمون في عزّهم إلا يوم فارقت التربية الصالحة العلم، وكم شقي أصحاب العلم الجردّ بالعلم وأشقوا أمهم، والسعادة غاية لا يسلك إليها طريق العلم وحده من غير

1- حماني: صراخ السنة، ج2، ص269-270

2- الإبراهيمي: آثار الإبراهيمي، ج1، ص12

الاجتماعية التربوية، وأن الجسع بين التربية والتعليم هو وظيفة النبوة التي بينها الوحي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُزَكِّكُمُ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾².

فالمقصود الأول لجمعية العلماء هو التربية والتعليم، وطبقات الأمة ثلاث متفاوتة الشعور والإدراك، ولكنها مشتركة في القابلية والاستعداد وهي: الشيوخ والشباب والأطفال، فرأت الجمعية أن تصرف عنايتها على الطبقات الثلاث في آن واحد كل طبقة على قدر استعدادها، ولكن أين تلتقي بهذه الطبقات؟ فإذا التقت بالشيوخ والكنترول ورواد المساجد في المساجد، والتقت بالأطفال في المدارس التي شيدتها للالتقاء بهم فيها، فأين تلتقي بالشبان الذين فاتتهم المدرسة والمسجد معاً؟

فأنشأت مشروع "النوادي" لتكون وسطاً طبيعياً بين المساجد والمدارس، وتلتقي فيها بالشبان الذين هم وسط طبيعي بين الشيوخ والأطفال. فأنشأت الجمعية في مدة قصيرة عشرات النوادي في المدن والقرى، ودعت إليها الشبان فاستجابوا وأقبلوا عليها لأنها أقرب إلى أمزجتهم ولأن فيها شيئاً من التسلية والمرح، ولأن فيها قليلاً من جو المقهى... وفي ظل هذه الجواذب التقت الجمعية بالشبان وقامت بحق الله فيهم فضمت لهم فيها محاضرات تحذب بها أخلاقهم وتعزفهم بأنفسهم وقيمتهم ومنزلتهم في الأمة وتجمع قوتهم، ودروساً تعلمهم بما دينهم ولغتهم وتاريخهم، فكان لمشروع "النوادي" آثار في الشبان تساوي آثار المدرسة في الأطفال وتفوق آثار المساجد في الشيوخ والكهول، ومن النوادي خرج الشبان إلى المسجد يؤدون حق الله، وإلى بيوتهم العمل يؤدون واجبات المجتمع.

1- المصدر نفسه، 4، ص172-180

2- سورة البقرة الآية: 151

2- الاحتفالات العصرية وأهميتها في الحركة التعليمية الإصلاحية:

يبين الشيخ الإبراهيمي موقف الجمعية من الاحتفالات العصرية؛ على اعتبارها دروس تطبيقية للغالبية العظمى من المجتمع الذين لم تتح لهم فرصة التمدرس بأي شكل من الأشكال، فمن الرحمة بهذا الصنف العظيم، (ومن الحكمة في استصلاحه وتربيته؛ أن يوسع له من هذه الاحتفالات، ويكثر له منها وأن تبتكر له المناسبات لإقامتها)¹. لأنها ذات أهمية كبيرة من الناحية الفردية والاجتماعية، والدينية والثقافية، فهي (مجامع مفيدة من جميع جهاتها. فهي بالنظر العام أدوات تعارف وتواصل وربط بين من لم تنهياً لهم أسباب الاجتماع إلا في هذه الاحتفالات. وأسواق بضائعها الخطب والمراجعات القولية، وأرباحها الإيجابية آداب الاجتماع وتلاحح الأفكار، واقتباس الكلمات واستيقاظ الهمم. واستعمال الآراء وانتشال التفكير من المستوى العامي الغث وصلل الأذهان،...)². أما بالنسبة لأهل الدعوة والإصلاح فهي ميادين خصبة للدعاية (يجدون فيها متسعاً رحباً لنشر آرائهم بدون كلفة وبدون نفقة؛ لأنها تحشد لهم طبقات من الناس ما كانوا ليستطيعوا جمعها. وهي للمرشدين والمرتبين الاجتماعيين فرص لبث الإرشاد بين الجمهور وتوجيهه للخير والمنفعة. وهي للخطباء وأصحاب اللسن ذرائع تمرير وارتياض على الكلام وتوسع في وجوه القول وتمرس بمكافحة الجموع)³. وعلى هؤلاء الخطباء فقط يتوقف صلاح الإحتفال أو فساده، فلهم أن يجعلوا منه متراً للمنافع والخيرات، وإلا كان (زرده متمدنة مظلومة في اسمها، فوجودهم هو الفارق الجوهرى بين مسمى "احتفال" ومسمى "زرده")⁴.

خامساً/ علماء حولوا الميادين العمومية والأسواق إلى مراكز تعليمية بعمالة قسنطينة

¹ - الشيخ الإبراهيمي: آثار الشيخ الإبراهيمي، ج1، ص328_337

² - المصدر نفسه

³ - المصدر نفسه

⁴ - المصدر نفسه

1- وفود العلماء المعتمدة للتعليم الصيفي¹ بعمالة قسنطينة:

سنت جمعية العلماء سنة حميدة - ربما لم تُسبق إلى هذا التنظيم - بدأتها قبل الحرب العالمية الثانية، حيث خصصت جزء من أعمالها التعليمية للمحاضرات والدروس العامة؛ في المساجد الحرة والنوادي والقاعات العمومية والميادين الجامعة والأسواق بجميع القطر. وكلفت لتحقيق ذلك؛ طائفة من أقدر علمائها العاملين بالطواف في مدن القطر وقراه وسهوله وجباله؛ خلال شهري أوت وسبتمبر من كل عام، يزرعون الحماس بواسطة هذه المحاضرات والدروس والمواعظ، ويثبتون الحقائق، ويثبتون العزائم، ويحركون الهمم، ويضربون الأمثال، ويربطون للأمة حاضرها بماضيها، ويذكرونها بما نسيته من أجداد سلفها، ويهيئونها لنهضة شاملة في العلم والسياسة والاقتصاد، وكانت هذه المحاضرات هي البذر الأول لهذه المبادئ في الجزائر، وتحريك الأفكار لفهم الحياة على حقيقتها. وقد استغرق هذا النظام التعليمي سبع سنوات - قطعت الحرب العالمية الثانية ثم عاد بعد نهايتها -.

كان عمل الوفود (على نظام بديع، وترتيب محكم، وتقسيم على البلدان... روعيت فيه الكفاءات والمناسبات واختلاف الطباع والجهات)². كل ذلك وفق رزنامة محددة بالمكان والزمان والأسماء المكلفة بالعمل، وهذا أمر موثق في أرشيف الجمعية. وهذه عينة تتعلق بوفود شهري أوت وسبتمبر 1954م. حيث عين لعمالة قسنطينة وحدها قرابة 40 عالماً³؛ نذكر منهم:

¹ - البصائر: 2، ص 1، ع 4، أوت 1947م، ص 7 / ع 10، أكتوبر 1947م، ص 5

² - البصائر: 2، ع 4، الجمعة، 11 ذو القعدة 1366هـ / 26 سبتمبر 1947م، ص 7

³ - البصائر: ص 7، ع 282، الجمعة 28 ذو الحجة 1373هـ / 27 أوت 1954م، ص 3 / وخير الدين: مذكرات،

ج 2، ص 90-93

أماكن التدريس	أسماء العلماء
وسط مدينة قسنطينة - سيدي مبروك - رأس الواد - الذابذة - المنية - جنان الثشينة - جبل الوحش	أحمد حماني
الحمامة - الخروب - روفك (ابن زياد حاليًا) - أقطار العيش - بيزو (ديديوش مراد حاليًا) - سيقوس	محمد كحلوش [88] ويوسف القلي
عين البيضاء - أم البواقي - مسكيانة - صدرانة - أمداروش - قصر الصبيحي	معمار حقي ومحمد بن المكي [89]
خنشلة - بيار - قايس - بوجمامة - الزوي - النمامشة - العمامرة	إبراهيم بن عمار [90]
أورلس ودائرته	أحمد السرحاني [91]
تامنوكة - واد الزناتي - رونية - قالة - رأس العقبة - عين عبيد - رقادة - الركينة	عبد الحفيظ الجنان ومحمد بن المكي
سكيكدة - عزابة - سان شال (جمال رمضان) - الخروش - سيدي مزغيش مجاز الدشيش - القل - السمنديو (زيغود يوسف) - قاسطونفيل (صالح بوشعور حاليًا) - الاربعاء - أم الطوب - تامالوس - عين قشرة - عين بوزيان	علي المغربي [92]
سطيف - عموشة - العين لكبيزة - عين أزال - عين وسان - أولاد حجاز - أويسية - خراطة - قصر الطير	نعيم النعيمي
العلمة - جميلة - بيضة - برج - بني عزيز - سيلاق - البلاعة	علي مرحوم
ميلة - القرام - سيدي مروان - عين كريمة (مسعود بوجري) - أولاد صالح - عين الثين	محمد بن مبارك الميلي لمولود النجار
عين مليلة - عين كرشة - عين الفكرون - لافاسور - عين ياقوت	الأمين سلطاني [93] محمد الإبراهيمي [94]
باتنة - بريكة - مروانة - المغير - انقاوس - رأس العين - عين توتة - نجمامت - تازولت	إشاهر الخركاني [95] أحمد السعودي [96]
عنابة - مندولي - القحوصية - بونيس - بلاندال - لقانة - عين العسل - بارال - بوشقوف - الباردة - مرداس - بوحجار - عين أم الرخا - تاكوش	السلاوي بو الأزرد [97] أحمد بن ذياب [98]
سوق احراس - تاورة والضواحي - الأعراش	أحمد بروج [99]

محمد بن العوادى [100]	
عناصر حراث [101]	تيسة - الشريعة - الكويف - الوزرة - العوينات - مرسط - بكس - المرنج - واد الكبريت
العقود فارة [102]	شاطودان (شلغوم العيد حالياً) - تلاغمة - تاجنات - العثمانية - السمارة - عين الملوك
محمد الطاهر الجيجلي [104]	مدينة جيجل - المنصورة - تاكسنة - الطلاير - الشقفة - الجناح - أولاد علال - العوارة - الميلية - سوق الجمعة - بني فرقان

وعند نهاية هذا النظام التعليمي المثمر؛ تقدم (الوفود تقاريرها الكاملة، واصفة للاستقبالات الفخمة من الأمة، مسجلة للدروس والخطب، شارحة لرغبة الأمة في العلم والتعليم، مبينة ما يجب أن تهتم به الجمعية من الجهات المحرومة من التعليم، حاملة للجمعية تحيات الأمة وآمالها)¹. وهذا من تمام وكمال هذه السنة الحميدة المثمرة.

2- وفود الوعاظ لإحياء شهر رمضان بعمالة قسنطينة:

من الأنشطة التعليمية السنوية التي سلكتها الجمعية في سبيل تبليغ الدين انصحيح، إحياء شهر رمضان المبارك بالدروس المكتفة، والمواعظ المؤثرة في النفوس والعقول؛ التي يقوم بها علماء الجمعية الذين تنتدبهم للقيام بهذه المهمة في جميع مراكز الجمعية ومدارسها ومساجدها العامرة بجميع القطر، في إطار عملية محكمة التنظيم والانتقاء. وقد اخترت من قوائم وفود الوعظ عينة العلماء الذين خصصوا لعمالة قسنطينة (ما بين 1953 و1955م):²

¹ - البصائر: 2، ص 1، ع 10، الاثنين 28 ذي القعدة 1366هـ / 13 أكتوبر 1947م، ص 6

² - غير الدين: مذكرات، ج 2، ص 94، 98 / والبصائر: 2، ص 7، ع 214، الجمعة 22 شعبان 1374هـ / 15

فبراير 1955م ص 6 / والبصائر: 2، ص 6، ع 228، الجمعة 24 شعبان 1372هـ / 8 ماي 1953م ص 3

المنطقة المكلف بها	أسماء العلماء
الجامع الكبير بقسنطينة	محمد خير الدين
معهد ابن باديس	عبد القادر الياحوري - سعيد زموشي
الجامع الاخضر	العباس بن الشيخ الحسين
سيدي مبروك	عبد الرحمان شيبان - علي الساسي
التربية والتعليم قسنطينة	الصادق حماني
النادي وباردو	عبد الرحمان شيبان - محمد الملي - عمر جفري
سككدة	محمد الغسيري
تبسة	العربي النبسي
العلمة	أحمد بن ذياب
شاطودان (شلعوم العيد حالياً)	الصفير قارة
بيزو (ديدوش مراد حالياً)	يوسف القلي
سيدي مرغيش	الأخضر عنواني الباديسي [105]
تازولت	أحمد زوز [106]
قاسطونقيل (صالح بوشعور حالياً)	حسن الأحمور [107]
ميلة القديمة	أحمد بوعروج [108]
النادي والمسجد بميلة	محمد بن مبارك الملي - محمد الصالح الضيار
القرارم	المولود النجار
تلاغمة	المولود السعدوني [109]
عزاية	مرزوق بن الشيخ الحسين [110]
سيدي مروان	بنقاسم مزهود [111]
الميلية	محمد الصالح بن عتيق [112]
جيجل	محمد الطاهر الجيجلي
برج بوعريريج	محمد الطاهر التليلي [113]
باتنة	الطاهر الحركاتي
خنشلة النادي	أبو القاسم الجبالي [114]

العربي السعدوني [115]	قلعة بني عباس
محمد الأحباسي [116]	زيامة المنصورية
عني هوام [117]	اعوينات
الأنكحل شرفة [118]	أغيل علي

سادساً- علماء حولوا السجون والمعتقلات إلى مراكز تعليمية:

في أثناء بحثي عن تاريخ الحركة الإصلاحية ورجالها، تبين لي أن أكثر رجالها قد داق مرارة السجون والمعتقلات، وقد استوففتني بعض الشهادات الحية التي تروي يوميات المعتقلين وأعمالهم التعليمية على وجه الخصوص، حتى أنها تجاوزت نحو الأمية إلى تنظيم حركة تعليمية متكاملة (بأفواج مدرسية، ومناهج ومقررات، واختبارات،...)، ويكفيها في بيان هذه الجهود التعليمية داخل المعتقلات؛ إيراد بعض الشهادات الحية لبعض علماء الإصلاح الذين سجلوا تجربتهم وتجارب إخوانهم التعليمية داخل سجون الاحتلال. وقد اخترنا من بين تلك الشهادات ما صدر عن بعض تلاميذ الشيخ ابن باديس؛ ونخص منهم الشيخان: محمد الصالح بن عتيق، وأحمد حماني الميللي.

1- شهادات حية للشيخ محمد الصالح بن عتيق¹:

الذي مكث بسجون الاحتلال الغاصب ما بين [مارس 1956م - أبريل 1962م]، انتقل خلالها بين العديد من السجون والمعتقلات عند حديثه عن تجربته داخل المعتقلات أو "مراكز التصفية"، أو "محاكم التفتيش" - كما يسميها؛ أكد أنّ معلمي المدارس الحرة كانوا ضمن الصنف الأول الذي يادر الاحتلال إلى اعتقاله في بداية الثورة حيث (لم يكن في حاجة إلى أن يثبت في شأنه أي عمل قام به، بل

¹ ابن عتيق: أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية بالجزائر، منشورات دحلب، الجزائر،

تكفي إدانته أنه معلما بإحدى المدارس الحرة أو المشاركة في تأسيسها أو منتصيا للحزب الوطني).

وفي حديثه عن أعمال المعتقلين داخل السجون فيقول: «يتصدر التعليم أهم أعمال المعتقلين، ويأخذ جزءا كبيرا من أوقاتهم وعملاً فراغاً واسعاً من حياتهم اليومية، والإقبال عليه يختلف قوة وضعفاً حسب الظروف المتعاقبة والأوضاع المختلفة، ويتناول: في الطليعة تعليم اللغة العربية: من نحو وصرف وبلاغة وأدب وتاريخ ودين. ويأتي بعدها تعليم اللغات الأجنبية، من فرنسية في الدرجة الأولى، وإنجليزية وإيطالية وألمانية.

وقد أدى إخواننا الأساتذة والمعلمين واجبا شريفاً نحو إخوانهم المعتقلين بما قاموا به من تعليم وتثقيف سواء منهم المعلمون باللغة العربية أو المعلمين باللغة الأجنبية، فاستطاعوا بذلك أن يحولوا هذه المعتقلات إلى مراكز ثقافية ومعاهد علمية. فقد تخرج منها على يدهم رجال أكفاء، هم اليوم يشغلون مناصب في التعليم وفي مختلف الإدارات، وكانوا مدداً نافعاً لجهاز الدولة الناشئة، تستطيع أن تفخر بهم، ولعلمهم أصلح عنصر فيها، وأقدر على القيام بمسؤولياتها وأوفاهم للثورة والشهداء».

2/ شهادات حية للشيخ أحمد حماني¹:

قضى بسجون الاحتلال الغاشم قرابة 5 سنوات [من 1957 إلى 1962م]:

- في سجن الكدية بقسنطينة: قضى به 15 شهراً قال عنه: « كان لنا في سجن الكدية بقسنطينة تلاميذ». ولم يفصل في المناهج والمقررات وباقي الأعمال التعليمية.
- في سجن تازولت المركزي "لامبيس/Lambaesis" بإقانة: قال عنه الشيخ: «أما في سجن تازولت المركزي الرهيب فإنّ الأوامر الواردة من جبهة وجيش التحرير صريحة

¹ - حماني: صراع السنة، ج 2، ص 302-304

في وجوب مواصلة التعليم والتعلم... على كل مناضل مثقف داخل السجن أن يعلم إخوانه، فإن لم يكن مثقفاً فعليه أن يتعلم...».

ثم ذكر الشيخ حماني أنه كان يرفقته بهذا السجن ثلاثة علماء آخرين وهم:

– الصادق مخلوف [119]: خريج الزيتونة

– أحمد بوزيدي [120]: تلميذ الشيخ الإبراهيمي وخريج القرويين.

– محمود عيسى الباي [121]: خريج جامعة العراق وكليتها العسكرية

وقد تعاون هؤلاء الشيوخ الأربعة على تنظيم حركة تعليمية متكاملة داخل السجن، تجاوزت مجرد محو الأمية. حيث قاموا بقرز الطلبة إلى أقسام وسنوات، واقتسموا فيما بينهم المقررات التعليمية المختارة: (فنون العربية: من نحو وصرف وإنشاء وبلاغة ولغة، وعلوم الدين: من توحيد، وفقه، وقرآن وحديث، وسيرة، ورياضيات: من حساب وهندسة، وجغرافية، وتاريخ...).

أضاف الشيخ: « وساعدنا على هذا التنظيم التحسن الطارئ على المساجين ومعاملتهم سنة 1959م ثم استطعنا أن نستورد الكتب حتى من تونس طلبناها من وزارتنا للتربية- وكان يتولاها الأخ عبد الحميد مهري- بواسطة محمد كحلوش بجيلة جازت على السجانين، كما أن إدارة السجن أسعفتنا بإنشاء مكتبة للمطالعة اخترنا كثيرا من كتبها. كما تطور ذلك إلى إنشاء مجلة، يقول الشيخ: «وأخيرا كونا سنة 1961، مجلة سمينها "صوت السجين" وكان الأستاذ الصادق مخلوف يكتبها بخطه ونسحبها».

ثم أضاف مبيناً نتيجة هذا التعليم: « هذا التعليم المنظم المستمر -قريباً من ثلاث سنوات- قد أعطى بعض ثماره البانعة، فقد كنا نجري امتحانات منظمة، ونعقد اجتماعات أسبوعية يخطب فيها التلاميذ، ويعرضون مقدرتهم الإنشائية، وقد أصبح كثير منهم يتقنون العربية فهماً، وإنشاء، ومحادثة وإلقاء... وفي عام 1958م جاء الأمر القاطع بالتخلي عن هذه الدروس فتوقفت». وقد عدد الشيخ الكثير من

أسماء تلاميذه بالسجن، أصبحوا بعد الاستقلال من كبار المثقفين ومن الإطارات المهمة في التعليم وفي غيره.

بعدها انتقل الشيخ إلى الحديث على الجهود التعليمية بباقي السجون والمعتقلات. بالوطن فقال: «ولم نكن وحدنا الذين صنعنا هذا في سجن تازولت الرهيب ولكن العلماء والمفتشين من المناضلين كانوا في جميع المعتقلات والسجون يؤدون مثل هذا أو خيرا منه لإمكاناتهم في المعتقلات أحسن مما كنا عليه في الزنانات. فبعد الاستقلال وعندما كنت في الجزائر جاءني طلاب يلحون في إتمام معلوماهم التي كانوا تلقوها من هؤلاء المشايخ في السجون والمعتقلات، واستطاعوا بما أن يكونوا من المعلمين ويريدون اليوم تحسين وضعيتهم واستكمال دراستهم وباتفاق مع الجميع - طلاب تازولت وغيرهم- رتب لهم دروسا علمية بقاعة "نادي الترقى" وجعلت مدة الدراسة الأسبوعية نحو 15 ساعة... وقد تخرج منهم معلمون أكفاء وتحصل منهم على شهادة الليسانس-بعد النجاح في مسابقة الدخول للجامعة جماعة- ومنهم اليوم أساتذة في ثانويات أو في الجامعة نفسها...» ثم عدد الشيخ الكثير من الأسماء تقلدت مناصب مرموقة في الدولة الجزائرية المستقلة، ليؤكد على نجاعة الحركة التعليمية الحرة داخل سجون الاحتلال الغاصب.

الخاتمة:

انطلق ابن باديس بحركة تعليمية بمدينة قسنطينة سنة 1913م، فكانت مرحلة تمهيدية للحركة التعليمية الإصلاحية التي قادها بنفسه بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م. فكانت نتائج هذه الحركة التعليمية الجديدة أكبر؛ لأنها كانت أوسع وأشمل؛ سواء في انتشارها عبر جميع القطر الجزائري، أو في أفواج العلماء الذين ساهموا فيها لكن قيام الحرب العالمية الثانية، مع حوادث ماي 1945م،

ثم اندلاع الثورة التحريرية؛ قد أثر على مسار هذه الحركة وكاد يقضي عليها أحياناً لولا صمود وتحدي علماء الإصلاح.

أول ما استوقفني في مسار التعليم الإصلاحي المسجدي منه؛ لأنه أقدم أنواع التعليم، أما أهم مراكزه بعمالة قسنطينة فهو الجامع الأخضر بدروسه العلمية التي نقلت إلى تبسة -مؤقتاً- ثم رجعت إلى العاصمة العلمية قسنطينة وقد تجند للإشراف عليها وتأطيرها أفراج من خيرة العلماء ذكرنا منهم 20 عالماً فقط.

بخصوص التعليم المكتبي؛ فقد رأيت جهود جبارة قام بها علماء الجمعية في إنشاء وتسيير وتأطير المدارس الحرة الإسلامية عبر جميع القطر الجزائري أما أعداد العلماء المساهمين في هذا النوع من التعليم بعمالة قسنطينة بالذات فلا تكاد تحصى؛ ذكرت منها أكثر من 90 عالماً فقط من الذين ساهموا في تأطير معهد ابن باديس، ومدرسة التربية والتعليم وفروعها بقسنطينة وبالمناطق المجاورة لها.

أما أهم الأعمال التعليمية المتميزة التي قام بها علماء الجمعية بكل جدارة فهي: إنشاء النوادي العلمية الإسلامية، واستغلال الاحتفالات العصرية، والياديين العمومية والأسواق، وحتى السجون، مع اعتماد نظام الوفود التعليمية الصيفية والرمضانية الموزعة على جميع القطر ولا يمكن حصر أعداد العلماء الذين جندتهم الجمعية لهذه المهام الجليلة، فاكتفت بتعداد حوالي 60 عالماً فقط، ممن ساهموا في تأطير مدينة قسنطينة وبعض المناطق المجاورة لها.

وبعد كل هذا يتضح بجملاء أنّ نتائج الحركة التعليمية الإصلاحية المبهرة؛ لم يكن وليد الصدفة، بل تمخضت عنها عقول مبدعة حكيمة ساهمت بقيادتها الرشيدة؛ في توجيه جيوش من الطلبة والعلماء المسلمين نذروا أنفسهم بصدق وإيمان للجهاد في سبيل قضيتهم المشتركة؛ وهي: الحفاظ على الهوية الجزائرية العربية الإسلامية. (رضي الله عنهم وأرضاهم وجعلهم في جناته مع الأنبياء والشهداء والصالحين).

الشهيد زيغود يوسف: مواقفه، قيمه وعبر

د. أحسن تليلان

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

مولده:

رضع الفتى زيغود يوسف عشق الحرية، وقيم الثورة في حليب أمه السيدة غرابي عينة بنت محمد الطاهر، هناك في البادية حيث ولد يوم 18 فيفري 1921 بدوار الصوادق نواحي كوندي السمنديو والتي تيمنت بعد الاستقلال باسمه وتسمت "بلدية زيغود يوسف" وهي تقع في الشمال القسنطيني على الطريق الوطني الرابط بين ولايتي قسنطينة وسكيكدة.

ودوار الصوادق هو بادية جبلية نائية كانت تحتضن الكثير من البيوت والأكواخ، منهم كوخ السعيد بن أحمد والد الفتى يوسف، الذي امتهن الفلاحة اليدوية الشاقة حتى وفاته يوم 24 أكتوبر 1920 تاركا صبيه يوسف جنينا في بطن زوجته يمينة قبل أن يولد بأربعة أشهر.

و هكذا نشأ الفتى يوسف يتيما فقيرا لا يجد من يكفله سوى والدته يمينة الأرملة التي كابدت شظف العيش وقهر الموت لما فقدت زوجها الأول أي والد يوسف، فلم تجد ملاذا بأويها رفقة صبيها سوى العودة إلى بيت أهلها عند والدها محمد الطاهر الرجل الطيب الحنون الذي كان يمتهن حرفة الخياطة بكوندي السمنديو، وهكذا وجد الفتى يوسف ملاذا عند أعمامه وأحواله تحت كفالة جده لأمه السيد محمد الطاهر، غير أن المقام لم يدم به طويلا حيث تزوجت أمه يمينة من السيد بو ضرسة رابع فانتقل للعيش في بيت زوج أمه حيث صارت له أخت من أمه اسمها زبيدة، لكن قسوة الأقدار أعادته مرة أخرى إلى بيت جده محمد الطاهر بعد وفاة زوج الأم السيد بو ضرسة رابع، ورغم الفقر وقهر الاستعمار وقسوة كفالة يتيمين هما يوسف وزبيدة،

فإن السيدة يمينة قد أظهرت شجاعة وصبرا جميلا، بل وعلى الرغم من صعوبات وضعها كأرملة تحضن يتيمين من زوجين متفرقين، إلا أنها لم تستسلم وشمرت عن ساعديها ممتهنة الحياطة التقليدية في بيت والدها حتى تساعد بالجهد والمال على سد جزء ولو قليل من رمق العيش، وذلك قبل أن تتزوج مرة أخرى من زموري بشير المعروف بكنية زعيتر لتذوق مرارة الطلاق، ومع ذلك فإنها لم تستسلم لوضعها كأرملة، بل راحت تتحدى قسوة الظروف والأحوال حريصة على تربية ولديها ورعايتهما بالتربية الإسلامية الصحيحة، فأما زيدة فقد صارت زوجة شهيد، وأما يوسف فهو نموذج الشهادة والبطولة في أعلى مراتبها.

يروى الكبار من أهل كوندي السمندو أن الفتى يوسف كان بهي الطلعة جميل الحيا عيناه تشعان بالذكاء والفطنة، وعلى الرغم من كونه قد نشأ يتيما إلا أنه بمجرد ما فتح عينيه على نور الحياة حتى راح يتحدى ظروفه الشخصية وما كان يعانيه من فقر ويتم، كما راح يتحدى الظروف الاستعمارية، فمنذ صباه ظهرت على شخصيته استعدادات وقابليات جعلته مع مرور الأيام يزداد صلابة وقوة فلم يخطئ من وجد فيه بعض الملامح من النبي يوسف عليه السلام جمالا وقوة وأمانة، ولم يخطئ من تنبأ له بأدوار بطولية ومواقف ملحمية في تاريخ الجزائر والإنسانية جمعاء. أما هو الفتى الجليل فقد كان وحده يعرف أن الصمت والاجتهاد حكمة الأنبياء، وأن الإرادة تصنع المعجزات فعلا، وهكذا راح يشق طريقه ليبنى مستقبله، وما كان الفتى يوسف يدري أن قد كان على موعد مع التاريخ إذ ستؤهله الأقدار ليبنى مستقبل وطنه وأمته. كان الصبي يكبر ويكبر، وكلما مد الخطى في الأرض التي أنبتته كلما امتزجت روحه بعشق تنك الأرض وازداد أصالة وقوة من أصلاتها وقوتها فبدا مثل زيتونة خالدة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

لقد شاءت حياة اليتيم و البؤس في طفولة الفتى يوسف أن تجعمه بفشل و يستسلم لوضعه الاجتماعي المزري، و لكن يوسف الذي قرر التحدي قد جعل من يتمه قوة، و من يؤسه إرادة تحفزه أكثر فأكثر على الانتصار.

تعليمه:

عندما بلغ الفتى يوسف سن الدراسة فإن جده محمد الطاهر لم يشأ إلا أن يرسل به ليتعلم فيالمدرسة القرآنية؛ قبل أن يسعى جاهدا ليجد له مكانا في المدرسة الفرنسية أيضا متحديا بذلك سياسة التجهيل التي انتهجتها السلطات الاستعمارية في حق الأهالي من أبناء الشعب الجزائري. كان الفتى يوسف شغوبا بطلب العلم راغبا في التعلم وتوسيع آفاقه المعرفية بالحياة والكون من حوله، ومن شدة شغفه بالعلم والتعلم، فإنه قد راح يتردد أيضا على بعض الكتاتيب القرآنية لحفظ ما تيسر له من القرآن الكريم وتعلم مبادئ اللغة العربية وبعض علومها، ويشهد الجميعمن عرفه في هذه المرحلة من حياته أنه قد أظهر تفوقا ملحوظا على أقرانه وزملائه في المدرسة، فقد كان ذكيا يلاحظ ويحلل ويستنتج ويستوعبفاستطاع في سنوات قليلة تحصيل ثقافة فرنسية وأخرى عربية إسلامية كما كان متمردا ومشاغبا، أظهر وعيا سياسيا جعله يتوقف عند الكثير من الأكاذيب التي كان يروجها الاستعمار مثل ادعائه بأن الجزائر مقاطعة فرنسية. وما أكثر ما كان التلميذ يوسف يحاجج معلميه الفرنسيين ويمجادهم حول شخصية الجزائر العربية الإسلامية ، وقد كان بإمكانه وهو المنفوق على أقرانه أن يواصل مشواره الدراسي ليكون نابغة وواحدا من كبار العلماء غير أن حالة الفقرواليتم التي كان يكابدها فيعناد، إضافة إلى الظروفالاستعمارية القاسية، كل ذلك قد فرض عليه الاكتفاء بشهادة التعليم الابتدائي ومغادرة مقاعد الدراسة ليتوجه نحو الحياة العملية ناهضا بواجبات إعالة أسرته وتوفير الطعام لها على الرغم من حداثة سنه.

لقد كان الفتى يوسف محبوبا بين أقرانه و أصحابه، فهو شاب اجتماعي حيوي نشيط، تراه يقبل على الحياة، حتى أنه كان يعشق مشاهدة الأفلام السينمائية التي تحتفي بالبطولة والشرف والرجولة، فيتأثر بها ويروي حوادثها على خلاته، بل ويحاول تمثيل بعض مشاهدتها، وكأنه دون أن يدري قد كان يحضر نفسه ليكون البطل في تاريخ بلاده.

مهنته:

لم يكن من بد أمام الفتى يوسف وهو الطفل ابن الخامسة عشرة سنة، اليتيم الفقير، سوى الاعتماد على نفسه، ولم يكن أمامه من الأعمال سوى إتقان الحرف اليدوية الشاقة، فتعلم مهنة الحدادة والنجارة ساعيا إلى العمل عند المعمرين على عادة عموم الجزائريين الذين كانوا يرزحون في فقر مدقع، فساقته الأقدار للعمل كمساعد تحت التدريب بدون أجر ثم العمل بأجر زهيد في ورشة للحدادة يملكها أحد المعمرين من أصول ألمانية يدعى بول برمال، ولم يكن غريبا على يوسف أن يتقن مهنته وهو الذي كان يملك يدا ماهرة تتقن الحرفة.

ونظرا لما أبداه الفتى يوسف من اجتهاد في العمل وبراعة في الحرفة ونزاهة في المعاملة، فإنه قد كسب رهان صداقة صاحب الورشة وثقته، فأمنه على ماله ومحلّه، ثم مضت الأيام بالفتى يوسف الحداد وهو يصارع الحديد في تلك الورشة حتى واجهت المعمر برمالذات يوم صعوبات جراء تراكم ديونه المترتبة عن مستحقات كراء المحل، فتدخل السيد بوضرسة عيسى زوج السيدة زبيدة أخت زيغود يوسف من أمه، وعرض على المعمر برمال التسديد تلك الديون في مقابل أن يصبح زيغود يوسف شريكا له، فقبل المعمر بالعرض وأشرك زيغود يوسف في المحل، وقد استمرت هذه الشراكة بين الرجلين حتى سنة 1948 عندما وضع لها زيغود يوسف حدا بدافع تفرغه للنشاط السياسي التحرري. ومن الواضح أن هذه التجربة التي انتقلت بالفتى يوسف من

مساعد تحت التدريب إلى عامل بأجر زهيد ثم شريك بالمال والجهد قد انتقلت به أيضا من كونه فتي يافعا يطمع الآخرون في استغلاله إلى رجل راشد يتمتع باستقرار مادي ومعنوي، ومن المؤكد أن نجاحه الباهر في تجربة العمل قد جعله محط أنظار الجميع ومحل إعجابهم أيضا.

لقد كان محل الحدادة يقع قريبا من السوق، سوق كوندي السمندو الذي كان يرتاده الناس من كل حدب وصوب خاصة يوم الاثنين من كل أسبوع، فيأتونه من كل فج عميق قادمين إليه فرادى وجماعات للبيع والشراء واللقاء والتواصل. وكان محل الحدادة يسمح للفتى يوسف بالتواصل مع الناس، وخاصة الفلاحين من سكان البوادي والأرياف الذين يستجدون بخبراته في تصليح محاريثهم ومناجلهم وغيرها من أدواتهم الحديدية التي يستعملونها في الفلاحة، ومن المؤكد أن ذلك التواصل قد وثق صلته بالناس فازداد ارتباطا بالشعب وبالأرض سواء بسواء.

وعيه السياسي المبكر:

لم يكن بإمكان زيغود يوسف الشاب الأصيل المملوء بروح الرجولة والأنفة أن يتغاضى عن الواقع المرير الذي كان يعانيه الشعب الجزائري وهو يرحح تحتسيطرة الاستعمار الفرنسي. فقد كان يشاهد صور الظلم، ويعايش مظاهر العدوان، فيغتاظ كثيرا لحالة البؤس والذل المرعب الذي يكابده الأهالي، في حين يستأثر المعبرون بخيرات الجزائر مدعين أنها مقاطعة فرنسية، ولم تكن تنظلي على زيغود يوسف شتى أساليب التضليل الاستيطاني الذي كان ينتهجه الاستعمار فقد سمحت له ثقافته رغم بساطتها ووعيه السياسي المبكر بإدراك حقيقة الاستعمار، ولقد تفاعلت في أعماقه مجموعة من الأسباب والعوامل الموضوعية التي ساهمت أكثر في جعله ينخرط في صميم الكفاح السياسي وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر ومن بين هذه العوامل يذكر المؤرخون تلك الواقعة الدامية التي حدثت بين الجزائريين واليهود في حي

الشارع بقسنطينة سنة 1934 وكان زيغود يوسف شاهدا ومشاركا فيها حيث تكتل يهود قسنطينة ، وتضامنوا فيما بينهم بدعم من الاستعمار وراحوا يعتدون على العرب المسلمين وعلى مقدساتهم، وبلغ بهم الاعتداء السافر، أن راحوا يطلقون النار على العرب المسلمين دون أن توقعهم الشرطة الفرنسية، والتي كانت -فيما يبدو - متواطئة معهم، الأمر الذي خلق نوعا من التضامن المضاد بين العرب المسلمين، وتطورت الأمور إلى أن بلغت حد إعلان الجهاد في كل القرى والدواوير القريبة والمحيطة بقسنطينة، ضد اليهود المعتدين، هذه الواقعة حركت مشاعر النخوة العربية الإسلامية في وجدان الشاب زيغود يوسف، وجعلته ينتفض ضد الظلم والعدوان. كما يشير المؤرخون إلى عوامل أخرى ساهمت في التكوين السياسي الوطني للشباب زيغود يوسف منها انخراطه في الكشافة الإسلامية، وكثرة مطالعته للكتب، وكذلك تأثيرها التطور السياسي الذي بدأت تشهده الحركة الوطنية الجزائرية سواء من خلال نشاط محمد الصالح بن جلون في إدانة الاستعمار، أو من خلال نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة العلامة عبد الحميد بن باديس، بالإضافة إلى الدور السياسي الكبير الذي بات يقوم به حزب الشعب الجزائري في مناهضة الاستعمار. ولقد تفاعلت هذه العوامل جميعها لتضع زيغود يوسف في صميم الكفاح السياسي التحرري. ومما يرويه شهود الصبا أن زين الشباب : الفتي يوسف كان كثيرا ما يردد هذه المقطوعة من الشعر الشعبي :

((يا ناس قيا طبيعة تعشق غير التحايف

على الوطن راسي نبيعو

ومن الموت ما بقتش خايف)).

لقد كانت كوندبالسمنديو من أهم الخواضر في الشمال القسنطيني، حيث كانت تعج بألوان من الأنشطة المختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية أثرت إيجابيا على

تطور الحركة الوطنية في المنطقة، حيث وجد زيغود يوسف في تلك البيئة مجالات واسعة للتأثر والتأثير ومن ثمة بروزه كقائد وطني ساهم كثيرا في تحرير الجزائر وانتزاع استقلالها.

انخراطه في الكفاح الوطني:

لم يعد يخفى على عموم الجزائريين في بلدية كوندياالسمندو مقدار ما يتميز به زيغود يوسف من أخلاق عالية وحس وطني، فقد كان شابا متخلقا هادئا متزنا متواضعا طيبا أنوفا، يلين جانبه لقومه وأبناء جلدته دون أن يتحرج من إبداء كراهيته للاستعمار ويغضبه لكل ما يمت إليه بصلة، ولذلك فبمجرد ما تأسس حزب الشعب الجزائري كان يوسف من أوائل المناضلين في بلديته ممن انخرطوا في صفوفه ولم تحطى قيادة الحزب عندما وضعت ثقته في ذلك الشاب الباسل المتمرد على الاستعمار أي زيغود يوسف فتم تعيينه سنة 1938 مسؤولا عن حزب الشعب في بلدية كوندياالسمندو وهو لم يكن يتجاوز من العمر سوى سبع عشرة سنة، فشرع ينشر الأفكار الوطنية التحررية بين أبناء منطقته متحملا مسؤولية توعيتهم وتحريضهم على النضال ضد الاستعمار من أجل المطالبة بحقوقهم، ولقد ازداد الحماس الوطني بين جوانح زيغود يوسف خاصة بعدما أقدمت الإدارة الاستعمارية على حل حزب الشعب الجزائري سنة 1939 واضطهدت مناضليه بمختلف أشكال القمع البوليسي والعسكري وهو ما جعل مناضلي الحزب يلجؤون إلى النشاط الوطني السري. ونظرا لما يتمتع به الشباب يوسف من خبرة سياسية وتنظيمية وقيادية، فإن عملية حل الحزب لم تزرده إلا إرادة وتصميما على الكفاح الوطني، فعمل على تعبئة الجماهير وتوسيع قواعد الحزب في منطقة كوندياالسمندو، سواء بواسطة الاتصال المباشر بالناس أو بتوزيع المنشورات السرية التي كانت تصدرها قيادة الحزب، حتى إذا ما قامت مظاهرات 8 ماي 1945 انتقادت جماهير كوندياالسمندو لقائدها زيغود يوسف الشباب الجميل الحميا صاحب القد الطويل والعينين الزرقاوين اللتين تقذفان حمما من

الغضب الساطع حتى أنه-فيما يؤكد الشهود- يستحيل على الناظر إلى يوسف أن يتحرراً على التحديق في عينيه...إنه يوسف الحداد الثائر بهي الطلعة الأصيل المنتسب بقيم الرجولة والأنفة، فما إن سار غاضبا ومنندا حتى خرج الناس وساروا خلفه ملين نداء التظاهر وهم يحملون العلم الوطني الذي صنعت زوجته عائشة، ويرددون الشعارات الوطنية في حماس فياض مثل قولهم "من أجل تحرير الشعب، تحيا الجزائر".

صدمته أمام وحشية الاستعمار في قمع مظاهرات 8 ماي 1945.

لقد واجهت السلطات الاستعمارية مظاهرات 8 ماي 1945 بوحشية ودموية مفرطة، وخاصة في كل من قالمة وسطيف وخرطبة فارتكبت مجازر جماعية في حق الجزائريين حتى أن عدد الشهداء في تلك المجازر الرهيبة قد بلغ خمسة وأربعين ألف شهيد جزائري، فكانت الصدمة عنيفة في عيون وقلوب كل أبناء الشعب الجزائري، وخاصة المناضلين، وتؤكد لزيغود يوسف الحداد الثائر، أن الاستعمار لا يفهم لغة المظاهرات السلمية والنضال السياسي، وإنما يفهم لغة الحديد والنار فما أخذ بالقوة لا يمكن أن يسترد إلا بالقوة، وهي القناعة التي أصبحت راسخة لدى أغلب المناضلين، مما جعل الجبهة الوطنية تراجع منهجها في التعامل مع هذا الاستعمار الممجي الغاشم وتمثلت خطة المناضلين في الخروج من دائرة النشاط السري بإعادة حزب الشعب للنشاط العلني تحت اسم حركة الانتصار للحريات الديمقراطية فواصل زيغود يوسف كفاحه الوطني تحت عباءة هذه الحركة التي كثفت من نشاطها في مقاومة الاستعمار وتعميق الفكر الوطني في الأوساط الشعبية باستعمال مختلف الوسائل المتاحة كالصحافة والخطابة لتوعية الجماهير أكثر فأكثر، وكذلك مصارعة الاستعمار حتى بالطرق التي يفرضها ومنها الانتخاب حيث تقدم زيغود يوسف للانتخابات البلدية سنة 1947 كمرشح عن حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في بلدية كوندي السمندو، وعلى الرغم من الدسائس التي حيكت ضد ترشيحه ودعم الإدارة

الاستعمارية لقوائم مرشحيها، إلا أن الدعم الشعبي الكبير الذي تحظى به حركة الانتصار، وكذلك حب الناس وثقتهم في مرشحها زيغود يوسف، فإن الفوز في تلك الانتخابات قد كان من نصيبه، فتمكن بذلك من أن يصبح نائبا لرئيس بلدية كوندري السمنديو، وهي التجربة التي زادت من رفع مكانته في نظر قادة الحزب ووطدت ثقة المناضلين والناس عموما في شخصه الكريم. وبالفعل فما زاده هذا المنصب إلا تواضعا والتصاقا بقضايا المجتمع الجزائري الواقع تحت سلطة استعمار غاشم بشع. و من الواضح أن مجازر 08 ماي 1945 قد أحدثت جراحا عميقة في نفس زيغود يوسف، وهو ما يبدو جليا في تحليده السنوي لذكرى تلك المجازر بيته الذي لم يكن يتألف في الحقيقة سوى من غرفة واحدة، وقد استمر معه هذا التقليد الاحتفالي حتى سنة 1950 تاريخ اعتقاله، كما أن بيته المتواضع قد احتضن العديد من اللقاءات والاجتماعات لزرع الفكر النضالي التحرري المقاوم، وهذا بشهادة زوجته السيدة طريفة عائشة التي كثيرا ما كانت تعد القهوة لضيوف زوجها زيغود يوسف، ثم تزوي بأحد أركان الغرفة، وأحيانا أخرى كانت تخرج لتتخفى عند بعض الأهل أو الجيران عندما يتحول بيتها إلى قاعة اجتماعات سرية للمناضلين.

إشرافه على المنظمة الخاصة بكوندري السمنديو

لقد تفاعلت مختلف العوامل والظروف، لا سيما مجازر 8 ماي 1945 في توجيه تفكير المناضلين الجزائريين نحو تبني خيار الكفاح المسلح بعد أن استنفذت أشكال النضال السياسي السلمي، وهو ما جعل مسؤولي حركة الانتصار للحريات الديمقراطية وعقب مؤتمهم المنعقد في 15 و16 فيفري 1947 يقررون إنشاء جناح عسكري تابع للحركة يضم نخبة من أقوى وأبرز المناضلين بإشراف محمد بلوزداد، هذا الأخير لم يتردد لحظة واحدة في ضم زيغود يوسف إلى قائمة أعضاء المنظمة الخاصة نظرا لمؤهلاته السياسية والعسكرية، ولقدراته التنظيمية والقيادية وما يقتضيه العمل من

حيلة وحذر وسرية تامة، والأهم من ذلك كله إخلاصه الوطني واستعداده التام للتضحية بنفسه ونفيسه فيسبيل تحرير الوطن المغدَى من نير الاستعمار الفرنسي الجائر. وهي القيم التي تجسدت في مسارحته إلى تكوين تنظيم تابع للمنظمة الخاصة في منطقة كونديالسمندو يضم مجموعة قوية من المناضلين الأوفياء، كما شرع في تدريبهم على الكفاح المسلح بأشكاله المختلفة مثل تخريب المنشآت الاستعمارية، والقيام بعمليات فدائية وخوض حرب العصابات، إضافة إلى إقامة دورات تدريبية لتعظيم صناعة المتفجرات وأساليب زرعها وتفجيرها، وخلال سنة كاملة من التدريبات المتواصلة، نجح زيغود يوسف في تكوين فرع قوي وباسل من مناضلي المنظمة الخاصة يتألف من مجاهدين أشاوس قادرين - عند الإشارة - على زعزعة الوجود الاستعماري وقض مضاجع قادته وجنوده.

اكتشاف المنظمة الخاصة وسجن زيغود يوسف بعنابة.

على الرغم من السرية التامة التي انتهجتها المنظمة الخاصة في كل نشاطاتها وتدريباتها العسكرية، إلا أن عيون الاستعمار التي لا تنام قد تمكنت من الوصول إليها واكتشاف حقيقتها صدفة بعد وقوع مناضلين اثنين منها في قبضة العدو الاستعماري، وذلك عندما كلفهما العربي بن مهيدي بالذهاب إلى تبسة لتأديب أحد الخونة المتعاونين مع الاستعمار، غير أن أمرهما افتضح، الأمر الذي أزعج الإدارة الاستعمارية وجعلها تسارع إلى القيام بحملة تفتيش واعتقالات واسعة شملت أعضاء المنظمة الخاصة في كل من الجزائر وقسنطينة ووهران. وبتاريخ 22 مارس 1950 تم إلقاء القبض على زيغود يوسف ببيته حيث وجهت له تهمة المساس بالأمن الخارجي للدولة، وتم اقتياده من قسنطينة إلى سجن عنابة رفقة الكثير من رفاقه أعضاء المنظمة الخاصة أمثال عمار بن عودة وباجي مختار وغيرهما، وفي السجن تعرضوا إلى ألوان من الضرب والتعذيب والاستنطاق البوليسي والعسكري على يد

زبانية الاستعمار وجلاديه، لكنهم مع ذلك تحملوا العذاب ورفضوا الاعتراف بأسرار المنظمة الخاصة إلا بمقدار ما كشفته عيون الاستعمار في بداية حملة الاعتقالات التي طالتهم، وفي الوقت الذي انصرف فيه تفكير الإدارة الاستعمارية نحو تحطيم معنويات السجناء لخلق المنظمة الخاصة والقضاء على صوت الثورة القادمة في مهدها، اتجه تفكير زيغود يوسف نحو ضرورة إيجاد طريقة أو وسيلة للتخفيف من هذا السجن الرهيبي والاتحاق من جديد برفاقه من أعضاء المنظمة الخاصة الذين استطاعوا الإفلات من قبضة الاستعمار أمثال محمد بوضياف والعربي بن مهدي وديدوش مراد وغيرهم. وفي ذلك السجن الرهيب لم يكن زيغود يوسف ليهتم بحياته أو حياة أفراد أسرته فقد تركهم جميعا خلفه في رعاية الله تعالى متخفيا عند أصهاره بالخروش أو في بيوت أقرائه بدوار الصوادق بمنطقة كونديا بالسمنود، بل كان اهتمامه منصبا على ضرورة بذل كل معاني التضحية والفداء في سبيل تحرير الجزائر.

يوسف الحداد يصنع مفتاح السجن ويهرب رفاقه.

كانت أسوار سجن عنابة عالية مسيجة بأسلاك شائكة، وأبوابه فولاذية قوية لا سبيل لاختراقها، أما الحراسة فهي مشددة ليلا ونهارا، وعلى الرغم من حالة اليأس والإحباط التي حاول زبانية السجن ومسؤولوهم فرضها على السجناء إلا أن أسن الخلاص والهروب من السجن ظل يراود زيغود يوسف دون هوادة، وكيف لا يخترق أسوار السجن وهو الحداد الذي جرب اختراق الحديد، ولم يطل به البحث حتى لاحظ وجود زنزانة مهجورة بجوار الزنزانة التي وضع فيها رفقة مجاهدين آخرين هم عمار بن عودة وعبد الباقي بكوش وسليمان بركات، فارتسمت في ذهنه خطة تقوم على أساس التسلل إلى الزنزانة المهجورة ثم إحداث فتحة في سقفها ليتم التسلل من خلالها إلى السطح، ثم الهروب عبر السطح إلى خارج السجن. وبالتشاور مع رفاقه ومساعدتهم شرع زيغود يوسف في وضع تلك الخطة حيز التنفيذ، ولأن الوصول إلى

الزنازة المهجورة يقتضي صناعة مفتاح لفتح بوابتها فإن يوسف الحداد قد استدعى في تلك اللحظات مهارته في الحدادة، حيث قام بجمع بعض الأشياء البسيطة منها معقمة طعام حديدية كان قد طلبها من أحد أقربائه عندما جاء لزيارته، وأخفاها في غنمة من الحراس، حيث راح يحك ذراعها بواسطة قضيب من الحديد يستعمل لإشعال النار في المواقد، و يحدث فيها نتوءات و تغييرات مناسبة ليتوافق شكل ذراع تلك الملعقة مع شكل المفتاح مستعملا ذكاءه الوقاد ومهارته السحرية في مداعبة الحديد، و بعد محاولات متكررة استغرقت شهرا كاملا، تم الشروع في صناعة المفتاح المناسب لفتح بوابة الزنازة المهجورة، وبعد أيام من العمل المضني جلسة بعيدا عن عيون الرقباء تمكن يوسف الحداد القوي الماهر من صناعة المفتاح المطلوب، فكانت سعادته ورفاقه غامرة، فزاد تصميم الجميع على تخطي أسوار السجن، إذ لم يبق أمام زيغود يوسف سوى إحداث منفذ للفرار مع رفاقه عبر سقف الزنازة المهجورة، وهي المهمة التي رسمها و شرع في تنفيذها مستعملا ذكاءه الوقاد و يديه الماهرتين و مستعينا بالقضيب الحديدي نفسه الذي استعمله من قبل في صناعة المفتاح العجيب، و لقد أعانه رفاقه السجناء على الحفر أيضا حيث كانوا يتحيتون القرص في فترات متقطعة ليقوم بعضهم بالحفر في حين يقوم الآخرون بترديد الأناشيد الوطنية للتمويه على الضوضاء التي يمكن أن تحدثها عملية الحفر، وبعد قرابة الشهرين من الحفر تمكنوا أخيرا من إحداث الفجوة المناسبة ليشرع زيغود يوسف ورفاقه في الهروب من السجن في حدود الساعة الحادية عشرة من ليلة 21 أبريل سنة 1951 متسللين تحت جناح الظلام من زنازتهم إلى الزنازة المهجورة بجوارهم ومنها تسللوا إلى السقف عبر الفجوة التي أحدثوها ثم مشوا قليلا على السقف بحذر شديد قبل أن ينزلوا منه بواسطة حبل كانوا قد أعدوه لذلك وصنعوه من أطراف أفرشتهم.

نقد كادت عمية الفرار من السجن أن تسير وفق المسار الذي تم التخطيط له،
لولا أن زيغود ورفاقه واجههم طارئ لم يكن في احسان وهو وجود عمال النظافة في
طريقهم ويقاؤهم يشتغلون إلى غاية ذلك الوقت المتأخر من الليل، الأمر الذي حتم
على الفارين تجنب المرور بقرهم، فكان لزاما عليهم تغيير مسارهم مع تحمل ما يمكن
أن ينجم عن هذا التغيير المفاجئ من نتائج، غير أن زيغود يوسف طمأن رفاقه
وسار بهم على بركة الأنبياء، وأعمل يده السحرية في أبواب مصلحة الأرشيف
ففتحها فاسحا المجال لرفاقه كي يتسللوا عبرها ليحدوا أنفسهم وسط ساحة مفتوحة
على بوابة السجن، لقد كانت الساعة حينذاك تقارب الرابعة صباحا، فاستغل زيغود
غفلة الحراس ليتقدم بخطى وثيدة نحو البوابة في حين ظل رفاقه محتبئين، وبعد عدة
محاولات تمكن في الأخير من فتح الباب وتسلل الجميع الواحد بعد الآخر خارج
السجن في عملية بطولية ناجحة أريكت الإدارة الاستعمارية وحسدت عبقرية
بجاهدي الثورة التحريرية.

عودة زيغود يوسف للنضال السري بكنية سيدي أحمد.

لقد تجسدت عبقرية زيغود يوسف حقا في التخطيط لعملية الفرار من سجن
عنابة، وفي تنفيذ تلك العملية بنجاح تام، وفي قدرته على تضليل عيون الاستعمار
والإفلات من ملاحقاتهم وعودته للنضال السري مستعملا اسما ثوريا لا تعرفه الدوائر
الاستعمارية هو اسم سيدي أحمد. فبمجرد فراره ورفاقه من السجن التحق الأربعة
بغابات سرايدي شرق عنابة حيث قضاوا ليلتهم متوارين عن أنظار عيون الاستعمار
محتبئين في الغابات، وحتى لا تصل إليهم أيادي الاحتلال الفرنسي، فقد قاموا
بتقسيم أنفسهم إلى مجموعتين : ففي حين توجه زيغود يوسف رفقة بكوش عبد
الباقي نحو منطقة الحروش، اتجه عمار بن عودة وسليمان بركات إلى ناحية كوندي
السمندو، وبعد أسبوع من الاختباء التقى الرفاق الأربعة من جديد في منزل صهر

زيغود يوسف مثلما اتفقوا وتواعدوا على ذلك من قبل، وظلوا هناك محتبئين لمدة شهرين حتى يشت عيون الاستعمار من العثور عليهم، وهكذا ضمن زيغود يوسف الطريق الآمن نحو جبال الأوراس حيث التحق برفاقه أعضاء المنظمة الخاصة الفارين من قبضة البوليس الاستعماري والذي لم يتوقف عن البحث عنهم ومطاردتهم. وأمام قيام الدوائر الاستعمارية بتشديد الخناق على جبال الأوراس فإن زيغود يوسف قد قرر مواصلة نضاله السري انطلاقاً من قسنطينة فعاد إليها رفقة المجاهد خنصر بن طوبال، وانطلاقاً من قسنطينة واصل سيدي أحمد وهو اللقب السري الذي اختاره زيغود يوسف لنفسه - انضال السري لصالح القضية الوطنية متخفياً عن البوليس الاستعماري، حتى انه كان أحياناً يلجأ إلى تغيير شكله و هياته فيعمد الى ارتداء ملاءة سوداء، و بهذه الطريقة كان يتصل بالمناضلين و يعدهم لمواعيد الكفاح العسكري الذي يجري التحضير له مثلما نصت على ذلك أهداف إنشاء المنظمة الخاصة.

التحضير للثورة ودور زيغود يوسف في تفجيرها.

عرف زيغود يوسف بعناده وتمرده ونزوعه الثوري الراض للاستعمار، كما أن تجاربه مع الاستعمار علمته ورسخت قناعته بأن لا سبيل لدحر الظلم والغبن عن الشعب الجزائري سوى عن طريق إعلان الكفاح المسلح ضد العدو، ولذلك فبمجرد عودته من الأوراس إلى قسنطينة في نهاية عام 1952 انصب عمله على إعادة تنظيم المنطقة وهيكل المنظمة الخاصة من جديد.

وفي سنة 1953 حدث انقسام في صفوف حركة الانتصار للحريات الديمقراطية بين المصاليين والمركزيين، فاعتنم زيغود يوسف الفرصة للعمل ضمن اللجنة الثورية ليوحدة والعمل التي تأسست في 23 مارس 1954 بهدف لم شمل الحزب من جديد والتحضير لإعلان الثورة التحريرية المسلحة، وبعدها فشلت محاولات التوفيق بين المنتصاريين من المصاليين والمركزيين لم يبق أمام زيغود يوسف ورفاقه الذين يشاطرونه

لقناعة والرأي سوى الشروع الفعلي في التحضير لكفاح المسلح وهو السبيل الذي نتيجته مستغلا اجنح السري بناحيته كخنية أولى للانطلاق نحو ذلك الهدف المشود والذي كان يراوده دائما.

وفي جوان 1954 اجتمع زيغود يوسف بالمدينة مع القادة الاثني والعشرين لدراسة مسألة التحضير للثورة المسلحة وتحديد المهام للقيام بالإعداد المادي والبشري لتفجيرها، وخرج ذلك الاجتماع التاريخي بجملة قرارات منها تقسيم البلاد إلى خمسة مناطق، وتعيين رؤساء تلك المناطق ومساعدتهم حيث تم تعيين زيغود يوسف نائبا لديدوش مراد على رأس منطقة الشمال القسنطيني.

نقد ابتهج زيغود يوسف كثيرا بقرارات ذلك الاجتماع وخاصة ما يخص قرار تبني خيار الكفاح المسلح، ولذلك سارع إلى الالتحاق بمنطقة الشمال القسنطيني رفقة ديدوش مراد والأخضر بن طوبال وعمار بن عودة، وشرع في تجنيد الشباب والبحث عن المال والسلاح، وتحريض المناضلين وحثهم على الاستعداد لليوم الموعود، وهو الموعد الذي تكفلت بتحديدته لجنة الإشراف على الاستعدادات وتحديد تاريخ اندلاع الثورة التحريرية، وهي لجنة انبثقت عن اجتماع الاثني والعشرين، وتضم ستة أعضاء هم: محمد بوضياف ومصطفى بن بولعيد والعربي بن مهيدي وديدوش مراد ورايح بيطاط وكريم بلقاسم. وبعد إجراء المشاورات والاستعدادات اللازمة اجتمعت لجنة الستة يوم 23 أكتوبر 1954 وقررت أن تاريخ إعلان الثورة التحريرية المسلحة هو ليلة أول نوفمبر عام 1954 إنه القرار الذي أثلج صدر الحداد الثائر إذ سيكون بمقدوره تلقين الاستعمار دروسا لن ينساها، كما أنه السبيل الحقيقي لطرد المحتلين من أرض الجزائر.

اندلاع ثورة أول نوفمبر 1954 ومشاركة زيغود يوسف في عملياتها.

لقد كان زيغود يوسف يتطلع إلى ليلة أول نوفمبر 1954 بشغف كبير وكله حلم وطموح نحو غد مشرق، ففي الساعة منتصف الليل بالضبط من ذلك اليوم الأغر عزف رصاص الثورة التحريرية لحن الحرية والانعتاق من ربة الاستعمار الفرنسي الغاشم، فما أن حلت الساعة الصفر من الليلة المباركة حتى قام المجاهدون الأشاوس بعدة عمليات ضد مراكز العدو الاستعماري في التوقيت نفسه عبر كامل التراب الوطني.

وفي الشمال القسنطيني توجه زيغود يوسف في تلك الليلة الغراء على رأس مجموعة من الثوار مزودين بثلاثين بندقية حربية وكمية من الذخيرة وقاموا بمهاجمة الثكنات العسكرية ومراكز الشرطة في كل من كوندي السمنديو والخروب، فكانت عمليات ناجحة أرعبت العدو الاستعماري، وأشعرت الجميع بأن الجزائر الثائرة قد شقت طريقها الصحيح نحو انتزاع الحرية والاستقلال.

إن النجاح الباهر الذي حققته انطلاقا الثورة التحريرية قد جعل الجماهير الشعبية تقبل على الانخراط في صفوفها، وبفضل جهود زيغود يوسف وحنكة قائده ديدوش مراد سرعان ما تعززت صفوف المجاهدين بالعدة والعتاد، ومن أولى المعارك التي خاضها زيغود يوسف إلى جانب قائده ديدوش مراد نجد معركة وادي بوكركر والتي وقعت يوم 18 جانفي 1955، فعلى إثر وشاية من أحد الخونة قامت كتيبة من جيش الاحتلال الفرنسي تتكون من حوالي خمسمائة جندي بمحاصرة المجاهدين في وادي بوكركر الواقع أسفل وهاد دوار الصوادي غير بعيد عن كوندي السمنديو، وعلى الرغم من احتلال موازين القوى بين مجموعة صغيرة من المجاهدين لا تزيد عن العشرين فردا بمواجهة جيش فرنسي عرمرم إلا أن صدق العهد بالتضحية والفداء قد جعل المجاهدين الأبطال بقيادة ديدوش مراد يقاتلون المحتلين في شجاعة أسطورية نادرة لمدة خمس ساعات، أبلى فيها المجاهدون البلاء الحسن، غير أن المعركة أسفرت

عن استشهاد قائد المنطقة الشهيد البطل ديدوش مراد كما استشهاد معه سبعة شهداء وجرح مجاهدا نو على الرغم من قوة الحصار المضروب على ما تبقى من المجاهدين إلا أن زيغود يوسف ومن بقي معه لم يستسلموا بل واصلوا القتال في صمود ملحمة وتمكنوا من إلحاق أضرار بليغة بالعدو الفرنسي قدرت في ختام المعركة الضارية بحوالي سبعين قتيلاً، كما تمكنوا في النهاية من الإفلات من قبضة الجيش الاستعماري، وبذلك يكون زيغود يوسف قد أحسن قيادة ما تبقى من رفاقه بعد استشهاد قائده وهو ما أهله لتولي زمام القيادة على رأس الولاية التاريخية الثانية بإجماع مجاهدي المنطقة وتركيز قيادة الثورة التحريرية المظفرة.

لقد أحدثت معركة وادي بوكركر أثراً عميقاً في النفوس، وهو ما جعل سكان المنطقة يرددون أغنية شعبية ملحمة هدفها الإشادة بمآثر الثورة التحريرية والافتخار بمجاهديها، ومما ورد في تلك الأغنية قولهم :

"فرنسا يا ناس عرفناها مافيهاشلامان وتغدر
تقتل وتحرق وتخرب وتقوللكم جيت نعمار
ياسادات ويا رجال واش لي صاري في بوكركر
زيغود الصنديد ماشي القدام ماهوشموخو
وديدوشيا خوتي قبالة يحصد في روس العسكر
حتى استشهاد على وطنوا ومات يشهد ويكبر"

زيغود يوسف يتولى قيادة منطقة الشمال القسنطيني.

تألم زيغود يوسف كثيراً لاستشهاد إخوانه في معركة وادي بوكركر، وشعر بالفجيعة الكبرى لفقدان قائده ديدوش مراد، وإذا كانت رغبة الدوائر الاستعمارية بعد تلك المعركة تتمثل في القضاء على صوت الثورة في الولاية التاريخية الثانية، فإنه على العكس من ذلك تماماً توجه طموح زيغود يوسف نحو توسيع الثورة ونشر

شعاعها في كل الأفاق، فبمجرد ما تولى سيدي أحمد—كما كان يلقبه المجاهدون قيادة المنطقة في جانفي 1955 حتى عمد إلى القيام بعدة إجراءات تنظيمية هدفها تقوية الثورة وتعزيز صفوفها، ومن بين تلك الإجراءات نذكر:

- الاجتهاد في تعبئة الجماهير وتحريضهم على الثورة وتعميق إيمانهم بضرورة التضحية في سبيل نصره القضية الوطنية.

- تطهير المنطقة من العملاء والخونة حتى يضمن ولاء الشعب للثورة المجيدة.

- تشكيل أفواج من المجاهدين تجوب المشاتي والدواوير لاستطلاع المسالك التي يسلكها جيش التحرير وتأمينها.

- تثبيت مبدأ الشورى والقيادة الجماعية.

- إنشاء لجان تعنى بتنظيم الحياة الجماعية والاجتماعية للمواطنين مثل لجان العدل بالمناطق الريفية للبت في مختلف النزاعات. وحتى يبرهن القائد البطل زيغود يوسف للعدو الفرنسي عن قوة حضور الثورة التحريرية في المنطقة، فقد قام في 8 ماي 1955 بالتخطيط والإشراف والتنفيذ لعدة عمليات عسكرية تحلدا للذكرى العاشرة لجازر الثامن ماي 1945، تمثلت في الهجوم على ثكنات العدو الاستعماري، وتخريب منشآته كأسلاك الهاتف والطرق والجسور ومزارع المعمرين، وهي العمليات التي رفعت معنويات الشعب وأوقعت الإحباط والخوف في الدوائر الاستعمارية، والتي ازدادت رعبا بعد تفجير المجاهدين الأبطال لقبلة بمطعم الكازينو الكائن وسط مدينة قسنطينة، وكذلك مهاجمة معقل العقيد "ديكارنو" بالحروش. هذه العمليات وغيرها بينت للأعداء والأصدقاء مقدار سيطرة زيغود يوسف ورفاقه على ساحة الوغى وأن المجاهدين تحت قيادته قد بنوا جيشا نظاميا مدريا وقادرا على ضرب معاقل العدو في أي وقت، ولذلك قام جيش التحرير بقيادة سيدي أحمد بعمليات مماثلة لعمليات 8 ماي إحياء لذكرى احتلال الجزائر في 5 جويلية 1830، وخلالها تمكن جيش

التحرير الباسل من الحصول على غنائم عسكرية هامة من الأسلحة والذخائر الحربية، كما تمكن من إحداث خسائر كبيرة في صفوف المعمرين وحتودهم.

زيغود يوسف يخطط ويقود هجومات 20 أوت 1955.

تعد هجومات 20 أوت 1955 علامة فارقة في تاريخ الثورة الجزائرية، حتى أن هناك من يعدها بمثابة نوفمبر جديد أو على الأقل إنقاذ لثورة نوفمبر 1954 من الحصار الذي ضربه الاستعمار عليها. ولقد اقترنت هذه الهجمات المضفرة بشخصية زيغود يوسف لأنه هو صاحب فكرتها ومخططها الأول وقائدها الميداني العام أيضا، هذه الهجمات التي تعددت أهدافها كانت تقوم أساسا على فكرة تعميم الثورة التحريرية في كامل الوطن الجزائري وذلك من خلال القيام بهجمات عسكرية وشعبية كاسحة وشاملة لكل معاقل الاستعمار ورموزه الاستيطانية. والحقيقة أن فكرة هذه الهجمات الكاسحة قد راودت البطل سيدي أحمد منذ معركة بوكركر، ومع الأيام كانت فكرته تنمو وتتطور حتى إذا ما كاشف رفاقه بها خلال الاجتماعات التي عقدها معهم تحولت الفكرة إلى خطة متكاملة قابلة للتنفيذ، وشرع الجميع منذ اجتماع جوان 1955 بناحية بوساطور قرب سيدي مرغيش في إعداد العدة والعتاد للقيام بتلك الهجمات التاريخية، ثم أشرف زيغود يوسف على عقد اجتماع ثانٍ يجيل الزمان في 23 جويلية 1955 تم خلاله تدارس الوضعية العامة للثورة التحريرية، و شرح زيغود يوسف للحاضرين المغزى السياسي والعسكري للهجمات وكذلك أهدافنا الداخلية والخارجية، وكان لا يفتأ يردد للحاضرين قوله: "من كسب الشعب كسب الثورة ومن خسره خسر الثورة."

وبالتشاور مع المجاهدين والقادة السياسيين والعسكريين الحاضرين في الاجتماع تم تحديد تسعة وثلاثين هدفا استعماريًا للتخريب في تلك الهجمات، كما تم تقسيم منطقة الشمال القسنطيني إلى نواح وتعيين مسؤوليها وتوزيع المهام عليهم. ومن أجل

الحفاظ على سرية الهجمات لم يعلن القائد زيغود يوسف لمسؤولي المنطقة عن موعدها- يومها وتوقيتها- إلا في آخر اجتماع له بهم مساء يوم 19 أوت 1955 حيث أخبرهم أنه بناء على حسابات دقيقة، فقد تم اختيار يوم السبت 20 أوت 1955 في الساعة منتصف النهار بالضبط موعدا لانطلاق الهجمات على أن تستمر هذه العمليات لمدة ثلاثة أيام متتالية.

لقد كان يوم 20 أوت 1955 يوما مشهودا في تاريخ الجزائر الثائرة، ففي الساعة منتصف النهار كانت مواقع الاستعمار الفرنسي على امتداد قسنطينة إلى قائمة ومن جيجل إلى سكيكدة وحتى عنابة كلها عرضة لهجمات المجاهدين الأشاوس مرفقين بدعم الجماهير الشعبية، والتي هبت عن بكرة أبيها لتحدى الاستعمار في وضوح النهار فتحرب منشآته القاعدية والعسكرية وتلغ مزارع المعمرين، في حين كان عساكر الاحتلال هدفا سائغا لرصاص المجاهدين، وأمام قوة الهجمات وانتشارها الواسع في كامل الشمال القسنطيني فقد أصيب المحتلون بالذعر والرعب فاستسلموا لذلك الغضب الثوري العارم الذي كان البطل زيغود يوسف يقوده في كبرياء وشموخ متحديا جبروت الاستعمار مبينا للقاصي والداني أن الشعب الجزائري الأبي قد التفت حول جبهة التحرير الوطني، وهو قادر على افتكاك حريته مهما كانت التضحيات. وعلى الرغم من أن رد الفعل الاستعماري على تلك الهجمات قد اتسم بالانتقام البشع من الشعب الأعزل حيث قتل ما لا يقل عن ثلاثة عشر ألف شهيد، إلا أن هجمات 20 أوت 1955 قد حققت للثورة الجزائرية نتائج إيجابية كبرى داخليا وخارجيا، ومنحتها انتصارا تاريخيا مظفرا لم يكن ليتحقق لولا حكمة القائد زيغود يوسف، وتضحيات الشهداء والأبطال الذين لقنوا فرنسا درسا في البطولة والفداء. لقد كانت الثورة في حاجة لمن يذكي لهيبتها أكثر، ويرفع صوتها عاليا في الآفاق أكبر، فجاءت هجمات 20 أوت 1955 لتسمع صوت الثورة الجزائرية في العالم أجمع.

مشاركة زيغود يوسف في مؤتمر الصومام.

إن انتشار الثورة التحريرية في مختلف مناطق الوطن، قد فرض على قادة جيش التحرير الوطني التفكير في عقد لقاء يسمح لهم بإعادة تنظيم الكفاح المسلح بما يستجيب للتطور الذي تشهده الثورة، وبعد التشاور اتفقت الآراء حول ضرورة عقد مؤتمر وطني لدراسة أوضاع الثورة والخروج بميثاق سياسي يحدد منهجية تسييرها. ولقد كان من المزمع عقد هذا المؤتمر في ناحية القل حيث يوجد مركز قيادة زيغود يوسف، غير أن معطيات متعددة جعلت اختيار القادة يقع على وادي الصومام -سنواحي بجاية - كما كان لعقد المؤتمر في يوم 20 أوت 1956، وبدل اختيار هذا التاريخ على تشريف قادة الثورة لهجمات 20 أوت 1955، وتكريمهم لمخططها وقائدها البطل زيغود يوسف والذي يقال إنه صاحب فكرة عقد ذلك المؤتمر أيضا.

لقد تولى زيغود يوسف بنفسه قيادة وفد منطقة الشمال القسنطيني في أشغال ذلك المؤتمر التاريخي الذي حضرته أغلب قيادات الثورة عبر الوطن، ودام عشرة أيام تم خلالها مناقشة حصيلة اثنين وعشرين شهرا من النضال السياسي ومن الكفاح المسلح، وذلك انطلاقا من التقرير الذي أعده قادة منطقة الشمال القسنطيني وعرضه القائد زيغود يوسف على المؤتمرين، ولقد خرج ذلك المؤتمر بقرارات تاريخية هامة أعادت تنظيم الثورة التحريرية. ويشهد الحاضرون بأن المؤتمرين كانوا يعاملون البطل زيغود يوسف باحترام وتبجيل فائق، فكانت آراؤه واقتراحاته تلقى القبول والرضا والاعتماد في التوصيات الختامية، وذلك نظرا لعمق تجربة منطقة الشمال القسنطيني في مقارعة الاستعمار، ونظرا لعمق التحليل الذي يصدر عن زيغود يوسف كلما أخذ الكلمة، وهو ما جعل قادة الثورة في ختام المؤتمر يكلفونه بالتوجه إلى الأوراس لدراسة الوضع بالمنطقة بعد استشهاد قائدها مصطفى بن بولعيد -رحمه الله- وكل ذلك يعكس حجم الثقة والتقدير الذي يحظى بهما زيغود يوسف بين إخوانه ورفاقه.

استشهاد الحداد الثائر القائد العقيد زيفود يوسف .

كان زيفود يوسف قد عاد يوم 8 سبتمبر 1956 من الصومام إلى نواحي القل مقر قيادته بالشمال القسنطيني، والتي أصبحت تسمى بعد المؤتمر باسم الولاية الثانية، وقام بزيارة عائلته في دوار الصوادق -مسقط رأسه - يوم 20 سبتمبر 1956 وودعها يوم الجمعة 21 سبتمبر ومن المؤكد أن تلك المدة القصيرة التي أمضاها رفقة العائلة قد أدخلت البهجة والسعادة على قلوب الجميع، خاصة أخته زبيدة وزوجته عائشة التي حرمت كثيرا من رؤيته، وعاشت حياتها مطاردة من قبل قوات الاحتلال الفرنسي وهذا منذ سنة 1950، حيث تنقلت بين دواير الصوادق والمجابهة متخفية عند أهل زوجها من عائلات بوشريجة وبوضرسة وذلك حتى سنة 1957 حيث انتهى بها المطاف في بيت أهلها بالحروش، ولكم تعذبت وهي تتنقل خلف زوجها عبر مراكز جيش التحرير مضحية براحتها وراحة أبنائها، حيث إنهما أنجبت 6 ستة أبناء منهم واحد ولد ميتا، أما الباقي وهم: محمد العربي، وطارق، وشامة، ومريم، ومراد الذي سمي كذلك تخليداً للذكرى الشهيد ديدوش مراد - رحمه الله - فقد ماتوا جميعا صغارا بسبب المرض خلال الثورة، ولم تكتب الحياة إلا لواحدة فقط منهم هي البنت شامة التي ولدت في 29 جانفي 1948، وتم تهريبها من قبل المجاهدين إلى تونس حيث عاشت هناك إلى ما بعد الاستقلال.

كان زيفود يوسف مشتاقا للقاء عائلته، وكان إحساسا بدنو أجله قد راوده وأسى عليه إلقاء النظرات الأخيرة، وخاصة زوجته عائشة التي أكرمها الله بالزواج من قريبها يوسف زين الشباب وسيد الرجال، وبعد مكوثه مع عائلته بدوار الصوادق لمدة يومين مثلما ذكرنا غادر سيدي أحمد إلى ناحية سيدي مزغيش لعقد اجتماع مع المجاهدين والمناضلين لرفع معنوياتهم وإخبارهم بقرارات مؤتمر الصومام، وهذا قبل التوجه إلى الأوراس لتنفيذ المهمة التي كلف بها هناك، وبعد أن سرح الفيلق الذي كان

يقوده، لم يبق معه سوى ثمانية مجاهدين باتوا ليلتهم يوم 22 سبتمبر 1956 في ضيعة المناضل زيدان بوالزرد الواقعة في مكان يدعى بلاد السعودي بين منطقتي الخربة والحجري - شمال سيدي مزغيش - وكلف المجاهد بوصبع جامع بمهمة الحراسة.

لقد صادف في صبيحة يوم 23 سبتمبر 1956 أن خرجت فرقة كومندوس من جنود الاستعمار إلى مشنة الخربة لاعتقال بعض المواطنين فيها، ولم تكن تلك الفرقة لتعلم أبدا بوجود زيغود يوسف في تلك الناحية، وبالفعل فقد كان زيغود يوسف ورفاقه في مأمن من شرها لولا أن الحارس بوصبع اضطرب وأصابه الذعر عند رؤيته عساكر الاحتلال ظنا منه أن تلك الفرقة قادمة نحوهم، فتعجل في إخطار زيغود بقدمها وبضرورة الإسراع في الاختباء في شعبة المالحة قرب مشنة الحجري، وبسرعة اتجه زيغود يوسف ورفاقه إلى هذه الشعبة وانسلوا عبرها، ولكن مفاجأة الأقدار شاءت أن فرقة عساكر الكومندوس الاستعمارية سلكت المسار نفسه الذي سلكه زيغود وأصحابه المنسلين معه، وكانت مشيئة الأقدار أيضا أن التقى الجمعان وجها لوجه، ودون سابق إنذار نطق الرصاص ووقع الاشتباك، فلم يجد زيغود يوسف من مجال سوى الاختباء تحت شجرة وارفة الظلال، ثم أخرج ما كان معه من وثائق وشرع في حرقها كي لا تسقط بين أيدي العدو فيكشف أسرار الثورة، وبينما انتشر الرفاق حول قائدهم وتولوا مهمة الدفاع، كانت النار تلتهم تلك الوثائق والدخان يتصاعد في السماء. ويؤكد رفاق الدرب أن ذلك الدخان هو الذي جعل قائد فرقة جنود الاستعمار يشك في الأمر مما جعله يصدر الأوامر لجنوده بقصف المكان بالأسلحة الثقيلة، وبعد ساعة من معركة غير متكافئة تماما استشهد زيغود يوسف وهو يحتضن شجيرة القندول متمسكا بالأرض التي أنبته ودافع عن حريتها في بسالة وكبرياء وشموخ.

وإلى غاية استشهاده وحمل جثمانه للمسجى لم تكن الدوائر الاستعمارية لتعلم أن قتيلاها هو البطل الشهيد زيغود يوسف الذي شبيها ولم يتعب، ولم يتأكد لديها الخير

اليقين إلا بعد أن تم 'استقدام' المعمر بول بريدن صاحب محل الخدادة ليتعرف عنى هويته، وعندما رأى جثته سارع إلى النظر في ساقه، ثم أنزل دموعا حارة عليه عندما تحقق من وجود علامة خصوصية في ساق القتيل تتمثل في أثر حريق كان قد أصابه في رجله عندما كان يعمل معه في محل الخدادة وهو صغير، ولقد كانت دموع المعمر بول بريمان بالنسبة للسلطات الأمنية الاستعمارية أبلغ من أي كلام، فقد أخبرتهم تلك الدموع الحزينة بأن قتلهم هو زيغود يوسف دون أي شك، فطارت السلطات الأمنية الاستعمارية غبطة وتولى المفتش العام للإدارة الفرنسية الجلاد موريس بابون الإعلان الرسمي عن مقتل قائد الثوار في الشمال القسنطيني، حيث قال: "كان من الضروري التأكد من أننا أمام جثة زيغود يوسف، وبالتالي فإن المقاومة في الشرق قد انتهت."

لقد كان لهذا الخبر مفعول الزلزال في وجدان رفاقه وعموم الشعب الجزائري المكافح، ويمكننا أن نقول بأن الثورة الجزائرية كلها قد غضبت لاستشهاد زيغود يوسف القائد الفذ والمجاهد القوي الصلب، فبكته الأرض والسما، فباستشهاده فقد الرفاق قائدا محنكا وملهما كما فقدوا رجلا طيبا حنوننا إلى أبعد حدود الطيبة والحنان... الشهيد زيغود يوسف الذي ما غضب إلا من أجل عزة أمته وما ثار إلا من أجل حرية الجزائر... فضحى من أجلها ووهبها حياته ووجوده... فكانت روحه الطاهرة فداء لحرية الجزائر واستقلالها. ولذلك فعلى العكس تماما مما توقعه موريس بابون ومعه كل قادة الاستعمار وجلاديه فإن استشهاد زيغود يوسف قد زاد الثورة التحريرية لهما واشتعالا وزاد المجاهدين غضبا وتضحية، فكان تحقيق النصر بتحرير الجزائر من الاستعمار تحقيقا لحلم زيغود يوسف وكل الشهداء الأبرار.

تكشف هذه السيرة عن مجموعة من القيم والعبر التي يمكن استخلاصها من حياة زيغود يوسف وكفاحه المرير في مقاومة الاستعمار الفرنسي، من ذلك قوة شخصيته وشدة بأسه ورفضه الاستسلام لوضعه كيتيم فقير، بل إن في تسميته علي ساعديه وامتھانه الحدادة والنجارة دليل على إرادته الصلبة وتحديه لقسوة ظروفه؛ كما أن قدرته الفائقة على انتزاع احترام الناس وتقديرهم له دليل على أخلاقه العلية وقدرته على نسج علاقات واسعة مع الناس والمحيط من حوله؛ فحب الناس واحترامهم الشديد له هو ما سمح له بغرس أفكاره التحررية المقاومة وقيادة شعبه نحو النصر المؤكد.

وزيغود يوسف شاب نائر متمرّد، يعشق الحرية؛ ويكره الاستعباد والنظم، له نفس أبية مملوءة بالرجولة والفحولة والأنفة؛ إنه شاب ذكي جدا، بل خارق الذكاء والعبقرية، هذا ما نلمسه في قدرته على صناعة مفتاح تمكن بواسطته من فتح زنزانة سجن عنابة الرهيب، وقدرته على صناعة القنابل التقليدية وتفكيك القنابل التي يزرعها الاستعمار في طريق المجاهدين، ويتجلى ذكاؤه الوقاد في تخطيطه وإشرافه على هجمات 20 أوت 1955 على الشمال القسنطيني، وهي الهجمات التي أنقذت الثورة التحريرية من الخنق والحصار الذي ضرب عليها في الأوراس، لقد كادت الجيرة أن تنطفئ لولا أن أشعلها زيغود من جديد وأمدّها بما يزيد في اشتعالها وانتشارها أكثر وأكثر.

وبفضل ذكائه الوقاد وقدرته العلية على التخطيط والتنظيم، فإن الولاية التاريخية الثانية التي كان يشرف عليها قد ضريت أروع الأمثلة في البطولة والتضحية والفداء، كيف لا وقد اشتهرت هذه الولاية بكلمتين معبرتين عن منهج زيغود يوسف في القيادة والعمل، هما كلمة: "النظام" وكلمة: "السلسلة".

إن شجاعة زيغود يوسف واضحة في كل خطوات حياته، فيمثل ما كان في شبابه يلعب النار ويدعك الحديد، فإنه قد مضى يلقن زبانية الاستعمار دروسا في البسالة والنبالة والشرف وهذا حتى لحظة استشهاده، حيث واجه قدره ببسالة واحتضن شجيرة القندول ومات متحذرا في الأرض التي أنبتته.

والحقيقة أن زيغود يوسف هو رجل حنون عطوف متواضع يأبى الكبر والفخفخة حتى أنه - ربما الوحيد من زعماء الثورة - الذين رفضوا تعليق نياشين رتبته العسكرية بعدما منحته الثورة رتبة عقيد، فكان يفضل أن يناديه رفاقه باسم سيدي أحمد على أن يلقب بالعقيد زيغود يوسف، إنه ابن الشعب الأعزل البسيط المحب للخير العاشق للأرض التي أنبتته وللحرية التي يحلم بها، وفي سبيل انتزاع الحرية من المستعمر الغاشم ضحى بكل شيء باذلا في سبيل ذلك النفس والنفيس: المال والجهد والوقت والأسرة والعمر.

إنه حقا بطل كبير وقائد عظيم لكنه إنسان لا يعامل كثيرا للعنف والدماء بل هو رجل عاشق للحرية ومحب لخير الإنسانية، إننا نجد محبا لأسرته وأهله يزورهم باستمرار ويتفقدهم وفي حياته أربعة نساء عظيمات:

الأولى هي أمه ميمنة غراي التي ولدته وربته يتيما بعد وفاة والده وهو في بطنها ذو خمسة شهور وعلى الرغم من كونها أرملة فقيرة معدمة إلا أنها استطاعت أن تدخله المدرسة القرآنية والمدرسة الفرنسية فتخرج شابا يافعا قويا يقود قومه نحو النصر والحرية .

المرأة الثانية في حياته هي زوجته عائشة طريفة التي ارتبطت به وناضلت إلى جانبه فأخفت الوثائق وخاطت الأعلام الوطنية وتشردت كثيرا بين البيوت مخفية عن عيون الاستعمار ورغم قسوة ظروفها أنجبت له 6 أبناء ماتوا جميعا وهم صغار بسبب المرض وسوء المعيشة ما عدا واحدة فقط هي البنت شامة التي تعد البنت الوحيدة على قيد الحياة للمشهد زيغود يوسف.

ولذلك فإن المرأة الثالثة في حياة هذا الشهيد هي ابنته شامة التي كانت تبغ ثماني سنوات عندما هربها المجاهدون إلى تونس بعد استشهاد والدها وظلت هناك حتى الاستقلال. شامة والتي ما سماها زيغود شامة إلا لتكون دلالة وأمانة وشهادة على وجوده التاريخي، وقد استلهم اسمها من حلم شمال إفريقيا.

المرأة الرابعة في حياة زيغود هي أخته من أمه السيدة زبيدة بوضرسة، إنها أخته الوحيدة التي قاسمته اليتيم بعد وفاة والدها هي أيضا، كما قاسمته عشق الحرية وكرامية الاستعمار حيث إنها عاشت أرملة بعد استشهاد زوجها خلال الثورة.


زيغود كان على وفاق تام مع أعمامه وأحواله وأصهاره، كان يحب زوجته عائشة وابنته شامة جدا كما لكنه في الوقت نفسه كان يحب أخته زبيدة كثيرا حتى أنه كان يطلب رؤيتها باستمرار كلما زار أسرته. وزيغود قبل أن يستشهد بيوم واحد زار عائلته في دوار الصوادق بالسمنندو وأخبرهم أن الاستقلال قادم لكنه سيكون قد استشهد قبل مجيئه و لن يحضره.

لقد كان واثقا من استقلال الجزائر، لكنه مثل الأنبياء والصحابة لم يكن يوضح بعد تبليغ رسالته إلى أي دنيا يصيها سوى أن نعم بالشهادة في سبيل الله والوطن حيث كان يقول لرفاقه في السلاح: "اللهم يا ربي ارزقني الشهادة ولا تجعلني أدرك الاستقلال"، لقد استشهد زيغود يوسف وهو في ريعان شبابه إذ لم يكن يبلغ من العمر سوى خمس وثلاثين سنة، كانت كافية لتصنع ملحمة خالدة بالتضحيات والقيم والبطولات.

قال تعالى: "وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ".

المصادر والمراجع:

- 1- شهادات حية سمعتها من أسرة الشهيد ورفاقه في الكفاح منهم: "زوجة الشهيد وابنته شامة"، والمجاهدين: عمار بن عودة، الطيب الثعالبي، إبراهيم شيبوط، صالح مرسى، بوقرة فردي، ارحايل بوشريط، بوخميس موسى...إلخ
- 2- Brahim Soltane-Chaibout Zighoud Youcef que j'ai connu –temoignage – edition Houma ; Alger 2007.
- 3- علي كافي: مذكرات الرئيس علي كافي، ط2، دار القصة للنشر، الجزائر، 2011.
- 4- موسى توائي ورايح عواد : هجوم 20 أوت 55، دار البعث، قسنطينة –الجزائر 1992.



من أعلام قسطنطينة
في علوم أخرى

إسهامات ابن قنوذ القسطنطيني الرياضية والفلكية¹

محمود جلودي

جامعة الأمير محمد القادر

العلوم الإسلامية

اهتمام المسلمين بالرياضيات وفروعها المختلفة التي من ضمنها "علم الحساب" وعلم الفلك، يعود أولاً لبروز الترجمة، وانتقال المعارف في المغرب والأندلس، ويبدو تأثير المدرسة المشرقية جلياً على هاتين المنطقتين، فقد كان علماء المشرق سبقين لعلم الرياضيات، فهناك من الأسباب المتعلقة بالدين الإسلامي في بعض مجالات الشريعة اعتمدت فيها الرياضيات، فالقانون الدقيق لقسمة التركات الذي شرعه الإسلام جعل هناك حاجة ملحة لعلم الحساب خصوصاً باب الكسور²، وكان من نتائجه ابتداء علم جديد سمي علم "الجبر والمقابلة" كذلك ساعد علم المثلثات³ في تطوير علم الفلك كرقبة الهلال، وتحديد القبلة، وهذا يعطي تكاملاً وتوافقاً بين الرياضيات وعلم الفلك، كما عملت المعاملات التجارية على التوسع في استعمال التقنيات الحسابية مع التنوع فيها. يندرج علم الحساب ضمن العلوم العددية وهو أيضاً علم الجبر والمقابلة أي جبر الأعداد والجذور ومقابلتها مع بعضها ومعرفة أدواتها وهي المسائل أي المعادلات الرياضية، ويعرفه "ابن خلدون" بقوله: "وهي صناعة علمية في حساب الأعداد بالضم والتفريق، فالضم يكون في الأعداد بالأفراد وهو الجمع وبالضعيف تضاعف عدداً بآحاد عدد آخر

¹ - الفصل المتقدم هنا هو جزء من مذكرة ماستر بعنوان إسهامات علماء قسطنطينة في العلوم العقلية: علم

الفلك والحساب نموذجاً، إشراف أ.د. علاوة عمارة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2015.

² - محمد إبلانغ، "الرياضيات في الأندلس ما بين ق3-9هـ/10-11م"، السجل العلمي لندوة الأندلس: قرون من الثقافات والعطاءات، نشر عبد الله الزيدان ومحمد بن صالح السحيباني، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 10 (1996)، ص 33.

³ - انظر الجزء الخاص بالملاحق، ص 30.

وهذا هو الضرب أيضا، والتفريق أيضا يكون في الأعداد إما بالافراد مثل إزالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح أو تفضيل عدد بأجزاء متساوية عدتها محصنة وهو القسمة. وسواء كان الضم والتفريق في الصحيح من العدد أو الكسر، ومعنى الكسر نسبة عدد إلى عدد وتلك النسبة تسمى كسرا، وكذلك يكون بالضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يُضرب في مثله فيكون منه العدد المربع، فإن تك الجذور يدخلها الضم والتفريق، وهذه الصناعة حادثة احتيج إليها للحساب في تعاملات وتُنف الناس فيها كثيرا وتداولوها في الأمصار بالتعليم للولدان¹. سأعرض هنا لمساهمة أحد أبرز الرياضيين القسنطينيين في العصر الوسيط الإسلامي وهو ابن قنفذ، محاولا إبراز مكانته المغاربية في هذا المجال.

قسنطيني المولد والدار:

ولد أبي العباس أحمد بن حسن بن علي الشهير بابن قنفذ وابن الخطيب القسنطيني في عائلة علمية بمدينة قسنطينة سنة 740هـ/1340م² ويؤكد ذلك حيث تنحدر عائلته من بطن قبيلة أشجع العدنانية التي كان يسميها أهلها ببني قنفذ بن حلاوة بن سبيع بن أشجع³، وارتباط "ابن الخطيب" بابن قنفذ قديم، فهو ينسب إلى جده الخامس، ويشير "ابن قنفذ" إلى هذا عند كلامه عن جده فنصّ بقوله: "وفي السنة- أي سنة 733هـ- توفي الجد والد والدي علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ⁴، وأما شهرته الثانية فتعود إلى والد جده عليا كان خطيبا بالجامع الكبير بمدينة

¹ - ابن خلدون، "ديوان المبتدأ والخير ديوان المبتدأ والخير في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، ضبط الأستاذ خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار النكر، ج 1، 2001، ص 635.

² - ابن قنفذ، "أنس الفقير وعز الخبير" نشر وتص: محمد الفاسي، أودلف فور، المركز الجامعي للدراسات والبحوث - الرباط، 1965، ص ت من مقدمة الكتاب.

³ - عبد العزيز فيلاي، "ابن قنفذ مؤرخا لأسرته وبلدته"، مجلة سيرتا للعلوم الاجتماعية، منشورات جامعة منتوري، العدد 11 (1998)، ص 110.

⁴ - الوفيات، ص 345.

قسنطينة مدة خمسين سنة كما ذكر ذلك في كتابه الوفيات، ثم خلف بعده ابنه الحسن والد "ابن قنفذ".

نشأ "ابن قنفذ" في كنف أسرة متعلمة ثرية، وبيت علم وأدب توارثت الخطابة في المسجد الجامع لعدة أجيال متعاقبة، وحازت الخطابة مكانة ومنصبا رفيعا في ذلك الوقت، تلقى علومه الأولى بمسقط رأسه على يد والده "الحسن بن علي" فعني بحفظ القرآن الكريم ومبادئ اللغة العربية وحفظ بعض المتون المنتشرة آنذاك، توفي والده وهو لم يبلغ العشر سنوات فكفله جده لأمه "أبو يعقوب يوسف الملاري" والد أمه خريج مدرسة "أبي المدين الغوث"¹ وصاحب زاوية "ملازة"² قرب فرجوية، وفي هذه المراحل الأولى من حياة "ابن قنفذ" حُدثت الشخصيات التي أثرت في سلوكه العلمي والتوجيهي:

الأولى: "الحسن بن علي" كان على قدر كبير من العلم والأدب إضافة إلى ميوله الصوفي، رحل إلى المشرق مرتين، وكانت الرحلة الثانية بعد مولد "ابن قنفذ" (قبل سنة 1344/هـ745م) سمع فيها من "أبي الحيان الجبائي"³ وشمس الدين الأصفهاني⁴،

¹ - أبو مدين شعيب (ت 1198/هـ594م) هو شعيب بن حسن الأنصاري الأندلسي من أهواز اشبيلية، الشيخ المحقق، الواصل القطب، إمام العباد والرهاد وخاصة الخلقاء من فضلاء العباد، اشتغل في أول حياته برعاية المشاية، ثم انتقل إلى العدة المغربية فنزل طنجة ثم سبتة ثم بمراكش ثم فاس، كان من الرجال الزهاد وله كرامات ينظر: الغبريني، عنوان الدراية فيما عرف من العلماء في ثلاثة أسابيع بيجاية، تح عادل تويبيض، ط2، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1979، ص22، بحجة المريني، "ابن قنفذ من خلال رحلته أنس الفقير وعز الحفير"، مجلة سيرتا للعلوم الاجتماعية، 1998، 11، ص119

² - توجد هذه الزاوية في مشنة "ملازة" ببلدية تسدان في الشمال الغربي تبعد عن فرجوية بـ12 كلم

³ - هو أبو حيان أنير الدين محمد بن يوسف الغرناطي الأندلسي الجبائي توفي سنة (1344/هـ745م) كان غاما في الفقه والحديث والقراءات

⁴ - هو أبو انشاء شمس الدين الأصفهاني توفي سنة (1348/هـ749م). زار القدس ودخل دمشق والتقى بابن نسية، مات بالطاعون بمدينة القاهرة، من مؤلفاته مطالع الأنظار في طوابع الأنوار، انظر: شرف الطالب في أسنى المطالب، تح عبد العزيز دخان، الرياض، مكتبة الرشد، 2003، ص20.

وأخذ كذلك عن علماء بجاية كأبي علي البحائي¹ وابن غريون² وغيرهم، ترك مصنفات نذكر منها "المسائل المسطرة في النوازل الفقهية" و"المستون في أحكام الطاعون"، وإذا تأملنا في سيرة والد "ابن قنفذ" نلاحظ اهتماما أيضا بتعليم أولاده من الإناث كما نذكر كتب التراجم أنه خصص لهنّ الشيخ أبا عبد الله الصغار³ يدرسهنّ القرآن حتى أتمت إحداهنّ حفظه وقرأت عليه الرسالة فيدل على اهتمام الرجل بالعلم وحرص أهل "قسنطينة" على تعليم أبنائهم ذكورا وإناثا.

الثانية: جده لأمه "أبو يعقوب يوسف بن يعقوب الملاي" المولود سنة (1272/670م) يعد من مشاهير الصوفية بالمنطقة، بنى والده يعقوب زاوية "ملارة"، أقام بها مدة وترقى بها، ولما مات أبوه سنة (1317/717م) تولى شؤون الزاوية حتى توفي سنة (1363/764م)، ويظهر أنّ "ابن قنفذ" كان يتردد على الزاوية رفقة جده وكان له أثر عميق على حفيده "أبي العباس" ويتحلى ذلك في كتابه "أنس الفقير وعزّ الحقيّر".⁴

شهد القرن الثامن الهجري ازدهار في العلوم والفنون في بلاد المغرب، ونبغ فيه رجال استفادوا من التراث الثقافي والعلمي الذي خلفته الدول المتعاقبة⁵ وإن كانت المعارف العلمية التي ظهرت في أواخر هذا القرن إلى السنين الأولى من القرن التاسع لا تعادل إنتاجيات الحقبة الأولى منه.

¹ - أبو علي ناصر الدين منصور بن أحمد المشنالي للتوفي (731/1331م) البحائي، قرأ ببجاية على أكابر مشايخها ثم ارتحل إلى المشرق وأقام هناك نحو العشرين عاما درس الأصول والفروع واختص في دراسة الحديث رواية.
² - هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن غريون المتوفى سنة (731/1331م)، من علماء وخطباء مدينة بجاية.
³ - توفي سنة (750/1349) ودفن في مسجده قرب باب القنطرة بقسنطينة. النظر: الوفيات، ص356.
⁴ - الوفيات، ص7.

⁵ - أنس الفقير وعزّ الحقيّر، ص ب من المقدمة.

صدع اسم "ابن قنفذ" في قائمة العلماء الأعلام في القرن الثامن الهجري، فبلغ تحصيله العلمي علوماً متنوعة مكنه من أن يتبوأ مناصب ووظائف سامية في الدولة فكان قاضياً وخطيباً ومدرساً للعلوم وهذا يتطلب تبحراً في علوم الفقه والتفسير والحديث واللغة والنحو وكذلك التراجم ومعرفة الرجال وشيء من علم الفلك، فاستحق "ابن قنفذ" اهتماماً من الإخباريين الذين أرتحوا للحفصيين أو الزريانيين أو المرينيين أو الدارسين المعاصرين، وترجم له "أحمد بابا التنبكي"¹ في نيله و"ابن القاضي المكناسي"² في درته و"الخفناوي"³ في تعريفه و"مخلوف"⁴ في شجرته ووصفوه بالمتفنن، الخطيب، الفهامة وغيرها من الألقاب.

الأعمال الرياضية:

يمثل إنتاج "ابن قنفذ" الرياضي استمراراً للنشاط الرياضي الذي قام به علماء مغاربة وندلسيون في القرن الثامن الهجري، وإن كان هذا الإنتاج ليس وليد اللحظة، فقد سبق ذلك انتشار مصنفات علمية ورياضية في العصر الموحد، وأشار "ابن قنفذ" في ثبوت تأليفه إلى أعماله الرياضية، وقد أقرت ذكرها في هذا البحث وهي:

1) بغية الفارض من الحساب والفرائض: ولم يعثر عليه لحد الآن.

¹ - هو أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد بن النحر بن أبي بكر بن عمر الصنهاجي الماسي السوداني التكروري التنبكي، ولد بتبكو سنة (963هـ/1556م)، توفي في شعبان سنة (1036هـ/1627م)، انظر: التنبكي، "فيل الابتهاج بتطريز الديباج"، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الحري، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، الجزء 1، 2-1989، ص 15، 11.

² - هو أبو محمد أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي الفاسي، توفي سنة (1025هـ/1616م) نقل عن شرف الطالب، ص 35.

³ - أبو لقاسم محمد الخفناوي ابن الشيخ أبي القاسم الديسي بن سيدي إبراهيم الغول، ولد بقرية "عين الديس" الواقعة بين بوسعادة وولاية المسيلة بالشرق الجزائري، المصدر نفسه، ص 35.

⁴ - هو محمد بن مخلوف من كبار علماء المالكية، توفي بتونس سنة 761هـ/1360م، المصدر نفسه، ص 36.

(2) التلخيص في شرح التلخيص: وهو اختصار وجيز لكذب احط النقاب في أعمال الحساب لابن البنا المراكشي ويوجد ب: خ، ع، ق: خامس مجموع رقم 939، ورابع مجموع رقم: 1753 بالخزانة العامة بتمكروت¹.

(3) حط النقاب عن وجوه أعمال² الحساب: كتب "ابن قنفذ" "حط النقاب" في مدينة "فاس" الذي شرح "تلخيص أعمال الحساب" لابن المراكشي، نجد في "حط النقاب" الذي يتميز بتنظير منهجي هام، تقدمه الأولي مفصل وخلال مرات عديدة موضح في الأمثلة والرموز الرياضية فقط في تقدم المال (المربع غير المعروف)، كما أن هذا التأليف من أهم مؤلفات "ابن قنفذ" في القرنين الثالث والرابع عشر الميلادي، ويقول فيه مؤلفه: "وهو شرح تلخيص ابن البنا، وقد سبقت به ابن زكريا الأندلسي وكان قد أخذ من كتابي نسخة عند جوازه إلى مدينة فاس بعد سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة"³، يتضمن هذا الكتاب مقدمة طويلة فيها سرد وتفسير ثمانية إرشادات تعين الدارس في قراءة مؤلف ما، ثم يعطي قائمة مفصلة لكتب "ابن البنا" التي رآها هو بنفسه. وبعد إعطاء هذه القائمة يتعرض إلى شرح التلخيص بطريقة تقليدية، فيقوم بشرح جملة أو فقرة شرحا رياضيا، وفي بعض الأحيان لغويا، ولا نلاحظ في هذا الشرح تعددا للأمثلة، ولا إعطاء للبراهين، ونلاحظ كذلك اعتماده كتب المؤلفين رياضيين، بعضها الآن مفقود مثل قانون القاضي المراكشي (ت 680هـ/1282م) وهو رياضي تتلمذ على يد "ابن نعم" وكان أستاذا "لابن البناء"، وكتاب آخر "لابن طاهر" وهو من الرياضيين الأندلسيين، كما اعتمد كتب أخرى لم يشر إليها مباشرة وهي على الترتيب:

¹ - محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ط3، اندار البيضاء، مط النجاح الجديدة، منشورات كلية الآداب بالرباط، 2000، ص333-334.

² - جاء في كتاب "شرف الطالب" "إعمال الحساب" بكسر الهمز وليس بالفتح، "أعمال الحساب

³ - شرف الطالب، ص 239.

- مؤلفات الرياضي "الحصار".

- كتاب الأصول والمقدمات في الجبر والمقابلة، ورفع الحجاب عن وجوه أعمال الحساب وهذين الكتابين "لابن البناء".

- كتاب "تلقيح الأفكار في العمل يرشوم الغبار، والأرجوزة في الجبر والمقابلة "لابن الياسمين".

- تيسير المطالب في تعديل الكواكب "لابن قنفذ" نفسه¹. أما ما يتعلق بمضمون الكتاب، فالملاحظ العمل بطرق رياضية تقليدية لم يردها "ابن قنفذ" في "التلخيص" ولا ينسبها له بل هي من التقليد الرياضي المغربي والأندلسي، ويشير إليها الباحث الرياضي "يوسف فرقر" بعد اطلاعه على مضمونه:

أ- الطريقة المنتهجة في عرض الكتاب تستند إلى إعطاء قائمة بمواضيع الباب المراد شرحه، فنجد باب الضرب قسّمه إلى ستة مواضيع، وباب الجبر إلى ثلاثة عشر موضوعاً.

ب- استعمال الرموز الجبرية في أبواب الحساب -وهي ميزة اختص بها العلماء المغاربة- عند تمثيله لمختلف الكسور، وفي باب الجذور وكثيرات الحدود في الجبر.

ج- استخدم "ابن قنفذ" الصفر في الحساب وهو استعمال جديد حيث يظهر كأنه عدد دون أن يشير إلى ذلك وهذه بعض الأمثلة التوضيحية²:

$$0 - 0V, p - 0 - 1, 0 - x 0$$

د- ظهور المعادلة الصفرية وهي التي تطرق لها "ابن زكريا" الغرناطي، والجديد عند "ابن قنفذ" استعماله للمعادلة برموز رياضية على الشكل التالي³:

$$8 \text{ شلا } 7 \text{ ل } 0 \quad \text{الكتابة الحالية: } (8x - 7 = 0)$$

¹ - يوسف فرقر، "الأعمال الرياضية لابن قنفذ (810/1401م)", "مجلة سيرتا"، العدد 11 (1998)، ص 140

² - الأعمال الرياضية لابن قنفذ، ص 141

³ - المرجع نفسه، ص 141

هـ- عرض لبعض الصيغ الحسابية غير المذكورة في التلخيص، وبالأخص باب الضرب¹، مثل:

$$أب = (أ - \frac{2}{ب}) (أ + ب)$$

و- استعمال "ابن قنفذ" لمصطلحات رياضية مغايرة لعلماء رياضيين مثل "ابن البناء"، فيسمي موجبا ما يسميه "ابن البناء" زائدا ويسمي "منفيا" ما يسميه ابن البناء "ناقصا" وهذا كما يبدو يرجع إلى الاختلاف بين المدارس الرياضية في بلاد المغرب في التقليد الرياضي².

و- قام بحل مسألة عددية لم ترد في التلخيص "لابن البناء" مبينا عدم أهمية هذه المسائل وهي مسألة البحث عن طرق إنشاء المربعات السحرية (أو ما يعرف بالوفوق)، ويقصد به من رتبة "ط" الذي يكون مجزئاً إلى ط2، توزع في الأعداد الطبيعية من 1 إلى ط2 في كل بيت من بيوت التجزئة، فيعطي مجموع كل سطر أو عمود أو القطرين العدد نفسه، ويقدم "ابن قنفذ" عند إنشائه لهذه المربعات صيغة رياضية لقيمة كل عمود أو سطر أو قطر رئيسي من الرتبة ط³، والصيغة هي:

$$\text{مجم} = ط/2(ط + 1)$$

بعد ذلك يقسم "ابن قنفذ" هذه المربعات إلى أربعة أقسام لأن كل قسم مرتبط بزوجية أو فردية ضلع المربع، أما المربعات السحرية من الرتبة زوجي-زوجي تكون:

$$\{1 < ن، 2 = ط\}$$

أو من الرتبة زوجي - زوجي فردي:

$$\{ط = 2ن (2ك + 1)، 1 < ن، 1 < ك\}$$

¹- المرجع نفسه، ص141

²- المرجع نفسه، ص141

³- المرجع نفسه، ص141

أو من الرتبة زوجي - فردي، $\{ط = 2(ك + 1)، ك < 1\}$

أو من الرتبة فردي، $\{ط = 2ك + 1، ك < 1\}$.

طريقة ملء المربعات السحرية التي يستعملها "ابن قنفذ" عرفها سابقوه من أهل المشرق، كابن الهيثم (ت430/م1039)، ويبدو أنها انتقلت من بلاد المشرق إلى المغرب وأيضاً في المغرب لم يكن "ابن قنفذ" أول من استعملها فيعتقد أنه اقتبسها من رسالتين في الرياضيات توسعا في هذا الموضوع، الأولى إعداد الوفق "لابن نبينا"، والثانية رسالة إعداد الوفق "لابن منعم" وهما مفقودتان لحد الآن¹.

4) رسالة مبادئ السالكين في شرح رجز ابن الياسمين:

سمعت أرجوزة الجبر والمقابلة من "ابن الياسمين" بمدينة "اشيلية" سنة (587هـ)²، ونالت هذه الأرجوزة شهرة كبيرة ببلاد المغرب وفي مصر، جاءت في

(52) بيتاً من بحر الرجز³ واختص الكثير بشرحها على غرار "ابن قنفذ القسنطيني"، والحقباي (ت810/م1408)، وابن الهائم (ت814/م1412)،

والعسراقي (ت826/م1423)، وابن مجدي (ت891/م1486)، والقلصادي

(ت891/م1486)، وسبط المارديني (ت906/م1501)⁴ وغيره، ومن حيث

المضمون لا يقدم شرح "مبادئ السالكين" في شرح رجز ابن الياسمين إضافة جديدة لعدم الحساب، لكن المحتوى يظل شرحاً وتبسيطاً لما جاء في الأرجوزة من حوارزميات حلول المعادلات الجبرية من الدرجة الأولى والثانية وهذا تسهيلاً لطلبة العلم.

¹ - الأعمال الرياضية لابن قنفذ، ص142.

² Mahdi Abdeljaouad, « Le manuscrit mathématique de Jerba : une pratique des symboles histoire des "algébriques maghrébins en plein maturité », Septième Colloque Maghrébin sur mathématiques arabes (2002), p. 4.

³ - بحر من البحور الشعرية في علم العروض

⁴ - ابن محمد بن محمد بن أحمد العوال الدمشقي بدر الدين الشهير بسبط المارديني، عالم بالثلاث والرياضيات، ولد سنة 826/م1423، واحترف في سنة وثمانه، تلمذ

من تلامذته: الخطيب، أبو دلال، "الدرر بسط المارديني في علم الحساب والقياس"، "مذوق الفنانة والباحث"، 3(1993)، ص50.

4) متن أَرْحُوزَةَ "ابن الياصمين (الشرح لابن قنفذ):

جاءت العشر الأبيات الأولى بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على نبيه من الناظم "ابن الياصمين"، ثم أتبع بالشكر والدعاء للعالم "محمد بن قاسم" على توضيحه للمسائل الرياضية الصعبة، ثم عرَّج الناظم للتعريف بقصيدته الجبرية الموزونة على بحر الرجز، وحثم قوله بالاعتذار للقراء إن كان فيها خطأ أو نسيان، ومن خلال هذه الأرحوزة سأعرض بعض الأبيات التي تناولها الشارح "ابن قنفذ" مع بيان كتابة المعادلات الرياضية بالطريقة العصرية.

11- عَلَى ثَلَاثَةِ يَدُورُ الْجَبْرُ

المَالُ وَالْأَعْدَادُ ثُمَّ الْجَبْرُ

12- فَاَلْمَالُ كُلُّ عَدَدٍ مُرَّعٍ

وَجَبْرُهُ وَاجِدُ تِلْكَ الْأَضْلَعِ

13- وَالْعَدَدُ الْمُطْلَقُ مَا لَمْ يُنْسَبْ

لِلْمَالِ أَوْ الْجَبْرِ فَافْتَهُمْ تُصِيبُ

الشرح: معناه أنّ مدار الجبر يدور على ثلاثة أنواع: هي المال والعدد والجذر، فالمال هو كل عدد مربع أي له جذر صحيح، كالعدد خمس وعشرين، فإن جذرها هو خمسة، وأضلاع خمسة عشرون هي خمسة، كل ضلع فيه خمسة، فلكل جذر ضلع ويلزم العكس كخمسة عشر فهي مركبة من خمسة وثلاثة (5 ضرب 3 يساوي 15) فكل واحد منها ضلع وليست جذر، وكلاهما مربوط بالآخر فمتى وجد الجذر وجد الضلع ومتى انتفى الضلع انتفى الجذر¹ فبان أن الضلع أنخص والجذر أعم، أي:

-المال وهو الذي يرمز له: x^2

-الجذر أو الشيء الذي يرمز له المجهول: x

-العدد: C ، ويشمل الأعداد الصحيحة والكسرية الصماء الموجبة تماما.

14- وَالشَّيْءُ وَالْجَبْرُ بِمَعْنَى وَاجِدٍ كَالْقَوْلِ فِي لَفْظِ أَبِي وَوَالِدٍ²

¹تحقيق رسالة مبادئ السالكين، ص182.

²كما جاء في المخطوط يكون البيت الرابع عشر من النظم

الشرح: وفيه بيان المال والجذر ويسمى الشيء، والأشياء هي نفسها الجذور، فالمال ما يُجمع من ضرب الجذر في مثله، والعدد هو المطلق أي الذي لا ينحصر بمال أو جذر ولا ينسب إلى واحد منهما¹ والشيء والجذر هما مترادفتان كما قال "في لفظ أب ووالد".

$$15- فَبَعْضُهُ يَعْدِلُ بَعْضًا عَدَدًا \quad مُرَكَّبًا مَعَ غَيْرِهِ أَوْ مُفْرَدًا$$

$$16- فَبِتِلْكَ سِتٌّ نِصْفُهَا مُرَكَّبَةٌ \quad وَنِصْفُهَا بَسِيطَةٌ مُرْتَبَةٌ$$

الشرح: أراد بقوله أن تعدل هذه الثلاثة (المال والأعداد والجذور) بعضها بعضا بالإفراد والتكيب فتكون ستة، وتسمى الضروب، فهناك ثلاثة مركبة وأخرى مفردة، والمفردة بسيطة والضرب البسيط هو الذي تقع فيه المعادلة بين نوعين من الثلاثة الخاصة، وأما المركب فهو الذي تقع فيه الثلاثة المذكورة وتكون المعادلة بين واحد أو اثنين أبدا وبهذا المفردة تعدل الأموال للجذور أو الأعداد هذان ضربان، والضرب الآخر يعدل الجذور الأعداد فهذا ضرب آخر، أي:

$$(1) \quad ax^2 = bx \quad ، \quad \text{المال يعدل (يساوي égal) الجذور}$$

$$(2) \quad ax^2 = c \quad ، \quad \text{المال يعدل العدد}$$

$$(3) \quad bx = c \quad ، \quad \text{الجذر يعدل العدد}$$

والثلاثة الأخرى المركبة بانفراد واحدة في جهة من المعادلة، فصار المجموع ستة²، أي:

$$(1) \quad ax^2 + bx = c \quad ، \quad \text{المال والجذر يعدل العدد}$$

$$(2) \quad ax^2 + c = bx \quad ، \quad \text{المال والعدد يعدل الجذر}$$

$$(3) \quad ax^2 = bx + c \quad ، \quad \text{المال يعدل الجذر والعدد.}$$

¹- المرجع نفسه، ص 182.

²- المرجع نفسه، ص 182-183.

20- فَأَقْسِمُ عَلَى الْأَمْوَالِ إِنَّ وَجَدْتَهَا وَأَقْسِمُ عَلَى الْأَجْدَارِ إِنَّ عَابِدْتَهَا

21- فَهَذِهِ الْمَسَائِلُ الْبَسِيطَةُ خَارِجُهَا الْجِذْرُ سِوَى الْوَسِيطَةِ

22- فَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِيهَا الْمَسْأَلُ حَسَبَمَا قَدْ افْتَضَى السُّؤَالُ

الشرح: قوله "فأقسم" أي الضروب الثلاثة البسيطة (المعادلات) ويكون بقسمة الأموال على معادله. وقوله "وأقسم على الأجزاء فهذا يتعلق بالحالة الثالثة من المعادلات البسيطة، أي تقسم على الأجزاء في عدم الأموال، وقوله "فهذه المسائل البسيطة" أي هذه الضروب الثلاث من المعادلات من البسيطة "خارجها الجذر سوى الوسيطة" يستثنى منها الحالة الثانية، وهي الحالة أن تعدل الأموال عدداً فإنما يخرج منها المال بحسب ما يقتضيه سؤال المسائل.

وليس هذا من باب قسمة الأذن على الأعلى، ويتين ذلك عند ذكر الجنس الخارج قسمة هذه الأنواع، والنتيجة من القسمة والضرب أن يكون حاصل العملية الحسابية من الأول والثالث الجذر، ومن الثاني المال، ومتى علم الجذر علم المال بضرب الجذر بمثله وكذلك الحال مع الجذر فمتى علم الجذر علم المال لأنه يُضرب في مثله، لأن المال كل عدد مربع أي له جذر منطوق، وقد يقع غير منطوق، فينطق به فيه¹، كما تقول جذر ثلاثة وجذر سبعة، وقد بدأ بما لسهولة عملية الحساب وبساطتها، والبسيط مقدم على المركب عقلاً فوجب تقديمه وضعا وتقدماً²، والثلاثة البسيطة كما مرت بنا، الأولى أن تعدل الأموال جذوراً، والثاني أن تعدل الأموال عدداً، والثالث أن تعدل لجذور عدداً. مثال الأول: إذا كان هناك أربعة أموال تعدل عشرين شيئاً (أو جذراً) 20:4³

¹ - المرجع نفسه، ص 184.

² - المرجع نفسه، ص 184.

$$ax^2 = bx \rightarrow x^2 = \frac{b}{a}x \rightarrow x = \frac{b}{a}$$

$$4x^2 = 20x$$

نقسم على العشرين على أربعة، لأنه سبق الإشارة أن الأموال تقسم معادها فيكون الحاصل جذرا قدره خمسة، فاحتمة جذر المال والمال ضرب من ذلك في مثله فيكون خمسة وعشرون، والمعنى المراد أن أي مال إذا أخذته أربع مرات يعادل عشرين لأنه متى علم الجذر علم المال وهذا معنى يعادله، أي بمثله، فيصبح مجموع المال الذي هو خمسة وعشرون أربع مرات يساوي مائة التي هي مجموع الجذر الذي هو خمسة من العدد عشرون، سيكون هذا المثال قياسا لما بقي في تكلمة الشرح

$$\frac{ط}{2} \rightarrow 4x^2 = 20x \rightarrow x^2 = \frac{20}{4}x \rightarrow x = 5$$

ومثال الثاني من المفردات، قال: "إذا قيل لك ثلاثة أموال تعدل ثمانية وأربعين؛ كم المال وكم الجذر وصورة ذلك 3¹ 48¹ أي: $ax^2 = 48$ $ca = 3, c = 48$ وعندما تقسم العدد على الأموال يكون الناتج ستة عشر وهي المال، لأنه قال سوى الوسيطة يكون الحاصل مالا، وإذا علم المال علم الجذر وهو في مثالنا أربعة فإذا أخذت ستة عشر ثلاث مرات عادل ثمانية وأربعين.

$$\rightarrow 3x^2 = 48 \rightarrow x^2 = \frac{48}{3} \rightarrow x = 4$$

ومثال الثالث: متى يكون لدينا خمسة أجزار تعدل عشرين من العدد، والسؤال كم هي قيمة الجذر وكم قيمة المال $20 \div 5$ ، فنقسم العدد على عدد الجذور يكون الحاصل أربعة وهي الجذر، فأربعة خمس مرات تساوي عشرون وإليك المثال التوضيحي:

$$bx = c \rightarrow x = \frac{c}{b} \quad \text{يعني} \quad 5x = 20 \rightarrow x = \frac{20}{5} \rightarrow x = 4$$

فصل:

23- وَأَعْلَمُ هَذَاكَ رَبُّنَا أَنَّ الْعَدَدَ فِي أَوَّلِ الْمَرْكَبَاتِ يَنْفَرِدُ

24- وَوَحَدُوا أَيْضًا جُذُورَ الثَّانِيَةِ وَأَفْرَدُوا أَمْوَالَهُمْ فِي الثَّانِيَةِ

الشرح: يقول فيها "هذه الثلاثة المركبة أولها الرابع¹ وينتقل إلى بيان المعادلات المركبة وترتيبها يقع أن الرابعة من المعادلات هي المعادلة المركبة الأولى، الخامسة هي الثانية والسادسة هي الثالثة، فالرابع ينفرد به العدد كما قال، وهو أموال وأشياء تعدل

$$ax^2 + bx = c \quad \text{عدداً أي:}$$

وقوله "ووجدوا أيضاً جذور الثانية" أي المعادلة الخامسة في ترتيب المعادلات، لأن الثانية من المركبات هي الحالة الخامسة من ستة حالات لدينا، والخامس ينفرد فيه الجذر وهو أموال وعدد يعدل جذورا أي:

$$ax^2 + c = bx$$

وقوله "وأفردوا أموالهم في الثانية" يعني الحالة السادسة من المعادلات الثالثة من المركبات وينفرد فيه المال وهو أموال تعدل أجزاراً وعدد أي: $ax^2 = bx + c$ بهذا يكون قد أتى على الضروب الستة، وحاصلها أن الأولى أموالاً تعدل جذوراً، والثاني أموالاً تعدل عدداً والثالث جذوراً تعدل عدداً، والرابع ينفرد فيه العدد، والخامس ينفرد فيه الجذر والسادس ينفرد فيه المال².

¹ المرجع نفسه، ص 184

² المرجع نفسه، ص 185.

25- فَرُبُّعُ النَّصْفِ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَالْحَمْلُ عَلَى الْأَعْدَادِ بِإِعْتِنَاءٍ

26- وَخُذْ مِنَ الَّذِي تَنَاهَى جِذْرَهُ ثُمَّ انْقِصْ التَّنْصِيفَ وَافْهَمْ سِرَّهُ

27- فَمَا بَقِيَ فَذَلِكَ جِذْرُ الْمَالِ وَهَذِهِ رَابِعَةُ الْأَحْوَالِ

الشرح: بعد بيان صورة الضروب المركبة وهي الحالات الثلاث التي مرّت معنا، انتقل إلى بيان قوانين عملها، وبدأ بالحالة الرابعة التي ينفرد فيها العدد أي: $ax^2 + bx = c$ ، فقال: "إن القانون في عمله أن تربع نصف الأشياء أي الجذور" وتربيع الجذور يكون بضرب نصف عددها في نفسه، واحمل على الخارج الأعداد المفروضة وهذا مراد البيت الأول¹ أي:

$$ax^2 + bx = c \rightarrow x = \sqrt{\left(\frac{b}{2}\right)^2 + c} - \frac{b}{2}$$

وقوله "وخذ من الذي تناهى جذره" أي الذي انتهى إليه المجموع فخذ جذره "ثم انقص التنصيف" أي انقص نصف الأشياء الذي أخذت من هذا الجذر الخارج، "فافهم سره" أي أفهم سرّ هذا العمل، فما بقي فهو جذر المال وهذا معنى قوله "فما بقي فذاك جذر المال"، وإذا عرف الجذر عُرف المال بضرب الجذر في مثله فإن أخذته مع عدّة أجزائه المفروضة عادل الخارج جملة العدد المفروض، وهذا معنى قوله: "وهذه رابعة الأحوال" ومثال ذلك مال وعشرة أشياء تعدل تسع وثلاثين وصورتها $10x^2 + 39x = 39$ أي:

$$x^2 + 10x = 39$$

فهذا يعني أي مال مع عشرة أشياء يساوي تسعة وثلاثين يكون الحاصل أربعة وستون، وجذرها ثمانية، فنأخذ منها التنصيف وهو خمسة فيبقى لدينا ثلاثة وهي جذر المال أي:

$$x^2 + 10x = 39 \rightarrow x^2 = \left(\frac{10}{2}\right) + 39 = 64 \rightarrow x = \sqrt{64} = 8$$

¹ المرجع نفسه، ص 184

$$3 = \frac{10}{2} - 8، \text{ والعدد ثلاثة هو جذر المال.}$$

الأعمال الفلكية:

إن مصنفات "ابن قنفذ" في مجال علم الفلك تعد رصيда معرفيا كبيرا لكنها لم تر النور بعد فمنها من لا يزال في خزائن المخطوطات في كل من الجزائر، والمغرب خصوصا وأخرى مفقودة، إضافة أن معظم المصنفات هي شروح وملخصات لمؤلفات فلكية سابقة ومعاصرة لفترة "ابن قنفذ" وهذه الظاهرة كما أسلفنا سابقا ليست خاصة بعلم دون الآخر بل تقريبا في معظم العلوم ببلاد المغرب في القرن الثامن والتاسع الهجري، رغم ذلك لا ينقص من أهمية الإنتاج المعرفي الغزير لهذه الفترة.

إن الخلط القائم بين علم الفلك والتنجيم في المصنفات خلق عبئا في تطور علم الفلك، فالسلطة الدينية تعتبر التنجيم مروقا وخروجا عن الدين، و"ابن خلدون" ينكره جملة وتفصيلا لاعتبارات دينية مرتبطة بعلم الغيب، وخلال العصر المريني نرى اشتغال بعض العلماء والوزراء به حيث كان موضوع التنجيم¹ مطروحا بقوة، إلا أنه رغم ما كتب فيه من المؤلفات والشروح لم يرق إلى مستوى علم الفلك الذي تطور كثيرا في العصر الوسيط، وفي هذا المبحث أوردت مؤلفات "ابن قنفذ" في الفلك والتنجيم لارتباط أحدهما بالآخر.

1) سراج الثقات في علم الأوقات: ورد ذكره في مخطوطات الرباط وهو مخطوط بالمكتبة القومية بتونس رقم 4620².

¹ - انظر الملاحق، ص 32

² - الفارسية، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقدم وتح: محمد النيفر، عبد المجيد التركي، تونس، الدار

التونسية، 1968، ص 78

(4) لتفذية في إبطال الدلالة الفلكية: وتشبه في غرضها شرح رجز ابن أبي الرجال،
ولا يذكرها "ابن قنفذ" في ثبته.

(5) تسهيل العبارة في تعديل السيارة، قال عنه "ابن قنفذ": "اشتمل على أربعين بابا
في ابن فصلاً".

(6) تيسير المطالب في تعديل الكواكب، وقال عنه مؤلفه: "ولم يهتد أحد من
المتقدمين لمثله"²، وهو مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 512 ب2.

(7) تحصيل المناقب وتكميل المآرب، وهو شرح لكتاب "تيسير المطالب في تعديل
الكواكب" مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 512 ب³

(8) وقاية الموقت ونهاية المنكت، وهو أيضا من الكتب المفقودة ولا نملك عنه
معلومات تلم بمضمون الكتاب.

(9) شرح رجز الدلالة الكلية عن الحركات الفلكية، تهمم بالتنجيم نظمها "علي بن أبي
الرجال" وشرحها "ابن قنفذ" سنة 1343/هـ744م، بعث بها إلى أحد الوزراء الزيانيين.

(10) شرح رجز ابن أبي الرجال.

المسماة: المنظومة الحسائية في القضايا النجومية لأبي الحسن علي بن أبي الرجال
التبرواني⁴، واشتملت أرجوزة "ابن أبي الرجال" على 467 بيتا موزونة على بحر الرجز
وكما أسلفنا هو بحر من البحور الشعرية المشهورة عند العرب. لهذا المخطوط ثلاث

¹ شرف الطالبي، ص238.

² مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 512 ب 2 (أي 266 مكرر) وهو في مجموع من ورقة 48 إلى 54
وبالجملة 28 سطرا وحجمه 28*20،5 نقلا عن الفارسية، ص71 وآخر بالخزانة الملكية بالرباط كذلك،
وهناك نسخة بالمكتبة الصيحية بسلا، تحت رقم (2/11,507/6,359/1,216/163) نقلا عن شرف
الطالب، ص42.

³ الفارسية، ص71.

⁴ شرف الطالب، ص42.

نسخ بالمغرب، الأولى: نسخة منه بالحزنة العامة بالرباط رقم 466 تحوي 79 ورقة، ونسخة أخرى رقم 467¹ والثالثة بالمكتبة الصبيحية بمدينة سلا المغربية تحت رقم: (6/216، 1/163، 2/507، 11/359، 2)²، وأخرى بتونس: المكتبة القومية بتونس رقم 482 ورقمها 286³، وهناك مخطوط خزنة المكتبة الأحمدية بتونس ورقمها 5604، ونسخة ثانية رقم 5605⁴ ومخطوط آخر "يريل بليدن"، وقد عمل على تحقيقه في الآونة الأخيرة الباحث الإسباني "مارك أوليفيراس" (Marc Oliveras)⁵، ونشر التحقيق بمنشورات جامعة "برشلونة" في إسبانيا سنة 2012.

اشتمل شرح "ابن قنفذ" على بيان الأقوال التي تضمنتها أرجوزة "ابن أبي الرجال" حيث صنفها الشارح "ابن قنفذ" إلى واحد وستون قولاً، فكان "ابن قنفذ" في كل قول من هذه الأقوال يعرض آيات الفصل المناسب ويعطي لذلك شرحاً وهذه الأقوال هي:

- أولاً: البدء بحمد الله والصلاة على نبيه، استهلها الناظم كمقدمة في بداية نظم الأرجوزة. [ص4].

- ثانياً: الكواكب والفلك، وذكر فيها زحل والمريخ، الإقبال والإدبار، اتصال العرض، دفع الطبيعة، دفع الطبيعتين، دفع القوة، الاعتراض، القوت، وقد جاء النظم الذي يخص موضوع الفلك في الأرجوزة في أكثر من موضع بدءاً بالقول الأول الذي أعطى فيه أسماء الكواكب السيارة كعطارد وزحل والمريخ وأسماء الأبراج، ولعل الملاحظ أن الأرجوزة بشكل عام تعالج مسائل وقضايا منتشرة في عادات الناس

¹ Evariste Lévi-Provençal «*les manuscrits arabes de Rabat*» Paris, Editions Ernest Leroux, Tome 8, 1921, p.188.

² - شرف الطالب، ص 42.

³ - الفارسية، ص 73.

⁴ - ابن قنفذ، المصدر نفسه، ص 73.

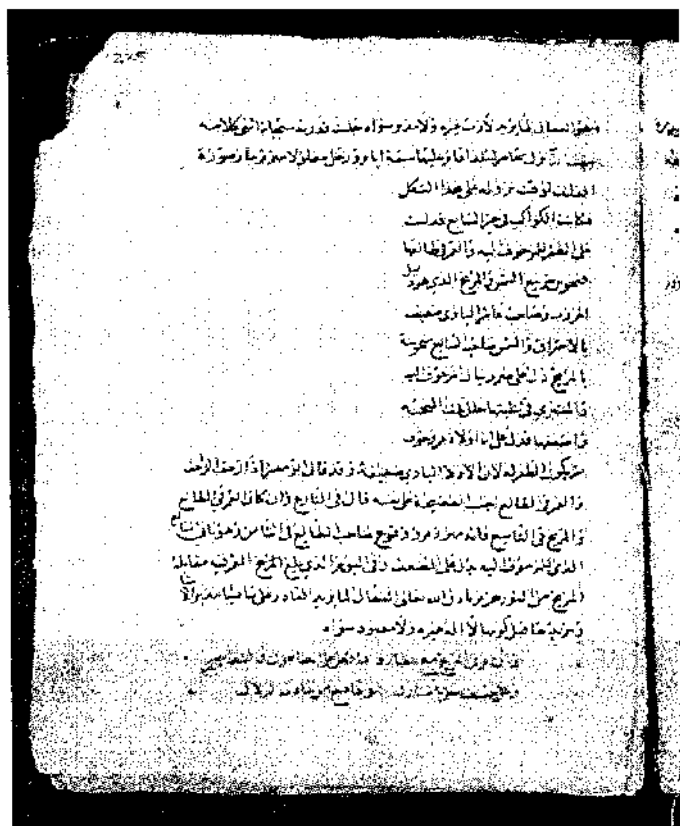
⁵ - التحقيق تحت عنوان: Comentario de Ibn Qunfūḡ al-Qusaṡṡīnī a la Urūza astrológica de 'Abī h. Abī l-Riyāl, Publicacions de la Universitat de celona, 2012

وتربطها بحركة الأفلاك والظواهر الكونية التي تحدث في الفضاء الخارجي من الأرض وهذا هو التنجيم. [صفحة 5-19].

- ثالثا القول في: المبتدأ [صفحة 19-22].

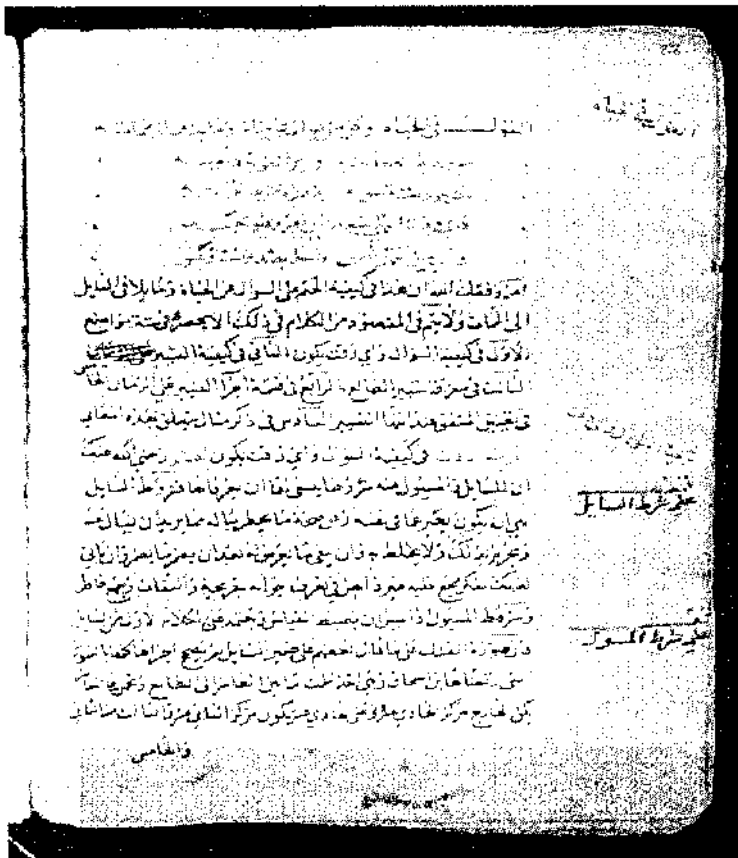
- رابعا: القول في الحياة وسأعرض بعضا من نظم "ابن أبي الرجال" وشارحه "ابن قنفذ" من خلال مخطوط حصلت عليه، ويجد في المخطوط متن الأرجوزة مبین بلون برتقالي داكن وشرح "ابن قنفذ" مبین بلون أسود، ثم حاولت إعادة كتابتها من المخطوط كون الخط واضح عدا كونه صغير الحجم. [صفحة 22-27].

أ- الحالة الأولى:



- 1- وَإِنْ تَرَى الْمَرِيخَ مَعَ عَطَارِدِ قَاطِضٍ عَلَى الطَّاعُونِ مَعَ الشَّدَائِدِ
- 2- وَكُلُّ حَسَنٍ خَلَّ بِالْمَنَازِلِ أَوْ قَاطِطٍ مِنْ خَادِثِ السَّرَّالِ

الحالة الثانية: اخترت باب القول في الحياة والذي شرحه "ابن قنفذ" في مواضع ستة اقتصرت على موضعها الأول فقط.



[ص 22] [نسخة ز ورقة 13 ط]

المقابلة: القول في الحياة وكل من يسأل عن حياته وما يلاقه إلى مماته

- 1- وَكُلُّ مَنْ يَسْأَلُ عَنْ حَيَاتِهِ وَوِلَاقِيهِ إِلَى مَمَاتِهِ
- 2- سَيَّرَ لَهُ طَالِعَهُ وَكُوكِبَهُ
- 3- بِكُلِّ حُزْبٍ سَنَةَ سَوِيَّتِهِ
- 4- فَأَيُّ وَقْتٍ انْتَهَى لِسَعْدِهِ
- 5- وَأَيُّ حِينٍ انْتَهَى لِتَحْسِنِهِ

[اعلم وفقك الله أن هذا في كيفية الحكم على سؤال عن الحياة وما يلقي السائل من المسائل ولا يتم المقصود من الكلام في ذلك إلا بمحصره في ستة مواضع الأول في كيفية السؤال وأي وقت يكون الثاني في كيفية التسيير الثالث في معرفة تسيير الطالع الرابع في قسمة أجزاء التسيير على الزمان الخامس في تعيين المتفق عند انتهاء التسيير السادس في ذكر مثال يتعلق بهذه المعاني].

[الموضع الأول في كيفية السؤال وأي وقت].


[اعلم رضي الله عنك أن للسائل والمسؤول عنه شروطا ينبغي لها أن يعرفها فشروط السائل هي أن يكون يعبر عما نفسه وعن صحة ما يخاطر بباله مما يريد أن يسأل عنه ويجزم بذلك ولا يختلط به ويلفق ما يعرض له بعد أن يضم ما يضم وأن يأتي لسالك بفكر مجمع عليه غير زاهد في تعرف جوابه بقريحة والتفات وجمع خاطر ومشروط المسؤول إذا سئل أن يضبط القياس ويعتمد على الكلام الأول من السائل فإن حيرة الفلك على مقال بعضهم على ضمير السائل ثم يصح أجزاءها كلها بالتسوية التي ارتضاها ابن إسحاق وهي أخذ ما من العاشر إلى الطالع ويحمله على العاشر يكون الخارج مركز الحادي عشر وعلى الحادي عشر يكون مركز الثاني عشر الثالث منه الثاني]، ثم يستأنف الشارح في بيان الأقوال التي تضمنتها الأرحوزة في تاسعها كالاتي:

- تقول في السائل: [صفحة 27-30]- استجابة: [صفحة 30-33]- فيقول: [صفحة 33-34]- الأحمدة: [صفحة 34-36]- القول على الآباء والأولاد: [صفحة 36-42]- على الأولاد: [صفحة 42-44]- على الخمل: [صفحة 44-47]- الأختيار: [صفحة 47-50]- الكتب والإرسال: [صفحة 50-52]- أمر المرتضى وما يتعلق به: [صفحة 52-56]- المماليك وحالمهم: [صفحة 56-57]- المسحور وما يتعلق به: [صفحة 57-58]- المتزوج: [صفحة 58-60]- الخصوم والحرب: [صفحة 60-62]- التوكفة: [صفحة 62-66]- السرقة: [صفحة 66-71]- الأبق والعنائة: [صفحة 71-72]- الغائب: [صفحة 72-74]- السفر: [صفحة 74-76]- المسجون: [صفحة 76-79]- الخائف والطريد: [صفحة 79-80]- ولاية العمال: [صفحة 80-100]- طلب خدمة السلطان: [صفحة 100-102]- الأصدقاء والحوائج: [صفحة 102-104]- الأعداء: [صفحة 104-106]- الدواب: [صفحة 106-107]- الاختيارات: [صفحة 107-107]- عقد اللوى: [صفحة 111-112]- حل اللوى: [صفحة 112]- رضع الطفل: [صفحة 112-113]- فطام الطفل: [صفحة 113-113]- تقليم الأظفار: [صفحة 113]- تقصيص الشعر: [صفحة 113-114]- دخول الحمام وما يتعلق به: [صفحة 114-115]- الختان: [صفحة 115]- الثياب الجديدة: [صفحة 115-116]- الثعلة- السلف والوديعة: [صفحة 116-117]- بناء الدور: [صفحة 117-118]- غرس الشجر: [صفحة 118-119]- هدم البناء: [صفحة 119]- طلب الولد: [صفحة 119-200]- تعليم الولد: [صفحة 200]- علاج العين: [صفحة 200-201]- إخراج الدم: [صفحة 201-202]- أخذ المسهل: [صفحة 202-203]- أخذ الدواء المسك: [صفحة 203]- شر العبيد: [صفحة 203-204]- طلب الذهاب: [صفحة 204-205]- الامتلاك: [صفحة 205-206]- في

الأبنيا¹ (بنا الزوجة) [صفحة 206]-[الأسفار: [صفحة 206 - 209]-المستتر إلى السلطان طلب الحوائج: [صفحة 209-211]-العصيد: [صفحة 211-212] وأخيراً فصل في تحويل المعانم": [212 - 224 صفحة] وبشكل عام هذا الفصل له علاقة بعلم الفلك من عدة أوجه فهو يعرض إلى بيان الأقاليم على الأرض، ويختص كل إقليم مع ما يجمعه من الأرض وبكوكب من الكواكب السبعة، فالإقليم الأول لزحل وله من البلاد غانة وعدن والصين والسند والهند، والإقليم الثاني للمشتري وله من البلاد الطائف والبحرين إلى غاية الإقليم السابع وهو للقمر، ثم يعرض في شرحه إلى بيان البروج كالدلو والحمل مثلاً وارتباطها بمنازل الكواكب السيارة السبعة، ينتقل بعد ذلك إلى بيان الكواكب العلوية، وهي زحل والمريخ والمشتري وعلاقتها بالأبراج.

كنتيجة أصل إليها من خلال هذا الشرح أنّ رجز ابن أبي الرجال جاء أساساً في علم التنجيم، لكن حمل بعض الإشارات في علم الفلك من حركات الكواكب وبيان العلوية منها ومعرفة منازل الشمس والقمر، فالمستقصي لدراسة الفلك من خلال رجز "ابن أبي الرجال" يجد ما يختص بعلم الفلك بين ثنايا كلامه عن البروج وعلاقتها بالكواكب، والأمر لا يدعو إلى الغرابة إذا نظرنا إلى ظروف تلك الحقبة من الزمن التي كانت فيها العلوم متداخلة -العصر الزيري الذي نظم فيه "ابن أبي الرجال" هذه الأرحوزة والشرح في العصر الحفصي وهو عصر الشارح "ابن قنفذ"- وليس كما هو شأن العلوم اليوم.

¹ - هكذا جاءت في الصفحة 206 من المخطوط الذي عملت عليه.



أقوال عن قسطنطينة
وأعلامها

أقوال عن قسنطينة وأعلامها

- "تم تسمير من مدينة تجمس إلى مدينة قسنطينة، وهي مدينة أولية كبيرة، أهلة ذات حصانة ومنعة، ليس يعرف أحصن منها وهي على ثلاثة أنهار عظام، تجرى فيها السفن... وتقع هذه الأنهار في خندق بعيد القعر، متناهي البعد، قد عقد في أسفله قنطرة على أربع حنايا، ثم بني عليها قنطرة ثانية، ثم على الثانية قنطرة ثالثة من ثلاث حنايا، ثم بني فوقهن بيت ساوى حافتي الخندق، يعبر عليه إلى المدينة، ويظهر الماء في قعر هذا الوادي الكوكب الصغير... ويسكن قسنطينة قبائل شتى من أهل ميلة ونفزاوة وقسطيلية وهي لقبائل كتامة، وبها أسواق جامعة..."

البكري (ت 487هـ/1084م)، المسالك والممالك

- "ومدينة القسنطينة عامرة وبها أسواق وتجار وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب وتشارك في الحرث والادخار... وهذه المدينة أعني القسنطينة يحيط بها الوادي من جميع جهاتها كالعقد مستديرا بما وليس للمدينة من داخلها سور يعلو أكثر من نصف قامة إلا من جهة باب ميلة وللمدينة بنايات لأن علوها يشق على مائة ذراع بالذراع الرشاشي وهي من بناء الروم... وفي كل دار منها مطمورتان وثلاث وأربع منقورة في الحجر ولذلك تبقى بها الخنطة لبرودتها واعتدال هوائها..."

الشريف الإدريسي (ألف كتابه في سنة 548 هـ/1153م)،

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

ذكرى وفاتك إحياء لأعمال
دينا ودنيا بفكر منك جوال
محمد العيد آل خليفة.

- إن معجزة الحياة في الجزائر بدأت بصوت الشيخ عبد الحميد بن باديس وندائه الذي أيقظ المعنى، وحول مناجاة الفرد حديث.

مالك بن نبي.

ووادي الهوى والهوى بسرنا يزكي مسيد الهوى خلفها
تهد هذه النسمات كأ م تهدد طوع الكرى طفلها

مفدي زكريا: إلباظة الجزائر.

قسطنطينة اهتزي سرورا وغبطة بأنك ثغر للصناديد يُشعر
وأنتك منحى للمكـارم ينتحى وأنتك دار للعلوم تُديرُ
وانك مجلى للطبيعة يُجتلى ومنظرة منها الى الكون يُنظر
نساتك ربحان وتربك فضة وصحرك مرجان وماؤك كوثر
على طودك الأسمى قناطر ضخمة بها يقطع الوادي إليك ويُعبّر

محمد العيد آل خليفة

- "...ولقد عرفت قسنطينة خلال تاريخها الطويل عدة مرييات بشرية وحضارات إنسانية، أخذت منها أحسن ما فيها واحتفظت بتراتها، فكان ذلك سر خلودها وسبب عظمتها في أعين الأمم الغابرة. ولا أكون مبالغا في وصفها إذا قلت عنها إنها كانت ومازالت مبعث النهضة، ومهد الحضارات والبطولات وموطن الحركات العلمية، ومأوى الأحرار ذوي الشجاعة والعبقرية زيادة عما لها من الجمال الطبيعي، وحسن الموقع ووفرة المعالم الأثرية، والمزارات التاريخية والمواقع السياحية، وآيات الحضارة المحفوظة إلى اليوم في المتاحف، وكلها شواهد صادقة بما لهذه الحاضرة الجميلة من ماض مجيد، وشرف طارف وتليد".

محمد المهدي بن علي شعيب

أم الحواضر في الماضي والحاضر.

- عجائب قسنطينة ثلاث: قنطرة في العلو تهول (يقصد قنطرة سيدي مسيد أو الخبال)، وأخرى القوة والطول (قنطرة سيدي راشد)، وعالم في المعقول والمنقول. (يقصد الإمام عبد الحميد ابن باديس).

الشيخ محمد الطاهر بن حمدان الونيسي

- "لا تتكلم عن المدن المثيرة للإعجاب ما دمت لم تر قسنطينة وهي مشدودة إلى جانبي وادي الرمال بين جسر سيدي راشد الحجري الغملاق والجسر الضيق الممتد على الهوة المثيرة للدوار، محاطة بالمرتفعات الخضراء... قسنطينة أشبه ما تكون ببناء أنشأه فنان غلى بطاقة بريدية"

الرحالة الفرنسي Louis Bertrand في زيارته لمدينة قسنطينة سنة 1933

من كتابه "افريقيا"

- "السماء لا تكون زرقاء إلا في قسنطينة"

مالك حداد

الفهرس

- 005 * كلمة السيد مدير الجامعة الدكتور السعيد دراجي
- 007 * تقدم السيد نائب مدير الجامعة للسيد اغوجيا الأستاذ عزيز حداد
- من أعلام قسنطينة في الشريعة
- * فقهاء قسنطينة ونشاطهم العلمي في العهد العثماني
- 011 أ.د. كمال لدرع
- * العلامة عبد القادر الراشدي القسنطيني من خلال رسالته تحفة الإخوان في تحريم الدخان
- 035 أ.سعاد رباح
- * الشيخ عبد القادر الراشدي حياته ومؤلفاته
- 060 د.سعيدة بوقاغس
- * عبد الكريم الفكون القسنطيني - حياته وآثاره-
- 070 أ.د. بلقاسم شتوان
- * الإضاءات الفقهية لعلماء قسنطينة للمعيار المغرب للونشريسي
- 083 د. وسيلة شريط و أ. سفيان شيرة
- * محمود بن دالي عمر المعروف بالمفتي كحول
- 096 د. محمد السعيد قاصري - جامعة المسيلة
- من أعلام قسنطينة في اللغة والأدب
- * إسهام علماء قسنطينة في التأليف البلاغي العربي
- 115 د. مراد مزعاش
- * محمد الصالح خيشاش وقصيدة "المدينة المنبوعة"
- 134 أ.د. رابع طبحون

من أعلام قسنطينة في التاريخ

* ابن قنفذ القسنطيني ورحلته الزيارية في بلاد المغرب

د. بلقاسم فيلالى..... 158

* أحمد بن العطار (الشيخ الحاج أحمد بن المبارك)

د. أحلام بالعطار 184

* محمد المهدي شغيب حياته وأثاره

أ.د. إسماعيل سامعي..... 191

من أعلام قسنطينة في الدعوة والإصلاح والنضال

* الشيخ عبد الكريم الفكون - الإمام المريني والمصلح الديني والداعية السلفي -

أ. نبيل ربيع..... 202

* الشيخ صالح بن مهنا القسنطيني وآراؤه الإصلاحية

د. زكية منزل غرابية - د. زهرة لحلم 211

* صالح بن مهنا القسنطيني... مسيرة عالم

أ. سهيلة مازة..... 216

* إستراتيجية الإصلاح والتغيير في الفكر الباديسي

د. حنان بومالي..... 233

* محمد الصالح بن جلول وإسهاماته السياسية

د. نفيسة دويذة..... 250

* الشَّهيد أحمد بوشمال: حياته وجهوده الإصلاحية

د. محمد بوديان..... 264

* مفهوم الديمقراطية عند مالك ابن نبي

د. ليلي فيلالى..... 283

من علماء الإصلاح الذين نشطوا الحركة التعليمية بعسالة قسنطينة

310 د. لوصيف فوزية

* الشهيد زيغود يوسف: مواقف، قيم وعبر

345 د. أحسن تليلان

من أعلام قسنطينة في علوم أخرى

* إسهامات ابن قنفذ القسنطيني الرياضية والفلكية

374 محمود جلودي

أقوال عن قسنطينة وأعلامها

398 * أقوال عن قسنطينة وأعلامها

401 * الفهرس